فلسطين في مذكرات القاوقجي

الجزء الثاني

اعداد: الدكتورة خيرية قاسمية



منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث
و دار القدس

الطبعة الاولى
ايار (مايو) ١٩٧٥

فهرست

مقدّمة

لقد كان واضحا في أذهان راسمي المخطط الصهيوني الاستعماري ان ميدان فلسطين لم يكن سوى مركز لتجمع قوى عالمية هدفها الانطلاق والتوسع في احتلال الاراضي على مراحل مقررة وموقوتة ، لانشاء دولة كبرى تكون بلا حدود وبدون عرب على حساب الوجود العربي ، لذا ومع ان قضية فلسطين قد وقعت على كاهل الشعب الفلسطيني ، الا ان الامة العربية بأجمعها كانت على استعداد للمشاركة بنصيبها في المعركة المقدسة ، لادراكها الخطر الذي يهدد الجميع ، وتأكيدا للتلاحم العضوي في المصير المشترك .

كان فوزي القاوقجي واحدا من ابناء هذه الامة الذين ظهروا في الوطن العربي في التاريخ المعاصر خلال الفترات المثيرة من انبعاث الشعور بالقومية والحربين العالميتين وما تخللهما من حركات تحررية ، وقد اعتلى مسرح الاحداث على صهوة جواد شاهرا السيف على غرار الفرسان في العصور الغابرة ، يقاتل في كل ارض عربية طغى عليها الاستعمار ، منذ ان وعى الفكرة العربية وهو لا يزال ضابطا في صفوف الجيش العثماني الى بداية الحرب الاولى ، ورغم ايمانه الصادق بوجوب منح العرب كيانا استقلاليا الا انه لم يتخلّ عن التزامه بالوحدة العثمانية . وبعد الحرب كيّف اهدافه وفقا للاوضاع الجديدة فخدم في صفوف اول جيش عربي نظامي . وفي معركة ميسلون ١٩٢٠ كان احد الامثلة النادرة حيث عاد ومعه ضباط طيران أسرى من الفرنسيين .

وتحت القناع الواقي وهو المركز الرفيع الذي كان يشغله في الجيش الفرنسي بعد الاحتلال ، كان اعلانه لثورة حماة التاريخية ١٩٢٥ قد ضمن اشتراك فئات الشعب السوري كله من حضره وباديته ، وكان لهذه الثورة الفضل في عدم تمكن المستعمِر من القضاء على ثورة جبل الدروز وجعلها ثورة عامة تشمل معظم البقاع

السورية ، وقاد الثورة ما يقارب ثلاث سنوات بنجاح ، بصفته قائدا عاما للغوطة ولشمال سورية ، وكبّد الفرنسيين خسائر كبيرة مادية وكان آخر من ترك ميادين الثورة عام ١٩٢٧ .

وظل مشردا عن سورية حتى عام ١٩٤٧ ، فأقام في المملكة العربية السعودية بضع سنوات اتيحت له فرصة المشاركة في بناء القوات العسكرية الحديثة ، وعاد الى بغداد عام ١٩٣٢ ليصبح معلما للفروسية واستاذا لتدريس الطوبوغرافيا في الكلية العسكرية في بغداد ، وكان يحمل رتبة رئيس خيالة في الجيش العراقي .

وفي اواسط حزيران ١٩٣٦ قاد حملة من المتطوعين عبرت بادية الشام في مغامرة بارعة لتنجد الثورة الكبرى في فلسطين ، مما انهك القوات البريطانية والجأها الى طلب الهدنة . وكان قبول الهدنة براي القاوقجي بداية كارثة ١٩٤٨ . وقبع من جديد في العراق يترقب طلبا عربيا جديدا ومغامرة اخرى ضد المستعمر، فقاد فريقا من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين في حرب العراق عام ١٩٤١ ضد بريطانيا ، فسجّل انتصارات لم يسجلها الجيش النظامي .

وظل بعيدا خلال سنوات الحرب ، حيث اضطرته الظروف ، مع فئات عربية اخرى ، الى اللجوء الى المعسكر الآخر في النزاع الدولي ، الا ان الامل بالحصول على مكاسب للقضية العربية في تلك الفترة لم يكتب له النجاح . وبعد انتهاء الحرب عاد من جديد الى الشرق العربي حيث كانت القضية الفلسطينية قد بلغت مرحلة خطيرة . فعهدت اليه جامعة الدول العربية عام ١٩٤٧ بقيادة فريق من قوات انقاذ فلسطين ، ضمن شروط فرضتها سياسة الحكومات العربية والزعامات العربية حينذاك ، رغم تقديره ما ينتظره من صعوبات ومشاكل رافقت ولادة جيش الانقاذ ، حتى تم دخول الجيوش العربية فزادت حدة المصاعب والخلافات . ورغم وجود الهدنة رسميا ظلت المعارك تدور على جميع مراكز جيش الانقاذ في ظروف حرجة وخطرة ، وكان على استعداد للنجدة مرارا وبنجاح في غالب الاحيان .

وبعد نهاية المرحلة الاخيرة والمؤلمة لحرب فلسطين قرر الانسحاب من على المسرح والعيش بهدوء في ما يشبه العزلة ، مظهرا عدم قدرته واستعداده اخضاع اهدافه للظروف والاوضاع القائمة . ومع ان عمله قد انتهى الا انه كان على استعداد ليبعث توجيهاته ويقدم النصح والارشاد لكل عسكري يتوسم فيه الخير للقضية العربية .

والمذكرات التي دوّنها القاوقجي على مراحل ، ليست بالمعنى الدقيق ترجمة لحياته ، بل مجموعة وقائع وخواطر وملاحظات ، اقتطعها من اختبارات طويلة وتجارب نضالية عميقة في موضوع القضية العربية عموما وقضية فلسطين

خصوصا . وهي تستند في مواضيعها وحوادثها على وثائق رسمية من تقارير وبرقيات ومراسلات وخرائط كان كل ما غنمه في الميدان الحربي وقدّمها بتواضع الى مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية لتكون في متناول الجهات العلمية التي تبغي الحقيقة .

في الجزء الاول من المذكرات (التي نشرتها دار القدس بتكليف من مركز الابحاث) يتناول القاوقجي احداث القضية العربية التي عايشها في الفترة ما بين ١٩١٢ — ١٩٣٢ . ويتابع القاوقجي ، في الجزء الثاني من مذكراته التي تنشر هنا تحت عنوان «فلسطين في مذكرات القاوقجي» ذكريات الكفاح العربي في فلسطين ونتائجه في الفترة ما بين ١٩٣٦ — ١٩٤٩ . وفي هذه المذكرات يظهر القاوقجي ايمانه بالشعب العربي وبطولاته وامجاده وانتصاراته . ويكشف بأمانة الى جانب التضحيات والبطولات اليد الخفية التي تسير السياسة والاخطاء التي يمكن ان يستوحى منها العبر والدروس . وهو يظهر ثقته بالشعب العربي وانه ما دخل حربا ضد الطغيان الاستعماري الا وانتصر ، الا انه عندما تحولت هذه الطاقات الى جيوش نظامية بقيادة اسماء ضخمة واسلحة حديثة خسرت معاركها ، وان تكرر المعارك بمثل هذه القيادات معناه تكرر الفشل . وبصراحة تبلغ حد الاتهام ، يظهر القاوقجي قلة اهتمام الزعامة لانها لم تعمل على الاستفادة من القوى المقاتلة .

وفي تدوينه لحوادث الجهاد العربي في فلسطين كان يشعر بالالم ، وهو على يقين ان من سيقراها سيتألم من موقف الزعماء عسكريين وسياسيين ، لانهم لم يكونوا على مستوى المعركة ، فهم لم يدخلوا المعركة وكانوا حقا ينوون القتال ، وهو يقصد بعض الزعماء لانهم لم يعملوا على انجاح القوات المتطوعة بل سعى بعضهم لاضعافها ، فالشعب العربي وحده كان يقاتل ، بينما قادته وزعماؤه يتقاتلون .

وكان القاوقجي لا يزال مبهوتا من وقع الكارثة حين كتب الجزء الاخير من مذكراته عن فلسطين عام ١٩٥٠ ، وبمرارة بلغت اقصى حدها يقول: «لم يعرف التاريخ ارضا غالية مقدسة ضاعت بأرخص مما ضاعت فلسطين» . كان يشعر ان في الكارثة لغزا بعد ما كانت عليه الجيوش من العدد والمعدات وما كانت عليه الصهيونية من ضعف ، ويدلل على ذلك بقوله : «لو كان لليهود تلك القوة الهائلة او لو ان الجيوش قاتلت ما وسعها القتال فعلا ثم خرجت محطّمة لهان الامر الغريب .. بل وخرج العرب وهم يتسابقون في استجداء هدنة دائمة على انفراد دون اي داع او باعث مبرر ، وزاد الامر بلاء ، كارثة اللجوء بالنزوح .. امر يستحيل تعليله الا بكلمة واحدة ، فقدان الرؤوس الكبيرة بين الكبار المسؤولين ، الكبيرة بالعقل والعقيدة والانفة والاخلاص» . وبرايه ان الهزائم والنكبات على اختلافها في الامم الحديثة تكون عبرة ودرسا وحافزا لخلق انتصارات جديدة وباعثا على انشاء نهضة جديدة و«حين تكون الكارثة درسا نستطيع القول ان فلسطين لم تذهب» .

والواقع انه يصعب تقييم الدور الذي لعبه القاوقجي ، وهي صعوبة تواجه كل دراسة تتناول دور الشخصيات في التاريخ ودراسة دوافعها وظروفها ومؤهلاتها واساليبها ومنجزاتها الرئيسية ومدى تأثيرها ، وقد شهدت التجربة العربية عددا من الشخصيات القيادية اتاحت لهم الاحداث فرص الظهور وان كان قليل منهم كانوا على مستوى الاحداث ليلعبوا ادوارا بنّاءة . والامر الاصعب هو عرض الصورة الحقيقية لرجل تضاربت حوله الروايات والآراء ، وخاصة انه قد اطلقت خلفه شتى الدعايات روّجها بعض السياسيين ، وكان ذلك امرا عاديا بالنسبة له كلما خرج من معركة وكسب سمعة ، وذلك بقصد اضاعة شخصيته والتقليل من اهمية عمله وتضحياته . وقد لا يمكن الخروج من مذكراته بتقييم مجرد للوقائع لان تجاربه واتصالاته ومعرفته الشخصية جعلته يتقبل آراء ذاتية ويصدر أحكاما قد لا تنجو من اللوم .

كل ما يمكن قوله ان القاوقجي ، كان يتحلى بالشجاعة والثقة ورباطة الجأش، الى حد اللامبالاة بالمخاطر . وفوق كل شيء تمتعه بعنصر المغامرة الذي لا تقف امامه عثرة ، بحيث كان يبدي استعدادا للاقدام على مجازفات وصفها البعض انها مجازفات تجاوزت الوعي والحكمة ، وهي مغامرة لم تكن نتاج انتهازية ، بل نتاج ايمانه بجدوى فعالية العمل ، اذ لو كان سياسيا انتهازيا ، لتمكن من بلوغ اعلى المراتب ، او لتمكن من ان يلعب دورا كبيرا في السياسة العربية ، او لحصل على منافع مادية ، وخاصة انه كان يتمتع بصفات خاصة كالشجاعة الادبية والقوة البدنية وتوقد الذكاء . ولكنه عجز عن التفاهم مع الآخرين فأحجموا عن التعاون معه واتهموه بأنه لم يكن يحسب حسابا للنتائج الخطرة المحتملة لمغامراته ، وانه كان يرى ان العنف هو الوسيلة الفعالة لتحويل الافكار الى افعال .

ومركز الابحاث ، الذي يسعده ان يحتفظ بكافة اوراق القاوقجي ، حين يتقدم لنشر هذه المذكرات انما يقدمها ضمن الجهود المبذولة في التحري عن الحقيقة واقتناصها من منابعها الموثوقة في تدوين حوادث القضية الفلسطينية وتطوراتها وما احاطها من ملابسات، بصيغة مجردة عن كل تحريف وبدون اعتبار للرغبات . وكانت نتاج جهد طويل ، بذل للتحقق من المذكرات ومقارنتها بمفكرات ويوميات قديمة ووثائق أصلية حفظت كاملة في قسم الوثائق، مع الاحاطة بملاحظات متفرقة عرضها صاحب المذكرات في مقابلات عديدة جرت في العام الماضي. والامل ان تكون فصول الكتاب بمجموعها مترابطة لعلها تلقي بعض الضوء على فهمنا لخفايا القضية الفلسطينية .

ويلفت المركز نظر القارىء الى انه ، على تقديره الشديد لهذه الوثائق ولاهميتها، لا يتحمل مسؤولية ما جاء في المذكرات من أفكار او اخبار او ملاحظات، شأنه في ذلك شأن كافة المذكرات والمنشورات الوثائقية التي سبق للمركز ان نشرها

في السنوات العشر الماضية ، لان صاحب المذكرات ، اية مذكرات ، هو وحده المسؤول عما تحتويه مذكراته من وقائع وآراء قد لا تتفق مع ما يحمله آخرون (من سياسيين ومن مؤرخين) من آراء وما يعتقدون انه وقائع تجاه أحداث واجراءات عامة حفل بها تاريخ فلسطين في السنوات الماضية . وينحصر دور مركز الابحاث، في هذا المجال ، بجمع المذكرات وتنسيقها وتبويبها وتحريرها ، ونشرها في هذا الكتاب ، دون تبنٍ كامل ، بالضرورة ، للمضمون .

د. خيرية قاسمية

الفصل الاول

الأحداث الكبرى في فلسطين[1]

١٩٣٦ — ١٩٣٧

لا ارى لزوما لشرح قضية فلسطين ، والتحدث عنها . اذ انها مع ما كتب عنها من التقارير العديدة ، والنشرات الكثيرة وغيرها ، لم يبق فيها خافية يجهلها حتى ابسط الطبقات في الامة العربية . وتتلخص هذه المأساة الفلسطينية بأن بريطانيا تحت ضغط عوامل الحرب العامة ، التي اصبحت حياة الانكليز فيها معرضة للخطر ، ضحكت على العرب بعهود قطعتها لهم ، في الوقت الذي صرحت لليهود بوعود اخرى . فتعهدت في الاولى ان تكون فلسطين عربية ووعدت اليهود في الثانية بوطن قومي لهم في فلسطين . فاستغلت بذلك دماء العرب، واستثمرت اموال اليهود واقلامهم لمصلحتها الخاصة . وحقيقة الامر ان بريطانيا تريد فلسطين لا عربية ولا صهيونية ، بل بريطانية محضة . وذلك بأن تكون القاعدة التي تسيطر منها على الجزيرة العربية ، وما يمر منها من الطرق المهمة الى الهند ، ولتجعل مصب بترول العراق في قلب هذه القاعدة الحصينة ، ولتجعل من حيفا والعقبة جناحين حصينين لقنال السويس ، ولتقيم في فلسطين مركزا حربيا منيعا ، يتعاون مع مركزها البحري في مصر ، لدرء الاخطار عن العمود الفقري في جسم الامبراطورية البريطانية ، فيصبح بذلك البحر الابيض والاحمر وجزيرة العرب كلها تحت نفوذ هذه المراكز المنيعة .

فتمسك العرب بعهود بريطانيا المقطوعة المستندة على شرفها ، وتمسك اليهود

---

(١) دوّنت مادة هذا الفصل في منفاي بكركوك بين كانون ثاني — تموز ١٩٣٧ .

بوعود بريطانيا كذلك . اصطدمت العرب واليهود بالسياسة البريطانية في فلسطين فأصبحت منذ السنة الاولى التي تلت الحرب مسرحا ، تقع فيه الضحايا مع مطلع كل شمس وتحولت الاراضي الفلسطينية المقدسة ، والتي عرفت طيلة الحكم العثماني بالوداعة والسكينة ، بركانا يتلظى بنيران الثورات والقلاقل ، وبحيرة من الدماء البريئة بفضل سياسة بريطانيا الخرقاء .

اما الشعب الفلسطيني الواثق من مشروعية قضيته ، فقد كان معلقا كل آماله وواضعا كل ثقته في عدل بريطانيا وشرفها ، مما حدا به ان يستنكر ، باحتجاجات واحيانا بلسان وفود يرسلها الى لندن ، السياسة البريطانية في فلسطين . ولكن لم تثمر هذه المحاولات . وتمادت بريطانيا بتمهيدها الطغيان الصهيوني الدولي بقوة الحراب من جهة ، وقوانين تسنها من جهة اخرى ، تكبل بها العرب وتلجئهم الى بيع الاراضي . فاضطر الفلسطينيون الى الدفاع عن حوزتهم المقدسة ، وعن حياتهم بثورات قاموا بها حينا بعد حين ، حتى بلغ مجموعها سبع ثورات ، سفكوا خلالها الدماء الزكية البريئة ، وتكبدت البلاد من جرائها الخسارات الفادحة بالاموال والانفس . يكفي هذا لاعلان فشل السياسة البريطانية ، وعدم امكان تنفيذ سياسة الوطن القومي الصهيوني في فلسطين . ولكن تغابى الانكليز ، وامعنوا في الارهاق ، وامتلأت نفوسهم غرورا ، فازدادوا طغيانا حتى اصبحت هذه البلاد ، التي لم يحدث فيها خلال الحكم العثماني كله حادثة اضطراب واحدة ، بالرغم من بسالة وشجاعة اهلها ، بحيرة من دماء . وهم الذين فرحوا بالعهد البريطاني الجديد مؤملين منه تأمين الاستقلال والحرية والرفاهية عن يد الحليفة البريطانية . فاضحوا يترحمون على العهد العثماني الزائل ، ويتمنونه من جديد . وكانت بريطانيا ترسل لجان التحقيق ، تحقق في كل ثورة او اضطراب يضطر اليها العرب . وتنتج هذه مئات القتلى والجرحى ، والوف المساجين . ومن المحقق ان جميع تقارير هذه اللجان كانت تبيّن الاجحاف والظلم اللاحقين بالعرب ، وتقدم النصائح للحكومات البريطانية بلزوم انصاف العرب حسب العهود التي قُطعت لهم . كما انها تبين ان الوطن القومي الصهيوني لن يتم الا بقوة السلاح . ولكن كانت تذهب جميع هذه التقارير سدى ، كما تذهب جهود العرب . اما الاقطار العربية فلم تكن تظهر اهتمامها كما يجب بقضية فلسطين ، خلا مظاهرات وبعض احتجاجات تقوم هنا وهناك . اذ بينما كانت الصهيونية تستخدم جيش بريطانيا في فلسطين ، ورجالات الادارة فيها تسمح لجلب المهاجرين من اليهود بصورة شرعية وغير شرعية ، اضعاف ما هو مقرر ، ويستوردون الاسلحة سرا وعلانية . كما انها كانت تعمل على نيل عطف اليهود في العالم ، مستفيدة بأموالهم ونفوذهم لتأمين الوطن القومي . وتجعل بذلك قضية فلسطين قضية جهود عالمية ، كان العرب لا يبدون اي تعبير ، فنجد والحجاز كانتا واقفتين الموقف الحيادي من فلسطين ، والعراق لبعده كان يكتفي بالاحتجاجات

في الصحف ، وببعض المساعدات المالية الطفيفة تقدمها لها . اما سورية ، التي اصيبت ببلاء لا يقل خطورة عن مصاب اختها فلسطين ، فكانت لا تستطيع اكثر من بعض المظاهرات التي يقع فيها احيانا عدد من القتلى والجرحى، والاحتجاجات. وشرقي الاردن كانت دوما حصنا منيعا لعزل فلسطين عن سائر العالم العربي ، وتحرسها تحت اشراف وقيادة الساسة والضباط البريطانيين ، الذين بيدهم وحدهم كل مقدرات شرقي الاردن . وكان هذا الموقف العام يجعل فكرة المقاومة المسلحة مستحيلا . حتى التحدث بها كان في نظر رجالاتنا المفكرين (جنون) . والموقف نفسه هو الذي جعل الانكليز والصهيونية يعتقدون ان لا معارض يعترض تنفيذ سياستهم في البلاد . بل دفعهم هذا الى الاسراع في اقامة الوطن القومي الصهيوني قبل حلول الوقت المقرر عندهم . فاستخف الانكليز بحلول العرب ، وتناسوا تاريخهم ، حتى اصبحوا لا يرون اي محذور في اطاعة الصهيونية، وتنفيذ مآربها على اعين العرب كافة . توالت الفجائع ، ودامت المصائب في فلسطين ، البلاد المقدسة العربية الاسلامية المسيحية ، واصبح الخطر على حياة العرب من حليفة العرب بريطانيا العظمى ، التي تعقد كل يوم محالفة جديدة مع هذه الاقطار العربية : العراق ــ الحجاز ــ مصر . ولقد طفح الكيل ، ولم يبق الا مغامرة يقوم بها رجل من العرب ، يزيل الاوهام ، ويحطم الحواجز التي عزلت فلسطين عن شقيقاتها ، ويرجع بريطانيا الى صوابها ، ويجعل من قضية فلسطين الموضعية قضية عربية عامة ، كما جعلها الصهيونيون قضية صهيونية عامة .

كانت قضية فلسطين تشغل فكري دوما ، وتقلق بالي . فاقترحت لاول مرة عام ١٩٢٩ ، وانا في الحجاز ، اعداد منهاج للدفاع المسلح عنها ، يكفل سلامة العرب فيها ويجعل لها في خارجها دعائم عربية قوية . طلبت لتنفيذ هذه الخطة ، ولكن حال دون تحقيقها طلب الانكليز لجنة فلسطينية للمفاوضة في لندن .

وكان قلقي يزداد بازدياد حوادث فلسطين ، وطغيان الصهيونية والانكليز فيها . فذهبت وانا ضابط في الجيش العراقي مأذونا الى فلسطين عام ١٩٣٤ ، واقترحت خطة واسعة النطاق نسعى لاعدادها ، على ان تنفذ عند الحاجة . وتم الاتفاق على كل شيء . ولكن مع الاسف لم يقدم احد على اعداد ما اتفقنا عليه . فسافرت الى القدس مرة ثانية في عام ١٩٣٥ . وكانت يومئذ حالة سورية تدعو الى القلق الشديد من اعمال الفرنسيين فيها ، التي وصلت الى حد لا تطاق معه الحياة . فوضعت خطتين لثورتين في سورية وفي فلسطين على ان تنفذ الواحدة تلو الاخرى ، وعلى ان نتجنب اي حادث يجعلنا نجابه الدولتين في آن واحد . وكان المقرر ان نبدأ بسورية اولا ، لاسباب كثيرة . حتى اذا انتهينا من مشروع سورية وبقيت حيا ، اتخذنا منها قاعدة لتنفيذ المشروع الثاني في فلسطين على شكل اقوى وأعم . وكان لهذا المشروع ادوار ، اشرع بالدور التمهيدي منه وانا

في بغداد . فعدت اليها ، وشرعت في اعداد الدور التمهيدي ، وتقدمت فيه تقدما محسوسا وبنجاح تام دون ان نصادف ما يعكر علينا سير الخطة . وبينما انا في اعمالي التمهيدية هذه اقتضى سفري الى القدس مرة اخرى للتفاهم على بعض تفصيلات ضرورية . فذهبت اليها بنيسان ١٩٣٦ . فتم في هذه التفاهم على كل شيء ، وبصورة جدية . ونحن لا نزال على قرارنا الاول بترجيح سورية اولا ، حيث ان الاضراب في سورية قد بدأ ، وكان خير وسيلة نتذرع بها للثورة . ولم يكن احد مطلعا على هذه المقررات سوى خمسة اشخاص من سوري وفلسطيني .

اخذت اسارع في اعداد مشروع سورية مع تطور الحالة في دمشق . ولكن لم استقر في بغداد اياما ، حتى فاجأتني حوادث فلسطين في الشهر نفسه ، واخذت تتطور بسرعة ، فحاولت تحديد حوادث فلسطين ، لكي نتمكن من تنفيذ مشروع سورية . ولكن الحوادث التي استفحلت ، جرفت مجهودنا . ولم يعد بامكان اي رجل الحيلولة دون حوادث فلسطين او تجنبها . ومن حسن الحظ ان اضراب سورية الذي استفحل امره بعد ٥٤ يوما قد الجأ الافرنسيين الى طلب وفد للمفاوضة في باريس ، على اساس عقد معاهدة تضمن للسوريين امانيهم . فتوقف الاضراب . وكان الافرنسيون قد شعروا من جهة بترتيبات الثورة ، التي اخذت تعم شمالي سورية . ولم يكن موقفهم في اوروبة من جهة اخرى يسمح لهم بارسال الجيوش من جديد الى سورية لقمع ثورة تقوم فيها مجهولة العواقب. فقررنا عندئذ الالتفات الى تنفيذ خطة رقم ٢ ، وبدات بالاستعدادات اوائل شهر حزيران . وفي الواحد من شهر آب ١٩٣٦ كانت قوافل المجاهدين من العراق وجبل الدروز وجبل لبنان والشام وحمص وحماه في طريقها الى نقطة التجمع العام الاخيرة ، في ميدان الجهاد في فلسطين . وفي الخامس والعشرين من آب اطلقت اول عيارات نارية من هذه المفارز على الطائرات الانكليزية في جبل جريش واسقطت منها طائرتين .



كنت كثير الثقة ببسالة الشعب الفلسطيني ، وعلاوة على شهرته التاريخية التي يتمتع بها ، خاصة في مناطق نابلس وغزة والخليل ، كنت قد خبرت جنوده بالفعل ابان الحرب العامة وخلال الدولة الشريفية في سورية ، حيث كنت على رأس سرية من جنود فلسطين اتت باعمال باهرة . ولكن كانت تساورني بعض الشكوك من جهة اخرى لانقطاعهم عن التدريب العسكري منذ الحرب العامة . اذ لم يتح لهم تأليف جيش ، كما ان عدد ضباطهم كان قليلا جدا خلاف سورية والعراق . وكنت عالما اننا سوف نجابه جيشا انكليزيا حديثا بعدده واسلحته الميكانيكية . لذلك كان اول ما فكرت فيه ان اكوّن مفرزة من الجند النظامي ، تكون

نواة ومحورا للمعارك التي سنخوضها . كما اني لم اغفل عن ضرورة استخدام الثوار السوريين الذين رافقوني في الثورة السورية ، واختبرتهم في المعارك مع الجيش الافرنسي الميكانيكي . كما اني بدات عملي بالتحري وبقيد الجنود العراقيين الذين اتموا خدماتهم في الجيش وفي صفوفه المختلفة . وكان لا بد لي من وسطاء – اخفاء لأثري – ممن اعتمد عليهم في مثل هذه المهام ، ليقوم كل منهم في ناحيته الخاصة بالتفاهم والاتفاق مع من يكونون اهلا لهذه المهمة . وكان بطل هذه الصفحة **العريف ناجي** ، الذي كان فعالا في المدرسة العسكرية ، حيث كنت معلم الفروسية فيها .

بدات تأليف هذه المفرزة وتنظيمها تدريجيا طبق المرغوب . كما اني ارسلت اخي ظافر الى دمشق وعمان ، ليقوم بدوره هناك بتقديم التعليمات اللازمة للمفارز السورية ، لتأليفها وتنظيمها في مراكز سورية وشرقي الاردن ، وفي العراق ، طبق الخطة المرسومة . وبينما كانت اعدادات التجنيد تجري كان علينا استطلاع الطرق الواجب اتباعها ودرس الاراضي والترتيبات التي اتخذت من قبل حكومة شرقي الاردن والتي يشرف عليها (ابو حنيك) تجاه الحدود السورية والعراقية والنجدية ، وعدد الدوريات وانواعها (سيارات مسلحة ، الهجّانة والخيالة والطائرات) وقواتها واوقات حركاتها . ودرس ما اتخذ من ترتيبات على ضفتي نهر الاردن كذلك ، وعلى حدود فلسطين الشمالية ، كي نكون على بصيرة تامة ، ولنتخذ ما يلزم لاجتياز هذه الترتيبات المتخذة من قبل العدو بنجاح . وكان اصعب ما في الامر استطلاع طرق الصحراء الواقعة ما بين العراق وسورية ونجد وشرقي الاردن خلال شهري حزيران وتموز ، حيث يندر وجود الماء في الصحراء ، التي يتراوح عرضها الثمانماية كيلومتر . وكان لا بد لنا كذلك لانجاح هذا المشروع من الحصول على امهر الأدلاّء خبرة ، واوسعهم معرفة واطلاعا . وقد جعلت مهمة استطلاع طرق الصحراء ودراسة الترتيبات على عاتق اخي ظافر . واستدعيت اخوانا لي من بدو شمر ، وارفقتهم به ، فانطلقوا بسيارتي الخاصة لتحري الادلاّء. وبعد جولات قاموا بها في جنوبي العراق وشماله وغربه ، جلبوا اليّ خيرة من عرفت الجزيرة من ادلائها . وكانت طرق السيارات وطرق انابيب بترول العراق قد فتحت على ايدي هؤلاء . وبعد الاتفاق معهم شرعوا يجوبون وديان الصحراء وحزونها وسهولها . فكان اخي ظافر يسجل على مخططات الاتجاهات التي عليه سلوكها في الوديان والسهول ، ونقاط المياه التي لم تجف بعد ، ومن عليها من القبائل ، والمسافات ، ونوع الاراضي من رملية او صخرية . وقد قطع في تجولاته العديدة اكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر في صحاري العراق ونجد وسورية وشرقي الاردن . وكان هناك مسألة حيوية وهي مسألة تدارك الاسلحة والعتاد بأثمان ملائمة . وقد انطت بصديقي النوري ابن مشعل باشا الجربا من قبائل شمر البحث عنها . وقد قام بدوره بجولات من حدود سنجار الى داخل الكويت الى حدود نجد ، حيث اتاني بتقرير مفصل عما يمكننا الحصول عليه منها . وكانت

تجري كل هذه الاعمال بسرعة واتقان وكتمان شديد . وأخذت تتطور اضطرابات فلسطين في هذه الآونة الى شكل مريع ؛ حيث بدأت تنشب بعض المعارك البسيطة هنا وهناك . وأخذت الاضطرابات تعم انحاء فلسطين ، والانكليز جادون في مكافحتها واخمادها داخل حدود فلسطين . واتسعت التشكيلات عندنا في العراق وفي سورية وفي شرقي الاردن ولقد جمعت المجندين العراقيين في جزيرة في نهر دجلة حيث يكثر فيها الاجتماعات والنزهات وكان هؤلاء الجنود قد نظموا بشكل حظائر يقودها عرفاء وتمكن كل عريف من ان يأتي بحظيرته الى مركز الاجتماع من طريق خاص عين له ، وفي وقت معين حدد له . وتم الاجتماع وخطبت فيهم مبينا لهم شرف مهمتهم التاريخية ، التي سوف يقدمون عليها . فكان الحماس والوطنية تملأ نفوسهم . ولقد أبنت لهم ان المطلوب منهم النظام والطاعة والكتمان واخذت عليهم عهدا بذلك . وكان هذا اول اجتماع تم على شكل يسر .

واخذت الشائعات المختلفة تدور في البلدة عن وجود جماعة يرغبون الالتحاق بثورة فلسطين . وانبثّ على الاثر رجال التحري في كل ناحية ، يبحثون عن حقيقة الشائعات . وكان للسفارة البريطانية جيش خاص من التحري يبحث ليلا ونهارا للتحقق من هذه الاخبار المقلقة . واخذت من جهة ثانية الشبهات تحوم حولي وكان لا بد لي من التضليل ، فعمدت الى نشر الاشاعات عن وجود قطعات من الجيش العراقي النظامي ، وعن قبائل عديدة ترغب في الالتحاق ايضا ، وان قسما من قطاعات الجيش وبعض القبائل قد وصلت ميدان فلسطين ، وغير هذا من الشائعات التي لا يمكن تصديقها حتى ضاعت بينها الشائعات الحقيقية . وعمدت من جهة أخرى الى التودد والتقرب من مراكز الاستخبارات البريطانية المهمة . كما اني اخذت أتظاهر بالتهتك والسكر ؛ فمن مطاعم الأوتيلات الكبرى في بغداد ، الى دور السينما ، الى النزهات الخلوية ، الى دور العائلات المتصلة بصداقتها مع البريطانيين ، وأنا لا أخلو ولا مرة من صحبة سيدة اجنبية في هذه المظاهر . فتنوعت الشائعات الكثيرة عني ، منها انني جاسوس انكليزي ، وبعضها انني لا أصلح لعمل وطني ، وغير ذلك مما كان يسرني اشاعتها وأزيد في تأيدها.

وكان لا بد لي كذلك من أن أعمل للحصول على تجهيزات عسكرية للمفرزة النظامية من زمزميَّات وحقائب وأجندة للعتاد وملابس عسكرية . فوجدت نفسي مضطرا لتوسيط من يتمكن من الحصول على هذه التجهيزات من المعسكر الهندي الانكليزي بأية طريقة كانت ، مبايعة او سرقة . فتم لي ذلك على الطريقتين . فجمعت هذه التجهيزات واودعتها في بساتين أمينة .

وكان لا بد لي من الاسئلة من الجيش ، حيث قرب وقت العمل . ولكي تتم استقالتي بدون ضجة ، عمدت الى تبرير عذر أنتحله لأظهر امر استقالتي طبيعيا . وقبل أن أقدم على الاستقالة اردت الاستفادة من القواعد الحديثة التي وصلت

الى المدرسة الحربية حديثا للرمي ضد الطائرات ، فأعددت ما يجب لها من الادوات ، ووزعتها على عرفاء المفرزة ، حيث يقوم عريف بتدريب حظيرته عليها في الاسبوع كرتين . فاتخذت يوما اختلافا تعمدت اثارته بيني وبين أطباء عراقيين عذرا لتقديم استقالتي . ثم راجعت الهاشمي حيث كان رئيس الوزراء ، وصارحته بما عزمت عليه . ولما تأكد من عزم لن أنثني عنه وافق على الاستقالة ، وتمت بصورة طبيعية ولكنها لم تخل مع ذلك من كثير من التقولات .

ازدادت المراقبة عليّ حيث اصبحت داري محاطة برجال التحري ، وكما ازدادت مراقبتهم لجنودي . وقد قبض على سبعة منهم فاستجوبوا ، وأوسعوا ضربا لحملهم على الاقرار . ولكن لم يعترف احد منهم بشيء وظلوا في السجن . وطلب من كل منهم كفالة قدرها خمسون دينارا ، لقاء اخلائهم . فلم يكن منا الا ان نقدم من يكفلهم من رفقائهم المجندين فتم ذلك وأخرجت الكافل والمكفول وبقية الجند من بغداد ، حيث وضعت الفصيل الاول في كربلاء ، والثاني في النجف ، والثالث في الكوفة مع عرفائهم الذين زودتهم بتعليمات شديدة يتبعونها . وبقوا في سراديب هذه المدن ولم يخرجوا منها الا يوم السفر .

اخذت أتقرب من رجال الاستخبارات الانكليز، وأتودد اليهم . وكنت تعرفت على بعضهم سابقا . وأخذ احدهم ، وكان أهم شخصية استخباراتهم ، يتظاهر لي بالاهتمام بقضية فلسطين . وكنت كذلك أبيّن له ان قضية فلسطين على وضعها الحاضر هي وصمة سوداء في تاريخ بريطانيا الحديث . ولولاها لكانت العرب تثق كل الثقة بها . ولكن قضية فلسطين أثارت الشكوك في نفوس العرب من نية الانكليز ، وفاتحني ذات يوم قائلا : ان الاشاعات تدور كلها حول عزمك على السفر الى فلسطين ، ولم يكن لاستقالتك سبب غير هذا العزم ، ولكن صداقتي معك تدفعني لان أنصحك ؛ يجب أن تعلم اولا انك تحت مراقبة انكليزية شديدة. واعلم انه يصعب عليك كثيرا الوصول الى فلسطين مع الترتيبات المتخذة على حدود شرقي الاردن وداخلها ، وعلى ضفتي الاردن . وهب انك اجتزتها كلها ودخلت فلسطين ، فهناك تجابه جيشا انكليزيا قويا قابضا على ناصية البلاد . واذا نجوت على فرض ، فليس لك ملجأ تلجأ اليه . فأجبته بأنني اذا عزمت على الذهاب الى فلسطين وقتال الانكليز فيها فلا يهمني بعد ذلك اذا مت او بقيت مسجونا طيلة حياتي فعلى كلا الحالتين اكون قد قمت بواجب لبلادي . ولكن الذي يمنعني من الذهاب هو خوفي من اتفاق فرنسة وانكلترة للقضاء على سورية وفلسطين وشرقي الاردن ، فنكون أضعنا البلاد بدون ان نتمكن من قهر أعدائنا. فهذه هي الفكرة التي تمنعني من الاقدام على قتال الانكليز في فلسطين . فقنع بهذه الفكرة ، وقال : ثق ان ما تتصوره واقع لا محالة ، اذا اشتركت بقية الاقطار العربية في الاعمال المسلحة ضد بريطانيا . ومن جوابه هذا أيقنت ان الحيلة قد انطلت عليه . وبعد ايام اجتمعت به فقال لي : ان الانكليز مهتمون بأمرك ، وانهم

مستعدون لايجاد عمل لك ان شئت في مصر او في شرقي الاردن . فتظاهرت بالفرح الشديد وشكرته . وحافظت على صلتي به وثابرت على التظاهر بالتهتك ، مما سبَّب انتشار الشائعات الكثيرة بحقي ، والتي اتخذت منها ستارا أواصل من ورائه العمل ليلا ونهارا لانهاء دور الاستعدادات . وكنت أفكر أن يكون لي مفرزة بدوية غير المفرزة النظامية . فبعثت الرسل الى القبائل اتتني ببعض الرجال من القبائل المطلوبة . وبعد التحدث اليهم كل بمفرده ، صرفت النظر عن تشكيل هذه المفرزة ، لما تتطلبه من النفقات الباهظة من جهة ، وتخوفي من اخلالهم بالنظام وبالأمن اللذين جعلتهما شعاري في هذه الثورة .

اخذت الحوادث في فلسطين تفتر قليلا ، وكذلك الحماس في العراق وفي سورية اخذ بالفتور ايضا .

راجعت الهاشمي فيما اذا كان في استطاعته مدّنا بشيء من الاسلحة التي جمعت من قبائل العراق الثائرة . وبعد محاولات ومناقشات طويلة تم الاتفاق على امدادي بمئة وثلاثة عشر بندقية ، كما اني تعهدت بدوري له أن أجلب السيارات من شرقي الاردن لنقلها من العراق الى هدفنا . وكان يرى عدم امكان النقل بدون أن يكشف الانكليز امرها . ولكنه ترك لي الامر . وخصصت هذه الاسلحة لتسليح المفرزة العراقية . وبعد تدقيق ما لدينا من الاسلحة في المستودعات المختلفة ، وجدت انه ينقصني العتاد الالماني والعثماني . وحيث انه لم يكن لدينا متسع من الوقت لتأمين هذا النقص بالمخابرات بواسطة الرسل ، عمدت الى المخابرة مع المراكز المختصة ببرقيات تجارية .

تمت الاستعدادات ، ولم يبق الا جلب السيارات من شرقي الاردن لحمل الجنود والاسلحة الموعود بها من العراق وأرسلت ظافر الى شرقي الاردن لجلب السيارات على الطريق المرسوم ، فأعلمني بحركته تلغرافيا من شرقي الاردن . وذهبت بدوري لمواجهة الهاشمي في داره ، لاعلمه عن وصول السيارات الى بغداد ولاستلام الاسلحة . ولشد ما كانت دهشتي عندما فاجأني بقوله : انه لا يمكني الذهاب الى فلسطين ، لان الانكليز قد علموا بالامر تماما ، وانه يجب عليّ أن أغادر بغداد الى كركوك او الموصل ، حيث أنتظر شهرا ، تكون قضية فلسطين خلاله قد حلت بالمفاوضات السياسية ، التي ابتدأت والتي انتدب نوري باشا السعيد لها. على ان أعيد السيارات الى شرقي الاردن ويجب ان يراها الانكليز عائدة فارغة . فبهتّ من هذه المقابلة التي تقضي على كل استعداداتي ، وتقلب الخطة المنظمة الى فوضى لا يمكن تلافيها . وعبثا حاولت اقناعه . وأخيرا قال بحزم : هذا ما يجب عليك عمله ، وتركني أنصرف . خرجت من منزله وأنا لا أعي من تأثير هذه الصدمة. فرأيت من الواجب عدم اضاعة دقيقة واحدة ، وأن أغامر فأرسل الجنود بهذه السيارات ، وبدون سلاح ، على أن أبرق للمراكز بتأخير تسليح بعض المفارز ،

وتخصيص اسلحتهم الى المفرزة العراقية . اجتمعت بأخي وخالد والدليل ، وطلبت اليهم ان يكون السفر الليلة . وأرسلتهم لجمع التجهيزات واشتريت سيارة كريسلر مستعملة قليلا ، بدون رقم تحمل لوحة الفحص ، وتوجهت بها لمحل التجهيزات ، حيث شحنتها وسيارتي الى مركز التجمع الاول . وباشرنا في نقل الجنود تلك الليلة من مراكزهم الى مكان التجمع . ولم تأزف الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى كانت القافلة في طريقها تحمل الثلاثة فصائل الى ميدان القتال . وفي الصباح كانت احدى الطائرات تحوم فوق الموقع الذيعينته للهاشمي مكانا للسيارات . وقضيت ثلاث ليال في قلق عظيم ، اذ كانت هذه القافلة بما فيها من جنود غير مسلحين وتجهيزات وشرفي كذلك ، تحت رحمة صدفة ، تكشف امر ما أخفيت . وأخيرا وردت البرقية الآتية : وصلت العائلة بسلامة . وكانت القافلة هذه وصلت الى اول مرحلة عينت لها بسلامة .

أما ما جرى لهذه القافلة اثناء سفرتها ، فاني أذكره لاظهار ما تعرضت له من المخاطرة :

تركت القافلة نقطة تجمعها غربي كربلاء ، منتصف ليل ٦ أغسطس ثم سارت متجهة نحو حدود نجد . ولم تكد تقطع مسافة مائتي كيلومتر ، حتى تعطلت احدى السيارات ، فأخفيت السيارة المعطلة ، ورجع ظافر الى بغداد ، لتدارك أوائل السيارة وداومت القافلة مسيرها الى نقطة مياه ، حيث تمكن ظافر من جلب الاوائل اللازمة ، وتصليح السيارة ، والالتحاق بالقافلة في النقطة المعينة والوقت المعين . وتابعت القافلة مسيرها متوغلة في اراضي نجد الشمالية مقدار مائتين وخمسة وسبعين كيلومترا على الطريق المرسوم . ولكن القافلة ضلّت مساء عن الطريق ، فاتجه ظافر مع بعض اخوان له شمالا الى رؤوس المرتفعات لتحري أنوار (H 4) ، مركز البترول . ودام تحريهم هذا حتى الصباح حيث اهتدوا بالنور. ومن هنا تمكنوا من التثبت من مكانهم ، وتعيين طريقهم . وتابعوا المسير . وكانت الرياح السموم الشديدة معاكسة للسيارات ، فنفدت المياه التي يحملونها . وأخذ اليأس يستولي على القافلة وهم لا يزالون في منتصف طريقهم . ولكنهم تجلدوا ، وتابعوا السير الى أن وصلوا حدود منطقة بركانية تقطع الجزيرة من الشمال الى الجنوب . وهنا بدأ يتساقط وابلا من المطر ملأ تجاويف هذه الاراضي الصخرية. فارتوى القوم وملأوا الصفائح وما لديهم من مستودعات الماء ، أنقذهم من الهلاك. وتابعت القافلة مسيرها على خطتها المقررة ، وازدادت من الحيطة والحذر لتقربها من معمورة شرقي الاردن . وكمنت القافلة في اليوم التالي ، وأخفت سياراتها بين الادغال ، ثم ارسلت سيارتين الى الآبار المعلومة لجلب الماء مرة اخرى . وكانت هذه الآبار ممر دوريات ابي حنيك المسلحة . ثم تابعت القافلة مسيرها الى نقطة معينة على مسافة من عمان ، وكانت هذه النقطة مكمنا ، واتصلوا ليلا مع عمان وكان كل شيء من اسلحة وعتاد وإعاشة معدا في هذا المكمن .

ووزعت الاسلحة والعتاد على الجنود ، وبدأ كل واحد بتنظيف سلاحه . وإذ بطيارة تمر فوقهم . فأخذت تحوم عليهم فكشفتهم ، وعادت مسرعة صوب عمان. وما كان من ظافر الا ان سار بالقافلة مسرعا نحو الغرب وبعد ان قطع مقدار عشرين كيلومترا ، توقف عن المسير ، وانزل الجنود من السيارات ، واتجه بهم الى احدى الوديان القريبة ، حيث تمكنوا من الاختفاء عن اعين الطائرات . كما ان السيارات ارسلت منفردة الى نقطة معلومة . وما ان اتموا اخفاء آثارهم ، حتى ظهر عليهم سرب من الطائرات الانكليزية ، مرت من فوقهم متجهة الى المكمن الذي كشفتهم الطائرة الاولى فيه . فأخذت الطائرات تبحث عنهم على ارتفاع قريب من الارض، واستمر البحث مقدار ساعة حاولت العثور عليهم ، فعاد السرب ادراجه . كما ان غبار ارتال السيارات المسلحة المليئة بالجنود الاردنيين ، كان يسير يمنة ويسرة واحيانا بالقرب من الكمين ، حتى عجزوا عن كشف مخابئهم . فعادوا موقنين بأن ما رآته الطائرة الاولى كان سرابا . وبعد غروب الشمس تجمعت السيارات مرة اخرى ، وتابعت القافلة مسيرها على نظام خاص الى المرحلة الثانية حيث وصلوها بسلام . وبهذه الرحلة كانوا اجتازوا منطقة شرقي الاردن المعمورة بكاملها . ثم تابعت مسيرها الى نقطة التجمع العام الاول في فلسطين بعد ان عبرت نهر الاردن من معابر درست وعينت قبلا .

ترك ظافر الجنود في هذه النقطة ، وقفل عائدا الى عمان ، فاستصحب معه السيارات اللازمة للقافلة الثانية التي اقودها بنفسي .

ازدادت في بغداد الاشاعات عني وعن ظافر كذلك ، وانا لا ازال على ملازمة رجالات الاستخبارات من جهة ، وتظاهري بالتهتك من جهة اخرى . ولكن كثرة سفرات ظافر الى شرقي الاردن وفلسطين وسورية التي بلغ عددها في ظرف عشرين يوما ثماني مرات بجوازات سفر ، واربع مرات بدونها ، اثار الشكوك في نفوس رجالات الاستخبارات ، ونفوس بعض اخواني . فخصصوا مراقبين ثابتين امام داري . وكان واجبهم ينحصر في تدوين ساعة خروجي من البيت ، وعودتي اليه . وكنت قبل اسبوع جعلت خروجي من منزلي صباحا وعودتي اليه في مواعيد ثابتة . ولكي انجو من المراقبين ارسلت يوما اليهما من يفهمهما بأن لدي قافلة من السلاح والعتاد اريد ارسالها الى فلسطين ، وهي ستأتيني من حدود تركيا الى الموصل ومن هناك ارسلها الى سنجار فدير الزور فجبل الدروز ففلسطين، ورغبت ان يفهمهما بانني اعتمد عليهما كل الاعتماد ، واطلب منهما مصاحبة القافلة من الموصل الى سنجار فقط بقصد اخفاء امرها عن اعين الجواسيس . فطلبا مهلة ، ثم رجعا فرحين بتطوعهما في هذه الخدمة الوطنية . وكانت هذه المهلة بدون شك لاطلاع دائرة الاستخبارات واخذ تعليمات منها عما يجب عمله . وانطلت الحيلة عليهما وعلى مرجعهما وارسلتهما الى الموصل بعنوان

اختلقته ربما قضوا في البحث عنه حتى موعد صدور البلاغ الاول عن اول معركة في فلسطين .

وفي الصباح تحركت حظائر القافلة الثانية من مراكزها في بغداد الى مكمن السيارات الواقع غربي النجف . وفي اليوم نفسه تناولت الغداء بصحبة ظافر عند رئيس الاستخبارات ، ودعوته لتناول العشاء في الثالث والعشرين من الشهر في داري . وخرجت من داره اثر الغداء، ثم تناولت الشاي عصر اليوم في دار اخرى، كانت مركزا من المراكز الاستخبارية الانكليزية . فشكوت حالتي من قلة العمل ، واتفقت معه على انشاء مزرعة لتربية الخيل . كما اني دعوته مع العائلة لتناول العشاء مساء ٢٣ في داري . كما اني كنت دعوت كثيرا من اخواني الصميميين وغير الصميميين لتناول العشاء هذه الليلة . وقد تعمدت اشاعة هذه الدعوة تضليلا . وكان من المقرر ان يكون العشاء متأخرا لاتمام الترتيبات والاسهم النارية في الحديقة ...

خرجت من دعوة الشاي الساعة السادسة مساء ممتطيا تاكسيا الى طريق كربلاء حيث كانت احدى السيارات الآتية من شرقي الاردن تنتظرني ، فامتطيتها مسرعا الى نقطة تجمع السيارات غربي النجف . وابقيت ظافرا في بغداد ، واضعا سيارتي امام الدار ، شارة على وجودي فيها . على ان ينتحل بعض الحجج لمن يطلب مواجهتي .

وصلت منتصف ليلة ٢٠ اغسطس الى النقطة ، فوجدت المفرزة على اهبة الاستعداد . واتخذنا نظام المسير ، وكانت سيارة الدليل قدوة القافلة تتقدمنا على مسافة معينة . وكان اول حادث صادفنا قبل الفجر سيارات الدوريات العراقية، فاطفأنا النور ، واتجه الرتل الى الشمال ثم استدرنا على مسافة ١٥ كيلومترا على نفس اتجاهنا الاول . وقد علمت بعد عودتي ان هذه الدورية صرفت طيلة نهارها في التحري علينا في تلك البقعة ، بينما كنا قطعنا مئات الكيلومترات عنها .

اجتزنا المرحلة الاولى والثانية بسلام . ووصلنا نقطة التجمع النهائية العامة مع بعض المفارز الآتية من خارج فلسطين في اليوم المحدد لهذا الاجتماع ، وهو ٢٥ اغسطس ١٩٣٦ . وبلغ الحماس والابتهاج في المجاهدين واهالي القرى مبلغا فوق التصور . ونحن منذ هذه الساعة مستعدون للقتال وسعيدون بنجاحنا في هذه الادوار .

كانت خلاصة الدور الاول من استعداداتنا ان نعين لكل من مفارز بغداد ودمشق وحمص وحماة وجبل لبنان وجبل الدروز ودروز شرقي الاردن ومفارز شرقي الاردن اياما خاصة لحركة كل مفرزة ، وطرقا خاصة تقطعها على مراحل ،

تجد كل مفرزة في كل مرحلة قسما من التجهيزات والاسلحة والعتاد والاعاشة . كما انه قد تعينت نقطة اجتماع عام أولي ، تجتمع فيها بعض المفارز ، وتكون كافة المفارز قد اجتمعت في نقطة الاجتماع العام الثانية التي اخترنا جبل جريش (فلسطين) لها . وتم هذا الدور باتقان وتوفيق لا اذكر له مثيلا منذ الفتوحات الاسلامية حتى اليوم الا حركة خالد .

ولقد كان من المقرر ان يكون موضوع الدور الثاني اثارة شرقي الاردن وقلب الحكم فيها واتخاذها قاعدة لحركات فلسطين ولكن الظروف مع الاسف الجأتنا الى صرف النظر عن تنفيذ هذا الدور الحيوي بنظري جدا . كما انه كان من المقرر تشكيل مفرزة لتخريب خطوط الانابيب داخل حدود شرقي الاردن ، يقوم بها جنود من فوج الهندسة العراقية ، كنت استصحبتهم خصيصا لهذا الامر . ويكون لهذه المفرزة قواعد خفية مختلفة في صحراء سورية وشرقي الاردن ونجد تموننى بما يلزم من البنزين والماء والارزاق وتقوم بالغارة على الانابيب ليلا في نقاط مختلفة. وبالرغم من اتمامنا كل ما يلزم لهذه المفرزة فقد صرف كذلك النظر عن اعمالها لاسباب خاصة لا علاقة للعدو بها .

ولكن وجدنا الاردن من الناحية الوطنية العربية ، والغيرة والحماس ، بمثابة قاعدة تستطيع تدعيم الحركات في فلسطين بكل الوسائل . وعند اللزوم كان اهله مستعدين للانضمام ، والعمل على تسهيل وحماية كل اتصالاتنا مع العراق او مع سورية عند اللزوم . وبدون الموقف الذي وقفه الشعب الاردني في قتالنا مع الانكليز ، كان يصعب علينا تحقيق ما حققناه من انتصارات عظيمة .

كان يوم ٢٥ اغسطس اليوم المحدد لاجتماع المفارز كلها الآتية من العراق وسورية وجبل لبنان والاردن وجبل الدروز في منطقة جبل جريش داخل اراضي فلسطين . وقد تم هذا بنجاح . وكانت المفارز في مواقعها في الرابع والعشرين . وكنت في هذا النهار وصلت مع آخر مفرزة الى جوار قرية طوباس . وكانت الطائرات الانكليزية قامت ذلك النهار بالاستكشافات على جبل جريش فشاهدت بعض المجاهدين الذين كانوا متعطشين للقتال فرموا الطائرات ورمتهم بدورها بالقنابل . واستمرت اول معركة في فلسطين نحوا من ساعتين اسفرت عن استشهاد علي زيون وجرح طعمة جبر العراقيين . فكانا اول شهيد وجريح . وهرعت انا ومن معي الى جبل جريش فكان الحادث في نقطة الاجتماع فوصلته قبيل مساء الـ ٢٥ . واجتمعت مع اخواني رؤساء المفارز في الجديدة بين الهتاف والحماس والاهازيج وزغاريد النساء ودوي الرصاص من كافة المجاهدين .

وكان لا بد لي من الشروع في التنظيم فورا ، فأخذت المفارز وسرت بها ليلا الى اراضي (قرية) حيث نزلناها ، وانشأت فيها اول عسكر منظم بعد تنظيم

المفارز على الاسس العسكرية الملائمة مع روح الثورة والثوار . وكانت المفرزة العراقية خير وسيلة لتعميم وتثبيت النظام في بقية المفارز . وكنت اعول على وجود قوة نظامية في يدي ، لتتمكن من الصمود في المعارك التي سنجابهها قريبا، والتي سوف تدور على محور القوات الميكانيكية الحديثة . كما كنت اعول كذلك على هذه القوة النظامية لبث روح النظام في نفوس الثوار الفلسطينيين ، ولحملهم على تنظيم صفوفهم للقضاء على الفوضى بين ثوار البلاد . كما اني كنت ارمي علاوة على هذا التنظيم موارد الاعاشة من القرى ، وتنظيم رجالها ليصبح لدينا جيش احتياطي يتبع اوامر القيادة . فمضت ليلة ٢٦ بهدوء ونهارها . وقد منع لاول مرة اختلاط المجاهدين باي شخص كان من الاهلين ، حيث استحال على اي فرد دخول المعسكر الا من نقطة واحدة حيث كنت موجودا تسهيلا لمن يود مواجهتي .

كان لزاما عليّ قبل خوض المعارك ان ادرس طرز القتال الجاري بين الثوار الفلسطينيين والانكليز ، وان اتفهم بالتفصيل الموقف العام في فلسطين ، من الوجهة السياسية والحربية والاقتصادية . وكنت على علم قبلا بالاشخاص الذين يمكنني الاتصال بهم ، والاعتماد عليهم ، وبالاشخاص الذين يجب عدم الثقة فيهم. وكان من الضروري ان اسرع لمقابلة قائمقام جنين احد من يعتمد عليهم . وكان الموقف دقيقا جدا اذ انه لم يتم بعد تنظيم صفوفنا كما يجب ، وتركي المعسكر ولما يمض عليّ بعد ٢٤ ساعة امر غير مستحسن . ولكن الموقف يتطلب سرعة الاستعداد للطوارىء . فتركت المعسكر ليلة ٢٧ على امل التمكن من المواجهة ، والتفاهم ، والعودة قبل الصبح ، دون ان ادع احدا يعلم بمغادرتي سوى منير الريس ، قائد مفرزة حمص وحماة ، والذي اعتمد عليه كل الاعتماد . فتنكرت بزي تاجر زيت . ولما وصلت الى قرية الوسيط الذي كان عليه ان يصحبني ، اعلمني انه لا يمكن الذهاب ليلا بسبب قانون منع التجول ، وانه لا بد لنا من الانتظار في القرية حتى الصباح . وكانت قرية الوسيط قريبة من المدينة . فأصبح الامر مشكلا في نظري: اولا : قضية تغيبي عن المعسكر . ثانيا : من امكان اكتشاف امري في دخولي المدينة اذ كنت لم احفل بالتنكر التام ، فأبقيت السروال العسكري . ولكن كان لا بد من المواجهة . فدخلت المدينة حوالي الساعة التاسعة صباحا ، ممتطيا فرسي في ازقتها ، ودخلنا سوية على صاحبي في دائرته الرسمية . ولم يكد الوسيط يهمس في اذنه انني فلان ، حتى قفز من مكانه قفزة عصبية ، ولم يكن ليتوقع مجيئي لعنده الى دائرته فصرف الوسيط وجلسنا ، واذا بالباب يطرق طرقتين فيفتح ، واذا بنا امام منظر اعترف انه كان رهيبا للغاية : وهو ان ضابطا انكليزيا برتبة كولونيل يدخل ومن ورائه ضابطان (وقد علمت فيما بعد انه كان قائد المنطقة العسكرية والضابطان من ضباط البوليس) فتقدموا نحو صاحبي الذي ازداد دهشة واضطرابا . وظهر لي من عدم التكلف فيما بينهم انهم كانوا اصدقاء . وبدأ الحديث بالانكليزية ، واذا باسمي يتردد على لسان الكولونيل واذ بالحيرة والارتباك يظهران على صاحبي . فتدخلت حالا ، وسألت صاحبي عما يقولون ؟ فأجابني انهم

يسألون عن اخبار فوزي القاوقجي ، وهل وصـــل الى فلسطين ام لا ؟ فقلت لصاحبي : اذاً فلنترك حديث تجارة الزيت التي اتيت من اجلها ، ولأحدثك عن فوزي القاوقجي الذي اعرفه كل المعرفة . فقد كنت في بغداد منذ فترة حيث شاهدته مرتديا لباسه العسكري في الجيش العراقي ، وقد تركته فيها ، ولا يمكن ان ياتي الى فلسطين . فترجم الموظف كلامي اليهم ، فقال الكولونيل : ولكن الاخبار الموجودة لدينا من بغداد ودمشق تؤكد لنا بأن فوزي القاوقجي ترك الجيش ، وهو لا بد ان يكون الان في فلسطين ، واذا لم يكن دخلها بعد فهو على وشك الوصول اليها . ولقد اتخذت التدابير اللازمة على حدود شرقي الاردن ـ فلسطين ، وشرقي الاردن ـ العراق ، للقبض عليه قبل دخولها .

فبينت لهم استحالة مجيء فوزي القاوقجي ، ووصوله الى فلسطين ، بالنسبة الى ما اتخذ من التدابير . فقال الكولونيل : ان الاخبار لا تدع مجالا للشك عـــن عزمه وعن مجيئه . قلت : هل تعرفونه ؟ قالوا : لا ولكن لدينا كثيرا من صوره ، وهذه احداها . فتناولتها منه ،فاذا بها احدى صوري المأخوذة عن جواز سفري المزور بعد ثورة سورية ، الذي تمكنت به من السفر الى مصر . وطلبت منهم اذا كان بامكاني الاحتفاظ بهذه الصورة ، لاساعدهم عند اللزوم . فقدمهـــا اليّ فاحتفظت بها . وقمت مستأذنا صديقي ، راجيا منه ان يسعى لي في تأمين كميات الزيت التي طلبت منه تسهيل مشتراها . ثم التفتّ الى الضابـــط الانكليزي ، ورجوت صاحبي ان يفهمهم بأن مجيء فوزي القاوقجي الى فلسطين مستحيل ، واذا جاء فيكون عمل المستحيل . واسرعت الى الوسيط ، وامتطينا جوادينا ، وخرجنا من المدينة بين الجنود والشرطة .

رجعت المعسكر ، بدون نتيجة . ولكني قررت الاتصال بصديقي مرة اخرى في مكان آخر ، فاجتمعت به في اليوم الثاني في دار خاصة لاحد اخواننا الاطباء . واخذت ما اردته من المعلومات والاخبار ، واحطت بالموقف العام من جميع نواحيه، وكانت الاعمال تجري في المعسكر على غاية ما يرام . ولقد اتصلت بالمجاهديـــن الفلسطينيين ، وأرسلت في طلب بعض الزعماء . وتحوّلت يوم ٢٨ الى (قباطيا) ، حيث عسكرنا فيها على ابدع نظام ، مما استرعى تقدير الاهلين والمجاهديـــن واحترامهم ، واخذوا ينظرون الينا كقوة نظامية كفء لمنازلة الجيش الانكليزي النظامي . ووصل ليلة ٢٩ الاخ فخري عبد الهادي (عرابة) والاخ عبد الرحيم ابو كمال (دنابة) والشيخ توفيق رئيس مجاهدي (علار) . وتحادثنـــا معا ، واستوضحت منهم عن طريقة جريان الثورة حتى الان ، فوجدت انه لا وجـــود حقيقة لثورة قوية تقلق بال السلطات الانكليزية ، وتلجئهـا الى جلب قوات كبيرة

من خارج فلسطين . واخيرا اوضحت لهم عما انوي عمله مختصرا . وتحركنا هذه الليلة الى (كفر راعي) في (٢٩ـ٣٠ اغسطس) .



كانت طريقة القتال المتبعة في فلسطين حتى الان عبارة عن تجمع شراذم من الثوار ، يكمنون في احد سفوح الوديان ، او رؤوس الجبال المنيعـــة ، حيث ينتظرون مرور قافلة من السيارات من امامهم . فاذا ما مرت أصلوها نارا حامية، ثم قفلوا مسرعين كل الى قريته او بلدته ، فينزعون عنهم الاسلحة والعتاد ، حيث يوارونها في مكان حريز ، ثم يختلطون بسكان القرية ، كأنه لم يحدث شيء . واما من جهة الانكليز ، فكانوا عندما يقذفهم الثوار يجاوبونهم برشاشات سياراتهم ، ثم يترجلون ، ويقتفون آثار الثوار ، ثم يخبرون مراكز الطيران عن مكان الحادثة . وبعد برهة قليلة تأتي الطائرات . وبهذه الوسيلة يتقدم الجند الى القرى التـــي وقعت الحادثة في جوارها ، فيدخلونها ، ويفتشونها ، ويأتون بأنواع القســـوة والظلم اثناء التفتيش ، ويسوقون من يشكون به من القرية ، ثم يفرضون عليها الغرامة الباهظة ويعودون . وبهذه الطريقة لا تقع في الجند اصابات مهمة ، كما ان الثوار انفسهم ، لعدم ثباتهم في خط معلوم ، تكون الاصابات فيهم قليلة جدا . واما من يثبت او تكشف الطائرات مكانه اثناء الحادثة ، فهذا يصعب نجاته . كما ان هذا الطراز من القتال لا يحمل الانكليز على جلب قوات جديـــــدة من خارج فلسطين . وكان الثوار عبارة عن عصابات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض ، تعمل تحت زعامات اشخاص مختلفة ، ولها مناطق خاصة بها لا تتعداها ، تقوم فيها عندما ترى فرصة سانحة بما تستطيعه من الاعمال . كما انه كان هناك جماعـــة اخرى تقوم بتخريب الطرق والسكك الحديدية ، وكانوا يؤدون مهمتهم على غاية ما يرام . اما الاعاشة والاحتياجات الضرورية ، فكانت تؤمَّن من قرى المناطق . مما ادى الى تحميلها اعباء ثقيلة اخذ الكثيرون يتذمرون منها .

اما الموقف السياسي فكان الرجال الوطنيون المسؤولـــون يلمسون الضعف الذي بدا يستولي على الثورة من جهة ، وبما تعانيه البلاد في اضرابها الذي استمر الى ما يقارب الثلاثة اشهر من جهة اخرى ، وما تكبدته البلاد من الخسائر ، وما يكلفها هذا الاضراب من الاموال للانفاق عليها . هذه العوامل وغيرها دعت الرجال المسؤولين الى طلب توسط ملوكنا وامرائنا . وعلى هذا اتفقت الكلمة على احتجاج ملوك العرب ، وايفادهم مندوبا عنهم للتوسط . وقد مهد المرحوم ياسين باشـــا الهاشمي لهذا الاجتماع في بغداد ، ثم توقف لانتداب نوري باشا السعيد ، لان يكون ممثلا لملوك العرب وامرائهم للتوسط في قضية فلسطين في القدس . وكانت انباء هذا التوسط قد اخمدت من جهة الشعور الملتهب في الاقطار العربية نحو فلسطين ، والهبت الفرور من جهة ثانية في نفوس الانكليز . وكانت آخر مرحلة

وصلت اليها هذه الوساطة ان يفوض رجالات فلسطين امر البلاد الى نوري باشا السعيد ، الذي يمنّيهم بحل القضية في صالح العـــرب ، اعتمادا على شرف بريطانيـــا .

وصادف وصولي الى فلسطين عندما وصلت البـــلاد الى هذه المرحلـــة السياسية . وكادت اللجنة العربية العليا تستسلم لهذا الاقتراح . ولقد وصل اليّ احد اخواني (اسحق درويش) واخبرني الحالة المؤسفة التي وصلت اليها البلاد ، وقال : لو تأخرت يوما او يومين لكانت اللجنة استسلمت الى الاقتراح بتوسط نوري السعيد ووقف اطلاق النار والصلح الملوث للشرف . واخبرني بما تم ، وبما هم عازمون عليه . فطلبت منه ان يسأل الاخوان امهالي اسبوعا واحدا ، يماطلون خلاله المفاوضين ، حيث اقوم بعمل جدي خطير ، فإما افسح لهم طريقا يوصلهم لغاية امانيهم ، وإما ابوء بفشل يقبلون عندها الاقتراحات المعروضة . فتم الاتفاق على هذا الراي .

اما العمل الذي كنت اتصوره ، فينحصر في نقطتين : اما مهاجمة اليهـــود مهاجمة عنيفة ابيد فيها قسما كبيرا من القرى والنفوس والزرع في ضربة واحدة، حيث أحملهم على الاعتقاد باستحالة بناء الوطن القومي في فلسطين ، واما تحدي القوات البريطانية ومنازلتها . ولقد وجدت نفسي ، بعد الدرس ، انني سأجابه في الحالة الاولى الانكليز قبل اليهود ، لذلك أجّلت الفكرة الاولى ، بالرغم مـــن سهولة تنفيذها ، ورجحت الثانية ، بالرغم من صعوبتها .

دب الحماس من جديد على اثر مجيئي فلسطين ، كما ابنت ، في نفـــوس اهالي فلسطين . وأخذ المجاهدون يفدون عليّ من كل صوب ، يظهرون شكواهم السيئة التي وصلوا اليها ، ويضعون ثقتهم وكل آمالهم بي . كما ان وفودا اخرى من المدن كانت تصلني ، وكلها تظهر لي الشعور ذاته . وقد كان شعورهم الفياض يثير في نفسي الثقة بالمستقبل ، بما كنت المسه فيهم من وطنية صادقة ، وحماس وحب في التضحية . كما اني كنت اشعر بعظمة المسؤولية التي احملها في هذه الساعات التاريخية . لذلك واصلت السعي ليلا ونهارا ، ودعوت الامة الفلسطينية والأمة العربية والاسلامية ، ببلاغ نشرته للعالم ، الى حمل السلاح ، والجهاد في سبيل انقاذ حرم الله المقدس من الظلم والاعتساف . وكان لمنشوري هذا تأثيره العظيم ، مما زاد من حماس القوم ، وتمسكهم وتعلقهم بي . ولقد بادرت حالا في التشكيلات الادارية ، وتأسيس محكمة للثورة ، لاقضي على الفوضى وعلـــى التجسس من جهة ، وفصل ما يقع من المشاكل بين الاهلين من جهـــة اخرى ، وتأمين طلبات القيادة . كما اني شكلت لجانا خاصة للاعاشة والتموين ، واخرى للمالية . وحصرت جميع المنابع التي يمكن الاستفادة منها في هذه اللجان التـــي ربطتها بي راسا ، فوضعت حدا للتذمر والشكاوي التي امطرني بها اهل القرى

والمدن من كثرة طلبات الثوار المنفردة ، واذعت انباء هذه التشكيلات ببلاغات تقبلها الاهلون بمنتهى الترحيب والارتياح . واخذ دولاب العمل والتنظيم يدور بسرعة وبإتقان ، مما خولني السيطرة التامة على الموقف من كل نواحيه . ولم يبق امامي الان الا ان ادرس الاراضي ، وتوزيع الجيش الانكليزي وحركاته ، لاتمكن مـــن تنظيم خطة المعركة الاولى ، افتح بها للجنة العربية العليا مجالا واسعا للاصرار على مطالبها كاملة ، وابعث في نفوس الثوار الفلسطينيين روحا جديدة ، يثقون بعدها بالفوز ، والجيء الانكليز لالتزام خطة دفاعية ، يفسحون بها لنا المجال ، واحملهم على جلب نجدات جديدة ، فأخرج قضية فلسطين من نطاقها الحالي الذي حرص الانكليز على ابقائها عليه ، وجعلها قضية عربية عامة .

اذا ، في هذه المعركة الاولى اضع كل آمالي ، وعلى نتيجتها يتوقف تحقيق امانينا القومية . لذلك تفرغت لتنظيم هذه المعركة بكليتي .

تم درس الاراضي دراسة وافية ، كما تم لي درس نفسيةالثوار الفلسطينيين. وعلى هذين الاساسين انتخبت منطقة (بلعا) ميدانا لهذه المعركة .

اما نظام المعركة ، فهو عبارة عن خط اساسي للدفاع ، يشغل قلبه المفرزة العراقية النظامية ، بقيادة السيد جاسم . وعلى جناحه الايمن المفرزة الدرزية بقيادة حمد صعب ، يساعده محمود ابو يحيى . وعلى يمين هذه المفرزة المفرزة الحمصية الحموية بقيادة منير الريس . وعلى الجناح الايسر المفرزة الشاميـــة بقيادة الشيخ محمد الاشمر . وكان ترتيب هذا الخط الدفاعي على شكل زمر تحتل الاقسام الناتئة من السفوح ، حيث تسيطر نيرانها على الاودية التي امامها ، وخطوط اجتماع المياه التي على جانبيها . وهي مرتبة على طريقة تستطيع كل منها حماية مواضع الزمر المجاورة لها ، بحيث لا يستطيع العدو التقدم نحو زمرة الا ويكون تحت تأثير نيران الزمر الاخرى . وكان لنا ترتيبات اخرى لستر هذا الخط الاساسي ، وهي عبارة عن مفرزتين قويتين من الثوار الفلسطينيين ، احداهمـــا بقيادة عبد الرحيم ابو كمال والثانية بقيادة العريف يونس . ومهمة هاتين المفرزتين ان تكمنا على مقربة من الطريق العامة التي اخترناها للتعرض الى رتل السيارات الانكليزية ، بحيث يقوم هذا الكمين على نفس الطريقة التي اعتادها الفلسطينيون والانكليز حتى اليوم ، بأن يهاجموا الجند بالنيران فقط ثم ينسحبون ، مستدرجين الانكليز اليهما . فتكونان قد شطرتا القوة الانكليزية الى قسمين ، احدهما يبتعد عن ميدان المعركة الاصلي جنوبا ، دون ان يكون باستطاعته معاونة القسم الآخر عندما يشتبك بالخط الاساسي . اما القسم الثاني ، فيستدرجه العريف يونس امام مواضعنا الاساسية ، حيث يشتبك مع خط الدفاع الاصلي . وتكون مفرزة يونس قد توارت في الوديان متجهة نحو مؤخرة جناحنا الايمن . فتكون لنا هذه القوة امنية للجناح ، واحتياطا لهجمات نقوم بها عند سنوح الفرصة . كما اننـــا

خصصنا مفرزة فلسطينية لحراسة جناحنا الايسر على طريق يتفرع عن طريق جنين ـ نابلس العام .

وكان لهذا الطريق الذي يساعد السيارات للمرور عليه بسهولة اهمية خطيرة؛ اذ ان باستطاعة اية نجدة تأتي على هذه الطريق ان تحيط بجناحنا الايسر ، وتوقع الجبهة في خطر يصعب تلافيه . لذلك جعلت المفرزة الموكل اليها حراسة هذه النقطة قوية جدا ، بحيث تستطيع صد العدو ، اذا حاول الالتفاف علينا من هذه النقطة او من اية نقطة اخرى ، وذلك لاشرافها على كافة الوديان التي تمكن العدو من التقرب الى جناح خط الدفاع الاساسي الايسر .

تجمعنا في قرية بلعا ليلة ١ـ٢/٩/١٩٣٦ دون ان يدري احد الغاية من هذا التجمع . وقد استقبلنا اهالي القرية بحفاوة زائدة . وأبنت لرؤساء المفارز لكل منهم مكانه وواجباته ، ونوع التحكيمات التي يجب ان يشتغلوا فيها . اما اخواننا الثوار الفلسطينيون فقد تقصّدت ان لا أجعلهم في خط النار ، يجابهون صدمة عنيفة ، ويجبرون على مجابهة الاسلحة الميكانيكية الفتاكة طيلة النهار ، وذلك لعدم اعتيادهم على هذا النوع من الدفاع . وقررت ان يكون على الثوار الفلسطينيين حماية الاجنحة في نقاط بعيدة عن ميدان المعركة . كما انني ألفت منهم مفرزتين للتخريب ، احداهما لطريق طولكرم ـ عنبتا بجوار الكمين ، والاخرى للطريق الفرعي الذي يصل من قرية السيلة الى قرية بلعا ، من وراء خطنا الدفاعي . ولم يصبح صباح ٣ـ٩ـ١٩٣٦ الا وكانت جميع المفارز محتلة الاماكن المخصصة لها ، ومفارز الكمين في محلاتها والطرق قد تخربت ولغمت في المحلات المطلوبة . وبعد جولة تفتيشية على الترتيبات التي وجدتها على غاية ما يرام ، رجعت الى النقطة التي اخترتها مقرا لادارة المعركة .

ثار غبار قافلة السيارات الآتية من طولكرم الساعة الثامنة والخامسة عشرة . وكانت تتقدم ببطء وكانت جنودنا تنتظر باضطراب وحماس شديدين . وفي الساعة الثامنة والاربعين كان رأس رتل القافلة وصل للنقطة المعينة ، حيث يقوم الكمين بعمله . فأطلق الكمين النيران على القافلة من شمالها وجنوبها ، وما هي الا برهة حتى انفجرت الرشاشات والمدافع الخفيفة من هذه السيارات والدبابات ، ثم ترجلت الجنود ، وشرعت تزحف بحماية نيران الرشاشات والدبابات صوب الكمين الذي اخذ يصب نيرانه عليها . فترك الكمين مواقعه ، وانسحب حسب الخطة المرسومة . فتبعته الجنود الانكليزية منشطرين الى قسمين ، احدهما يتعقب المفرزة الجنوبية والآخر وراء المفرزة الشمالية ، حتى غابت المفرزة الجنوبية عن الميدان ، ووصلت المفرزة الشمالية الى خطوطنا الاساسية . فانفجرت مفارزنا عليهم بنيران حامية مؤثرة من مسافات قريبة . ولم يكن الانكليز يتوقعون مثل هذه المفاجأة ، فكانت الاصابات منذ اللحظة الاولى كثيرة . فتثبتوا في أمكنتهم ، حيث

لم يعودوا يستطيعون التقدم او الانسحاب . وكانت سيارة اللاسلكي قد بعثت تستنجد ، فاذا بنا بعد برهة تظهر علينا تسع طائرات انكليزية . وكنت قد خصصت زمرا صغيرة على مرتفعات تحيط بالجبهة وفي وسطها ، خصيصا لمقاومة الطائرات اخذتهم من الجنود الذين سبق ان دربناهم على الرمي . وبعد مدة قليلة اخذنا نشاهد ارتالا من السيارات ، تقف خارج الميدان ثم يترجل الجنود ميمّمين صوب خطوطنا . ولكن كل شيء كان في حسبان فلم يكن يتقدم فريق منهم الا ويجد نفسه تحت وابل من نيراننا المؤثرة . وكثيرا ما حاولت القيادة الانكليزية الالتفاف فكان نصيبها في كل مرة الخسران والفشل . وبدأت فعالية زمرنا المخصصة للطائرات ، واذا بأول طائرة تسقط محترقة على طريق طولكرم . فعلا الهتاف والصياح من خطوطنا . وهذه طائرة اخرى تقع ما بين خطوطنا وخطوط الانكليز وأمام مفرزة الدروز والحمصيين ، فأحرقوها . وكان قائدها قد قتل ، فأخذوا دفتر مذكراته ، وما لديه من اوراق ، ثم رجعوا الى خطوطهم . واذا بالطائرة الثالثة تبتعد عن ميدان المعركة وهي تجر وراءها ذيلا آخر من الدخان . وقد استغربنا من مجيء دبابات ومدافع ثقيلة تجرها موتورات . وبعد مدة اخذت هذه مواقعها أمامنا ، وبدأت تمطر جبهتنا بقنابلها . وكانت الساعة الان الثانية بعد الظهر . ووصلت المعركة الان الى منتهاها من الشدة ، اذ تكاثفت نيران المدفعية وقنابل الطائرات على السفح الذي كان يحتله قلب خط دفاعنا ، محاولة بذلك تحطيم هذا القلب الذي ندافع فيه بمنتهى الثبات . كما ان الانكليز حاولوا الاستيلاء على هذا القلب بهجوم قامت به جنودهم تحت حماية نيرانه الهائلة . ولكن صدّت حملاته ، وحافظنا على مراكزنا . ولقد أثرت بعض الشراذم الانكليزية ، التي تمكنت من التقدم على نقاط ذات تأثير ، على أجنحتنا ، فاضطررنا الى افراز قوة من خط دفاعنا ، وصرف قوانا الاحتياطية بكاملها لدرء هذا الخطر . وكنا كلما ازداد الضغط على الجناحين نضطر الى تقوية هاتين الجناحين حتى ضعفت الجبهة . ولاجل انقاذ الموقف لم يكن بد من سحب الجبهة بكاملها تدريجيا الى الوراء حيث احتللنا قمما اصبحنا فيها أقوى وأمنع من الاولى ، كما انا أضحينا نهدد القوات التي تحاول الايقاع بجناحينا . تم احتلالنا لهذا الخط في الساعة الثالثة دون ان نتكبد خسائر تذكر ، بفضل (مناورات) قمنا بها بكياسة وحنكة . ولما وجد العدو نفسه تحت سيطرة نيراننا من جديد ، وتأكد من مناعة مراكزنا الجديدة ، اخذ يعمل على انهاء المعركة والانسحاب من الميدان . وبانت لي هذه العلائم عندما اخذت دباباته تتقدم في الاودية ، وعلى بعض السفوح ، حتى وصلت الى محاذاة جنودهم وأخذت ترمي برشاشاتها وبمدافعها الخفيفة . كما ان نشاط المدفعية قد اشتد والطائرات لدرجة قصوى ، حيث بدأت تنشل جنود العدو من الجبهة تحت حماية هذه النيران . ولم تمض ساعة الا وكانت جنود العدو مرتدة خائبة . وهنا تنتهي المعركة ولكن لا تزال مفارز قوية من العدو تحتل القمم الواقعة على مقربة من الطريق من جهة الشمال . ولم تترك هذه المفارز أمكنتها الا بعد

الغياب ، حيث اتموا حمل جرحاهم وقتلاهم الى سيارات الاسعاف . وانتهى هذا اليوم بفوز المجاهدين على المستعمرين ، وبفوز الايمان والارادة على الظلم وقوة الميكانيك ، فوزا باهرا لا يقدر قيمته ، ولا مدى تأثيره ونتائجه، الا الاجيال المقبلة.

اما خسائرنا في هذه المعركة الخالدة فبلغت من الشهداء تسعة ومن الجرحى ستة .

وكان بطل بني معروف ، محمود ابو يحيى ، من جملة الشهداء . وهو الذي كان له الفضل في الصمود والمحافظة على خط دفاعنا المركزي . وقد ابدى – شأنه في كل معركة عرفته فيها في معارك الثورة السورية – من الجراة والشجاعة ما يعجز عن وصفها القلم .

وكان الباقون من الشهداء والجرحى من المفارز العراقية والحمصية الحموية، والشامية . ولم يصب احد من الفلسطينيين في هذه المعركة . ونظرا لعدم اعتياد الفلسطينيين على هذا النوع من القتال فقد تخلوا عن مراكزهم منذ الساعة الاولى من المعركة . وان تخليهم هذا لم يكن ناشئا عن جبن فيهم ، بل لعدم اعتيادهم كما اسلفت . وان الذي اظهروه فيما بعد في المعارك من الشجاعة والبسالة والتضحية، التي تسجل لهم صفحات من الفخر في هذا الجهاد القومي لاكبر دليل واسطع برهان على قولي . واما الذين امتازوا في هذه المعركة فاذكر بإجلال وإكبار الاخ منير الريّس قائد المفرزة الحمصية الحموية ، والاخ حمد صعب قائد المفرزة الدرزية اللبنانية ، والعريف صالح العراقي ، والمرحوم الشيخ سليمان الصاتوري الفلسطيني الذي استشهد فيما بعد في موقعة كفر عبوش في هجوم قام به على دبابات العدو ، والذي سأصف معجزات جهاده فيما بعد . وكانت خسارة العدو ثلاث طائرات ومئة وخمسين قتيلا .

نتائج المعركة : حققت هذه المعركة الاهداف التي قصدناها فيها . فقد :

١ – عزل الانكليز القائد العام في فلسطين واستعاضوا عنه بالجنرال ديل .

٢ – اقفل الانكليز اي باب مفاوضة مع العرب ، واخرجوا نوري باشا السعيد، الذي يحمل كلمة ملوك العرب من فلسطين ، على شكل يكاد يكون اهانة له وللملوك العرب وللعرب كافة . ٣ – وانفتح امام اللجنة العربية العليا في فلسطين افق جديد للعمل ، وللمطالبة بالحقوق ، حل مكان الضعف والاستسلام . وانبعثت روح جديدة في نفوس المجاهدين والشعب الفلسطيني كافة .

٤ – وقرر الانكليز لاول مرة بعد الحرب العامة الغاء المناورات السنوية في لندن لجلب النجدات الى فلسطين .

٥ – وتساهل الانكليز مع مصر ، فأسرعوا للتفاهم وعقد معاهدة معها ، تمكن على اثرها من جلب قواته المرابطة على حدود مصر الغربية تجاه طرابلس الغرب ، وامّن ذلك خلود مصر الى السكينة خلال الحركات في فلسطين . ٦ – اصبحت القضية الفلسطينية قضية عربية عامة ، اذ اشتعلت النفوس حمية وحماسا ، وتألفت اللجان في كل مكان لمساعدة فلسطين المجاهدة . كما امطرت لندن بالاحتجاجات . فأصبحت علائق بريطانيا مع العرب مهددة وفي خطر . ووصل هياج طبقات الشعب العربي وحماسه لدرجة تعذر معها على الحكومات العربية التسكين من ثائرتها ، فجرف الشعب حكوماته لمساعدة فلسطين .

اما تأثير هذه المعركة في نفوس الشعب الفلسطيني ورجاله المسؤولين فكان عظيما ، يظهر هذا مما وصلني من الكتب والوفود اثر هذه المعركة للتبريك والتهنئة ، وبما نعتوني به من عبارات ، امثال : «بيضت وجوه العرب ، انقذت شرف العرب ، انت فخر العرب ، خليفة صلاح الدين» ، وغير ذلك . ومما لا بد من ذكره انه بالرغم من التعليمات المعطاة من لدينا الى الجنود كافة بوجوب الاقتصاد التام في العتاد فان المعركة لم تكد تنتهي الا ونفدت آخر طلقات نحملها من عتادنا. كما ان هذا النقص الخطر في العتاد لازمنا في كل معاركنا .

التزم جيش العدو في كافة انحاء فلسطين خطة الدفاع بعد هذه المعركة . وشرعوا يحصنون مراكزهم ، ويطوقونها بالاسلاك الشائكة ، وهم بانتظار النجدات التي اخذت بريطانيا تعدها في مصر وانكلترة . وقد علمت من مصدر اكيد ان هذه النجدات سوف لا تصل قبل العشرين من الشهر ، فاتخذت من الخمسة عشر يوما فرصة لتنظيم الثوار الفلسطينيين ، ومناطق الثورة وادارتها . وكنت اتوقع ان تعلن الحكومة الاحكام العرفية في فلسطين ، فتعرقل علينا الانتفاع من القرى ، لذلك قررت ايجاد مستويات للاعاشة وللعتاد في المناطق الجديدة للثورة ، على ان تكون هذه في اماكن خفية لا يعلم مراكزها احد سوى مدير الاعاشة العام .

وقررت ان ادرس كافة المناطق التي سنضطر فيها لقبول المعارك المقبلة ، وللتعرف على اهالي القرى والاطلاع على كل ما يهمني امره . فقمت بجولات من بلعا الى الشمال نحو وادي عرعرة . وكانت القرى تستقبلنا استقبال الفاتحين المنتصرين . وكان يشتد حماسهم ويندفعون لقبول تكاليفنا ، والاندماج في تشكيلاتنا عن طيبة خاطر وبرغبة صادقة .

ولقد قسمت ميدان الثورة الرئيسي الى ثلاث مناطق ، المنطقة الاولى : تمتد

شمال طريق طول كرم ـ دير شرف وغربي دير شرف ـ جنين وجنوبي وادي عرعرة . وعينت فخري عبد الهادي قائدا لهذه المنطقة . والمنطقة الثانية : جنوبي طريق دير شرف ـ طول كرم وغربي طريق دير شرف ـ نابلس حتى السهول الغربية ، وجعلت قائدا عليها عبد الرحيم ابو كمال يساعده عارف عبد الرزاق (الطيبة) ، الذي كان مثالا لروح الجندية النظامية بين كافة مجاهدي فلسطين . والمنطقة الثالثة : هي التي تمتد شرقي طريق جنين ـ نابلس ، وكانت بقيادة الشهيد البطل الشيخ سلمان السعدي الصاتوري .

وكانت هناك ، عدا المناطق الثلاثة ، مناطق صغيرة مستقلة في حركاتها الخاصة . ولكننا كنا ربطناها بقيادة الثورة العامة ، لتشترك حين الحاجة ، بأن تقوم بأعمال تجلب عليها القوات الانكليزية ، فتشاغلها ، وتمنعها من الاشتراك بالمعارك الكبرى التي تجري مع قواتنا الرئيسية . وكانت وسائل الارتباط قوية جدا بحيث لم تخطىء مرة في ايصال الاوامر الى هذه المناطق التي لم تتخلف مرة عما طلب منها القيام به من الحركات والاعمال . وهذه المناطق كانت منطقة صفد في الشمال ، ومنطقة القدس ، ومنطقة الخليل ، ومنطقة عكا ، ومنطقة حيفا ، ومنطقة المزار الواقعة بين بيسان وجنين بقيادة الشيخ فرحان الدرع .

ولقد كان المطلوب من قواد المناطق الرئيسية الثلاث ان يؤلفوا في كل منطقة مئة مقاتل نظامي ثابت ، على ان يخصص لهم عرفاء من المفرزة العراقية النظامية، يقومون على تدريبهم حسب منهاج وضع خصيصا . كما ان لجنة الاعاشة قامت على تنظيم قوائم تحوي على مقادير من الارزاق تتناسب مع مقدرة كل قرية ، تقدمها الى الجباة الخاصين ويقوم كل قائد بجمع هذه الارزاق في قرى معينة اولا ، ثم تنقل الى اماكن في الجبال سرية . فبدأت المناطق القيام بأعمالها على غاية ما يرام .

كان الانكليز حريصين جدا على الاطلاع على اعمالنا . فكانوا يبثون رجالهم وجواسيسهم في انحاء المناطق كلها . ولكني خوّلت محكمة الثورة صلاحية واسعة للغاية للقضاء على دابر التجسس ، ولازالة الريبة والشك . فقام السيد منير الريّس رئيس المحكمة بجهود جبارة . وكان يساعده حمد صعب وأبو كمال وفخري والشيخ سليمان السعدي ومنير الخطيب وخضر العلي سكرتير المحكمة . حتى اضطررنا يوما أن نحكم على الشبهات كما اني اخذت أعزل المعسكر عن الاختلاط بأي شخص . وكان نصيب كل من يقترب من المعسكر ، بحسن نية كانت ام بسوء نية ، ان يجلد خمسين جلدة ، الا من كان قادما بمهمة بيّنة الينا . وتمكنّا بهذه التدابير من تطهير المناطق عامة ، والمعسكر خاصة ، من عناصر التجسس . وكثيرا ما حكمت المحكمة بالاعدام ونفذ .

وكان لي تشكيلات سرية خاصة في كافة مدن وقرى فلسطين تمونني بالاخبار الصادقة ، وقامت هذه التشكيلات بأعظم الخدمات التي يجهلها الكل . واني مدين في نجاحنا وانتصارنا الى هذه التشكيلات . تمت هذه التشكيلات والاعمال التي اخذ دولابها يدور بنظام وإحكام خلال العشرة ايام . وأردت اختبار درجة ما بلغت اليه هذه التشكيلات من القوة لاكون على بيّنة من الامر فطلبت في ١٠ـ٩ـ١٩٣٦ تجميع قوات المناطق النظامية ، ونصف القوى الاحتياطية لكل منطقة في قرى صيدا وكفر راع والنزلة الغربية . وبظرف ٣٦ ساعة تم تحشد القوى كافة في المناطق المعينة ، وفي الوقت ، على ما يرام . وكان اول ظاهرة لاستعداد الفلسطينيين لتقبل النظام والتكيف بالجندية النظامية . ولقد قام العرفاء العراقيون بتنظيم هذه المفارز كما أسلفنا . ولقد استبشرت خيرا مما رأيت، فقررت التصدي للقوات الانكليزية ، وانزال ضربة قاضية في معركة نعدها قبل وصول النجدات . وبعد ان تمت دراسة الاراضي تبين لي ان منطقة عرعرة ملائمة جدا لخوض معركة فيها . فزحفنا يوم ١٢ـ٩ـ١٩٣٦ على وادي عرعرة على نظام مسير أرتال صغيرة منفرجة ، تتقدمها أرتال أصغر منها . ولاول مرة تتجمع المفارز الفلسطينية وتسير على نظام عسكري خاص . وكانوا يشعرون بروح جديدة في اتباعهم هذا النظام . كما ان اهالي القرى كانوا ينظرون اليهم بهيبة واعتبار . وصلنا الوادي ورتبنا على سفوحه وقممه خطة لمعركة ، أملنا منها بنصر يقين . ولبثنا كامنين للتحرش بالدوريات والقوات التي تمر هناك ، كي نجبرهم الى جلب قواتهم وقبول المعركة في هذه البقعة .

مرت قرب الظهر خمس سيارات مسلحة، وخمس سيارات مصحوبة بالجند. ولما اقتربت من مراكزنا الامامية ، اطلقت مراكزنا عليها النيران ، ولكن السيارات قفلت راجعة بسرعة ، دون ان تجاوب بطلقة واحدة . وبعد مضي عشرين دقيقة تقريبا وصلت فوقنا طائرتان ، فحامتا مدة . ولقد اطلقت فصائلنا المخصصة لرمي الطائرات عليها ، فأصيبت واحدة منها فولت نحو الغرب والدخان يتصاعد منها ، وسقطت في السهول الغربية ، وتبعتها اخرى دون ان ترمي قنبلة او رصاصة . ادركت ان الانكليز يتحاشون الان خوض اي معركة معنا قبل ورود نجداتهم . ولكي لا أدع هذا التجمع يمر بدون فائدة ، رتبت مفارز لمهاجمة مستعمرة مراح وما جاورها ، ومفارز أخرى لتخريب طريق كركور ـ خضيرة ولغمه . وأرسلناها وفي ١٣ـ٩ـ١٩٣٦ سرنا الى قفين حيث أعدت مفارز المناطق الى مناطقها ، وأبقيت جيش المنطقة الاول مع قواتنا فقط . وتابعت ارسال مفارز صغيرة لتعجيز المعسكرات الانكليزية والمستعمرات اليهودية ، وتخريب الطرق ولغمها . ولكن الانكليز كانوا يتجنبون تحرشنا ، ولا يقابلونه الا اذا كان في مراكزهم . فتجلى لي ان الانكليز متوهمون كثيرا من قوتنا ، وان معركة بلعا أثرت في نفوسهم التأثير المطلوب . ولقد صرح لي احد اعضاء تشكيلاتنا السرية ، ان حاكم نابلس صرح في

مجلس ان رجال الاستخبارات الانكليزية حصلت على المعلومات الوثيقة من اننا نملك رشاشات ضد الطائرات ، التي بواسطتها تمكنا من اسقاط الطائرات في موقعة بلعا ، وان قواتنا النظامية تبلغ الالفين ، وان معاركنا كانت من حيث الترتيب والنظام لا تفرق عن ترتيبات اي جيش حديث ، وانهم يعملون ويبذلون ما في وسعهم للقبض عليّ او لاغتيالي باية وسيلة . وقد خصصوا من اجل ذلك مبلغا غير محدود. كما انهم يسعون لبذر الفساد في صفوف المجاهدين الفلسطينيين وغير الفلسطينيين .

واخذت تردني اخبار متواترة باسماء اشخاص قد اطلق الانكليز سراحهم من السجن ، وبعض منهم من المحكومين مؤبدا ، بقصد اغتيالي ، إما خلال التنقلات او خلال المعركة . وفعلا قبضنا على كثير من هؤلاء ، فاعدمنا من ثبتت الادلة بإدانته ، وقاصصنا من لم تتم الدلائل والشبهات على ادانته .

واخذت الدعاية الانكليزية تنشط في فلسطين ، مدنها وقراها ، فيما يتعلق بورود النجدات العظيمة ، والتي سوف لا تلبث بعد وصولها ان تقضي على الثورة والثوار ، وتجازي كل من ساعد وعاون واشترك من الاهلين ، وغيرها من الدعايات التي تنشر الذعر والوهن والرهبة في القلوب . ولم تخل هذه الدعايات من التأثير على بعض مخاتير القرى ، حتى اصبح الكثير منهم يلازم الحياد ، والبعض الآخر يتظاهر بالولاء للانكليز . ونشط ضباط الاستخبارات الذين اخذوا يسعون للاتصال مباشرة مع المخاتير . وكان قد وصل الجنرال ديل الى فلسطين وطبّلت الصحف اليهودية والانكليزية بشهرته ومقدرته وبما اعطي له من الصلاحيات الواسعة لاستئصال الثورة . كما انهم اشادوا بعظمة الجيوش والمعدات العظيمة التي سوف تصل الى فلسطين لقمع الثورة . الامر الذي تعهد الجنرال بحله بمدة لا تتجاوز الخمسة عشر يوما . ولقد زار الجنرال ديل الامير عبد الله بصحبة المندوب السامي ، وتطرق معه الى حديث الثورة في فلسطين وقد قال المندوب السامي الى الامير عبد الله : نحن هذا قائدنا — ويشير بيده الى الجنرال ديل — واما انتم فالقاوقجي قائدكم ، وسوف ترون المصير . ولقد استولت موجة من الوهن والوهم الاوساط العربية في فلسطين حتى خارجها . وكان لا بد لي من عمل اضع فيه حدا لنشاط ضباط الاستخبارات الانكليز وامنع اتصالهم بمخاتير القرى .

بدات النجدات تصل فلسطين شيئا فشيئا ، وتتجسم معها الاخبار والاشاعات فعزمت على ترتيب معركة انازل فيها الجيش الانكليزي قبل تكامل نجداته ، فاضع حدا لهذه المعركة لايقاف انتشار هذه الشائعات ، ولتحطيم قوى الانكليز بضربة لازبة .

بتاريخ ٢٠-٩-١٩٣٦ طلبت من المناطق ان تجمع قواتها النظامية والاحتياطية في مراكز عينتها داخل المناطق ، منتظرة الاوامر . وتحركت في اليوم نفسه من المنطقة الشمالية مستصحبا قوات المنطقة . وانحدرت جنوبا الى المنطقة الثانية . وبتاريخ ٢٢-٩-١٩٣٦ مساء تحركت من هذه المنطقة الى بيت مرين في المنطقة الثالثة مستصحبا معي قواتها . و٢٣ مساء تركت بيت مرين متجها الى جبع حيث قررت التحرش بالانكليز وقبول المعركة في منطقتها . ولقد رتبت خطا دفاعيا يمر من جنوب قرية الفندقومية ويتجه شمالا بمحاذاة الطريق العام الى جبع ، الى نقطة المزار الواقعة على مرتفعات جبع الشمالية . وقد استصحبت معي كل ما يلزم للغم الطريق العام والجسور ، بحيث نعزل النجدات الانكليزية ، التي سوف تأتي من جنين وطولكرم ونابلس ، عن الاتصال بالقوات الانكليزية الموجودة في هذه المنطقة، ولاجل تضليل القيادة العامة الانكليزية اقررت جماعة بقيادة عبد الرحيم ابو كمال يساعده عارف عبد الرزاق مستصحبين معهم رشاشين خفيفين وبنادق راميات القنابل ، ليتخذوا من مواضعنا في بلعا نفس ترتيبات المعركة السابقة ، حيث يتصدون للقافلة ويصمدون الى ان تأتيهم النجدات . وبينما تكون النجدات الآتية من الشمال تسير من امامنا في جبع لنجدة جندهم في بلعا ، ننقض عليهم من مراكزنا ، وننسف الطريق الملغوم ، فيقع قسم كبير من الجيش في قبضتنا ، ونقضي عليه قتلا واسرا قبل ان تتمكن بقية النجدات التي ضللناها بترتيبات بلعا الصورية ، والتي تكون تغلغلت في جبال بلعا ، من نجدة الافواج التي تقع في شراكنا . تم تنظيم كل شيء حسب ما نرغب ولكن عندما وصلنا قرب منتصف الليلة ، قرية جبع سألت فخري عبد الهادي عما تم بشأن العملة المطلوبة مع الادوات للحفريات من قرية جبع والفندقومية فأعلمني بأن اهل القريتين غير راضين عن نوايانا ، وانهم لم يوافقوا وبداوا يماطلون . فطلبت حالا المخاتير والوجوه ، واعلمتهم عن عزمي الذي يستحيل عليّ التخلي عن تحقيقه . لذلك اصررت بوجوب تنفيذ طلباتنا بأسرع ما يمكن . وبعد اخذ ورد ، تظاهروا بالقبول وذهبوا لتأمين ما طلبناه ، وبقينا نحن بانتظارهم . واذا بخفرائنا يخبروننا عن وجود دبابات على الطريق العام قبالة القرية ، فهرعت الى خارج القرية للتحقق من الامر بنفسي ، فألفيت في الحقيقة دبيب السيارات تتقدم نحو القرية . وبعد لحظة اذا بأنوار تنبعث من هذه الدبابات ، لم اعهد بمثلها من قبل اذ كانت انوارها تخطف ابصارنا، فتوارينا حالا ، وامرت بلزوم السكينة ، وعدم الحركة والحذر . واستطلعت السيارات قدر عشرين دقيقة مراكزنا ثم انسحبت تحت جناح الظلام . ولم تكن وصلتنا الادوات المطلوبة حتى الساعة ، فتأكدت من مؤامرة محاكة قام بها بعض المفسدين من اهالي القريتين . فانسحبت فورا من القرية الى خارجها ، حيث اتخذت من الجبال المحيطة بالقرية من الشرق والجنوب والشمال مراكز حصينة للدفاع . وكانت مفرزتنا المخصصة للتضليل في بلعا قد توجهت اليها . وبقينا على نفس القرار والخطة ببعض التعديل . ولكن وصول اخبارنا الى الانكليز ، قبل

الشروع بالعمل ، انقص من قيمة الضربة الفجائية التي كنا نأمل فيها النتائج العظيمة .

وفي صباح ٢٤ حضر مخاتير قرى جبع والفندقومية معلنين قبولهم مطاليبنا. ولكن الفرصة كانت قد افلتت ، فشكرتهم وأعلمتهم بعزمي على مغادرة المنطقة . وفي الحقيقة كنت مصمما على خوض المعركة فيها ، لان انسحابنا بدون معركة هو فشل وانكسار يؤديان الى تشتيت كلمة الثوار ، وتنقيص قيمتهم وهيبتهم ومعنوياتهم . وما ازفت الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر ، حتى ظهرت فجأة فوق رؤوسنا طائرتان ، كما ان سيلا من السيارات والدبابات اخذ يتدفق من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال نحو (جبع) حيث كانوا يعتقدون بوجودنا فيها .

كانت ترتيباتنا الدفاعية في (جبع) عبارة عن ثلاث مجموعات ، يحتل قسم من المجموعة الاولى القمم الواقعة شرقي وادي جبع ، والمشرفة عليه ، ممتدة على خط يوازيه من الشمال الى الجنوب ، وقسم آخر من هذه المجموعة يحتل القمم الشمالية لهذه السلسلة المشرفة على الوادي الذي يتفرع من وادي جبع متجها من شمال السلسلة نحو الشرق ويمتد هذا القسم من المجموعة الاولى على خط يحاذي الوادي المتفرع ، بحيث تسيطر على جميع منعطفاته . وتتألف هذه المجموعة من مجاهدي الشوام والحوارنة وبدو شرقي الاردن ومفرزة الدروز وفصيل من المفرزة العراقية ، ومقر القيادة العامة .

وأما المجموعة الثانية فكانت على جناحنا الايمن وعلى نفس السلسلة محتلة القمم الشمالية والشرقية والشرقية الجنوبية . وتتألف هذه من فصيلين عراقيين، ومفارز المنطقة الاولى الفلسطينية ، ومن احتياط المنطقة الثانية الفلسطينية . وأما المجموعة الثالثة فكانت تحتل القمم الواقعة في السلسلة الممتدة من قرية جبع الى الجنوب ، يحدها وادي جبع شرقا ، والطريق العام جنين ـ نابلس غربا. وتتألف هذه المجموعة من مفارز المنطقة الثالثة الفلسطينية النظامية والاحتياطية، وفصيل مختلط من الشوام والعراقيين . وكانت تسيطر على الطريق العام ـ جنين ـ نابلس ـ وعلى قرية جبع وقسم من واديها .

ولقد كانت مجموعاتنا تشكل هلالا يحيط به فرع وادي جبع الشمالي وطريق جنين ـ نابلس ، ويقطعه وادي جبع الى قسمين . كان اول عمل قمنا به على اثر ظهور السيارات ان ارسلنا الاثقال والنحيل الى قرية (ياصيد) التي تبعد ١٢ كيلومترا عن جبع متسللين في الوادي . وقد افتتحت الطائرات المعركة ، وكانت تحوم على ارتفاع قاصي جدا ، فأخذت قناصتنا الخاصة بالطائرات ترميها . ولم

يمض عشر دقائق حتى كانت الاولى مصابة مولية ، تجر ذيلا طويلا كثيفا من الدخان الاسود . وعلى اثر اصابتها ارتفعت بقية الطائرات الى ارتفاع ، أصبح تسديد قذائفها علينا صعبا . وكانت الجنود قد ترجلت من السيارات وأخذت الارتال تتقدم منتشرة نحو قرية جبع . وأفواج اخرى نحو مرتفعات تقع مقابلة للسلسلة التي تحتلها مجموعاتنا الاولى والثانية . كما ان المدفعية الآلية اسرعت الى قمم الوادي بالقرب من قرية جبع ، حيث اخذت مواضعها تحت اشجار الزيتون الكثيفة . وبدأت ترمي المدفعية والطائرات القنابل بسرعة وبشدة ، كي تمكن الافواج من احتلال القمم بسهولة وبدون خسائر . وكان رتل ثالث مؤلف من عدة أفواج يستدير من وراء السلسلة المجابهة ، للاحاطة بجناحنا الايمن . ولقد تمكن الرتل الاول الموجه الى قرية جبع من احتلال القرية دون عناء ، ثم تقدم متسلقا القمم المحتلة من قبل مجموعتنا الثالثة . كانت القمم هذه معرضة الى نيرانالمدفعية التي تمكنت من صب نيرانها المسددة ، فألجأت مفارزنا الى التخلي عنها والتراجع الى الوراء ، حيث تمكن الرتل الانكليزي من احتلالها بسهولة. ولم يكتف هذا الرتل باحتلاله هذه القمم فقام بهجوم عنيف ، تحميه المدفعية والطائرات ورشاشاته العديدة على القمم الممتدة نحو الجنوب . فتمكن من طرد مفارزنا منها ، وأصبح بتقدمه هذا يهدد جناح المجموعة الاولى الايسر . وأخذت رشاشاته تمطر نيرانها على هذا الجناح ، حيث وقعت فيه اصابات عديدة .

وقام الرتل الثاني بدوره بهجوم عنيف على جهة المجموعة الاولى ، بحماية نيران جهنمية مدفعيته ورشاشات ومدافع الدبابات التي تمكنت من التقدم الى هذه الجهة ، بينما اخذ الرتل الثالث يزحف حتى تمكن من التقرب الى جهة المجموعة الثانية التي كاد يحيط بها ويخترقها . وكانت الجبهة كلها في هذه اللحظة على أشد ما يمكن تصوره من الخطر ، وكانت وصلت المعركة الى منتهاها من الاحتدام والشدة . وأي تراجع من اي نقطة كانت، في مثل هذا الموقف يؤدي حتما الى كارثة لا يمكن تلافيها . فالسلاح الوحيد والحل الوحيد كان في الثبات وتحديد تقدم العدو في الاجنحة. اما الثبات فكان ظاهرا في جميع أقسام الجبهة. وقد أبدى الفلسطينيون في هذه المعركة ما حقق آمالنا فيهم . وكان لا بد لي من هجوم اقوم به على احد الارتال لتوقيف امتداد حلقة التطويق ، ولانقاذ الموقف من الخطر المحدق . فانتخبت أخطر رتل اذا تمكنا من صده استطعنا ترجيح كفة النصر الى جانبنا . ولقد وجدت في وضع الرتل المهاجم لجناحنا الايسر ، والذي يستند في تقدمه على الدبابات التي تحميه من الطريق العام ، الفرصة الملائمة التي أتحراها . فوجهت هجوما مقابلا من مفارز فلسطين ، تسندها مفارز اخرى دمشقية وعراقية ، على الجناح الايمن لهذا الرتل . وكان هذا الهجوم عنيفا وسريعا ومفاجئا ، بحيث لم تتمكن الدبابات من صده . ولم يكن قائد هذا الرتل ليتوقع مثل هذا الهجوم في مثل هذا المكان الامين بالنسبة اليهم . وكانت بسالة

الفلسطينيين في هذا الهجوم كذلك مثالا للشهامة والشجاعة والنظام . واصبح هذا الرتل في لحظات محاطا ومهددا من ورائه . وقمنا ببقية المجموعة الثالثة بالضبط الزائد على جبهة الرتل هذا ، فلم يسعه الا التراجع تحت نيراننا المؤثرة ، ولم يلبث هذا التراجع أن انقلب الى هزيمة . فأصبحت قرية (جبع) نفسها الان، والسيارات والاثقال الانكليزية كلها ، تحت نيران مفارزنا ، التي اخذت تصليها نارا حامية . وكان لا يزال رتل الاحاطة يحاول اختراق المجموعة الثانية بهجمات عنيفة يقوم بها ، تحميه الطائرات والمدفعية بكل ما أوتيت من قوة . ولاجل ايقاع هذا الرتل في ورطة او اجباره على الانسحاب ، عمدت الى توجيه مفرزة مختلطة من العناصر كافة الى القمم التي تصل جناح هذا الرتل الايمن بالجناح الايسر للرتل الآخر المجابه لمجموعتنا الاولى . وكانت وعورة الاراضي خير عون لنا على مثل هذه المحاولة ، وكانت خفة جنودنا ونشاطهم اللذان يمتازون بهما على الجنود الانكليزية، تؤثر التأثير الحسن على مجرى أعمالنا . وكان هذا الهجوم في ذات الوقت مباغتة للعدو غير منتظرة . فارتد جناح الرتل امام وثبة مفارزنا التي لم يشاهدها الا فجأة ، وعلى مسافة قريبة منه . ولم يلبث ان ارتد الرتل بأجمعه الى الوراء ، منحدرا السفوح والوديان تحت النيران الشديدة . فمالت كفة النصر الى جانبنا ميلا عظيما ، فاشتد حماس القوم ، كما اشتد الذعر في نفوس عدونا ، الذي اخذ يتقهقر على طول الجبهة تاركا كثيرا من التجهيزات والمعدات وراءه . وكانت معركة اليوم هي معركة تكريم للنجدات الانكليزية التي وصلت حديثا الى فلسطين . فهي تنهزم مسرعة الى قافلة السيارات ، ولكننا لم ندعها تفلت بسهولة ، اذ ارسلت اكثر المفارز في تعقيبها ، واحتلال القمم المشرفة مباشرة على الطريق العام : جنين ـ نابلس شمالي جبع وجنوبها ، وكنت كلفت المفارز الفلسطينية القيام بهذا الدور . وأصبح الطريق العام وما فيه من ارتال السيارات تحت نيران المجاهدين . فأدرك القائد الانكليزي الخطر ، وتأكد له انه واقع في كارثة لا ينقذه منها الا التجاؤه الى الحيلة . فعمد الى حمل اهالي قرية جبع قسرا ، حيث وضعهم وقوفا مجابهين المجاهدين ، واختبأت الجنود الانكليزية وراء أظهرهم واضعين حرابهم في أقفية هؤلاء المساكين . وقد أفادتهم هذه الحيلة كثيرا ، حيث كف المجاهدون عن الرمي، كي لا يصيبوا اخوانهم . ومع ذلك فقد ظلت فجوات كثيرة في أرتال السيارات غير محمية فأصلاها المجاهدون ، واستمر التقتيل ، والنيران تحف بالارتال حتى وصلت الى مراكزها .

جعلت هذه المعركة الفجائية التي كانت نتيجة غدر ووشاية ، الاهلين في يأس وقنوط من خلاص مما وقعنا فيه . ولكنهم لم يتمالكوا انفسهم عندما رأوا هزيمة الجنود وتعقب مجاهدينا البواسل لهم ، من الاندفاع بحماس وراء السيارات وعلى جوانبها . كما ان المجموعة التي ارسلناها الى بلعا (والتي تبعد ١٥ كيلومترا من جبع) بقيادة عبد الرحيم وعارف عبد الرزاق للتضليل ، قامت بمهمتها خير قيام.

اذ انها عند احتدام المعركة تصدت لقافلة السيارات التي تنقل النجدات من طول كرم الى جبع ، فأوقفتها ، وأجبرتها على قبول معركة واستدرجتها الى أطراف قرية بلعا ، حيث ادركت القافلة بعدئذ انها خدعت . فصرفت النظر عن تعقب المفرزة ، وتابعت سيرها الى ميدان جبع ، ولكنها وصلت متأخرة . ولقد قامت هذه المجموعة بواجبها عند انسحاب الجنود ليلا الى مراكزهم واستلمت فلولهم المتجهة الى طول كرم فأصلتها نارا مؤثرة سببت لها خسارة زائدة . ولقد استقبلت معسكرات الجيش الانكليزي هذه الليلة جنودها الذين غادروها صباحا بأنفة وشموخ ، بذلة وانكسار تجر معها قتلاها وجرحاها .

جرت هذه المعركة الموفقة على تعبئة تخالف ما اتبعناه في قتالنا في معركة (بلعا) . اذ كنا في معركة بلعا مدافعين فقط ، ولكنا في جبع كنا مدافعين مهاجمين معا .

وكان لهذه المعركة صدى عظيم من الاعجاب والتقدير في الاوساط الفلسطينية والعربية كافة . وكانت برهانا ساطعا على فضل سلاح ايمان جنودنا القوي ، وتفوقه على مفعول سلاح العدو الآلي الفتاك الذي كان وسيلة لفرض الاستعباد والظلم على النفوس .

وكانت خسائرنا في هذه المعركة : ستة شهداء وتسعة جرحى . اما خسارة العدو فتجاوزت المائتين من الجنود ، وضابط ذو رتبة عالية ، وعدة ضباط ، وثلاث طائرات . وكانت غنائمنا في هذه المعركة من المسدسات والعتاد ومخازن الرشاشات والخوذ الفولاذية والبرانيط والتجهيزات الشيء الكثير .

اما القوى ، فكان مجموع قواتنا لا يتجاوز الثلاثمائة. وتجاوزت مجموع قوات العدو في خط النار الاربعة آلاف جندي ، وله من الاحتياط والقوات المرتكزة في النقاط المحيطة بمنطقة المعركة ما يقارب العدد نفسه .

ولم تنته المعركة وذيولها الا بعد الساعة التاسعة مساء . ولم نتمكن من جمع الجرحى ، وارسالهم الى قرية ياصيد والشهداء ومواراتهم في التراب الا بعد الساعة الحادية عشرة ، حيث وصلنا الى قرية (ياصيد) بمجموع المجاهدين . وكان التعب والاعياء بالغين أشدهما ، وكان لاهالي القرى المجاورة لميدان المعركة الفضل الاكبر في تخفيف العناء عن المجاهدين ، وذلك لانهم لم تكد تنتهي المعركة ، حتى جمعوا لنا المياه في براميل بثوها في الوديان المقررة للتجمع . قدمت للمجاهدين الذين اخذ الظمأ منهم كل مأخذ ، لما صرفوه من جهود اثناء المعركة في حركاتهم في الجبال والوديان المحرومة من المياه ، وتحت تأثير حرارة الشمس المحرقة .

كما ان رجالهم ونساءهم انتشروا في ميدان المعركة يتفقدون الجرحى والقتلى ، ويعاونوننا في جمعهم ، كما انهم امدونا بالارزاق وبوسائط النقل ، فسهلوا علينا سرعة التنقل الى ياصيد .

وبالجملة كانت هذه المعركة اروع واعظم من معركة بلعا ، وكان النصر كذلك اعظم . وكان من ابرز نتائج هذه المعركة تلاشي الدعايات ، وزوال هيبة جيش العدو في فلسطين ، واندلاع نار الحماس في النفوس ، وازدياد الثقة والامل لدى رجالات البلاد المسؤولين . كما ان الاضطراب والقلق اخذا يظهران بوضوح في الجيش والادارة الانكليزية في البلاد وعلى صفحات الجرائد والمجلات الانكليزية خاصة والاجنبية . اما خارج فلسطين فقد اشتد الحماس والهياج في العراق لدرجة الخطورة ، وكذلك في سورية ، خلا نجد والحجاز اللذين اعتقد انهما لم يدريا بالحروب القائمة في فلسطين البتة . فأخذت على الاثر تتألف لجان الاسعاف والاعانات في العراق وسورية وشرقي الاردن . واخذ العرب يبذلون بسخاء لمساعدة فلسطين . كما ان الرسائل اخذت ترد عليّ في ميدان المعركة من كل انحاء العالم العربي ، مُظهرين استعدادهم للتطوع .

كانت النجدات الانكليزية لم تصل جموعها الكاملة بعد . ولكن النشاط والهمة ازدادت على اثر المعركة لإمداد الجيش في فلسطين بقوات كبيرة بأسرع وقت . واخذت ترد من مصر برا ، بينما كانت البواخر تجتاز البحار مشحونة بالجنود والذخائر الى فلسطين . وكنت اشعر بقلق زائد من فقدان العتاد اولا ، والذي نضب معينه لدينا ، والذي لم يرد الينا منه بعد . كما انه كان لا بد لي من ان اقوم بايجاد منابع قوة جديدة للثورة ، واكمال تنظيم الثوار وتدريبهم استعدادا لمجابهة القوات الجديدة ، التي ولا شك سوف يدخل منها المعارك المقبلة عشرات اضعاف قوتنا . لذلك قررت :

اولا : تنظيم قوات فلسطين الاحتياطية ، وذلك بتقسيم المجاهدين الى اجزاء صغيرة ، تدرب تحت قيادة عرفاء عراقيين ، حسب منهاج خاص ، من شانه ان يهيء هذه الاجزاء لقتال جيش آلي في ارض وعرة بأسرع وقت ، وخصوصا تعلّم اصول الرمي ضد الطائرات والدفاع ضد الدبابات . وبدات هذه الاعمال تدور بسرعة واتقان صباح كل يوم ومساءه ، حتى اصبحت مناطق الثورة تشبه معسكرات التدريب لجيش نظامي . وكان استعداد الفلسطينيين وإقبالهم شديدين . وقد استطعنا بذلك ان نحصل على نتائج قيّمة ، وعلى عناصر نظامية، يركن اليها في المعارك المقبلة . وكنت اتوقع ان تكون المعارك هذه شديدة للغاية ، وذلك لان انكسار الانكليز في جبع وضع القيادة الانكليزية في مأزق حرج جدا ، فهي مضطرة لاعادة هيبتها واعتبارها اللذين اضاعتهما ، بقيامها بجهود جبارة

لتنظيم معركة تدخل فيها اكبر عدد يمكنها من القوة لتقضي بها علينا ، ولتستعيد فيها مركزها السالف .

وبينما كانت اعمال التدريب قائمة على قدم وساق عندنا ، وورود النجدات والاستعداد جاريا في معسكر العدو بنفس الحماس والشدة ، كنت اسعى بقوة لتأمين منابع قوة جديدة . لذلك كانت رسلنا تعمل في شرقي الاردن وسوريا والعراق . واخذت تردنا زمر المتطوعة الواحدة تلو الاخرى من شرقي الاردن وسوريا . وتم لنا الحصول على كميات لا بأس بها من العتاد ، فكنا جاهزين لقبول معركة جديدة . وقد ظهر لي ان الانكليز قد اتموا في الوقت نفسه استعداداتهم، وهم ينتظرون ورود آخر النجدات التي اعدوا لكل وحدة منها عملها في المعركة التي يعدّونها . كما ان ضباط الاستخبارات والادارة الفلسطينية نشطتا من جديد ، واخذتا تستميلان مخاتير القرى وشيوخها ، مستعملة الشدة معهم ، منتحلة اعذارا من أوهى الحوادث لنسف الدور في القرى ، وفرض الغرامات كذلك من جديد ، مما ضعضع معنويات الاهلين . وكان الجنرال ديل يطوف ذات الوقت مراكز الاقضية ، ويطلب وجهاء القرى ومخاتيرها ، حيث يخطب فيهم واعدا متوعدا ، مظهرا لهم حسن نوايا بريطانيا وانه لا يوجد مانع ما لاعطائهم حقوقهم ، الا وجود الثوار الغرباء الذين هم سبب القلاقل والاضطرابات في البلاد . وقام الحكام العسكريون في جميع المناطق بالمهمة نفسها . ولم تخل هذه المحاولات من نتائج سيئة جدا بالنسبة لنا ، اذ ان كثيرا من القرى الضعيفة آثرت الانسحاب ، كما أصبح بعضها وسيلة لتهبيط العزائم ، مع العلم انهم من المجاهدين .

ولم يسعني ، مقابلة لهذه الاعمال ، الا ان اقوم بأعمال مماثلة لايقاف دعاياتهم والحيلولة دون استمالة الاهلين ، مستفيدين من سذاجتهم وطيبة قلوبهم . لذا جمعت كثيرا من صناديق الديناميت والقنابل ، واعلنت عزمي على نسف دور كل من تسول له نفسه الاتصال مع رجالات الانكليز ، او يقدم لهم اي نوع من المساعدة . كما اني اخذت ادعو المخاتير لاجتماعات أعقدها في أماكن مختلفة ، أبيّن لهم فيها خبث الانكليز وما يرمون اليه من الافساد والتفرقة ليسهل عليهم القضاء على الثورة وعلى البلاد ، بعد ان عجزوا عن القضاء عليها بقوة السلاح . فكان لهذه الاجتماعات أثرها الحميد .

وبعد ايام من معركة جبع ايقظني الحارس بعد منتصف الليل ، يعلمني بأن هناك رجلا يلح في مواجهتي . فأذنت له بمقابلتي ، فاذا برسول يحمل كتابا اليّ من الامير عبد الله ، ورسالة شفوية منه ايضا ، يقول فيها ان الحالة الراهنة في فلسطين ستودي حتما الى الدمار ، بسبب تعنت اللجنة العربية العليا ، وإصرارها على آرائها المتطرفة ، وانه ثبت عدم اهليتها لادارة شؤون البلاد ، وانه يجب

تأليف لجنة عليا أخرى ، يكون اعضاؤها من اهالي القرى ووجوهها وزعماء المجاهدين . ويقول الامير ان لجنة كهذه ، اذا تألفت ، تجد من الانكليز تساهلا وميلا للتفاهم ورغبة . كما أخبرني ان سمو الامير يرغب في معرفة الاشخاص الذين اتفقت معهم على المجيء الى فلسطين ، والقيام بالثورة فيها ، ومعرفة قوتنا، وأنواع اسلحتنا وعتادنا ، وعن حالتنا ، كي يتمكن من مساعدتنا . فبهتّ ، ودهشت لسماعي هذه الفكرة التي ترمي الى شطر البلاد الى قسمين وبث بذور الفتن والفساد في الصفوف ، وايقاع اهالي البلاد بعضها مع بعض في أختلافات . وكأن الثورة تنتقل بعدها من خصام بين العرب والانكليز ، الى خصام بين العرب والعرب انفسهم . فأجبته بغضب : ان هذه الرسالة غير صحيحة ، واذا صحت لا يمكن تحقيقها ، او التحدث بها . وأثبتّ له ان ما يطلبه سموه مني من المعلومات يهم الانكليز امرها اكثر منه . وبينما الشكوك تخامرني ، اذا به يناولني كتابا من الامير ففضضته ، واذا به ما يأتي :

٧ رجب

«عزيزي القائد الوطني الباسل فوز الدين بك القاوقجي حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فقد بلغني في حينه خبر قدومكم الى فلسطين ، فلم أستغرب ذلك منكم ، ولا استعظمته ، لعلمي بما طبعتم عليه من حميَّة دينية ، وما تحملون في صدوركم من غيرة وطنية . وانكم لكما قال الشاعر : لا يسألون أخاهم حين يندبهم – في النائبات على ما قال برهانا .

ولقد علمت كذلك بمقدم القواد المجاهدين ، ومن تطوع في سبيل فلسطين العزيزة من ابناء الوطن العربي الكريم . الا ان الاخبار عنكم مشوبة بالكثير من الغموض . وأما الذي أجمعت عليه الكلمة ، فهو اخلاصكم لله وللأمة ، فيما نعلم ، وان لا هدف لكم الا خدمة البلاد .

اني لا أدري عن الوضع الحاضر بالنسبة اليكم . وجلّ ما أعلمه ان الحكومة البريطانية كانت ترجو طيلة مدة الصيف انتهاء الحركة بفلسطين ، ولما قنعت الان ان الشوط بعيد ، ابتدأت تنظر الى المسألة بعين الجد . وقد أمدت قواها بفلسطين بقوى أخرى ، دأبها في كل حرب خارجية او غائلة في مستعمراتها . ولقد أقبل الشتاء وهي بادئة أعمالها ، وفلسطين متعبة تحت تأثير التعطيل في الاعمال والاضراب ، ولا يعلم ما وراء هذا الا الله .

اما اللجنة العربية العليا واللجان الاخرى ، فلا يساورني شك انهم من أرباب

الحمية وذوي النية الصادقة ، الا ان الاوطان كان أثمن من ان تعرض للخطر لمجرد ملاحظات غير مدعمة ببراهين ، او لوعود غير مؤيدة بحقائق . وأسأل الله التوفيق في حل الإشكال الحاضر بأسرع ما يمكن ، قبل ان تقضي بقية العرب دون جدوى. ان آماني الوثيقة بأن اهل فلسطين ، اذا اغتنموا الفرصة قبل فواتها ، سينالون في المفاوضات بعض المهم مما يطلبون ، ويدرؤون الكثير من الخطر الذي يخافون ، ولا أخالكم ورفاقكم المحترمين الا على هذا الرأي ان كانت الوضعية العامة كما أعلم، ولم يكن لديكم جميعا ما يخفى عليّ . وان كان لديكم منه شيء ، فاني واثق باخلاصكم لله والوطن . وما اردت بما كتبت الا ايضاح الحالة لكم كما هي ، وكما اراها انا ، لعلمي باعتدادكم بآرائي ، وعلمكم باخلاصي لله وللوطن» .

قرأت كتاب الامير عدة مرات ، وتأكدت من التوقيع . فزادت دهشتي واستغرابي من موضوع الكتاب الذي يتلخص بتهديدنا بنجدات الانكليز وقواتهم الهائلة ، وبتحميلنا مسؤولية اضراب البلاد ، والطعن باللجنة العليا وطلبه ضمنا انعزالنا عنها ، وتشويقنا وترغيبنا في الاستسلام ، قبل ان تبطش نجدات العدو بنا ، واستدراجنا الى اعطائه اسرار الثورة ، وهذا ما لا يمكن تصور صدورة من امير عربي ، كما انه لا يمكن تنفيذ او اعتبار اية فكرة منه .

كانت تشكيلاتنا السرية للاستخبارات داخل فلسطين تقوم بأعمالها على غاية ما يرام . وكانت التقارير ترد عليّ من اعمال الانكليز ، ودرجة استعدادهم وعن نواياهم ، ومقادير النجدات التي وصلت ، بتفصيل شامل ووضوح ، بحيث كنت أعد أعمالي على ضوء هذه التقارير . ولقد تبين لي منها ان أواخر النجدات على وشك الوصول ، وانه يصبح مجموع الجيش الانكليزي بعد تكاملها ستين الفا . وكان هذا العدد عظيما جدا بالنسبة الى عددنا الضئيل ، وبالنسبة الى ضيق المنطقة التي نحارب فيها . وكان أهم سلاح في نظري يحمله هذا الجيش سيارات النقل ، التي كانت تستطيع جلب اكبر قوة من الجنود الى المركز المطلوب في أسرع وقت . ونظرا لعدم تمكن القيادة الانكليزية من القضاء علينا ، ولما منيت به من الانكسار والفشل في المعارك السابقة ، ولما يتوفر لديها الان من القوى الفائقة . كنا نتوقع معركة فاصلة تضع القيادة الانكليزية فيها كل آمالها . لذا كان من المتحتم علينا ان نعمل على اشغال وحدات كثيرة من جيشهم في مناطق مختلفة . كما كان يجب علينا عرقلة تنقلاتهم السريعة ، وتحشيدهم القوى في النقاط الخطرة علينا . فعمدت الى اثارة نشاط ميادين الثورة البعيدة عن الميدان الرئيسي . فبدأت هذه اعمالها ، مما اضطر الانكليز الى توزيع كثير من قواهم في تلك الميادين. كما انني نشطت الى تخريب الطرق والسكك الحديدية والجسور وأنابيب البترول. وأخذ هذا النشاط يزداد ، وتزداد معه عرقلة اعمال الجيش الانكليزي . وكنت كما ذكرت سالفا أعددت مفرزة خاصة للتخريب بقيادة عرفاء الهندسة من المفرزة

العراقية . ولم يتم تشكيل هذه المفرزة في حينه مع الاسف لاسباب . فعمدت الان لتشكيلها ، نظرا للحاجة الماسة اليها في هذه الظروف . وتم جمع ما نحتاج اليه من صناديق الديناميت والمفرقعات وغير ذلك من الادوات ، في الوقت الذي كانت المفرزة تعمل في تخريب الانابيب بنشاط . ولقد شعر مدير شركة النفط في حيفا بالخطر الذي يهدد الانابيب في منطقته ، وأيقن ان الجيش الانكليزي لا يستطيع حماية هذا الخط من عبثنا فيه . لذلك طلب مدير فرع حيفا بتاريخ ١٨-٩-١٩٣٦ مواجهتي ، للتفاهم على طريقة يتفق عليها لحفظ انابيب البترول من التخريب . فعينت له مكانا وزمانا ، حيث حضر فيه ، وتباحثنا . وكان يحمل ملفات يعرضها عليّ لاقناعي بأن متوسط ما تتكلفه الشركة من تخريباتنا شهريا الف وخمسمائة جنيه فلسطيني ، ولقد أبدى لي استعداده لدفع مبلغ خمسمائة جنيه شهريا لقاء عدم تخريبنا الانابيب في منطقته ، حفظا لاعتباره وشرفه . كما انه اشار عليّ بتخريب أماكن خارج منطقته ، يكون مفعولها اعظم ، وبتخريب انابيبها ينقطع مرور البترول الى منطقته بدون تخريب فيها . فتظاهرت له بقبول فكرته ولكني أعلمته في الوقت نفسه ان هذا المبلغ الذي يعرضه عليّ لا يكفي ، لانني احتاج الى حراسة الخط ، والى تشكيل مفارز اخرى للتخريب في المناطق الاخرى ، وهذا يكلفني مبلغا اعظم ، واذا كان المعدل المتوسط لخسارتهم ١٥٠٠ دينار الى الان ، واذا نفذنا المنهاج الذي أعددناه تصبح الخسارة في منطقته اكثر من عشرة أضعافها . فدهش ، وظهرت عليه علائم القلق والاضطراب ، وقال لي : ما هي خطتكم ؟ قلت: ان الامر بسيط ، تدمير خط الانابيب من بيسان حتى حيفا في ليلة واحدة على شكل يتعذر على الشركة تعميره في وقت قصير . على ان تتكرر هذه العملية كلما جددت الشركة عمارة الخط . فعاد يسألني عن المبلغ الذي طلبه . فقدمت له رقما عظيما . فقال : حسن ، اني سأعمل على اقناع اعضاء الشركة لقبول مقترحاتكم. فحددت له اسبوعين للاجابة . وافترقنا .

كانت رسلنا في شرقي الاردن ناشطة للغاية في اعداد هذه المنطقة لتكون معدة لثورة ، نشغلها فيها عندما نشعر بعدم استطاعتنا مقاومة الجيوش الانكليزية في فلسطين ، فنوسع ميدان الثورة ، وندخل اليها عناصر جديدة تلجىء الحكومة الانكليزية الى جلب أضعاف أضعاف ما جلبته الى الان من القوى، واني متأكد بأن ظروف اوروبة السياسية غير ملائمة للانكليز ، ولا تسمح لهم بجلب مثل هذه القوى الى ميدان الثورة الجديدة . كما اني متأكد بأن اشتعال الثورة في شرقي الاردن يسبب ثورات اخرى في بقية المستعمرات الانكليزية ويجبر الجزيرة العربية على الاشتراك الفعلي فيها ، فتصبح بريطانيا امام خطر يهدد كيانها ، كل ذلك في سبيل تفانيها في خدمة السياسة الصهيونية في فلسطين .

ولما وصلت آخر وحدة من نجداتهم الى فلسطين ، كانت شرقي الاردن معدّة

للثورة . ولقد طلبت تأجيل ارسال النجدات من شرقي الاردن نفسها ، فاكتفيت بما أعددته في فلسطين .

وفي ليلة ٢٥-٢٦/٩/١٩٣٦ وردتني التقارير المفصلة عن كثرة تحشيد الانكليز القوى في نابلس ، التي ضاقت بهم حتى اضطروا الى وضع ايديهم على الفنادق والمؤسسات الحكومية ، حتى المنازل ، التي طردوا اصحابها منها ليسكنوا ضباطهم فيها . اما الجنود فقد ملأت أطراف البلدة بخيامهم ومعداتهم ومدافعهم وسياراتهم في معسكرات محصنة بالخنادق والاسلاك الشائكة ، يحرسها خط من الدبابات من الخارج . ولقد بلغ الغرور بقائد المعسكر هذا لدرجة انه لمجرد سماع عدة طلقات اطلقت حوالي معسكر نابلس في احدى الليالي ، قبض على زعيم نابلس سليمان طوقان رئيس بلديتها ، وجلبه الى المعسكر قائلا له : ان كلابك لم تدعنا ننام. ثم امر جنده احضاره الى سطح الفندق ، حيث وضع الرشاشات بين أكياس الرمل ، فأمضى الزعيم ليلة ليلاء وراء الرشاشات . ولقد كان في هذه المعاملة من الجبن اكثر من الغرور . ولقد أجابه الزعيم في اليوم التالي باستقالته من رئاسة البلدية مع بقية الاعضاء ، كما رد الوسام الرفيع الذي يحمله من الحكومة البريطانية الى المندوب السامي ، رافضا حفظه . ولقد أحسن الزعيم كل الاحسان فيما فعل . فكانت الفرصة ملائمة للقيام بعمل أتحدى به الجيش الانكليزي بعد تكامله ، وأظهر به عدم اكتراثنا بقوته . فعمدت الى تنظيم مباغتة ليلية لهذا المعسكر ، يكون خير عمل استقبل به النجدات الجديدة التي وصلت ، وأزرع في نفوس رجالها الخوف والرهبة ، فيكونون سمعوا مني بهذه المحاولة أصدق أخبار الثورة .

خصصت لهذه المباغتة اكثر الجنود خبرة بأراضي هذه المنطقة . وألفت خمسة مفارز تطوق معسكر العدو من نواحيه الثلاث ، حيث تمطره نيران مؤثرة من سفوح الجبال المتحكمة عليه من قريب . تم تأليف هذه المفارز كل في مكانه وطلبت رؤساءهم ، حيث اعطيتهم التعليمات اللازمة عن كيفية تنفيذ هذه المباغتة ، وحددت لهم ساعة حركة كل مفرزة من مكانها ، وطريقها الى موضعها . كما اني حددت لهم ساعة الشروع ، وهي التاسعة تماما ، معتقدا ان الجند الانكليز في مثل هذه الساعة يكون في حالة تناول الويسكي بعد عشائه ، وفي سمر ومنادمة. تم كل ذلك دون ان يطلع احد على اخبار هذه المحاولة . وكنا حينئذ في قرية عصيرة . وبعد ان زودت رؤساء هذه المفارز بالتعليمات اللازمة ، وأرسلتهم قفلت راجعا مع الجيش الى قرية (ياصيد) . وفي ليلة ٢٨ – ٢٩ ، وهي ليلة المباغتة ، خرجنا من القرية لنزهة حواليها بعد تناول العشاء ، بين اشجار الزيتون ، وكنا نفحص ساعاتنا دقيقة دقيقة ، وكانت الساعة التاسعة الا خمسة . وأخذنا ننصت، وكانت أقل حركة تهيجنا . وأخذ كثير من اخواني في تلك اللحظة علما بما أعددنا لهذه الليلة . وبعد دقائق اذا بنا بانفجارات متتابعة سريعة من مدافع معسكر

نابلس ، وكانت المفارز قد شرعت في المباغتة . ومن عظم الانفجارات وكثرة اطلاق المدافع والرشاشات والانوار الكشافة التي تحوم على السفوح المحيطة بنابلس علمنا بأن المباغتة كانت موفقة . وكان منظر الانوار المتصاعدة من وديان نابلس رهيبا للغاية ممتعا . وقد دامت هذه المباغتة ، التي انقلبت فيما بعد الى معركة حامية مع المعسكر الانكليزي ، حتى الساعة الحادية عشرة حيث تمكنت مفارزنا من الانسحاب كل الى مركزه المعين ، حسب التعليمات المعطاة بسلامة . وبعد انتهاء المباغتة انسحبت مع الجنود من قرية (ياصيد) الى بيت امرين . وقد علمت ان المباغتة كانت على غاية ما يرام ، وان المفارز احتلت مواضعها في الوقت المحدد، وان بنادقنا قاذفات القنابل هي التي افتتحت المباغتة فتبعتها رشاشاتنا المغتنمة من الانكليز ثم عمت النيران الجبهة حتى أصبح المعسكر داخل هلال من نار . وكانت النيران مؤثرة للغاية ، اذ كانت الاهداف قريبة وكبيرة ، وكانت المفارز كلما اطلقت النيران تترك مواضعها عقب اطلاقها ، فتطلق من جديد مواضع جديدة . مما جعل الانكليز يعتقدون ان المباغتين هم الجيش الثائر بكامله . ولكن في الحقيقة لم يكن عدد المباغتين سوى مئة مجاهد . وبالرغم من كثرة النيران التي أطلقها العدو من كافة اسلحة المعسكر ، ومن نيران رشاشات الدبابات التي تقربت من مواضع الثوار كثيرا . فكان لهذه المباغتة اثر عظيم على معنويات الجند الانكليزي القادم حديثا ، والذي لم يعرف عن الثورة اكثر مما سمعه من أفواه الضباط . وكانت الاصابات فيهم عديدة لحد كبير وتأثير هذه المباغتة على معنويات الجند لمسناها في معركة اليوم التالي في (بيت امرين) .

كان العدو بعد ان تكاملت قواته على أتم استعداد للقيام بحركات واسعةالنطاق، ليقضي علينا في مدة لا تتجاوز الاسبوع ، كما كان يصرح قواده في كل مناسبة . وكان تحدينا للقوات الانكليزية في مباغتة معسكر نابلس ، عامل استفزاز قوي يدفعه للاسراع في تنفيذ خططه. وكنت قبل تركي (عصيرة) متوقعا معركة في اليوم الثاني . وكانت خطة هجوم الانكليز علينا مرتبة بالنسبة الى وجودنا في (ياصيد) . ولكن انسحابي من (ياصيد) الى (بيت امرين)، جعلنا نتحكم على مجرى حركاتالعدو نحو (ياصيد) بدون ان يشعر .

وفي صباح ٢٩ـ٩ أخليت الثكنات والمعسكرات في كافة انحاء فلسطين من الجيش ، وأخذت الارتال الطويلة من السيارات تسير نحو المراكز التي خصصت لها . وأخذت الطائرات تحوم فوق (ياصيد) وجوارها ، وظلت ملازمة لهذه المنطقة، ولم تنفك عنها حتى الليل . ولم تأزف الساعة العاشرة صباحا حتى كانت الوحدات الانكليزية محتلة الجبال الجنوب غربية لقرية عصيرة وطلوزة ، الفارعة ، طوباس فجديدة سيريس ، ميثلون ، سانور ، غزة ، عجة بحيث يكون تأسس من هذه القرى نطاق على شكل قوس يبتدىء رأسه من جنوبي شرقي مراكزنا حتى الشمال الغربي . وبعد ان ألفوا من سبسطية وبرقة وفندقومية وجبع والسيلة قوسا آخر

اصبحنا ضمن دائرة كاملة محيطها اكثر من **٢٥ كيلومترا** . وبعد ان تركوا في هذه القرى قوى يتألف منها النطاق الخارجي ، وتربطها السيارات المصفحة ، زحفوا بثلاثة ارتال من الشمال والشرق والجنوب مستهدفين قرية (ياصيد) حيث اعتقدوا بوجودنا فيها . ولما اصبحت مدن فلسطين وقراها على رؤية هذا السيل من السيارات المشحونة بالجنود ، قلقت . وزاد في قلقها ما أظهره الحكام السياسيون من الغرور والكبرياء ، بقولهم : انكم اليوم سوف تشاهدون فوزي حيا او ميتا في أيدينا . اما نحن فكنا قد وصلنا بيت امرين منتصف الليل ، واتخذنا الترتيبات الضرورية لحراسة المعسكر من مباغتة او مفاجأة . وقبل ان تبزغ شمس اليوم التالي خرجت من المعسكر مستصحبا قواد المفارز ، حيث اتخذنا ترتيبات دفاعية على شكل هلال ، يستند رأساه على جبال نصف جبين وسبسطية . وبعد ان احتلت قواتنا مراكزها التفت" الى امر الاعاشة ، فهيأت لنا قرية بيت امرين وقرية نصف جبيل . ولما ازفت الساعة العاشرة والنصف ولم يبد لنا اية حركة من العدو نستريبها اخذت في سحب القوى من مراكزها متتابعا لتناول الغداء تاركا في النقاط المهمة من هذه المراكز قوات لا بأس بها .

وكان خط دفاعنا يحتل جبلين يفصلهما وادي بيت امرين ، فينحدر شرقا من ياصيد الى الطريق العام المار بسبسطية ـ بيت امرين . وكانت الجبال ترتفع عن الوادي بحيث يحتاج المرء لقطع المسافة من الوادي الى القمة زهاء اربعين دقيقة.

وما كادت قواتنا تتوسط السفح منحدرة من مراكزها الى القرية لتناول الطعام ، حتى سمعنا طلقات متقابلة في مراكزنا التي انسحبت منها أقسام للطعام. وأعقبت هذه مباشرة طلقات الرشاشات والمدافع الجبلية في آن واحد . فأيقنت عندئذ ان قوة كبيرة وصلت خطنا الامامي . والحقيقة انه لم يمض دقائق حتى شاهدنا جنود خطنا الامامي ينسحبون مسرعين الى الوادي . فكان الموقف أشد ما يمكن تصوره من الحراجة . وكان السلاح الوحيد في مثل هذه الساعة الاعتدال ورباطة الجأش . ومن حسن الحظ انني كنت في هذه الدقيقة في جبهة الهجوم.

اخذت النيران تسري وتمتد يمنة ويسرة ، حتى اصبحت بعد مرور بضعة دقائق اخرى على طول الخط . وابتدأت بشدة زائدة ، ولم تلبث ان خمدت تدريجيا ؛ اذ ان جبهتنا بكاملها كانت منحدرة الى الوادي ، وستصبح بعد بضعة دقائق طعمة لنيران رشاشات العدو ومدافعه . واذا استمرت في الانحدار ، ووصلت الى الوادي فهناك القضاء المبرم على قوتنا وعلى الثورة بأسهل ما يكون. وكانت خطورة الموقف ظاهرة ، فالتفت" يمنة ويسرة أصيح محمسا الجنود للعودة وللثبات . وفجأة تقع عيني على قمة صغيرة لم يكن لها اي شأن في نظرنا قبل احتلال الجيش المرتفعات التي كانت في أيدينا ، واذا بهذه القمة تكون مفتاح

المعركة ، وعليها تكبر كل آمالنا . اخذت استنهض الهمم والحماس لاحتلال هذه القمة الواقعة تحت سلطة قمم أعلى منها يحتلها الان الانكليز برشاشاتهم . ولكن عبثا حاولت دفع المجاهدين اليها ولما يئست قمت بآخر محاولة مفضلا الموت على هذه القمة التي تتوقف عليها حياتنا ، من الموت في الوادي تحت أقدام الانكليز. فسرت بنفسي متجها نحو القمة ، دون ان ألتفت او ان أصيح الى احد . ومن غريب الصدف أن تتجلى قيمة هذه القمة في أعين الخصم كذلك ، وتسير وحدة من قواته تحت حماية المدفعية والرشاشات لاحتلالها . وكان ان تبعني في هذه المغامرة بعض المجاهدين . فأخذنا نتقدم بسرعة ، وأخذت النيران تمطر هذه الناحية . ولم يكن من المجاهدين بعد ان رأونا على هذه الحالة الا ان ابتدأوا بكاملهم يتقدمون مكبرين نحو القمة حيث نحن . وصلنا قبل العدو ، وكانت جنوده تتسلق السفح، فاستقبلهم المجاهدون بنيران حاصدة، فتكت منهم فتكا زائدا. وهنا ينتهي الدور الاول من هذه المعركة وهو دور التقهقر الذي حل بنا . ويبتدىء الان دور الثبات والمقاومة . فاطمأنت نفسي من الموقف الساعة فتركت القمة وعليها فصيلين ورشاشتين وانثنيت الى توزيع بقية المجاهدين وتثبيتهم على خطوط ملائمة شرقي الوادي . فأصبحت جبهتنا في هذه الناحية امينة ايضا لا خوف عليها . وأخذت المعركة تدور باحتدام وعنف متزايدين ، وتحولت الى تركيز وتثبيت بقية المراكز الواقعة على القمم القريبة من الوادي ، فأفرزت من الدروز والفلسطينيين والشوام مفارز ، سددت بها الثغرات الواقعة في جوار بيت امرين وسبسطية ، بحيث تتحكم على الوادي من طرفيه ، ويتعذر معها على العدو النفوذ منها الى ما وراء أجنحتنا . وامتد القتال الى هذه المراكز . ولم يبق الا الجبهة الجنوب شرقية من جبهتنا في حاجة الى ترتيب وتنظيم لدرء احتمال اية محاولة من العدو فيها . وتكون الجبهة بهذا قد انقذت بكاملها من الخطر . وبينما كانت الجبهة تدافع بحماس ونشاط ونجاح كانت أرتال اخرى عظيمة من الجيش الانكليزي تتقدم نحو ياصيد القرية التي تركناها . وكانت هذه القرية التي يعتقد الانكليز بوجود اهم قواتنا فيها الهدف الاساسي لارتاله . فأفرزت بدوري مفرزة صغيرة تسير بموازاة الارتال المتجهة نحو ياصيد لمراقبتها . وكان لا يزال تحت تصرفي احتياطي قوي، وضعتهم في سفوح الجبل المقابل للجبهة ، تحت اشجار الزيتون ، يسترون اخوانهم من الخلف بنيرانهم ، وللعمل حين الحاجة . وكان لمواجهتهم هذه اعظم الاثر في صد تقدم الانكليز . اخذ الانكليز الان يحاولون اختراق الجبهة بهجوم متتابع ولكنهم فشلوا في كل محاولة . وأخذت الطائرات تحوم ، وتشارك المدفعية والرشاشات بقنابلها لحماية هجماتهم .

وكانت المعركة في هذه اللحظة وصلت منتهاها من العنف والشدة . وقد فشلت محاولات الانكليز جميعها في هجماتهم . وهنا ينتهي الدور الثاني من المعركة وهو دور الثبات والمقاومة والدفاع ، ويبدأ فيه الدور الثالث ، وهو دور الهجوم المقابل .

وبالرغم من شدة المعركة ومن كثرة الاعداء ومن حراجة الموقف الذي كنا فيه، انتعشت نفوس المجاهدين وامتلأت حماسا وايمانا . وكانت معنوياتهم مجسمة، أكاد ألمسها بيدي ، فانتهزت فرصة وجدتها ملائمة للقيام بهجوم . ووجهت مفرزتين من الاحتياط ، وبقية ما تمكنت من اقتصاده من الجهات الثانوية ، ووجهت احداها باتجاه (بيت امرين) حيث تفصل الجيش المقاتل أمامنا عن الجيش المرابط في برقة والفندقومية والمفرزة الاخرى باتجاه سبسطية، حيث سيتسلطون على سيارات النقل والمصفحات والدبابات التي تحميها ، وهي على الطريق العام . فمرت المفرزة الاولى من قرية (بيت امرين)، وأثارت في شيوخها ونسائها الحماس. فاصطدمت هذه المفرزة بالوحدات المرابطة ، والتي لم تتوقع اي عمل من هذا النوع ، فبوغتت وصدت . وتعقَّبها المجاهدون حتى أوصلوها الطريق العام بجوار قرية برقة . وكانت الساعة الان وصلت السادسة والنصف . ولكن قوات جديدة من برقة اسرعت الى هذه الناحية فصمدت بوجه الثوار .

اما المفرزة الاخرى فقد تمكنت من مباغتة المفارز الانكليزية المرابطة على مرتفعات سبسطية ، وطردتها منها ، وأصبحت مسيطرة بنيرانها على القافلة ، حيث اخذت تمطرها نيران مؤثرة . وعبثا حاولت قوات من العدو اخرى بحماية الدبابات استرداد القمم ، وأخفقوا وأصيبوا . وأخذت كفة النصر تميل نحونا ، وبدأ الانكليز الذين ايقنوا بالفشل ينسحبون . وكانت طائرتان تحومان على الوادي جيئة وذهابا دون ان تشتركا في القتال ، حيث كان في احداها الجنرال ديل القائد العام نفسه ، الذي حضر ليشاهد كيفية القضاء علينا ، ونتيجة حركات جنده المبنية على اقوى وأمتن الخطط الفنية . وأبت الاقدار الا ان تجعله يشاهد في هذه اللحظة انكسار جنوده على طول الخط وانسحابهم مسرعين تحت نيران الثوار . ولم يعد بالامكان ضبط الثوار فانطلقوا في اثر الجيش المثخن يصلونه نارا حامية . وأخذت الارتال تنسحب الى مراكزها . وكان نصيب المنسحبين على الطرق العامة القتل الذريع طيلة سيرهم حتى وصولهم الى مراكزهم ، وقد تركوا لنا هذا اليوم كثيرا من الغنائم من اسلحة وعتاد وتجهيزات . ولاول مرة يتركون وراءهم جرحاهم وقتلاهم . وكان الليل قد أرخى سدوله حيث كانت الساعة التاسعة .

استدعيت الارتال التي كانت مرابطة في احدى منعطفات الوادي فحضرت، وكان يرافقها السيد بهاء الدين الطباع حيث استلم الان صحة الثورة وقد كان رئيسا للكشاف المسلم في فلسطين الذي قام هو على تنظيمه وايجاده . وقد حاولنا بعد وصوله تأليف مفارز مستقلة من الكشافة تكون نواة للجيش النظامي الفلسطيني ، ولكنا مع الاسف لم نتمكن من ذلك ، بسبب اندماج هؤلاء الكشافة مع بقية الثوار في مختلف الميادين ، فأرجأنا هذه التشكيلات الى وقت آخر .

وأخذت في جمع الجرحى والشهداء الذين أعاننا اهالي القرى ، وخاصة

اهالي قرية بيت امرين ، في حملهم . كما انني اخذت اجمع المجاهدين كافة في الوادي .

وبعد جمع الجرحى واجراء الاسعافات الاولية لهم ، ومواراة الشهداء ، اخذنا نفكر في ارسال الجرحى الى بعض القرى القريبة للاقضية ، لنتمكن من تداويهم وادخالهم المستشفيات بصور شتى .

وارسلنا الجرحى الخطرين الى مستشفيات المدن بمشقة وعناء . وكانت الناحية الصحية ، بالرغم من توفر الاسباب الصحية لدينا تماما ، مؤلمة ، وذلك لعدم وجود اطباء . وكان السيد خالد القنواتي الصيدلاني يقوم بواجب الطبيب، كما قام بواجب الجهاد . فكان يستعمل المشرط والبندقية في آن واحد ولكن ها هو اصيب بجرح بليغ في صدره . اوليس من العار ان لا يكون لدينا في الجبهة طبيب عربي واحد على الاقل ؟ ولقد اتى يوم على جرحانا ان توسلوا لو يقضى عليهم فيموتون تخلصا من الآلام المبرحة من جراء عدم الاعتناء بجراحاتهم .

تركت وادي (بيت امرين) ليلا، عادتي في الانتقال عقب كل معركة ، واتجهت صوب جبال بلعا ، قاطعا ما يقارب العشرين كيلومترا حيث وصلتها صباحا . وكانت وعورة الطريق وعدم النوم ومن متاعب المعركة انهكت قوى المجاهدين ، حتى لم يكادوا يطؤون ارض المعسكر حتى ارتموا ، وقد اخذهم النوم . وساعات كهذه هي اخطر الساعات في حياة الثورة .

كان تأثير هذه المعركة في نفوس اهالي فلسطين وفي الخارج اعظم من تأثير بقية المعارك . كما انه تسجل لنا نصر آخر اعظم مما نلناه في الانتصارات في المعارك السابقة ، لانا دخلنا هذه المعركة بقوتنا العادية ، بينما دخل العدو بكافة قواته التي تتألف من قوات فلسطين السابقة ، ومن قوات النجدات التي وصلت اخيرا . فكان انكساره وانتصارنا على اساس هذا التفاوت .

وكان تأثير هذه المعركة في الاقطار العربية لا يقل عظمة عما احدثه في فلسطين ، فقد هاجت سورية وشرقي الاردن والعراق ، واخذت الرسل والكتب ترد عليّ من الاقطار كافة ، ويعلمني مرسلوها باستعداد العدد العظيم من المتطوعين للمجيء الى فلسطين لمشاركتنا في جهادنا . وفعلا اخذ يتسرب الينا من جديد — بالرغم من اننا لم نطلب نجدة — المجاهدون من سورية وشرقي الاردن . اما العراق فقد اصبحت الحالة فيها خطرة جدا ، اذ ان الحماس بلغ اشده ، كما ان اليهود في العراق اخذوا يتبارون مع العرب بتقديم الاعانات لمجاهدينا بفلسطين، وتنصل الحاخام في العراق من الصهيونية ومن أعمالهم في فلسطين ، بمنشور اذاعه. كما ان رئيس مجتهدي الشيعة في النجف اصدر منشورا أعلن فيه الجهاد،

فزاد هذا الشعور في الموقف حراجة وخطورة . ولم يكن الجيش العراقي بنجوة من هذا ؛ فقد وصل التأثر والحماس منتهاهما ، وتطوع منه المئات لنصرة اخوانهم، وطلب اليّ بإلحاح ان اعمل لنقل هؤلاء الى ميدان القتال ، ولنقل ما جمع من السلاح والعتاد كذلك . ولم يكن في الميدان من يستطيع القيام بهذا العبء سوى اخي ظافر فوجهت اليه رسالة وطلبت منه تدبير الوسائل اللازمة ، والتوجه بها الى العراق ، لحمل المتطوعين والاسلحة ، وجلبهم على الطرق التي سبق ان اتبعناها ، والتي لم يكشف امرها الى الان . فتوجه اخي الى عمان والقدس ، ثم بغداد . ولكن مع الاسف لم يتمكن الاخوان من تأمين الوسائل المطلوبة . اما انا فكنت في حاجة الى العتاد اكثر من اي شيء . اذ قد نفد لدينا في معركة بيت امرين ، حتى أستطيع القول انه لم يبق عندنا شيء البتة . وكنت في موقف اشد حراجة مما يتصور . ولا يمكن منع المجاهدين الذين يراجعونني ، ويلحون بطلب العتاد ، من اظهار شكاياتهم التي تتنقل من فم الى آخر ، حتى تصل أذن مراكز الاستخبارات الانكليزية . وقد وردت اليّ تقارير من مراكزنا تفيد ان شائعات نفاد العتاد عندكم وصلت الى مراكز البريطانيين . فكان لا بد لي — حتى نتدارك العتاد — ان الجأ الى حيلة اضلل بها استخبارات العدو .

انتقلت من بلعا الى دير الغصون ، وكان في هذه القرية بعض من لهم صلة بالانكليز في طول كرم ، فعمدت الى تدبير بعض الاباعير ، حيث ارسلتها ليلا الى قرية كفر راع ، على ان تأتي ثاني يوم بالارزاق ، وارفقت مع هذه جماعة يأتي احدهم اليّ صباحا بكتاب كأنه يحمله من خارج فلسطين ، ينبئني بقدوم قافلة العتاد . وكنت أعددت هذا الكتاب ، على ان تأتي القافلة عصر ذاك اليوم ، فيتقدمها قسم من الفرسان ، يبشرونني بوصول العتاد مظهرين فرحهم وابتهاجهم باطلاق عدة طلقات في الهواء . وهكذا تم لي ، فشاع على الفور وصول العتاد الكثير . وبذا ضللت دائرة الاستخبارات التي تأكدت من وصول العتاد الينا .

وكان امر العتاد في الحقيقة عقدة العقد في الثورة . فلم ندع واسطة الا طرقناها ، ولكن الموارد كانت ضئيلة جدا . وقد وصلت رسلنا الى الاناضول والى الكويت والى الخارج ، ولكنها لم تأت بالثمر المطلوب .

كان في الفشل الذي مُني به الانكليز في (بيت امرين) الضربة القاضية على آمالهم . ولقد تأكدوا ان القضاء على الثورة امر عسير جدا . وكان لزاما عليهم ان يلجأوا الى خطة جديدة ، فقرروا الدفاع في فلسطين . وظهر هذا في انتخابهم مراكز ، يحصنونها ويقيمون فيها حاميات قوية مجهزة باللاسلكي ، بجانب القرى الممتدة على طول طريق جنين — نابلس ، وعلى طرفي طريق نابلس — طولكرم . ورموا بهذا فصل مناطق الثورة الثلاث عن بعضها ، والضغط على القرى المجاورة لنقاطهم ، وحصر الثورة .

وكان يصعب على الثوار حقا العمل ، لقلة وسائل التدمير لديهم . واقتصر عملهم على إشغال الحاميات وتثبيتها في مراكزها . وقد أثرت هذه المراكز الانكليزية على القرى ، فخضعت لها القرى المجاورة ، وامتنعت عن تقديم المساعدات خوفا من تدمير الانكليز لها . فاضطررنا الى نشر بلاغات تهديدية لهذه القرى . لكن هذه التدابير كانت لا تكفي . وكان لا بد لنا عندئذ من اتخاذ قرار خطير ، يلجيء العالمين العربي والاسلامي الى التدخل في امر فلسطين . وهو القيام بهجـــوم على بيت المقدس ، حيث يقع الانكليز بين امرين : اما مهاجمتنا ، في أطراف المسجـــد الاقصى ، فتقوم قائمة العرب والمسلمين ، وإما ان يتجنبوا هذه المجازفة ، فنكون قد اتخذنا من القدس مركزا للثورة .

شغلتني هذه الفكرة ، وأخذت أهيء لها . ولم أفاتح احدا من الاخوان بها . وأرسلت الرسل الى المناطق النائية ، أطلب حضور قوادها وزعمائها ، أسوق فيه الثوار كافة ، من الفلسطينيين وغيرهم ، الى هذه المغامرة المقدسة . وبعد أن أتممت اعداد ما أحتاجه من الوسائل ، فاتحت بعض اخواني الزعماء ، واحدا تلو الآخر . فمنهم من استعظم الامر ، ومنهم من بهت لهذه المفاجأة . لكنهم أظهروا جميعا استعدادهم للتضحية . كما انني كتبت تلميحا الى القدس أطمئن الاخوان فيه عن حالتنا الجيدة وقواتنا وما ننوي القيام به . فاستهولوا الامر ، وطلبوا مني التريث . ولكني بقيت على عزمي .

وكان بعض اخواننا قد سئم الحياة المضنية التي نحياها ، فأخذوا ينسلون أفرادا وجماعات من الميدان . حتى لم يبق منهم الا القليل . لم يبق من العراقيين، الذين لم يلائمهم الطقس والاكل ، الا ما يقارب النصف . فاضطررت الى ادخال مجاهدين فلسطينيين مدربين مكانهم اتماما للعدد . كما لم يبق من الثوار الشاميين الا القليل ، وقد استأذن الشيخ محمد الاشمر بالانسحاب الى شرقي الاردن .

كانت هذه حالتنا ونحن نخطط لمغامرة القدس . لذلك اخذت أجلب عناصر جديدة من الخارج ، جلبت مفارز من شرقي الاردن ، درزية وأردنية وشامية . وتلافينا النقص ما أمكن . لكن النقص الاهم كان في العتاد .

كانت القرى تحتفل بنا بحماسة ، وتقدم لنا الاعاشة بسخاء . وكنا مرة في قرية الطيبة نلبي دعوة العشاء عند عارف‌عبد الرازق ليلة ٧–٨/١٠/١٩٣٦ . تركنا القرية قبل طلوع الفجر متجهين الى كفرلاها ؛ وكان المعسكر في كفرحور . تسرب الخبر ، مع الاسف ، الى المراكز الانكليزية . وفي الساعة العاشرة من نهار ٨/١٠ كان رتلان من الدبابات يتقدمان نحو كفرحور ، كل رتل مؤلف من خمس دبابات. وكانت سرايانا تحرس وادي الطيبة الذي تتقدم فيه الدبابات ، وواد البراق الذي يقطع في نهاية الطريق العام بين قلقيلية وطولكرم . أنذر خفراء السرايا المراكز

الخلفية ، فأخبرتنا هذه بأمر الدبابات . فأرسلنا حالا تقوية للسرايـــا . أطلقت الدبابات ، بعد ان أحست بوجود رجالنا طلقات الرشاشات ، وفوجئت عندما لم يتحرك احد من مكانه او ينسحب ، بل اخذ الثوار يطلقون النيران عليها . وكانت السرايا في الحقيقة منظمة على شكل يحيط بالواديين . أزعجني الموقف ، لصرفنا العتاد بدون ثمرة ، من جهة ، ولخوفي من ظهور قوات انكليزية من احد أطراف المعسكر تفاجئنا ونحن مشغولون بالدبابات ، من جهة أخرى . فأمـــرت المفارز بالدفاع وانتظار التعليمات . واتجهت بما لديّ من قوة لرصد ، وسد الوديان والطرق المؤدية الى معسكرنا من الغرب ، فلم نتبين احدا . فعمدت الى تجربة خطيرة ، أختبر فيها صمود رجالنا وقدرتهم على قتال الدبابات . فأرسلت مفارز مختلطة من الفلسطينيين والعراقيين والدروز والشاميين يقدر عددهم بستين ، الى القمم المشرفة على الوادي . وانحدرت هذه المفارز من جهات مختلفة صـــوب الدبابات ، التي بهت رجالها . فأخذوا يطلقون النار بدون وعي . بينما ينقـــض الثوار على الدبابات كالنسور . فتعطل بعضها وقتل من فيها ، وظل بعضها الآخر قابعا في مكانه . ووصلت الطائرات لنجدة الدبابات فرمتها مفارزنا . ثم عادت المفارز الى مراكزنا في التاسعة ليلا ، بعد ان خاضت معركة من اعظم المعارك ونالت اعظم نصر ، ارتفعت بعده معنويات الثوار حتى اصبحوا يسخرون من الدبابة بعد أن كانت البعبع الذي يبعث الموت . وهذا ما أيده مخبر جريدة «الديلي تلغراف» في وصفه للمعركة كما اخذه من أفواه ضباط الدبابات انفسهم .

اخذت ترد اليّ أخبار عن استعداد الانكليز لمعركة فاصلة يخوضونها غدا . ولم يكن لدينا متسع من الوقت للاعداد ، فسحبت المعسكر بكامله من كفرحور الى شرقي كفرعبوش . ولما درست الخريطة تبين لي اننا في منطقة يسهل على الانكليز فيها احاطتنا من جهاتها الاربع . وكانت جبال دير بلوط خطوط الرجعة الوحيدة لنا اذا حوصرنا . لذا كان لا بد من القيام باستعدادات جبارة الليلة لاحباط حركات العدو في الغد ، برغم تعبنا اليوم . أقمت نقاطا استنادية بعيدة عن خط الدفاع الاصلي لتلجيء العدو الى التوقف والانفتاح . وكانت النقاط ثلاثا على شكل مثلث، رأسه الشمالي بقيادة عبد الرحيم . وأرسلت مفرزة قوية معها بندقية قاذفـــة للقنابل لمهاجمة نقطة (كناية) العسكرية التي أنشأها الانكليز . وهي تبعد عن مراكزنا اثني عشر كيلومترا ، وكان هدفي من ذلك دفع العدو لافراز قوات من مجموعه وارسالها لحماية هذه النقطة . وعزمت على تخريب الطريق بين نابلس – عزون، لأعزل القوات البريطانية قبل وصولها أمام خط دفاعنا ، ويسهل عندئذ دخـــول المعركة والانقضاض على النقاط الضعيفة . خصصت مجموعة من القرى الشرقية لتخريب الطريق شرقي نابلس – جنين باشراف المجاهد سعيد طوقان . وخصصت مجموعة من القرى الغربية لتخريب طريق عزون باشراف مختار جيوسي . ولـــم ينبثق فجر ٩–١٠–١٩٣٦ حتى كانت الطرق مخربة بشدة ، وكانت مفارزنا تحتل

نقاطها الاستنادية ، وقامت مفرزة (كتابا) بواجبها خير قيام . وبينما كنت أوزع قواتنا ظهرت فجأة طائرات العدو والشمس لم تشرق بعـــد . ثم وصلني خبر استشهاد سعيد العاص فتأثرت كثيرا .

تمت ترتيباتنا على ما يرام ، وأخذت انتظر وصول قوات العدو باطمئنان وثقة وتوكل . وطلعت علينا أول أشباح العدو من جهة الشمال الغربي آتية من اتجاه الطيبة . وكان رتلا من عدة أفواج تقدم حتى جدار قرية كفرحور ، ووقف هناك يحكم مدافعه في انتظار وصول بقية الارتال ، دون ان يدري بما أعددناه مـــن عوائـــق .

ازداد نشاط الطائرات فوق مواقعنا . وبدأ الرتل الشمالي يحتل مواقعـــه ويقوي تحكيمها فأتم ذلك في العاشرة صباحا . ولكن الرتلين الجنوبي الشرقـــي والجنوبي الغربي صرفا جهودهما في ازالة العوائق من طريقهما . فأخذت مفارزنا تهاجمهما من الخلف . ففوجئنا بالهجوم ووقع الانكليز في حيرة . وبعد معركـــة استمرت حتى الواحدة بعد الظهر انسحبت مفارزنا ، وتعقبها العدو ، وخلا الميدان الا من الرتل العربي المتمركز امام كفرحور . وكان الخوف مسيطرا عليه ، فلـــم ينجد الرتل الشمالي ، ولم يجسر على التحرش بخطوطنا الامامية على الرغم من انها لا تبعد عنه اكثر من ٦٠٠ مترا . وأدرك هذا الرتل انفراده في الميدان ، فأخذ ينسحب تدريجيا نحو الغرب . وبهذا تكون آمال العدو قد ضاعت سدى لآخر مرة ، وانهزم شر هزيمة ، دون ان يكلفنا كثيرا . وأيقنت ان العدو لن يقـــوم بمهاجمتنا بعد اليوم وسيلتزم خطة الدفاع . وأيقنت ايضا ان الميدان اصبح فسيحا أمامنا للعمل . فأخذت أجمع القنابل وصناديق الديناميت وأحضر من المدن مـــا يلزم من أدوات التخريب والبنائين ، لنقوم بتخريب الجسور والطرق والسكـــك الحديدية والانابيب دفعة واحدة وفي ليلة واحدة، فنقطع أوصال الجيش الانكليزي ثم نقوم بهجوم عام على مستعمرات اليهود فأدمرها ، وبهذه الطريقة فقط تحـــل القضية الصهيونية ويعرف اليهود والانكليز ان بلاد العرب لن تكون وطنا للصهيونية قط . وكانت الخطة تبدو لي ناجحة . وتمكنا بعد مدة قليلة من جمع ٥٢ صندوقا من الديناميت و٩٤ قنبلة مختلفة وعدد من الالغام . وتم توزيع هذه في النقاط القريبة من محل استعمالها .

وكنا في أواسط تشرين الاول ، وأصبح الطقس باردا ، خاصة في الليل وعلى رؤوس الجبال . وكنا فرحين بقدوم الشتاء ، فالمطر يعيق حركة الجيش البريطاني وآلياته الا على الطرقات المعبدة ، حيث أعددنا الوسائل اللازمة لتخريبها ، ونسف الجسور . وأخذنا جميعا نشعر بأن الظروف بدأت تميل الى جانبنا .

***

بدأت اللجان تستشيرني في امكان فك الاضراب مع بقاء الثورة ، فأبنت لهم ان حل الاضراب لا يؤثر على حركاتنا قط، بل هو في صالحنا ؛ وذلك لان الفلاحين سيلتفتون الى الزيتون والبرتقال ، وهما موردا البلاد الحيويان . فننقذ البلاد من الخسارة ، ونؤمّن بذلك احتياجات الثورة . كما ان أموال الاعانات التي تبذل لمساعدة القرويين تقطع عنهم وتحول الى تغذية الثورة اذا فك الاضراب . ومن الوجهة الحربية يضطر الجيش الانكليزي لارفاق القوافل بسيارات مسلحة وقوات يعززها خصيصا ، واقامة نقاط عديدة على طول الطرق ، مما يؤدي الى تجزئة قواه . وان لم يفعل ترك القوافل تحت رحمتنا نحرسها بشرط استيفاء ضريبة منها تكون موردا جديدا لنا كما فعلنا في الثورة السورية .

لا ضرر اذاً من فك الاضراب . لكن المحذور الوحيد هو سريان روح المسالمة. لهذا اقترحت ان يكون في كل منطقة من مناطق الثورة ثوار تدفع لهم رواتب ، الى جانبهم عدد من الاحتياطيين يعملون في قراهم ويستبدل القسم العامل كل خمسة عشر يوما ، فيعود الى عمله وهكذا دواليك . واذا مست الحاجة حمـــل الاحتياطي سلاحه وانضم الى الثورة . وكان يكفينا ٣٠٠ مقاتل برواتب و٣٠٠ احتياطي . ولقد استغرقت دراسة هذه المقترحات مدة طويلة .

***

اخذت اللجنة العليا تسمعني ، بإبهام ، عن امكان عقد هدنة مع الانكليز . وكنا لا نكره الهدنة، ولكن في موقف كموقفنا، وبعدما بذلنا ما بذلنا، يجب ان يكون للهدنة شروط تضمن اولا كرامتنا ثم سلامتنا وسلامة مناطقنـــا . واستمرت هذه النغمة المبهمة حتى فوجئنا باعلان الهدنة من قبل الانكليز ، وبنداء ملوك العـــرب على لساني بالراديو دون ان يكون لي سابق اطلاع . وهذه اول خطيئة كبرى ارتكبت منذ اعلان الثورة. فقد كنت انتقلت بالجيش بعد معركة كفرعبوش ليلة ١١ـ١٠ـ٣٦ شمالا ، ومررت بالقرى نهارا ، فاستقبلنا بحفاوة وعطف منقطعي النظير . وأخبرنا الاهالي بخوف الانكليز وقلقهم ، وتغير معاملتهم لابناء القرى عند دخولها ، فبعد ان كانوا يهينونهم في السابق ويسرقونهم ، صاروا يحسنون المعاملة ويدفعون أثمان ما يأخذون .

كنت أقصد بلعا. وكان علينا ان نتخطى طريق طولكرم (عنبتا) المحصن المحروس جيدا . فأرسلت مفرزة تشاغل بعض النقاط البعيدة عن خط سيرنا ، وقطعت الطريق بجانب (بيت ليد) الى (عنبتا) ، حيث استقبلنا الاهالي بإكرام لا مزيـــد عليه . دون ان يأبهوا بالجيش الانكليزي ، وكانوا من قبل لا يجرؤون على ذلك . وقد شارك مجاهدو هذه القرية في معركة بلعا الاولى مشاركة تذكر لهم . وقبل طلوع الشمس وصلنا جبال بلعا واتخذنا ترتيباتنا فيها كالمعتاد . وبينما كنت أفتش

مراكزنا اذا بنيران غزيرة تنطلق من جهة الشمال ثم عمت الشرق والغرب وكافة القرى . فدهشت ، لكن اهازيج النساء طمأنتني . ثم علمنا ان الانكليز اعلنوا الهدنة ، كما ان اللجنة العربية اعلنت فك الاضراب . فزادت دهشتي لاقدام اللجنة على ذلك بدون اطلاعي واخذ رايي . ولكني قلت في نفسي : لا شك ان الاخوان اخذوا عهودا تضمن لهم حقهم ، فلم يروا داعيا لاطلاعي .

وكان الانكليز قد اعلنوا الهدنة بعد ان يئسوا من القضاء علينا وخشوا سريان الثورة الى شرقي الاردن ، وخافوا من التأييد العربي الحماسي لها في الاقطار العربية وهم لم يكسبوا الى يومنا هذا حتى ولا معركة واحدة. فتلافيا لما قد يحدث من المشاكل اوعزوا الى سفرائهم في بغداد وجدة يطلبون توسط ملوك العرب . وكانوا بالامس رفضوا وساطة نوري باشا السعيد . فالثورة اليوم منتصرة . ويحق لفلسطين ان تجعل يوم ١١ــ١٠ عيدا وطنيا .

اليوم تنتقل المسؤولية المادية والمعنوية من ميدان الثورة الى ميدان السياسة. واصبح الموقف اليوم ملائما لحل القضية . وما على الرجال المسؤولين الا ان يشمروا عن سواعدهم لنيل الحقوق كاملة . ان هذا اليوم عظيم حفظ كرامة العرب ، واثبت الحيوية الكامنة في نفوس هذا الشعب النبيل . وان هذا الشعب لا يحتاج الا الى قائد او زعيم يعرف كيف يستثمر مزاياه ، فلا تهان له كرامة ، او يضيع له حق . والموازنة بين ما كنا عليه من قلة وحرمان في العتاد والوسائل المادية وبين ما كان يملكه عدونا تدفع الى تمجيد هذا اليوم واعتباره عيدا للعرب كافة . فلو قص ما وقع على معظم قواد العالم واقدر الاخصائيين العسكريين او على المغامرين وقيل لهم ان العرب تمكنوا مع هذه الوسائل الضعيفة وتحت هذه الشروط القاسية من التغلب على الانكليز حتى جعلوه يطلب الهدنة وان كل ما صرفه الثوار في جميع المعارك من العتاد لا يساوي ما صرفه الانكليز في معركة واحدة معنا وان جميع خسائر الثوار خلال الثورة في الانفس لا تكاد تعادل خسارة العرب في مظاهرة سياسية واحدة لما صدق احد ، حتى الجنرال ديل نفسه الذي بنى خطط قتال على عملية حسابية كما اعلن فلم يصدق حدسه وحسابه .

★★★

تركت بلعا وتوجهت الى علار مساء ، امعانا في الحذر وخوفا من خدعة . واستقبلنا الاهالي بالمشاعل والزغاريد واطلاق الرصاص ، وبالاكرام . وخشيت تسرب الفوضى الى الجيش فسحبته ليلا الى قرية صيدا واتخذت التدابير اللازمة لحفظ سلامته .

اخذت وفود المدن والقرى تتوافد علينا صباح ١٥ــ١٠ــ١٩٣٦ مهنئة بالفوز،

حاملة بيانات اللجنة العربية العليا . وحدثني الوفود عن الفرح الذي عم معسكرات الانكليز ابتهاجا بالهدنة . وكيف ان جنودهم تلقفوا صوري من الباعة وطافوا بها على العرب في الشوارع . وكان هذا الابتهاج الذي عم الانكليز في فلسطين وفي لندن دليلا قاطعا على عظمة النصر الذي احرزناه ، كما قالت وكالة رويتر .

وعلى الاثر اذعت بيانا لميادين الثورة في فلسطين معلنا فيه الهدنة ، طالبا من كل مجاهد الاحتفاظ بسلاحه وعتاده والهدوء والسكينة انتظارا لنتيجة المفاوضات السياسية .

وقد اجتمعت في اليوم التالي مع احد اخواني الذين لهم علاقة رسمية بالاوساط العسكرية الانكليزية واخبرته انني لن اتحرش او اتصدى ما لم يحصل تعدّ من الانكليز . وان مرور الطائرات فوق منطقة عيّنتها له ، ووصول الجند او الدبابات الى حدود هذه المنطقة أعتبره تعدّيا سأقابله بالمثل . واتاني الجواب بانهم سيحافظون على خطتهم في الدفاع وانهم لن يخرقوا النطاق الذي حددته .

★★★

وكان من حقنا نحن ايضا ان نظهر ابتهاجنا بما نلناه من نصر ، فاستدعيت قواد المناطق والقوات لنقوم باستعراض عام في ميدان صيدا . وتنظمت القوات على الترتيب التالي :

المفرزة العراقية في الصف الاول بقيادة السيد جاسم ، فالمفرزة الدرزية (لبنان وجبل الدروز وشرقي الاردن) بقيادة حمد صعب ، ثم مفرزة دمشق مع بدو حوران وشرقي الاردن بقيادة ابي انور وبشير الزعيم . فالقوات الفلسطينية للمنطقة الشمالية بقيادة فخري عبد الهادي ، والقوات الفلسطينية للمنطقة الجنوبية بقيادة عبد الرحيم ابو كمال وعارف عبد الرزاق . ثم قوات المناطق الشمالية بقيادة الشيخ فرحان والشيخ عطية والشيخ ابي ابراهيم .

كان العرض على غاية من النظام ، والجماهير تملأ الميدان ، وقد استعرضت الوحدات التي تتقدمها أعلامها ، وقدمت الجوائز للممتازين في كل مفرزة .

عم الابتهاج البلاد كلها . واخذت الوفود ترد من كل الانحاء مهنئة . وقدم مراسلو الصحف لاخذ الاحاديث منا ، ومعظمهم للأسف اجانب . واخذت الجرائد تنشر المقالات الافتتاحية تطريني وتمجد أعمالي . وكنا نعيش لحظات تاريخية مخلدة بالفخار والمجد والانتصار .

★★★

كنت حريصا جدا لمعرفة حقيقة ما يدور في خلد الانكليز . ولم اجد ما يثير الريبة . وبرغم هذا كان لا بد من الحيطة والبقاء على أهبة الاستعداد . فنظمت مستودعات الاعاشة من جديد ، ومواقع الدفاع ، ورجال القرى الاحتياطيين ، والتجهيزات الشتوية اللازمة . واتصلت باللجان ، فوجدت من الجميع استعدادا عظيما لتقديم ما يلزم .

وقد أثرت كثرة الاختلاط فيما بعد بين الوفود والمجاهدين في الانضباط والنظام في المعسكر ، وأخذت الامور تتطور الى حد لا يخلو من الخطورة. فوجدت نفسي من جديد أمام مشكلات داخلية يجب التغلب عليها . وفي رأيي ان اعظم ما يجابه قائد ثورة هي المشكلات الداخلية ، التي تتضاءل امام خطورتها المعارك الحربية . ومن أمثلة ما عانيت من مشكلات انني منذ اللحظة الاولى للثورة وجدت نفسي أمام زعامة دينية وعسكرية تطلب مني مماشاتها في كل ما تراه . وكانت هذه الزعامة مجسدة في الاخ الشيخ محمد الاشمر . ولم يكن من الممكن معالجة هذه المشكلة الا بالحكمة وسعة الصدر . ولم أكد أفرغ من هذه المشكلة حتى جابهتني مشكلات أخرى . أبرزها شكايات اهالي القرى من اللجان ، التي تصرف الاموال ، حسب قولهم في غير مواضعها . فهم يضطرون الى ابتياع السلاح من أموالهم الخاصة ، ثم يقدمون فوق ذلك الاعاشة . وكانوا يتذمرون من المخاتير ، وبعض الزعماء الذين يأخذون الاموال ويصرفونها على زجالهم . وكانت هذه المشكلات تتطور احيانا الى خصومات شديدة ، تصل الى حد الانسحاب من الميدان ، او استعمال السلاح . وكانت هذه المشكلات تؤخر أعمالنا ، وتصرفنا عن كثير من المهمات .

اما المشكلات بين المجاهدين فكانت فوق كل مشكلة . وأول مشكلة صادفتني عصيان المفرزة العراقية بسبب الرواتب ، واضطررت الى الحزم والحيلة لاقمع العصيان وأنهيه . وقد تكرر العصيان اكثر من عشرين مرة حتى نهاية الثورة ، بأنواع مختلفة ، وفي مناسبات مختلفة . كما كانت تقع اخلالات اخرى بين الحماصنة والشوام ، تصل احيانا الى استعمال السلاح . وأخطر من ذلك كله اختلاف مجاهدين من مفرزتين فتهرع كل مفرزة لنصرة رجلها دون ان تعلم السبب. وكانت كل حادثة من هذه الحوادث من الخطورة بحيث تكفي للقضاء على الثورة تماما . لكن الحكمة احيانا ، او الحزم احيانا أخرى كان ينهيها بخير .

ومن المشكلات الداخلية ما كان يدلي به بعض الزعماء من آراء وخطط ، يطلبون تنفيذها بإصرار . فكنت أسعى الى اقناعهم ما أمكن . ولقد سرّحت كثيرا من العناصر المشاغبة . وكان بعض الافراد القلائل قد اتصلوا برجال الاستخبارات في فلسطين ، او رجال الاستخبارات الفرنسيين في درعا . وكنت أشعر مع هذه المشكلات ان الثورة وصلت الى نهايتها . وقد حدث يوما انني اصبحت ولم أجد

اثرا لمفرزتي حمص وحماة فقد انسحبتا ، وعوضت عنهما بتشكيلات أخرى . وأعترف ان المفرزة الدرزية اللبنانية كانت نموذجا عظيما للمجاهدين ، في تحملهم وصبرهم وقلة مشاكلهم . وكان قائدها حمد بك صعب مثال النخوة والاقدام . كما أذكر باعجاب الاخ فخري عبد الهادي، اول من أطلق بندقية في سماء فلسطين، وأعظم الزعماء الفلسطينيين تأثيرا ، عمل دون كلل او ملل ليلا ونهارا لتأمين حاجاتنا ، ولم يتركنا ساعة .

والخلاصة انني كنت أشعر أن أقل ساعات الثورة عناء وأكثرها راحة هي ساعات القتال .



كان سيل الوفود لا يزال يتدفق علينا من القرى والمدن الفلسطينية ، وكلهم يظهر اعجابه وتقديره وحفاوته ، ويلح في قبول دعوته في قريته . وكانت الاسئلة تنصب على رأيي وما أنوي عمله بعد الهدنة . وقد سمعت خلال الاحاديث ، ولاول مرة ، من احد اعضاء لجنة طولكرم ويافا سؤالا عن رأيي في الانسحاب الى شرقي الاردن . فاستغربت فكرة الانسحاب . وأجبته ان انسحابنا يترك المجال حرا للانكليز ، ويجعل العودة صعبة . ولم أكن أعلم ساعتها ان السؤال مقدمة لتكليف من المسؤولين يرونه ضروريا . وقمنا بزيارة بعض القرى استجابة لالحاح اهلها. فاحتفلوا بنا احتفالا عظيما يعبر عن درجة وطنية القرويين ، واخلاصهم للثورة .

ثم كلفت بالاجتماع ببعض الاخوان المسؤولين في قرية كفرراع . وبعد مباحثات مختلفة سألني احدهم عن رأيي في الانسحاب ، وكان معنا فخري عبد الهادي وحمد صعب والسيد جاسم وبعض المجاهدين . فأجبتهم ان الانسحاب مضر ، سيقود الى تشتت المجاهدين . ثم انني لا ارى ما يستوجب الانسحاب . فأخذ السائل يهوّن عليّ الامر ، ويقول ان هذه هي رغبة الجميع ، وان الانكليز يعتبرون وجودي استفزازا لهم . عندها طلبت منهم أن يعطوني وثيقة رسمية من المسؤولين في القدس تبين ان الانسحاب بطلب منهم ، وأنني قمت بالواجب وأنهيت مهمتي . وقد ذهب احدهم الى القدس وعاد في ١٧-١٠-٩١٣٦ برسالة يقول فيها انهم أقروا جميع ما طلبت ، وهم يتعهدون بكل ما نحتاجه للانسحاب والى ما بعده . أما الكتاب فهم يرون انه لا يمكن تقديمه الان ، وقد يجوز ذلك بعد حين .

اخذت أهيء عملية الانسحاب بترو ، وسرّية . لان امر الانسحاب امر شاق، قد يستغل العدو فيه الفرصة ، فيبطش بنا . لكن خبر انسحابنا تسرب ، وبدأت القرى ترسل الرسائل والوفود تطلب منا عدم الانسحاب . وهذا جعل الانسحاب

محفوفا بالاخطار والمشاكل . امنت اولا انسحاب الجرحى والمرضى بصورة افرادية ، ثم اودعنا حاجاتنا الزائدة في مستودعات امينة في الجبال. واستدعيت اخي ظافر من دمشق ليهيء لنا ما يلزمنا للانسحاب ، وينتقي لنا مكانا امينا في شرق الاردن ويدرس المعابر والطرق اليه .

اخذت ، مع شيوع أمر الانسحاب ، علائم الفوضى تظهر في معسكرنا ، واطلت عناصر الفساد من جديد ، تشجع التمرد والعصيان . ولكنا تغلبنا على الفتن بالتهديد والوعد والوعيد .. وبينما كنت على وشك ترك المنطقة واذ بعبد الله سمارة ، وهو مندوب اللجنة ، يأتيني مستغربا الانسحاب فكان استغرابي اشد . واخبرته بقصة اللجنة وطلب الانسحاب ، فافتعل الاستغراب ، واخبرني ان اللجنة ترغب في عدم انسحابي ولكنها تترك الامر لي . فقلت : ان كل شيء قد اعد ، ولا يمكنني التراجع عن الانسحاب .

وقررت ان يكون انسحابي بقوة مختلطة ، ادخل فيها عناصر فلسطينية قوية على راسها بعض الزعماء . كما اني تركت السيد عبد الرحيم أبو كمال وكيلا عني في فلسطين ، بمهمة ربط الثوار بعضهم ببعض ، وتأمين احتياجاتهم بواسطة اللجان ، وللمحافظة على اسلحتهم وعتادهم ، وحمل اللجان ان أمكن ، على شرائها من الثوار وإيداعها في القرى لحين الحاجة . خوفا من تسرب هذه الاسلحة الى اليهود . وتقرر ان يكون معي من الزعماء فخري عبد الهادي وعارف عبد الرازق والشيخ فرحان الذي استأذن بالذهاب الى بلدته على ان يعود في ٢٢ في قباطية حيث اكون فيه .

وفي ٢٠-١٠-١٩٣٦ تركنا النزلة الشرقية منسحبين شرقا الى كفرراع ، ثم صانور الى ان وصلنا قباطية . وكان اهالي القرى يستقبلوننا استقبالا حافلا رائعا . وكنت ازاء هذه الاحاسيس اشعر انني اصبحت في نظر الفلسطينيين امانا وضمانة للنصر ، واصبحت كلمتي هي الكلمة الوحيدة النافذة . وشعرت بمسؤولية كبرى تجاه كل هذا ، ووجدت في الانسحاب كسرا وتحطيما لهذا الشعور العام. ولقد جاءتني الوفود من كل صوب من اعيان البلاد وأشرافها ومن صحافييها ايضا وفريق من الشبيبة ووجهاء القرى حتى كانت قباطية تغص وتعج بهؤلاء . وكان محور احاديثهم يدور على ما يشعرون به من الاعجاب والتقدير . وكانوا يحملون اليّ الجرائد الطافحة بالمقالات الفياضة بالشعور بعناوين ضخمة امثال : «أمة تودعك . الرجل العظيم» . وكانت الصحف الاجنبية نشرت الكثير عن أعمالي في فلسطين . ومما نشرته جريدة «الديلي هرالد» تحت عنوان «هل يستعد القاوقجي للعودة للقتال» بتاريخ (١٢ شعبان معربا في جريدة «الايام») وجاء فيه «ان استلام القاوقجي لادارة الثورة هي التي مددت اجلها واثارت كثيرا من المتاعب في وجه انكلترة ... واذا توقفت الثورة الان فان وجود فوزي القاوقجي في فلسطين

وحده لا يضع حدا نهائيا للثورة ولا بد ان يعود القاوقجي الى القتال اذا لم تحقق مطالب العرب» .

لكنني كنت انتظر بفارغ الصبر ثلاثة اشخاص أولهم اخي ظافر الذي يتوقف على مجيئه امر انسحابنا ، والثاني رسول القدس ، والثالث الشيخ فرحان . اما الثاني والثالث فلم يأتيا ، ولا ادري سببا لتخلفهما . اما اخي فقد كاد الانكليز يقبضون عليه وهو قادم من الاردن الى فلسطين على جسر الحسين . ولولا الحيلة، ومساعدة شرطي عربي لما نجا . وقد اخبره الشرطي بأن القوات الانكليزية تتجه لتطويق قباطيا .

كان المعسكر تتحكم فيه الفوضى لكثرة الوفود . وكنت اشعر بقلق داخلي لا ادري سببه . ثم جاء رئيس لجنة جنين لمقابلتي ، فخرجت معه والى مكان بعيد هادىء . وفهمت من حديثه ان امر انسحابنا وصل الى الانكليز ، وعرفوا مكاننا. وبينما كنا في حديثنا رأيت سيارات كثيرة قادمة ، ظننتها سيارات الوفود العربية ، ثم تبين لي انها قوات انكليزية أحكمت تطويقنا . فأسرعت بجميع الجنود وارسلت دوريات الاستطلاع للتفتيش على منفذ في هذا الطوق يمكننا من النجاة. وعمت الفوضى وكثرت الآراء والمقترحات . ولم يقض على ذلك سوى الحزم والثبات الذي اظهرته ، واظهره فخري عبد الهادي .فانصاعوا جميعا لاوامري .

علمت من دوريات الاستطلاع ان خير منفذ من نقطة على بعد مائتي متر من قباطية . واذا مررنا منها بسلام صرنا وراء العدو ، وسيطرنا على ظهره من مسافة قريبة . وكان قراري خطيرا ، يتوقف نجاحه على الاتقان في تنفيذ الخطة . فأصدرت اوامر قاسية وتعليمات مشددة يجب تنفيذها بالحرف . وهكذا نجحت الخطة وانسللنا مجموعة وراء مجموعة ، بدون صوت ينبه العدو . نكمن عند مرور الدبابة ، لنمر بعد ذلك مستغلين الزمن والمسافة بين دبابة واخرى . وراودتني نفسي بعد ان اصبحت خارج النطاق ، واصبح العدو تحت رحمة نيراننا ، ان انقض عليه بهجمة مفاجئة تذهب عقله . لكن منعني أن الملوك طلبوا ايقاف الثورة ، وخوفي امام مقدرة الانكليز في الدعاية والتضليل ، من عدم تمكني من اثبات اعتدائهم ، وغدرهم . واكتفيت بتركهم يلقون غدا فشلا وخيبة أمل .

وانسحبنا الى قرية رابا ، حيث وصلناها بعد منتصف الليل . وتكاملت جموعنا بدون نقص على الاطلاق وكنت قد ادخرت فيها ما احتاجه من الاعاشة . وقد حضر اخي ظافر ، واخبرني بقصته . كما اخذت ترد بعض الشخصيات لتهنئتي بالسلامة .

وفي صباح ٢٣ ، وبعد ان اعددنا ترتيباتنا الدفاعية ، كنت أجلس على راس

فمة تشرف على قباطية وأشاهد طائرات العدو على ارتفاع منخفض فوق قباطية ، وأشاهد الجنود يتقدمون ، ثم ارى خيبتهم اذ لم يجدوا ثائرا . وكان امر هذه الخديعة قد شاع في أنحاء فلسطين ، فقامت وقعدت لهذا ، وهرع الكثيرون بأسلحتهم لنجدتنا . وقد عم الابتهاج بعد ذلك حين وصلت أخبار نجاتنا .

وكنت ارسلت رسلا الى بعض شيوخ القبائل الساكنة على ضفتي نهر الاردن، باتجاه مكان عبورنا ليرسلوا رجالهم فيرابطوا على الطريق المقرر سلوكه ، ويستعد آخرون لمشاركتنا عند اللزوم . وقد أتممت ترتيباتي للعبور الى اراضي الشيخ نمر الوسان يوم ٢٤ـ١٠ـ١٩٣٦ من اراضي وادي شوباش . وأرسلت مفرزة صغيرة للتأكد من الطريق . وكان وضعنا في قرية رابا سيئا لفقدان المياه فيها . وانني اليوم أذكر جهود آل رشيد وأهالي قرية طوباس بإجلال وتقدير .

أكملت الترتيبات ، وجاءتني رسل الاستطلاع عصر ٢٤ـ١٠ تخبرني بخلو الطريق . فتركنا (رابا) مساء في رتلين متوازيين نحو قرية (برودة) الواقعة على منفرج وادي شوباش . فوصلناها في الحادية عشرة مساء ، ووجدت الامير محمد الصالح نمر ورجالهما حسب الاتفاق . لكن الانكليز علموا على ما يظهر بنوايانا ، فأرادوا ان يجربوا حظهم معنا لآخر مرة ، فأقاموا مساء سدا من بيسان شمالا الى أريحا جنوبا . ويظهر ان استطلاعنا لم يحس بهم ، لذلك فوجيء رتلنا الجنوبي بهم وجها لوجه ، وتبادلوا معهم اطلاق النار ، وعادوا الى بروله حيث كنا. فأرسلت مفرزة لتعيق الانكليز ان حاولوا اللحاق بنا . وتظاهرت أمام القرية بأنني عازم على العبور الليلة من نقطة أخرى جنوبا . واتجهت فعلا جنوبا ، وبعد مسير ساعة عطفت نحو الغرب ، الى قمم خرائب جباريس وهي لا تبعد فعلا اكثر من ٦٠٠ متر عن بروله . وكنت في الخربة ، وأخفيت الاثقال والحيوانات بين الاشجار الكثيفة . ولم يبزغ فجر ٢٥ ـ ١٠ حتى كنت اتممت استعدادي لدفاع مستميت أمام اي جيش مهما تبلغ قوته . ومع طلوع الشمس طلعت الطائرات تبحث عنا . وتدفقت سيول السيارات من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، واحتل الجند الطرق والمعابر والقمم . وتقدموا الى قرية برولة ، وجمعوا اهلها ، وأخذوا يستجوبونهم . وبعد التحقيقات الدقيقة يئسوا ، وأدركوا اننا أتممنا العبور ، فانسحبوا فاشلين . وانفتح الطريق أمامنا . وكنت اثناء ذلك كله أرصدهم من بعيد بمنظاري ، وأرى الفرصة سانحة للفتك بهم لولا أن كثيرا من معداتنا بعيدة عنا ، ثم ان الجند متعبون . وكان الظمأ قد استبد بنا لولا شهامة اهالي طوباس الذين بذلوا رجالا ونساء وأطفالا في ارواء الجند ونقل الماء الينا .

وكان يوم ٢٥ يوما مشهودا في فلسطين ، حيث قامت قيامة الناس ، وأمطروا المندوب السامي ببرقيات الاحتجاج . وأرسلت اللجنة العليا وفودا اليه لاستنكار أعمال الانكليز . وتدفق الناس بالسيارات مسلحين لمساعدتنا . وقد أثبتت

فلسطين في هذا اليوم حيويتها ، وبرهنت أن في البلاد شعبا لن يموت . وكان تجمع الاهالي في قرية رابا صباح ٢٦ حيث كنا عبرنا ليلة ٢٦ الى الاردن بأمان .

وأرى لزاما عليّ أن أذكر القرى التي يجب تسجيل اسمائها بافتخار ، وهي : بلعا ، علار ، صيدا ، بيت امرين ، عصيدة ، برقه ، السيلة ، صافور ، قباطية ، نصف جبين ، شونا ، كفر حور ، كفر عبوش ، النزلة الشرقية ، قفين . وهذه القرية الاخيرة تحملت منا ما لم تتحمله بلدة أخرى . وان هناك قرى لا تقل عن هذه القرى حمية وشهامة . ومن الزعماء الذين برزوا فخري عبد الهادي والسيد عبد الرحيم أبو كمال وعارف عبد الرزاق ، والشيخ توفيق (العلاري) ، والشيخ فرحان ، وآل رشيد ، وأخص منهم مصطفى ، وسعدي بك طوقان الذي قدم للثورة والثوار أعمالا هامة ومعلومات مفيدة ومعاونات قيّمة .



انحدرنا من مكامننا في رؤوس الجبال الى بروله ، فوصلناها مع الغياب ، فارتوينا ، ثم رتبنا نظام السير . يرافقنا الامير صالح والشيخ نمر الوسان والشيخ محمد الزناتي الذي تولى امر قيادة المقدمة وتحضير نقطة العبور . وكان اخي ظافر قد حضر الى بروله مع شيوخ شرقي الاردن ، فأرسلته مع آل رشيد بمهمة الى القدس . وانضم الينا في الطريق الكثيرون ، حتى تضاعف عدد قواتنا.

كان نهر الاردن عالي الماء على غير عادته . اذ كانت بوابات الخزانات في بيسان قد فتحت خصيصا لهذه الليلة . ولكن ذلك لم يحل دون عبورنا مفرزة اثر مفرزة. ثم أشعلنا النار على الضفة الشرقية ، لتجفيف الملابس ، وصنع الشاي . وتم العبور حوالي الساعة الواحدة بسلام .

ثم تركنا نقطة العبور الساعة الثالثة والنصف صباحا يتقدمنا فرسان شرقي الاردن الى منازل الامير بشير . وكنا مع الفجر نسير شمالا علىخط يوازي السلسلة الشرقية . وكانت بيسان تتراءى لنا عن بعد . وتذكرت ساعتها حادثة انقاذي لمصطفى كمال في هذه البقعة .

نزلنا في بيت الامير بشير الواسع ، فاستقبلنا باشّاً مهنئا بالسلامة . وتوزع الجنود على المنازل ، ونحرت الذبائح ، وأخذت الوفود الاردنية ترد الينا من المدن والقرى مهنئة .

تركنا منازل الامير بشير في الساعة الثالثة بعد الغداء ، الى منازل الامير

صالح على الضفة الشرقية قبالة بيسان . وكان موكب الفرسان يتقدمنا بالأهازيج والاغاني والالعاب على مراى من معسكر بيسان الانكليزي . وصلنا مع الغروب ، واقبلت الوفود . وحضر اليوم الشيخ محمد الاشمر .

كنت أشعر بقلق ، على الرغم من وجودي في بلاد عربية ، وكنا في حالة أشبه بالفوضى ، وفي ارض سهلة لا تصلح للدفاع . فوجب عليّ ، وقد رأيت من قبل غدر الانكليز ، أن اتوقع غدرا جديدا . لذلك سعيت ان أنتقل الى ارض جبلية. لكنها بعيدة ، ويحتاج الانتقال المأمون اليها الى سيارات . وقد زارني في المساء عادل العظمة وعادل الحامدي والشيخ قاسم الاموي وسليمان باشا السوري وعبد الله ابو كورة الذي كان له اعظم الفضل على الثورة حين سهل نقل جنودنا من العراق الى شرقي الاردن بسياراته معرضا نفسه وامواله للخطر . وقد انتحيت بهم جانبا بعد العشاء ، وقررنا ان ننتقل الى قرية (قم) او المنطقة الواقعة ما بين قم وكفر أسد وصيدور ، فنرابط فيها . وقررنا ارسال سليمان باشا السوري لمواجهة ناجي باشا عزام صاحب كفر اسد وصيدور ، وارسال ابي كورة لتأمين السيارات اللازمة . وكلفنا قاسم الاموي بتأمين ما يلزم من الاعاشة وادخارها في المنطقة . وتم كل ذلك . ووصلنا (قم) في التاسعة صباحا ، وقد حيّانا على الطريق جنود المخفر بسرور وعاطفة عربية أصيلة . ونزلنا في ضيافة الشيخ الشهم ناجي باشا عزام ، الذي اظهر من الحفاوة والوطنية ما يفتخر به . وانتقلنا بعد الغداء الى كفر اسد حيث اتخذناها مقرا ، واعددنا فيها الترتيبات الدفاعية .



كان الامير عبد الله متغيبا عن الاردن في اجازة عشرة ايام يقضيها في مصر . وكان الامير طلال وكيلا له . ويظهر ان الامير أوصى ولده أن يعمل ما بوسعه لترحيلي عن الاردن ، بشيء من اللباقة والمجاملة الممزوجتين ببعض التهديد بقوة الجيش البريطاني والجيش الاردني .

وقد وصلني رسول من عمان يخبرني بنية الامير طلال زيارتي في المعسكر مساء . وكانت الوفود ترد الينا تحيينا وتهنئنا . وكنت حريصا على ان أعلم شعور ضباط الجيش الاردني ، والموقف الذي سيقفه بيك باشا قائد الجيش . وعلمت ممن استطلع خبره انه يقول بانه لن يأتي بأية حركة عدائية نحونا اذا لم نحاول الاعتداء ، حتى ولو خالف بذلك أوامر المندوب السامي والقائد الاعلى في فلسطين. وقد دهشت لهذا الخبر المليء بالمراوغة الانكليزية . أما شعور الضباط فكان شريفا للغاية . وقد عمدت الى توثيق عرى العلاقة بهم ، وإثارة الروح الوطنية في نفوسهم توطئة لما قد يحتمل حدوثه . كما اخذت استنبط من آراء ناجي باشا

عزام موقف الباشوات في الاردن حال وقوع حادث . فكانت آراؤه تشجعني . وطلبت منه دعوة بعضهم لنتداول في الامر . فحقق فكرتي .

حضر الامير طلال في السابعة مساء يرافقه الشريف فواز العربي الوفي . فاستقبلته ، بعد ان حيته مفرزة نظامية من جنودنا . وبعد ذلك قال ان والده اوصاه بوجوب تامين احتياجاتنا . وطلب مني ان اسرّح الجند ليعود كل الى بلده. وقال انه مستعد لانزالي في قصر رغدان ، لانه يخشى عليّ كثيرا ، وان الانكليز لا يهمهم من الامر غيري ، فطمأنته . ويظهر ان حكومة شرقي الاردن هي التي حملته على هذا التكليف . واقسم لي انه لا يحمل لي في قلبه الا اطيب النوايا ، وانه لخوفه عليّ فقط يقول ما يقول . وكان يلح بوجوب تسريح المجاهدين قبل عودة والده . وكنت من قبل عازما على تبديل بعض الجنود غير الصالحين بجند من الاردن . فوعدته بتسريح الجند على مراحل ، فسرّ وانصرف شاكرا . وكنت فعلا قد اخذت استغني عن بعض العناصر واستلم سلاحهم واسلح به غيرهم من الاردنيين .

وقد تبين لي من خلال احاديث الامير أن الانكليز قد هددوه ليعمل على مغادرتي الاردن باي وسيلة كانت . ولاحظت انهم يخشون من وجودي حتى لا تنفجر في وجوههم ثورة الشعب في الاردن . وكنت عازما على عدم الاعتداء على الحكومة الاردنية او الانكليز . ولكني كنت أتمنى ان تتحرشا بي فأشعل عندها الثورة في البلاد .

وكان لا بد لي من توثيق الصلة بالباشوات وبشيوخ القبائل ، وبضباط الجيش الاردني . ومن ايجاد منطقة اكثر ملاءمة للدفاع . فعينت جبال عجلون المنيعة نصب عيني . وطلبت زعماء المنطقة للاجتماع بي والتفاهم معهم ، ومنهم مثقال الفايز وحديثة الخريشة والامير محمد صالح وسليمان السوري ومحمد العزام وراشد الحزامي وسالم الهنداوي ، وغيرهم . وكان بطل هذه الاجتماعات ناجي العزام .

وكان سيل الوفود والهدايا لا يزال يتدفق . وقد اثّر هذا تأثيرا سيئا في جنودنا . كما ان الشيخ محمد الاشمر اخذ يجمع شوام اربد وعجلون وعمان ويحشدهم في المعسكر تحت اسم مجاهدين ، مما احدث ضررا عظيما في ضبط المعسكر . وبينما كنت انا اعمل جهدي لتكوين قوة صالحة لثورة شاملة تجمع القبائل والجيش الاردني الذي اكثر ضباطه من القبائل ، كان الانجليز مع القصر يعملون في الخفاء ، لاثارة ثورة في جيشنا نفسه ، اتصلوا بالاشمر ، فكانوا يحرضونه بواسطة اذنابهم ، ويدخلون الى عقله انه هو أحق من فوزي بالقيادة

والزعامة ، فهو من رجال الدين ، مقامه كمقام المفتي ، فهو الزعيم . كذلك حركوا الفتنة باتصالهم بجاسم الكرادي قائد المفرزة العراقية وحرضوه عليّ ، فمزّق صوري وداسها وأعلن زعامته ، وطالب برفع الرواتب . وقام السيد علي العراقي، ببث الافكار الشيوعية ، والتحريض على الثورة . وعلاوة على ذلك لم تنفذ اللجنة في القدس ما تعهدت به من ارسال رواتب الجنود والاعاشة وملابسهم الشتوية.

وبتاريخ ٣٠-١٠-١٩٣٦ ، وفي هذه الفوضى ، اتت الاخبار بأن رتلا من السيارات المصفحة جاء الى عمان من فلسطين وتوجه شمالا نحونا . فوجدتها فرصة لاعادة النظام الى المعسكر ، ولانذار الحكومة ، واعلان الثورة في الاردن . فأنذرت الحكومة ، بأنني سأكون في حل من واجب الضيافة ، حرا في اتخاذ ما أراه مناسبا للدفاع اذا تعدّت السيارات إربد، وسأنتقل الىخط الانابيب لتدميره. وكان الجو العام في شرقي الاردن مناسبا . وأردت اختبار درجة اخلاص زعماء الاردن ، فطلبت من القريبين مني أن يبعثوا رجالهم المسلحين ، وقررت نقل المعسكر من كفر أسد الى صيدور . وكان اول من لبى النداء ناجي العزام ، ففرحت . لكن كدّرني علمي بأن الشيخ محمد الاشمر اخذ جماعته واتجه الى اربد . فلحقت به وأنبته بشدة . فعاد وبقي خاضعا للنظام . والشيخ محمد الاشمر في الحقيقة رجل وطني مخلص الا انه طيب القلب ساذج يسهل التأثير عليه بسهولة .

عاد الامير عبد الله من مصر . فكان اول عمل قام به جمعه لباشاوات الاردن وزعماء البدو بقصد ابعادهم عني . لكنه بعد أن رأى تعلقهم بي ، واصرارهم . قال لحديثة الخريشة : ان فوزي ليس احسن من الحسين الذي سلم في هذه المنطقة للانكليز .. فأجابه هذا : ان فوزي غير الحسين ، ففوزي حارب الانكليز والحسين اعتمد عليهم وحارب معهم، والمنطقة لم تسلمه بل انت يا عبد الله سلمته. ولن يخرج فوزي من شرقي الاردن بمؤامرة ونحن فينا عرق ينبض .

ولما أدرك عبد الله ذلك ، بعث اليّ برسالة يقول فيها ان عليّ ألا أعتمد على الزعماء والشيوخ ، فهم غير صادقين . وبعد أن عرفت ما جرى طلبت عقد اجتماع عام للشيوخ والباشوات ، فحضروا جميعهم يوم ٢ ، ٣-١١-١٩٣٦ في قرية (قم) عند الشيخ راجي عزام اخي ناجي باشا (الذي ارسل اليّ رسالة يؤيدني فيها ويقدم كل ما يملك فداء) . خطبت في الشيوخ ، وأخبرتهم انني ضيفهم وأنني جئت بدعوة من الامير ، ويصعب عليّ أن أرى الانكليز ، بعد فشل جيوشهم، يسعون بالمكيدة والحيلة للقضاء علينا . فذلك عار ما بعده عار . وطلبت منهم أن يبينوا موقفهم بوضوح ، فان كانوا معي فليرسلوا رجالهم المسلحين الى المعسكر، وان لم يكونوا كذلك فأنا أعرف كيف أدافع عن نفسي . هاج المجتمعون بعد سماع

كلماتي ، وافتدوني بأولادهم وعاهدوني . فسألتهم أن يبعثوا ببرقية للامير يعلمونه بما عاهدوني عليه . وذهبوا في اليوم الثاني لمقابلة الامير. وقد جن جنون الانكليز، واضطرب الامير ، فأخذ يعمل مع الحكومة العراقية الجديدة لتطلبني الى العراق. فاتصل الملك غازي على الاثر ببعض اخواني يرجوهم ان يقنعوني بالحضور الى العراق لتكريمي . كما ان رئيس الوزراء حكمت سليمان يتوسط لهذه الغاية عند رجالات الاردن . شعرت بعد الاطلاع على هذا كله بالطريقة الجديدة التي يتوسل بها الانكليز لترحيلي عن شرقي الاردن . فأحسست بقوتنا وبأن الاردن صار تحت سيطرتنا ، وقد آن الاوان لجعله قاعدة لنا نرابط فيها الى أن ينجلي موقف الانكليز في فلسطين .

وكنا نتابع ارسال رسلنا الى القدس لتأمين احتياجاتنا . لكن للاسف كان الرد عدم قدرة القدس على تأمين ذلك ، والمطالبة بتسريح الجنود . فتأكد لدي أن الفرصة ستفلت منا ، وأن تسريح الجنود خطيئة كبرى ثانية بعد خطيئة الانسحاب.

ترجح لديّ الان الانسحاب ، وعزمت على الانسحاب الى قرايا الملح في اراضي ابن سعود . لكننا لم نوفق في اتصالاتنا معه . فلم يبق أمامنا مفتوحا الا العراق . وأخذت أتظاهر بقبولي آراء الامير عبد الله بالانسحاب . وبتاريخ ٣ – ١١ جاءني مستشاره فؤاد الخطيب برسالة منه يحييني فيها ، ويذكرني بعدم الاعتماد على الشيوخ والباشوات . وعلمت من إلحاحه أن الانكليز يشترون خروجي من الاردن بأي ثمن ، حتى لو طلبت سيارات الجيش البريطاني لنقلي الى العراق .

كان امر الانسحاب خطيرا ، فقد تكون هناك مؤامرة يدبرها الانكليز . لذلك اشترطت أن يكون معي في الانسحاب مستشار الامير فؤاد الخطيب وأمينه الخاص الشيخ جوير ، وباشوات الاردن وشيوخ القبائل ، وألا تظهر في طريقنا طائرة انكليزية او سيارة مسلحة ، وإلا استلمت خطوط الانابيب حيث أدمرها . وأن تكون ايضا معنا حظيرة من جند أبي حنيك تدلنا وترافقنا الى الحدود . وافق الامير ، فطلبت على الفور سيارات لنقل المفرزة العراقية ، وبعض الجنود من المفارز الفلسطينية والدرزية ومعهم فخري عبد الهادي وحمد صعب . هذا بعد ان رتبت امر انسحاب الفلسطينيين الى فلسطين والشوام الى دمشق . نظمت المسير بحذر ، متخذا كافة الترتيبات لمنع اي مفاجأة . وفي الصباح كان رتلنا الذي يزيد عدد سياراته عن الستين يتجه نحو الشرق مارا بالقرب من نقطة المفرق حيث تعسكر قوات أبي حنيك ، ويمر خط الانابيب . ثم وصلنا H 5 فاسترحنا على مرأى من الجنود الانكليز هناك . وتابعنا السير بعد الاستراحة بجموع سورية عراقية فلسطينية اردنية تجسد وحدة العرب التي تتخطى الحدود الوهمية التي صنعها الاستعمار .

وكانت مفرزة الحدود الاردنية المرافقة لنا تقوم بواجبها خير قيام . ولمسنا منها شعورا عربيا حيا . فكانوا يكرموننا بشعور صادق اخوي .

وصلنا الحدود العراقية ، فاستقبلتنا شرطة الحدود بالحفاوة والترحيب . وعادت المفرزة الاردنية . ثم وصلنا الرطبة ، فاستقبلنا مفوض الشرطة السيد محمد الياسين ، ورحب بنا . ثم اتصل بي هاتفيا متصرف الرمادي ، فرحب بي باسم الحكومة ، واخبرني ان الحكومة ترغب في ايداع اسلحتنا في مستودعات الرطبة . فامتنعت ، لكنه تعهد لي بشرفه وشرف الحكومة برده الينا عند الطلب. فتم تسليمه بموجب وصل .

وحمّلت الشيخ جوير رسالة شكر للامير عبد الله ذكرت فيها اننا قد شعرنا في رحلتنا هذه بأن لا حواجز ولا حدود بين البلاد العربية ، وانه لا الحدود ولا الحواجز تفصلنا عند اللزوم عن تادية الواجب . ثم ودعنا من بقي من الوفود شاكرين لهم شهامتهم، وتابعنا مسيرنا الى الرمادي . وكان معي فخري عبد الهادي وحمد صعب والسيد بهاء الدين والمفرزة العراقية فقط . ولاول مرة بعد خروجنا من العراق نسير باطمئنان وبسلام ، وبدون حرس او سلاح . وصلنا الرمادي بعد منتصف ليلة ٦-١١-١٩٣٦ ، فاستقبلنا مفوض الشرطة وانزلنا في الفندق على حساب الحكومة . وفي الصباح اتصل بي الامير طلال من قصر الحارثية ، وهنأني بالوصول ، واعلمني انه وجلالة الملك غازي بانتظارنا . ثم اتصل بي جميل المدفعي مهنئا . وكذلك فعل كثيرون غيره .

كان الحماس في بغداد في اوجه . وخشيت الحكومة حدوث ما يعكر الامن. فأدخلتنا بغداد في غير الوقت المحدد . وبالرغم من ذلك وجدنا جموعا كثيرة محتشدة في المطار المدني تنتظرنا وتهتف لنا . وجرفنا سيل الناس الى بهو المطار. فاسترحنا والقيت الخطب والقصائد . ثم خرجنا الى نادي المثنى ، فرحب بنا القوم وحملوني على الكلام فحدثتهم عما جرى معنا في فلسطين . ثم انزلنا في فندق كلاردج واستقبلنا هناك متصرف بغداد . وكانت الوفود لا تبارح الفندق .

زرنا الملك صباح ٧-١٠-١٩٣٦ . وانفرد بي الامير طلال ، ثم طفنا على رئيس الوزارة وبقية الوزراء ورئيس اركان الجيش . والجميع يرحبون بنا ويحيون بطولتنا ويشكروننا على اعمالنا ، ويعلنون استعدادهم للخدمة في سبيل العرب والعروبة .

انتقلت بعد ايام الى داري في الكرادة ، يملأني شعور غريب ؛ ففي هذه الدار المتواضعة وضعت اسس الثورة ونظمتها ونفذتها بنجاح ، وإليها أعود سالما . وهرع

الاخوان لزيارتي ، كما أتتني وفود الوطنيين ، والاجانب .



اخذ القلق يساورني ، منذ عودتي من ثورة فلسطين الى بغداد من موقف الحكومة المريب ، كما ساور اخواني اثر تلك الحفاوة البالغة والاستقبال الرائع الذي قامت به حكومة الانقلاب العراقية (١) والشعب العراقي معا ، مما ادى الى دفع كثير من الشائعات عن سياسة الحكومة ونواياها بالنسبة الى الفكرة العربية. وكنت غير مرتاح الى بقائي في بغداد لما اخذ يتسرب اليّ عما يخامر نفوس فريق من زعماء العراق من المخاوف لوجودي فيها . فكتبت الى اخواني في سورية استحثهم على حل قضية العفو عن المبعدين للعودة الى سورية ، حتى اذا تعذر هذا في الوقت الحاضر خرجت من العراق الى بلد آخر .

ولكن ما كنت اخشاه قد وقع ونُفيت الى كركوك قبل ورود اية نتيجة من اخواني .

اما عوامل نفيي هذا فتنحصر فيما يلي :

اولا : ضغط الحكومة الانكليزية علىحكومة العراق لتمتعي بحرية واسعة فيالبلاد.

ثانيا : موقفي من قضية اسكندرون ، واحتجاج سفير تركية في بغداد عليه .

---

١ ـ تأسست حكومة الانقلاب ، أثر مؤامرة اتفق على تنفيذها حكمت سليمان التركي واللواء (الجنرال) بكر صدقي الكردي وجعفر ابو الثمن احد كبار تجار العراقيين الشيعة. وقد عمل هؤلاء على تضليل بعض قواد الجيش وبعض الموظفين والرجالات ، فتمكنوا من اسقاط وزارة ياسين الهاشمي بقنابل الطائرات، وزحف الجيش الثائر على بغداد واحتلها . وكان قد تم الاتفاق بين حكمت سليمان وبكر صدقي على ان يترك الاول للثاني اليد المطلقة في كافة ما يتعلق بشؤون الجيش والامور العسكرية والحربية ، على ان يترك الثاني للاول اليد المطلقة في سياسة المملكة وادارتها .

وما كاد بكر صدقي يتسلم منصبه حتى اخذ يجمع كل العناصر غير العربية الموجودة في الجيش حوله ، ويقربهم اليه ويباعد بين ضباط العرب ويبعدهم عن المراكز الحيوية في الجيش. وأصبح صدقي ديكتاتورا عسكريا في العراق يفعل ما يشاء . فازدادت المخاوف وكثرت الاشاعات والتهم بالحكومة العراقية من كافة الاقطار العربية حتى اصبحت توجس خيفة على مركزها في العراق . فصادف مجيئنا في مثل هذه الظروف وكانت فرصة سانحة للحكومة ان تتخذ من قبولنا في العراق وحسن استقبالنا واكرامنا وسيلة تظهر فيها عروبتها المزيفة وعطفها على العرب وقربها منهم .

ثالثا : مخالطتي اصدقائي من زعماء العراق ، وهم الذين لم يكونوا قرروا بعد الاشتراك في الحكم مع حكومة الانقلاب ، وضباط العرب من الجيش العراقي الذين لم يطمئنوا لحركة بكر صدقي وكانوا غير مرتاحين الى نواياه. ويتجلى اثر الانكليز في نفيي :

١ ـ بما القاه الكولونيل ودجود النائب الانكليزي اليهودي من الاسئلة في البرلمان ، وطلبه من الحكومة البريطانية اتخاذ الاجراءات الضرورية ضدي ، وجواب الحكومة عليه بأنني لم أحكم من لدن محكمة بريطانية . وبعودة الكولونيل ثانية الى اثارة الموضوع من جديد في مجلس النواب بعد اسبوعين ، منددا بي بأنني كنت المسبب لاطالة امد الاضطراب في فلسطين ، واني مسؤول عن الدمار والدماء اللذين حلا بها منذ وصولي اليها . وان ذهابي الى فلسطين مع قوات اخرى كان تحديا مني ومساً بكرامة الجيش البريطاني . فهو من اجل ذلك كله يطلب من الحكومة البريطانية اتخاذ اجراءات فعالة ضدي . وما كان من رئيس الوزراء المستر ايدن الا ان سأل الكولونيل ودجود تقديم مقترحاته في هذا الموضوع الى الحكومة تحريريا .

٢ ـ وما تبع ذلك من احتجاجات السفارة البريطانية لدى الحكومة العراقية لما اثارته جرائد الانكليز ومجلاتهم من الحملات الشديدة ضدي . فقد كتبت هذه الشيء الكثير عني وعما احيكه من المؤامرات الجديدة في بغداد ضد السلطة في فلسطين . حتى ان احدى مجلاتهم (النيرايست) ذكرت تحت عنوان (فلسطين) بتاريخ ٧ـ١ـ١٩٣٧ : «ان الاضطرابات قد تعود الى فلسطين ، وان العرب واليهود يترقبون حركات قائد الثورة الفلسطينية بشوق ولهف» . وزادت على ذلك نشرها صورتي بقيافة الثورة حاملا سلاحي ، وكتبت تحتها الجملة التالية : «فوزي القاوقجي لا يزال طليقا فماذا لا يستطيع عمله» ؟

من هذا وأمثاله يظهر جليا استغراب الانكليز بقائي حتى الساعة حرا طليقا . فهل هناك اجراءات تجري طي الخفاء لتوقيفي ؟ وهم يستغربون تأخير تنفيذها حتى الساعة ؟ وهل تنوي بريطانيا لفلسطين سوءاً حتى تتوقع عودة الاضطرابات اليها من جديد ؟

ولقد ظهر لي من مختلف المصادر الصحفية والرسمية والخاصة ان بريطانيا متوقعة حدوث اضطرابات في فلسطين من جديد ، وان الذي تخشاه عودتي اليها. اذاً كل ما يهم بريطانيا من امري ان اكون في موقف يتعذر معه عليّ العودة الى ميدان الثورة في فلسطين . وقد فاتها انني عند الحاجة لا يحول بيني وبين

فلسطين حائل . اولاً يكفيها ما قدمت لها في مغامرتي الاولى في فلسطين من برهان .

٣ ـ بما قامت به حكومة فلسطين من مصادرة رسومي من الباعة والحوانيت ومن المنازل ، واحالة باعتها الى المحاكم . كما جاء في مجلة «الصباح» المصرية بتاريخ ٢٢ـ١ـ١٩٣٧ .

٤ ـ من حادثة تذكرتها الان ويتجلى لي مغزاها . وذلك ان الامير طلال استأذن اباه الامير عبد الله في صرف شهر في ضيافة ابن عمه الملك غازي في بغداد . حتى اذا جاءها سعى الى الاتصال بي . ولقد ذكر لي الامير انه كان على مائدة العشاء في القصر ، وكان السفير البريطاني مدعوا . ومما قاله السفير للامير : «ان ما يتقوله الناس ان سبب مجيء سموك الى بغداد رغبتك في الاتصال بفوزي القاوقجي ، وللتحدث اليه في أمور ذات شأن» . فيجيبه الامير : «اني لا أعجب من اشاعة اتصالي بفوزي القاوقجي ، ولكني استغرب قولهم للتحدث معه بأمور ذات شأن» . ولما هممت بالانصراف ، على أمل ان نتمّ حديثنا في مقابلة ثانية ، التفت سموه اليّ قائلا : «ان هذا لن يكون لانني مسافر اليوم . فأنا لا أريد احراج موقف اخي غازي . وتجدني مع الاسف مضطرا لمغادرة بغداد الساعة دون اختياري» . ثم ودعته وانصرفت . وكان الامير طلال يشير اليّ من طرف خفي : «ان سبب خروجي من بغداد وجودك يا فوزي فيها» .

هذه الحوادث واجراءات الشرطة في فلسطين ، التي تقع في نفس الاسبوع الذي نفيت فيه ، ومباحثات الانكليز في مجلس نوابهم ، واحتجاج الحكومة البريطانية لدى حكومة العراق لوجودي في بغداد احيك المؤامرات من فلسطين على زعمهم ، وتبرير حكومة العراق اقدامها على نفيي بأنها لم تقدم عليه الا لتتمكن من متابعة تقديم المساعدة الى فلسطين ـ حسب تصريحها لمن اتصل بها من اجلي من الاخوان ـ ، كل هذا يجعلني أجزم بأن تشبثات لندن قد أثمرت في بغداد . وان الحكومة العراقية التي احسنت استقبالي والحفاوة بي عند عودتي من ميدان الثورة في فلسطين ، ثم نفتني الى كركوك بعد حين ، قد تقربت بي في الاولى الى العرب ـ ازالة للشبهات وقضاء على الشائعات من ان حكومة العراق الحاضرة حكومة كردية تركية شعوبية ، كما تقربت بي في الاخرى الى الانكليز كسبا لصداقتهم وتأييدا لاخلاصها لهم .

اما أثر الاتراك والاسكندرون ، وهو العامل الثاني في هذا النفي ، فيتلخص بأن فريقا من السوريين عقدوا على اثر اثارة قضية اسكندرون اجتماعا في منزل الدكتور احمد قدري ، حضره كثير من خلص اخواني ، ومن بينهم الوطني سعيد

الحاج ثابت ، لبحث القضية ، وما يمكن للعراق ان يقوم به من المساعدة . وكنت استخففت فكرتهم ، ولكني طلبت من المجتمعين ارسال مذكرة شديدة اللهجة الى رجال الكتلة الوطنية في دمشق بوجوب اثارة حماس الشعب ، والقيام بالتشكيلات المسلحة ، والشروع باتخاذ التدابير اللازمة للدفاع . وقلت وقتئذ لاخواني : اذا تم لدمشق ان تفعل هذا ، قام العراق ، حكومة وشعبا ، وقامت من بعده سائر البلاد العربية لمساعدة سورية في جهادها دفاعا عن حدودها . كما حدث في قضية فلسطين . فكان السيد سعيد الحاج ثابت اول من وافق على مقترحي ، واول من وقع معي على المذكرة التي بعثتها الى الشام . ولقد طلبت في الجلسة نفسها انتخاب لجنة يطلق عليها اسم (لجنة الدفاع عن اسكندرون) وانتخاب رجل حازم يتمتع بثقة الشعب رئيسا لها ، كي تستطيع القيام على تحقيق رغبات الامة وامانيها . ولقد عقد اجتماع آخر ثاني يوم اسند المجتمعون فيه رئاسة اللجنة اليّ وبعث المجتمعون بخلاصة ما حدث الى دمشق .

وما عدا ذلك كنت جاهرت في رايي بكتب ارسلتها للاخوان المؤمنين في سوريا ، واحاديث للصحف ، حيث افهمت الجميع بأن قضية اسكندرون قضية حياة وممات بالنسبة الينا ، واننا باستطاعتنا الدفاع عنها ، وانه لا يكون احد مسئولا عن ضياع اسكندرون سوى الزعماء وهم رجال الحكم وحدهم ، وان ما يلحق من العار فهو بشخص هؤلاء دون الشعب ، لأن الشعب مستعد للدفاع والذي يمنعه عن ذلك هؤلاء الرجال .

فكان لهذه التصريحات اثر عميق في نفوس الاتراك الذين اخذوا يسعون لبقائي بعيدا عن سورية . وكانت حكومة حكمت سليمان في جانب الترك في هذه القضية على شكل صريح . وهي تعمل على ان يقبل السوريين مطاليب الترك ، لان هذه الحكومة لن تكون الا في جانب الترك اذا حدث اختلاف ما .

ان قضية اسكندرون في نظري قضية حيوية بالنسبة الى سورية . فهي بدون اسكندرون لا يمكنها ان تعيش . واغتصاب الترك لها يكون سابقة للدول المغلوب على امرها في الحرب العامة الطامحة لاسترجاع مستعمراتها او التعويض عنها . وقد يشجع اغتصاب الاتراك لاسكندرون – مع سكوت العرب وسكونهم – الدول على اغتصاب اجزاء اخرى من البلاد العربية ، كفلسطين واليمن والحسا ونجد والحجاز ايضا . وباستكانة الامة العربية الى ضياع اسكندرون تثبت للملأ انها غير جديرة بالحياة ، وانها فاقدة كل حيوية من حماس وحمية يدفعانها الى الذود عن حياض الوطن .

ان في ضياع اسكندرون اذاً ضياعا لاستقلال سورية بأسرها ، وقضاء على

الوحدة العربية ، لان دخول منطقتي اسكندرون وانطاكية في حوزة الترك يجعل حلب ودير الزور والجزيرة الشمالية تحت النفوذ التركي ، بل ان الخطر يتعدى لشمالي العراق . وبعد هذا لا تبقى (سورية) . وبدون سورية لا عرب ولا عروبة.

ولقد تسرب بعض ما ادليت به من الآراء لاخواني هنا وفي دمشق ، الى سفير تركية في العراق ، فاحتج لدى حكومة العراق على تشبثاتنا .

اما العامل الثالث في هذا النفي فقد كان للانقلاب العراقي الاخير اثر فيه. اذ لم يكن وضع الحكومة قد استقر بعد ، وكانت تخشى كثيرا رجالات العراق الذين كان لهم صلة وثيقة بالحكومة السابقة ، وببعض الرجالات الذين تولوا الحكم قبلا ، والذين لم يتقدموا للاشتراك والتعاون مع الحكومة الحاضرة ، وآثروا الحياد الى ان تتضح لهم اعمالها . وكان الود والصداقة يربطاني بهؤلاء . وبحكم هذه الصداقة وذلك الود كنا نتزاور كثيرا ونجتمع معا في الحفلات التي اقاموها او اقمتها . وزد على ذلك كثرة تردد ضباط العرب عليّ . فكان اكثر الضباط يستشيروني بالعمل اللازم لازالة وجود رئيس أركان الجيش ورئيس الحكومة . احدثت هذه الصلات شيئا من القلق والريبة في نفوس رجال الحكم الحاضر ، الذين شرعوا باتخاذ اجراءات حاسمة للقضاء على المعارضة التي ظهرت في اوساط بغداد . واخذت اشعر بأنني مراقَب من الحكومة العراقية . فتجنبت ما يثير شبهتها او تتخذه حجة ضدي ، فحاولت الابتعاد ، وذهبت الى البصرة ، يلاحقني الجواسيس كظلي ، ثم استدعتني الحكومة الى بغداد . وعدت بعد اسبوع ، قابلت فيه الوفد الفلسطيني العائد من نجد ، واجتمعت به في حفلة غداء ، واقترحت ارسال تقرير الى اللجنة الملكية التي وصلت فلسطين وقاطعها العرب ، أشرح فيه الدواعي التي الجأتنا الى حمل السلاح . وكتبت التقرير ، وشاع امره ، ووصلت نسخة منه الى السفير البريطاني فاتخذه سلاحا جديدا يستعمله ضدي لدى حكومة العراق التي وجدت الفرصة سانحة فنفتني الى كركوك .

قام اخواني ، على اثر ابعادي ، بالتوسط لدى الحكومة بالحاح ، وقد صرح حكمت سليمان رئيس الحكومة ، انه يقدر اعمالي ، لكنه فعل ذلك تحت ضغط ظروف قاهرة . وانني ما زلت ضيفا على الحكومة ، نقلتني كما ينتقل الضيف من غرفة الى غرفة ، وكان على رأس الساعين المتوسطين جميل المدفعي وسعيد الحاج ثابت رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين ، الذي بذل جهودا جبارة لاغاثة فلسطين ، وتمكن من قبل بمرونته من حمل الحكومة الهاشمية على اغاثة فلسطين ماديا وسياسيا .

الفصل الثاني

بين بغداد وبرلين[١]

١٩٣٧ ــ ١٩٤٧

عدت من فلسطين أعاني جرحا نفسيا بالغا لانني لاول مرة في حياتي أدخل معركة وأنتصر انتصارا خارقا ، وذلك بعد ان تمكنت من تحطيم الجيش البريطاني الاول بقيادة ويفل الذي عُزل من الميدان وأرسل بدلا منه رئيس أركان الامبراطورية الجنرال (ديل) وأتى مغرورا وهددني عن طريق الامير عبد الله بأنه سيسحقني. وقد هُزم هذا الجنرال وجيشه في المعركة الثالثة على شكل لم يبق امامه من مخرج الا طلب الهدنة ، وبطلب الهدنة انفتح مجال واسع امام الزعامة العربية لفرض شروط تضمن لفلسطين استقلالها واستمرارها ، قبول الهدنة بلا قيد ولا شرط وبدون مشورتي قضى على كل ثمرات هذا النصر .

اذ ما كدنا ندفع خارج فلسطين ، حتى بدأ الجنرال (ديل) في اقامة النقاط العسكرية القوية في مناطق الثورة واتخاذ التدابير اللازمة لحماية الحدود مــن الشمال والشرق ، وتجريد قبائل ضفتي الاردن من السلاح ، وفتح طرق عسكرية جديدة وقيام الجيش بمناورات كثيرة على معارك الجبال وحرب العصابات ، وهذا كله يوضح النية السيئة التي يضمرها الانكليز لفلسطين .

---

١ ـ مادة هذا الفصل مستقاة من مقابلات شخصية مع صاحب المذكرات (جرت صيف عام ١٩٧٤) وبضعة اخبار موزعة في مفكرات كتبت في حينها . (خ.ق)

وشعر الجميع بالغدر البريطاني ومدى اعداد الصهيونيين، واستخدمت ظروف حرجة كانت تتفاقم من جديد وذلك بعدما بدأ يظهر من امتداد السيطرة الانكليزية ونمو القوة الصهيونية ، التي اصبحت وكأنها قوات بريطانية في دور النشوء .

ولقد قامت الحكومة البريطانية ونوابها بالضغط على حكومة العراق ، والاحتجاج لديها مختلقة التهم العديدة ضدي ، لتحجز الحكومة حريتي ، فيستحيل عليّ العمل ، او العودة مرة اخرى الى فلسطين اذا اضطرتنا الحاجة اليها . على اني تمكنت وانا في منفاي بكركوك وتحت أعين الرقباء الذين يلازمونني كالظل من الاتصال بعدد من الشخصيات العربية في سورية وفلسطين لتنظيم خطة أتوصل بها الى ميدان فلسطين :

كانت فكرة الحملة على شرقي الاردن تخامر نفوسنا وتشغل أفكارنا منذ نهاية الثورة السورية ، لما لهذه المنطقة من الاهمية العسكرية كقاعدة للاعمال الثورية اللازمة في سورية وفي فلسطين عندما يتطلب الموقف ذلك ، ولقربها واتصالها المباشر بالحدود السورية والفلسطينية من جهة وبالحدود النجدية الحجازية من جهة اخرى . ولقد عزمنا على اثارتها في أواخر الثورة السورية لنجدة الثورة ، ولكن التخوف من فكرة تعاون الجيش الانكليزي الافرنسي على قمع الثورة أخّر هذا المشروع .

ولقد تقرر نهائيا وثبتت فكرة الحملة على شرقي الاردن عندما دعيت لفلسطين سنة ١٩٣٤ و١٩٣٥ من قبل المفتي ، على ان تبدأ هذه الحملة بعد اضطرابات بسيطة تقوم في فلسطين ، حيث يكون هدف الحملة ازالة الامير عبد الله وقلب حكومته والتغلب على الجيش العربي الصغير ثم تكوين قوى عربية من المنطقة تنجد وتساعد فلسطين في ثورتها وتصبح بعد ذلك فلسطين وشرقي الاردن بقعة واحدة ثائرة في وجه الانكليز يتطلب اخمادها جيشا انكليزيا كبيرا لا يساعد موقف الانكليز على ارساله وابقائه مدة طويلة . واذا تمت الوسائل والاستعدادات اللازمة يبقى ناحية مهمة جدا تؤثر على نجاح هذه الحملة وهي ، موقف ابن سعود من هذه الحركة . فاذا كان مساعدا فكل شيء يتم بسهولة ، والا يتعذر القيام بهذه الحملة اذا كان الموقف معاكسا .

وعلى هذا الاساس والقرار افترقنا من القدس ، وبدأت الاضطرابات في فلسطين كما كان مقررا ولكن تطور الحالة وتوسع الحركة اضطرنا على ان نقوّي الثورة في فلسطين قبل ان يتغلب عليها الجيش الانكليزي وأن نصرف النظر عن حملة شرقي الاردن مؤقتا وأن نعدها كقوة احتياطية لنا عندما نرى انه لا يمكن الصمود بوجه الجيوش الانكليزية في فلسطين . وهكذا أرسلنا كل قوانا الى

فلسطين ولما شعرنا بتزايد الجيش الانكليزي ونفاد المهمات من أيدينا أعددنا شر
الاردن وبدانا اولا نجلب منها ما تيسر من القوات فتمكنا من استخدام ما يقا
مائة اردني من مختلف القبائل قاتلوا ببسالة فائقة وأرغمنا الجيش الانكليزي
المهادنة قبل ان نحتاج الى اثارة المنطقة كلها .

وبعد انتهاء ثورة ١٩٣٦ زادت قيمة الحملة في شرقي الاردن واهميتها وات
من جديد على اعداد العدة اللازمة لهذا المشروع لنشرع به وبالثورة في فلسطين
اذا ما دعت الحاجة ، بعد مقررات اللجنة الملكية ، الى ثورة جديدة . وفي كر
تجددت المخابرات وقد كتبت في مقدمة مفكرتي وانا في منفاي ما يلي :

«التطورات في قضية فلسطين بعد انتهائها :

١ ـ اول كتاب بلزوم الاستعداد وذلك بناء على ما يظهره الانكليز من النش
في الترتيبات والاستعدادات من انشاء مخافر جديدة وطرق في مناطق الث
ونسف المغاور والمناورات وغيرها كان يدل دلالة صريحة على اننا امام طوا
جديدة ، وحدث جديد نفاجأ به . والاستعداد المطلوب هو تهيئة العتاد والس
ومبايعة ما هو موجود في ايدي الثوار في القرى والقيام بالتشكيلات اللازم
لاستبقاء المجاهدين منظمين وتحت الطلب . وكان الجواب اهمال .

٢ ـ فوجئنا بالحدث وكان قرار التقسيم ، فكتبت في ليلة من كركوك ا
شيء يمنع التقسيم الا الاستعداد لثورة نشنها بأقوى ما يمكن وباستماتة عظي
ومن العبث تعليق الآمال على الملوك وغيرهم . وان الرأي العام العربي المؤثر لا
ولا يهيجه مثل ثورة قوية تشترك فيها الاقطار العربية وتسيل فيها الدماء الغز
فبهذه وحدها نؤثر على الرأي العام الغربي والصهيوني ونمنع كارثة التقسيم
وكان الجواب اهمال .

٣ ـ ولما لم تجدِ المفاوضات مع الملوك ولم نؤثر على عزم الانكليز على مشر
المشؤوم اخذت (الجماعة) (١) بالاستعداد واخذوا كذلك يبحثون عن قائد ل
الجديدة . فبحثوا في دمشق والعراق ، واخيرا استقر الرأي على محم
العجلوني (٢) .

---

١ ـ اقصد جماعة المفتي
٢ ـ هو ضابط اردني وكان يصرح لي انه بدون وجودي لا امل له بالنصر .

ـ كتب لي العجلوني عن عزمه على عمل في شرقي الاردن . فكتبت له اني مستعد ان اكون جنديا في معيته .

وكتبت للجماعة (١) بواسطة عادل (العظمة) ألا يحسبوا حسابي في ادارة اي عمل اكون فيه مسؤولا . واني أعرف واجبي عندما يدعوني الامر .

ـ اتصل العجلوني بجماعة ابن سعود كذلك . وتعلقت الآمال كلها عليه في عمل يقوم به في شرقي الاردن يستثمره ابن سعود وجماعة فلسطين .

ـ بدأ عمل العجلوني الذي كان معلقا عليه كل آماله والذي أعده من عشر سنين ، وانتهى حيث بدأ وسبب أضرارا مادية ومعنوية . فانتبهت السلطة واحتاطت واعتقلت الشيوخ وأرسلتهم الى العقبة» .

وبتاريخ ١١ـ٨ـ١٩٣٧ علمت نبأ مقتل بكر صدقي وكنت لا أزال في كركوك، وقد أبلغتني النبأ سرية من الفرسان كانت تمر بي يوميا في طريقها للتدريب اعتادت تحيتي صباح كل يوم . وبعد ساعتين جاءني هاتف من بغداد يبشرني به جميل المدفعي باستلامه الوزارة ، وان اول امر اصدره هو الافراج عني ونقلي الى فيلا بكر صدقي في بغداد للاقامة بها .

وفي بغداد تعددت الاتصالات بي من جهات عديدة ، بعضها جدية واقعية وبعضها نظرية خيالية ، وكانت الاضطرابات قد تجددت في فلسطين الا انها لا تزال ضعيفة فكانت بحاجة قصوى لمعاونتها .

وعدت اكتب في مفكرتي :

« ـ انهارت الآمال المعلقة على العجلوني بعد فشل الحركة ، واتجهوا نحوي من جديد . وكان الراي العام في سورية وفلسطين وشرقي الاردن يرى ضرورة وجودي في قيادة الثورة الجديدة .

ـ اخذ ابن سعود يميل نحوي ويشوقني على العمل في الاردن ، ويشترط المساعدة بعد البدء و(الجماعة) يفهموني بأن ابن سعود مستعد لمساعدتهم على شرط عدم اشتراكي في الثورة . وان ابن سعود ينفي ذلك ويقول العكس ،

---

١ ـ اقصد جماعة المفتي .

والمدفعي صرح انه لم ير من (الجماعة) ميلا نحوي في العمل المقبل .

ـ حضر لعندي عز الدين (الشوا) وافهمني انه مندوب (الجماعة) وانهم لا يثقون الا بي وهم مقتنعون انه لا يمكن اي عمل بدوني ، وانهم يضعون انفسهم تحت تصرفي ويطلبون مني ان اضع الخطة اللازمة واعطي التعليمات وهم ينفذونها حرفيا ، وان ثقتهم في العجلوني انتزعت .

ـ رسمنا الخطة والتعليمات بالتفصيل ، ثم اعدنا الصلة (بصديقنا) (١) ، وهو بدوره جدد الثقة والعلاقات مع (اهله) ، ووعدنا بحضور مندوب مفوض ١٨ـ١٢ـ١٩٣٧ على ان يذهب عز الدين ويأتي بتفويض (من المفتي) ليكون في ١٨ حاضرا . سافرنا البصرة وحضرنا خطة تسليم (البضاعة) واتفقت مع جماعته وتم كل شيء على ما يرام ، ثم ارسلت حميد (مرافقي) الى بيروت ليطلعهم على تفاصيل الاتفاقيات .

ـ كان عز الدين قد سافر وهو يعدني بأن كل شيء سيتم خلال ٢٠ يوما ، وعليه يطلب مني ان اكون جاهزا خلال هذه المدة ، فوعدته ، وعمل على ان اكون جاهزا واتصلت بالجماعات هنا وعطلت بعضهم عن أشغالهم .

ـ رجع عز الدين في ١٨ وافهمني ان كل شيء على ما يرام ، ويجب ان اكون على استعداد ، وان الطلب للحركة قريب جدا وانني مفوض للمذاكرة مع المندوب. حضر المندوب في الوقت المعين ، ومعه ما طلبته منه . وبدانا المذاكرة ، واخبرني ان الجماعة يعتمدون رجلا غير عز الدين وان العمل على هذا الشكل غير صحيح وغير جدي . فأقنعناه اننا سنحصل على تفويض لعز الدين وحده .

ـ ذهب عز الدين ولم يوفق لانهم كانوا فوضوا (الإمام) (٢) من جهة وكنا مسخرة في عين (الصديق واهله) (٣) . ولما علم اهل الصديق ان غير الإمام شخص كذلك مفوض طردوه من عندهم على الا يرجع اليهم الا بتفويض مني ومن

---

١ ـ كانت المفاوضات قد بدأت بيني وبين الدكتور غروبا سفير المانيا في بغداد الذي اعرفه حق المعرفة ، وكانت لديه تعليمات لمد الثورة وتقديم كل المساعدات لانجاحها والموضوع كله ينبثق عن شعور الماني يبغض كل نفوذ بريطاني . والامر لم يتعد وعودا بالمساعدات .

٢ ـ هو الدكتور سعيد الامام (طبيب اسنان دمشقي) وكان يعرف الالمانية وقد ذهب الى المانيا وألقى خطابا شكر فيه المانيا علنا وهي امور كان الاجدى ان تبقى سرية .

٣ ـ أقصد غروبا وألمانيا .

(سميح) (١) ، رجع وحضر لعندي واعطيته التفويض وعاد الى مقر (الاهل) وكانت فضيحة .

ـ اتى كتاب ابن سعود ، وهو تقدير وثناء على اعمالي وتضحياتي في سبيل العرب والاسلام وانه سيواجهني ويقدم لي اعلى الرتب والمناصب .. وحماسه القديم بالنسبة للعمل فاتر ، وعوده مبهمة ، والموضوع غامض ، وهو يطلب لنا التوفيق في العمل . واخيرا رضينا منه ان يسمح لنا بالمرور في اراضيه فقط بدون اي مساعدة اخرى . لم يأت الجواب بعد .

ـ حضر (عزت دروزة) وافهمني ان مطاليبي جاهزة من سلاح وتجهيزات ولا ينقص الا مقادير العتاد وهي على وشك الاتمام . وطلب مني ان استعد واعد الجماعة ووعدني ان يزيد عدد السلاح ١٠٠ اخرى وانه لا يحسب اي حساب مسؤول للعجلوني فالكل تحت تصرفي .

ـ حضر (طلال) ووضع نفسه تحت تصرفنا وانه مستعد للقيام بما نطلبه منه على شرط الا نقتل اباه ، فوعدته واعطيته واجبات وانصرف .

ـ احضرنا (الجماعة) مرة اخرى هنا ، وعطلناهم عن اعمالهم ومنهم من استعفى او استقال، وارسلت حميد ليعلم الجماعة عن استعدادنا وليأتينا بمصاريف هؤلاء المقررة والتجهيزات . لم يحضر حميد .

ـ حضر (كمال) وهو يعلمني ان قسما كبيرا من السلاح والعتاد ارسل لفلسطين لتموين الحركات . وان الموجود قليل وان العتاد يكاد يكون مفقودا . وانه اذا لم يؤمن لي مقادير كافية يجب الا اذهب . ثم يطلب مني ما هي مطاليبي وانه مرسل من قبل (سميح) وان لا علاقة لهم بعزت ولا يدرون ما يعمل عزت .

ـ كان المقرر ان تضم قوة فلسطين من رجال ومال وسلاح وعتاد الى يوم الثورة الكبرى ، وان نموّن الموجود بالشيء القليل حتى نجعل الامن مضطربا فقط بحيث لا نصرف ما عندنا بثورة محلية ضعيفة .

ـ ابن سعود يقول عن لسانه (يوسف ياسين) و(كامل القصاب) انني انا المجاهد للاسلام والعرب ، وانه يعتبرني كولده، وان مقامي ومكانتي عنده اعظم مما يتصور، وانني سأرى ذلك بأم عيني . واما المساعدة فقد وكل الامر الى القصاب وسلّم

---

١ ـ اعني سماحة المفتي .

للجماعة ٥٠٠ بندقية و١٢٠ صندوق وان مثلهم جاهز . وان ارتباطنا مع القصاب.

ـ بدأنا بالقيد والتنظيم . كذلك ارسلت ظافر ونوري (الجربة) وخلف (النعير) للاستكشافات والاستطلاعات ، (وحمد صعب) ، (ومنير الريس) للقيد .

ـ تطوع ابن ياسين للمساعدة . حماس عظيم .

ـ تأخر عزت عن تنفيذ التعليمات وخاصة استكشافات الفرق والتفاهم مع المثنى عن المقر .

ـ حضر الحاج (١) بعد ان ارسل البضاعة صودرت مع الاسف، وتأخر العمل. ارسلت التعليمات المفصلة للتنفيذ مع الحاج ١٩ ـ ٤ » .

وتعثر بذلك مشروع حملة شرقي الاردن ، الا ان مسألة انقاذ سورية كانت تشغل اذهاننا وخاصة بعد ان توضحت مطالب تركيا في الاسكندرون .

وسجلت في مفكرتي بعض خواطري عن قضية سورية :

« ـ اما المؤسف حقا فهي مسألة الاسكندرون . فاذا كان ما قرأته حقا ان الاتراك بقبولهم لغة ثانية في السنجق تكون سيادتهم مشوهة . تكون اسكندرون ضاعت واختنقت اصواتها بين الهتاف والتصفيق والضجيج للمجاهدين الذين تفتخر الحكومة بأنها تمكنت من ارجاعهم. فهل ارجاعهم يعادل خيانتهم اسكندرون. يجب احضار مغامرة جديدة .

ـ فاذا جاهدنا من اجل الغاء انتداب ودفع الظلم في سورية فأحرى بنا ان نجاهد من اجل اقتطاع رأس جسم سورية منها ، من اجل اسكندرون .

ـ هل لا تصبح سورية بعد اتفاقية جنيف تحت حماية تركيا بموجب المادة التي تحتم على الدولتين حماية سورية من كل طارىء مهاجم ـ وفي نظري قد اصبحت سورية منذ تنفيذ المعاهدة تحت الحماية التركية . وبذلك تتجلى مطامع الترك والخطر المداهم لسورية . وهلا تطمع تركيا بسورية منها فتقفز عليها في اول فرصة تستسنحها على غرة وينتهي الامر ؟» .

وفي ٢٧ـ٤ـ١٩٣٨ جاء في مفكرتي :

«حضر ظافر يحمل تكليف عادل (العظمة) بخصوص القيام بعمل شامل في

---

١ ـ الحاج اديب خير وكانت اتصالاتنا بالمانيا عن طريقه .

سورية . كما كلفتهم عندما كنت في كركوك . يعترفون بفشل سياستهم ، وبالخسارة التي لحقت البلاد لعدم اتباعهم نصائحي . يطلبون التعليمات . ارسلتها وهي مع ظافر» .

ولخصت هذه التعليمات في مفكرتي بتاريخ ٣٠-٤-١٩٣٨ :

« - يبداون من الان بالاستعدادات التي تشمل جميع طبقات الشعب . ولتثبيت عدد من المجاهدين للقتال ، وآخرون للاضراب وغيرهم للاغتيالات ، وتثبيت اموال ضريبة على المتمولين والتجار . واموال من ضرائب الحكومة التي تحول الى التشكيلات . والاتصال بالقبائل الساكنة والرحل والدرك والشرطة والجيش والارمن والاكراد وكافة الاحزاب ، لتثبيت مقدار المسلحين منهم وتنظيمهم وتشكيلهم .

- ايجاد ثلاث قواعد للعمل :

١ - الشمال الشرقي ، جبل عبد العزيز .

٢ - والشمال الغربي ، جبل الزاوية وجبال اسكندرون وانطاكية .

٣ - جبل الدروز والصفا .

- تبدا الحركة بعد انتشار الثورة في الجنوب الشرقي والغربي: اولا - باضراب شامل . ثانيا - بحركات مسلحة من القاعدة رقم ١ . ثالثا - القاعدة رقم ٢ . رابعا - القاعدة رقم ٣ . وتسري الى مناطق لبنان الملائمة .

- اعلان حكومة وطنية ديكتاتورية تدير الثورة القائمة في كافة سورية واعتبار قضية فلسطين وشرق الاردن وسورية ولبنان قضية واحدة وثورة واحدة تحت زعامة زعيم واحد .

- يشكل مجلس لادارة البلاد من سورية الكبرى وكل لجنة من اللجان او الاحزاب الحاضرة تختص في منطقتها والزعيم يسير الامور على الاطلاق» .

وتابعت الكتابة في مفكرتي بتاريخ ٢١-٥-١٩٣٨ .

« - الوضع الحاضر في فلسطين دقيق جدا يتطلب النجدة .

- الهدف حسب القوة والترتيب اما عمان او الجنوب من عمان تثير العالم .

- جميل المدفعي يكره كثرة الاتصالات (١) قائم بكل ما يجب بدون تحميس وضد فكرة مخاطبة رئيس نواب مصر . لا يمكننا ان نحصل على شيء لولا موافقته وتدبيره » .

وفي ٢٤-٥-١٩٣٨ كتبت :

«حضر الهر (غروبا) واعلمني انه احضر الخرائط من لندن والماكينة وابدى العطف القوي ومعلوماته عن وضعنا . فتفاهمنا . واعلمني انه سيحضر في اواخر الشهر شخصيا مفوضا للمفاوضة وربما كانت النتيجة عملية ، سنرى .

١٣-٦-١٩٣٨

- اجتمع الهر . تأجيل حركة المندوب بسبب توتر اوروبا . يحضر في اول تموز . امله في امكان المساعدة لسورية بسبب اسكندرون .

١٤-٦-١٩٣٨

- (جمال الحسيني) كذلك يعطف ويرى ضرورة العمل في سورية ، ويقول انه احتج لدى الاتراك والانكليز والافرنسيين .

- يقبل البضاعة وهو يدرس الموضوع .

١٧-٦-١٩٣٨

- طلبني الهر (غروبا) واعلمني انه سيرسل مندوبا خاصا يحمل تعليمات مطلوبة من المقامات المسؤولة. لذلك يطلب مني كل ما عندي من اقتراحات لطريقة تأمين مساعدة تكون نتيجتها اشغال الخصوم لمدة طويلة بصورة جدية . فأعطيته مقترحات من هذا النوع وطلبت منه السرعة الزائدة فوعد .

٢-٧-١٩٣٨

- وصل المندوب واحضر لي معه ماكينتين للتصوير ، وتفرعاتهم وانهم

---

١ - ورد في مفكرتي ان السفير البريطاني قد احتج مرارا عند جميل المدفعي وأعلمه انه لم يعترض على جلبي الى بغداد ولكنه لا يقبل اشتغالي بمؤامرات ضد فلسطين وبمسائل السلاح وقال له : «يجب ان يعلم فوزي انه لا يمكن لفرنسة ان تسمح له بالدخول الى سورية اذا لم توافق لندن على ذلك» . وتكررت هذه الاحتجاجات مرارا وزادت مراقبة الجواسيس الانكليزية والعراقية عليّ كثيرا . زيد العدد في الاعظمية فقط ٥٠ تحريا اضافيا .

مستعدون لتسليم البضاعة. واراد المدير ان يتصل بهم (الدكتور) زيادة في التستر ويأخذ التعليمات مني .

٦-٧-١٩٣٨ (من موضوع نبيه العظمة)

- خطر الترك اصبح ملموسا عند الكل . هنا (اي بغداد) يميلون الى عدم ايجاد اي شكل جديد - فرنسة استمالت تركية على حساب سورية. يخشون هنا من استمالة انكلترة لتركية على حساب العراق . الخط الشمالي داخل الميثاق التركي . جماعتنا يرمون الى توقيف مطامع الترك وايجاد وحدة عراقية سورية وبقية البلدان العربية على ان تصفي حسابها مع الاتراك وضمانة الحدود والاستقلال. هنا يريدون التقرب للترك بصفة زعامة العرب وجر العرب من ورائهم . هذا حسن ولكن الموضوع خيال .

انما القصد الاساسي لنبيه (العظمة) المشروع الثاني الذي اقترحته على عادل.

- ربما كانت هذه المصائب هي السبب الوحيد لتوحيد العرب وايقاظهم طالما لم يتمكن من ذلك الى الان لا زعيم ولا هيئة .

٩-٧-١٩٣٨ الترك يرفضون التوسط .

- كتاب لابن سعود بلزوم مساعدة قضية سورية .

- الجواب سيدرس الموضوع .

- كتاب بلزوم المساعدة المالية .

١٦-٩-١٩٣٨

حضر المندوب ويقول كل شيء جاهز ضمن المركب ويطلب مندوبا للاستلام من المركز ويطلب ان يكون كل شيء منظم لآخر رصاصة .

١٧-٩-١٩٣٨

- حضر المندوب بنفسه وقال انه يوجد صعوبة في طريق البحرين ، لذلك قرروا ارسالها الى الجزر محل التفريغ المقرر مباشرة على ظهر باخرة خصوصية .

وان البضاعة مشحونة بكاملها داخل المركب ووزنها ١٢ طن . وهو يطلب ذهاب مفوض لمرافقة المركب الى الجزر . وان السفرة تتحمل اسبوعين فقط .

- اعلمتكم اننا اضطررنا الى تبديل الطريق الاول ولقد ثبتنا طريقا يمر من الاراضي النجدية وهو اضمن من الاول ويصل الى نقطة الاجتماع العامة مباشرة . وارسلنا الادلاء للكشف وبعضهم رجع ينتظر .

- طلبنا حضوركم حالا وكنتم وعدتم الحضور قبل ذلك بأسابيع فلم تحضروا ولم تعلمونا الا اليوم . هذا اهمال لا يشجع على العمل الجاد المتوقف على اقصى التنظيم .

- ان احضار الجماعات اللازمة وترتيبهم يتطلب على الاقل شهر فان كنتم جادين احضروا او اتصلوا انتم مباشرة مع من تحبون .

- احضروا معكم عبد القادر الحسيني .

- سنرسل حميد للكويت - وربما ذهبت بنفسي للبصرة وذلك اقتصادا في الوقت .

١٠-١-١٩٣٩

حضر عادل (العظمة) لنفس الموضوع الذي راسلني من اجله منذ اشهر عديدة. وان كل الثقة فيَّ انا يضعون كل شيء تحت تصرفي ورغبتي لانقاذ سورية المستهدفة للهلاك وبدونها لن تستقل فلسطين .

- سوريا ام شرقي الاردن ام فلسطين ؟

- الكل يطلب ويستصرخ والكل غارق في الدماء .

- سوريا قاعدة الجزيرة وحصن العروبة .

- نثابر على استعدادنا لخطة رقم ٣ كأننا لا نعمل بغيرها . ونهيىء خطة رقم١ بحذافيرها . وننتظر نتيجة المؤتمر فاذا انتهت قضية فلسطين على وجه يرضي العرب فاجأنا العالم عندئذ بخطة رقم ١ والا نثابر على رقم ٢ ورقم ٣ واذا الجأتنا الظروف القاهرة ولم نجد مناصا فنغامر عندئذ في تنفيذ رقم ١ مع ٢ و٣ والله معنا ونصيرنا .

٢٦-١-١٩٣٩

أثنى راديو لندن على موقف شرقي الاردن من فلسطين ، كيف ستكون حالة لندن عند المفاجأة . «اي انذهال ودهشة تعتريهم وكم يكون جهلهم بروح العرب».

ولقد عاودنا الاتصال بابن سعود لضمان مساعدته في حملة شرقي الاردن وبعثنا له بكتاب مع الدكتور امين رويحة ٥-٢-١٩٣٩ نشرح ما طرأ على المشروع من تطورات منذ رجوعي من المنفى وكيف ان هذا المشروع بقي يتأخر الى يومنا هذا لعدم تكامل اسبابه وقد شرحنا في هذا الكتاب أهمية شرقي الاردن ، والاهداف التي ترمي اليها الحملة :

«١ ـ بسقوط الامير وحكومته يمكن الحصول على عدد كبير من الجيش العربي الذي ينضم الى الثوار مع اسلحته .

٢ ـ يمكن الحصول على قوات مهمة من العشائر والقبائل الساكنة التي من شأنها تكوين عامل اكيد للتغلب على قوات الانكليز في فلسطين .

٣ ـ تصبح شرقي الاردن قاعدة عسكرية وسياسية مهمة جدا لتموين واسناد اي حركة ثورية تقوم في فلسطين وسورية وتكون العامل الاساسي على انجاحها .

٤ ـ تضطر شرقي الاردن الحكومة الانكليزية بعد ثورتها ، الى ارسال قوات عظيمة جدا ولا يستطيع الجيش الانكليزي التغلب على ثورة تعم في شرقي الاردن وفلسطين بأقل من ١٠٠ الف جندي ومثل هذا العدد يتعذر جدا ارساله في مثل الظروف الحاضرة بل هو مستحيل .

٥ ـ انقاذ شرقي الاردن من سيطرة الامير عبد الله الذي أصبح آلة صماء في يد الانكليز والذي يرمي الى قتل الروح العربية فيها وبث روح العداء ضد المملكة السعودية وبقية البلدان العربية المجاورة بما فيها فلسطين ليتسنى له عزلها عن المجموعة العربية ولتسهيل عملية بيع اراضيها للصهيونية وفتح ابوابها للمشاريع الاستعمارية الانكليزية ـ الصهيونية .

٦ ـ وبما ان منطقة شرقي الاردن هي المنطقة التي تجاور كافة الاقطار العربية فهي كهمزة صلة يربط بينهم جميعا وبضياعها تفكك الاجزاء العربية عن بعضها البعض ويصعب تأمين اي وحدة بينها سياسية كانت او اقتصادية او عسكرية فيسهل استعمار كل قطر على حدة فتخف الآمال وتضعف النفوس» .

واكدنا في نهاية الكتاب ان «كل هذه الاسباب والعوامل الحيوية تدفعنا للتضحية في هذا المشروع الذي ينقذ شرقي الاردن وفلسطين معا ويكون حجرا اساسيا لحل مشكلة سورية فيما بعد . واذا تيسرت لنا اسباب الحملة المادية وعطف ابن سعود ومساعدته نستطيع تأمين كل الاهداف المذكورة . وان اشد الظروف حاجة الى هذه الحملة وأكبر الفرص السانحة هي هذه الايام التي نحن نعيش فيها وروائح البارود تتصاعد من كل عواصم اوروبة» . اما احتياج الحملة فلا يتجاوز حسب تقديراتنا «٤٠٠ مقاتل خارجي و٢٠٠ اردني يحتاجون الى ٦٠٠ بندقية والى ٣٠٠ صندوق من العتاد . ويحتاجون الى الف دينار شهري والف دينار للتجهيزات والسيارات وتكاليف الشروع والاعاشة» .

وفي ٢٣-٢-١٩٣٩ رجع الجواب من ابن سعود فكتبت في مفكرتي :

«٢٠٠٠ دينار ، ٧ مسدسات ـ ترحيب زائد ـ الطمع عقبة ومعان فقط ـ لا يعارض في المرور ـ بعد العملية وإزاحة قوة الحدود مستعد للمقاومة ـ سفير بريطانيا محتج على وجود الرسول (صديق فوزي) انه لذلك لا يمكن ان يسلم شيئا الان ـ الخلاصة خائف حذر ...»

وكنت في ٢٠-٢-١٩٣٩ قد كتبت: «حضر سفير بريطانيا لعند ناجي شوكت وسأله هل الحكومة الحاضرة متعهدة بعدم السماح لفوزي بالخروج من العراق لفلسطين كما كانت الحكومة السابقة ؟ ولما سأله ناجي لماذا هذا السؤال قال له ان فوزي يجهز حملة لفلسطين . فضحك فقط» .

في ٥-٣-١٩٣٩ كتبت : «حضر عادل (العظمة) من دمشق .

ـ تمكن من تمهيد السبيل للسكينة في البلاد بينما تمت الترتيبات .

ـ أتم اتصالات التفاهم مع الشمال والغرب والجنوب .

ـ أنجز قسما كبيرا من الاستكشافات والاستخبارات . وأتى بخرائط وتقارير وستأتي البقية المفصلة .

ـ أتممنا بعض الاستكشافات والمستودع العام . (طه ومشرف) .

ـ يجب ان نستلم السلاح والا نكون فاشلين امام حادث فجائي غير منتظر يضطرنا للعمل .

– السلاح بعد عودة الرئيس من مواجهة (عاصم) واخذ رايه والوقوف على نواياه وهذا بطيء جدا .

– نوري يقول لا تستقيل الوزارة وينقسم المجلس ويعارض ثم يطلب قسم منه الالتحاق بالعراق وليعلن ذلك . نوري يذهب حالا لمواجهة عصمت .

– طه مستعد للتسليم حالا . اجريت التدابير اللازمة للاستسلام» .

وفي ٢١–٣–١٩٣٩ كتبت :

«– ارسلت الدكتور لتأمين تنفيذ التعليمات الأمنية التي لم تنفذ منذ ستة اشهر والتي دوما يفهموننا انها جاهزة .

– تأمين الاتصال مع ما يمكن من الجند المسرحين من ابناء القبائل وجلب الممكن جلبه لدمشق ووعد الباقي في نقطة التجمع واعطائهم .

– تثبيت نقطة التفريغ التي يجب ان تكون في نهاية السهل واول الوعر في المنطقة الجنوبية .

– احضار الاشخاص الأدلاء اللازمة لجلب جماعة فلسطين الى نقطة التجمع.

– الاتصال مع رؤساء الجنوب والاستطلاع منهم عن حقيقة درجة استعدادهم وما يمكنهم تقديمه من الرجال المسلحين فور وصولنا .

– التثبت من المائة بندقية افرنسية مع ١٠٠ مشط اين صارت ولمن وزعت واين هم الرجال الاردنيين الذين استلموها . واعدادهم جاهزين للاشتراك عند وصولنا في نقطة التجمع . واذا لم تكن ارسلت لتأمين ارسالها كاملا للجنوب .

– تأمين مركز في البلقاء لوصول قوة فلسطين اليها وتثبيت طرقها ودليلها واعاشتها » .

وفي ٤–٤–١٩٣٩ كتبت فجأة في مفكرتي :

«عاد الدكتور (امين رويحة) بالنتيجة الآتية :

ابن سعود معلم الانكليز عن كل خططنا – لن يشترك اردني واحد مسلح معنا.

وقد يحضر ٤٠ منهم على ان ننقص من موجودنا الحاضر لنسلحهم – كافة شرقي الاردن والحكومة تعلم عن عزمنا على حملة شرقي الاردن .

حضر الدكتور ملحس وهو يقول : ان ابو غنيمة كتب كتابا مفصلا عن خطتنا في الجنوب الى اصدقاء له اعلموا الامير بكل تفصيل – ارسل الانكليز على الاثر ٨ دبابات الى الطفيلة – الخلاصة لا يوجد اي استعداد مهم في شرقي الاردن – لذلك اما احضار حملة من ٤٠٠ مجاهد خارجي وضرب شرقي الاردن او الذهاب مع الموجود الى فلسطين راسا لانقاذهم على طرق واسس سنة ١٩٣٦ . الحل النهائي اصبح في يد طه : الترخيص لنا ، ١٠٠ او ٥٠ بندقية ، ١٠٠ او ٥٠ صندوق» .

وتابعت الكتابة في مفكرتي كما يلي :

«– تطور قضية فلسطين – رغبة الاخوان ، الحاحهم ، مقاصدهم ، آراء الجماعة هنا ، مقاصدهم وما يرون عمله .

– مذاكرات تركية ومطاليبهم .

– ما يرونه هنا من اجل سورية .

– موقف الانكليز المحتمل بالنسبة الى سورية .

– مراحل المسالة السورية .

– موقف الاحزاب وتأثيرها السيء عند الاصدقاء والاعداء .

– ابن السعود بالنسبة الى فلسطين وسورية والعراق .

– اقتراحي بشأن عملية شرقي الاردن وفلسطين وسورية وجعل القضية واحدة في هذه المنطقة .

– خلاصة المذاكرة مع الهر (غروبا) ٢٣–٢–١٩٣٩ .

– آخر قرار . وتفاهم مع معين (الماضي) .

– تصريح طه بحضور عادل (العظمة) ٢٩ – ٤ ايش بصير على العراق . ابدا ما بصير شيء من ذهابك ولكن المفاوضات يجب ان تنتهي .

ـ موقف الجماعة هنا الجامد بعد اندفاعهم وما سببه من اضرار في ترتيباتنا في سورية وعلى حملتنا بفلسطين .

ـ حضور جمال ١١ ـ ٥ . اعادة الموضوع نفس القرار الذي اتفق مع معين . الحركة بعد موسم الحصاد .

ـ ١٣ـ٥ مواجهة جمال لطه . طلب طه اجتماعنا مع عادل وجمال للبحث في الموضوع . المفاوضات فشلت . الانكليز لم يقبلوا بمقترحات العرب . ربما كان هذا الرفض ناتجا عن انحلال الثورة ـ ودخول تركيا في جانب الانكليز . جمال واخوانه يرون استمرار الحركة في فلسطين واهمال كل امر مهما كلف الامر .

ـ تقدم الاستعدادات في سورية .

ـ مجلس طه : ١٥ـ٥ـ١٩٣٩ .

ـ بسط عادل قضية سورية والاستعدادات القائمة والحّ بلزوم السرعة في العمل ثم ايد فكرة المسارعة الى مساعدة ثورة فلسطين بعد فشل المفاوضات وترك البت الى طه .

ـ جمال ـ اعطى الفشل في المفاوضات ورجوع الانكليز للوراء ، واستعدادهم للعمل وترتيباتهم الجديدة في فلسطين وشرقي الاردن ، وعدم امكان قيام ثورة في سورية ، لانفراط الاحزاب بصورة مشينة ، وانحلال الكتلة والتخاذل السائد وعدم استعداد الشعب للمساهمة بالثورة . لذلك يطلب صرف النظر عن سورية .

ـ انا ـ شرحت الاستعدادات الموجودة وطريقة العمل المثمر وحماس الشعب وعدم تأثير الاحزاب وتحالف الاحزاب على قيام ثورة سورية ، ثم الحالة الهادئة في فلسطين وشرقي الاردن وانها تطلب ٤٠ ـ ٥٠ مقاتل يشعلها ويلهب فلسطين ويجعل قاعدة من شرقي الاردن للعمل فيما بعد في ثورة سورية المهيئة ، وان هذه الثورة او الحملة تتوقف على موقف العراق .

ـ طه ـ سأل لماذا وقفت الثورة .

ـ جمال ـ من تأثير المفاوضات .

ـ طه ـ ما هو احتياجكم .

ـ جمال ـ مال وعتاد .

ـ طه ـ هذا مؤمَّن والعتاد بقدر ما تحتاجون .

ـ انا لجمال ـ لِمَ لم تطلب منه ذهابي مع الحملة الموضوع الذي هو بيت القصيد .

ـ جمال لطه ـ نحتاج لفوزي (١) ليجعل منها قوة ولها رونق وتأثير عاجل للنتيجة .

ـ طه ـ انت لم تطلب فوزي ، فاترك مسألة فوزي فهذا موضوع مستقل لا يمكن البت فيه وحدي فهو مكفول من قبل الحكومة العراقية ومسألة فوزي مسألة دولية ومسألة اعلان خصومة حكومة العراق للانجليز ، ومع ذلك سنرى فيما بعد الموقف والظروف فاذا فهمت الظروف فسنرسله بالرغم من كل شيء .

ذهب جمال على ان يكتب لنا بعد التفاهم مع (سميح) ويكتب لطه بلزوم ارسالي ، ووعد ذلك بظرف ١٠ ايام فلم يكتب ولم يجاوب ، كما فعل معين الماضي عينا اذ ذهب من هنا على ان يكتب لنا بمجرد ظهور الكتاب الابيض لأكون في حل من كل قيد وعد اعطيه لطه . وهكذا اهملنا للمرة الثالثة .

ـ راجعني عز الدين (الشوا) ١٠ ـ ٧ وأعلمني ان الجماعة اي (سميح) يحبون ان يعلموا فيما كنت لا ازال مصمما على العمل معهم ، فأجبته بأني مستعد على شرط أن يكون الموضوع جديا ويبقى مكتوما عن امين فرجع على هذا الاساس وعلى ان يأتني بالتفصيلات فلم يكتب ولم يحضر الا بعد ٢٠ يوماً وبدون اي اقتراح .

ـ كتب لي (....) يطلب مني اعلامه عن عزمي العمل معهم وذلك بعد مقابلته لسميح وتكليفي له فأجبته ، وانا واثق بعدم رغبتهم ، انني مستعد، وانني كلفتهم مشروعي الضخم الذي يضم كل ما عندنا من سلاح لفلسطين ولسورية ، فأجاب ، ان سميح يقسم بأنه لا يعلم بهذا المشروع وانه مستعد حالا لتنفيذه ، ومن هذا

---

١ ـ ورد في رسالة بعث بها امين رويحة في ٣ـ٧ـ١٩٣٩ ما يلي : «وجمال الحسيني يعلق اهمية كبيرة على امتداد الثورة الى شرقي الاردن . كذلك المفتي ، وقد اطلعني على كتب جاءت له من شرقي الاردن دلت على كثرة اهتمامه بالموضوع وعلى شعور طيب في شرقي الاردن . وهذا ما أكده ايضا الشريقي وأبو صلاح الطباع . والاخير يقول ان الاهالي لا يثورون من نفسهم ولكنهم متحمسين وخصوصا اذا جئت انت بنفسك فسينضم معك الكثيرون منهم وانهم سيسعون لزيادة رجال فلسطين ولكنهم لا يمكنهم الوعد بالنجاح . ولكنهم واثقون من ان الآلاف من المجاهدين سينضمون اليك بعد وصولك وأظن انهم جادين معنا وسيبذلون كل جهدهم لاجابة جميع مطالبنا» .

القسم ايقنت انهم يماطلون ويراوغون من جديد ، الا ان هذا المشروع قدم لهم على الاقل ١٠ مرات باقتراحات عن طريق معين وعز الدين وجمال وأمين ، ومني .

اتاني كتاب من (....) يستغرب تأخرنا في اجابته ويقول ان هذا المشروع الضخم هو مشروعكم فكيف لا تجيبون. لذلك يلح علينا بناء على طلب سميح ان نجيبه ونكتب اليه ما يحتاجه هذا المشروع ليقدموا لنا ما نحتاج فورا .

فأرسلنا ميزانية مفصلة وبعد مدة كتبوا لنا ان (المهر باهظ) لذلك صرفـوا النظر عن المشروع . وراجعنا امين التميمي في الموضوع وطلب الينا ان نعلمه درجة استعدادنا . فأعلمنا بالمشروع وتفصيلاته ، فأظهر حماسه الشديد لتأمين ما يلزم وانه سيكتب لنا عند مواجهته لسميح . والى يومنا هذا لم يكتب لنا .

ـ الخلاصة : انهم لم يرغبوا يوما واحدا رغبة حقيقية في استلامي قيادة فلسطين وكل ما ارادوه ان اكون ضعيفا جدا بحيث لا استطيع إحياء الثورة، ولكنها على ظنهم انها لا تموت بوجودي فيها ، فيستمر المورد والعطف ويكونون من جهة اخرى قد منعوني من العمل في سورية وهذا بيت القصيد بالنسبة اليهم ، لانهم يعتقدون ان ثورة في سورية تعرقل عليهم اعمالهم في فلسطين . هذا صحيح ولكن ما العمل والافرنسيون جعلوا من سورية كيانا مستعمَرا وممزقا ومعرضا للفناء ابديا وبسرعة ؟ لذلك لا بد من سورية فهي ان انقذناها ننقذ بها فلسطين والعرب وبدونها لا عرب ولا عروبة» .

وعن تطور قضية سورية كتبت في مفكرتي انه «بعد اليأس والمماطلة :

ـ اضطرارنا مفاتحة الضباط وارغامهم على المداخلة .

ـ تهديداتنا للوزراء ـ ثورة الجيش عليهم في حالة عدم مساعدتهم لنـا ونكوثهم بالوعد .

ـ ارسال عادل لنجد ـ التفاهم معه على طريقة العمل تعهده بتقديم ما يلزم كما يقدم العراق ، وانه يحارب لمنع الملكية .

ـ اعادة الكرة هنا مع الجيش والوزراء .

ـ اعطاء الف ، اخذ الفين .

ـ ابن سعود على الوعد بالدوام ـ تسليحه لنا ـ وان هذه ثقة الملـك وان حكومتين تساندني في مشروعي هذا .

ـ كثرة الحاح امين (رويحة) بالمداخلة واشاعاته علينا من كل نوع من انواع الفسـاد .

ـ ثباتنا ، كتماننا ومضينا .

ـ ١٤ـ٨ اعادة الكرة وارسال الكتب للمراكز بلزوم الاستمرار .

ـ تأثير قضية المؤامرة وتدابير السلطة على احراج موقفنا واشكال اعمالنا .

ـ لزوم جميع المجاهدين وارسالهم عن طريق الاردن الى العراق .

ـ لزوم تضليل الافرنسيين عن حركتنا بعد الاشاعات العديدة عن عزمنـا حركة في سورية .

ـ صبغ حركتنا وتوجيهها كأنها لفلسطين .

ـ تثبيت القواعد في حدود العراق .

ـ تأمين الأدلاء .

ـ كشف الطرق (جبل الزاوية ، الفرات ، الدير ، تدمر ، قريتين وخاصة قلمـون) .

ـ استخبارات عن مراكز الافرنسيين ودورياتهم وجمع ترتيباتهم .

ـ البحث عن امكان ارسال السلاح الى جبل الزاوية ، جبل الدروز ، الصفا، الفوطـة .

ـ تأسيس ارتباط واتصال مع شخصيات لتأمين عصابات معاونة في جبل المتاولة ، منطقة الزبداني ، الفوطة ، الصفا ، جبل الدروز .

ـ البحث عن مراكز للاعاشة في جبال قلمون وتأمين ايداعها .

ـ الخيل والبغال شرائهم وحفظهم في مختلف القرى الى حين الطلب مـع محافظين لهم وعددهم الكاملة ليساقوا الى ميدان العمل .

ـ رسل المخابرة بنا والمراكز .

– رجال الاغتيالات وتأمين جلبهم .

٢٠-٨-١٩٣٩

– استلام الدكتور (رويحة) ٥ آلاف من المانية شروطه للتسليم الاطلاع على الخطة والاشتراك بكل التدابير . فهل طلب المعلومات والاشتراك بالتدابير ، لاطلاع المصدر على كل أعمالنا وتوجيه هذه الاعمال حسب سياسة المصدر ، لقاء المبلغ ؟ وهل هذا هو كل المبلغ ام هنالك مبالغ اخرى مجهولة ؟

– تحريضه الجيش على عدم الاشتراك في أي حرب تقع ضد المانية وابن سعود » .

وفي ١-٩-١٩٣٩ كتبت في مفكرتي :

«اشتبكت المانية بالحرب وسيجر من ورائها بقية الدول . ماذا عسى يكون حظ مشروعنا ؟ ما دام السلاح والتجهيزات والاعاشة والمال في قبضتنا فلا بد من انقاذ سورية في فرصة تأتي ، ولربما لعب هذا السلاح الدور الخطير المنتظر».

والحقيقة اننا وعدنا بالسلاح وعلى اساس هذه الوعود كنا نرسم الخطط ونستكشف الطرق ونقدر الاحتياجات ، ولو استلمناه لكنا استخدمناه في فرص كثيرة ، الا ان الحرب قد اوقفت هذه المشاريع .

وقد اتيحت لنا فرصة العمل مجددا بنشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ١٩٤١ . وكنت قد كلفت بمهمة رسمية في منطقة الرطبة بعد ان تجسم لدى القيادة خطر طريق عمان الرطبة والحرة . وفي مفكرتي دونت بعض الوقائع اثناء تنقلنا في المنطقة بين الحدود العراقية والسورية ، وما واجهته من صعوبات في الطريق مع اخبار اشتباكاتنا مع القوافل المعادية القادمة عن طريق الاردن .

وفي ١١-٥-١٩٤١ كتبت :

«– تمرد الجنود المتطوعة واصرارهم على الرجعة – وكذلك بعض افراد الشرطة .

– تمرد جماعات البوكمال وتجريدهم من السلاح .

– سوء حالة الاعاشة لعدم رضا معاون الرطبة اعطائنا الارزاق الكافية والبنزين .

١٢-٥-١٩٤١

– نقصان (التايرات) جعلتنا نقطع المسافات بمدة طويلة .

– ثقل الاحمال في اللوريات جعلتنا نتحرى الاراضي الصالحة .

– قلة البنزين حدت من اتجاهاتنا .

– العطل المستمر في السيارات المسلحة وغيرها جعلت المسير بطيء للغاية .

– اللاسلكي بطارياته فارغة وشحنها يحتاج الى اربع ساعات .

– اضطرارنا الى الاتجاه الى (الرجالية) لعدم رغبة الشرطة في السير الى الشمال نحو محوير والكبيسة ولبعد الطريق ولقلة البنزين ولضعف القاوتشق .

– بسقوط الرطبة سقط كل امل في امكان تأسيس قاعدة في هذه المنطقة لحركاتنا .

– جمع السيارات الانكليزية الموجودة في المراكز وارسالها لنا بكامل تجهيزاتها.

– سيارة تحمل ادوات تصليح كاملة مع مهندسين للسيارات .

– اقتراح .

– ان العمل الجدي لا يكون بالمتطوعين .

– خطورة الرطبة بعد سقوطها .

– ضرورة جدية العمل قبل استفحال خطرها .

– قوة نظامية لاستردادها وتطهير حدود العراق من العدو .

– جمع المجاهدين والمتطوعين .

١٥-٥-١٩٤١

– سيارات الشرطة المسلحة وإلحاقها بقوتنا .

- استخبارات عن الرطبة .

- تنظيم شفرة للحركات .

١٧-٥-١٩٤١ تقرير من قرب الروضة .

مرور الرتل :

- من (جبهة) الى (الكرم) - ١٥٠ : ٢٠٠ سيارة - الفجر كان يمر من جبهة الى الكرم - نشاط الطيران البارحة - اخبار الرسل عن الجسر - وصول السيارات .

- من طريق الجسر المحمديات - لم اجد احدا من العدو - الظاهر ان الرتل تحميه مسلحات ومصفحات - حرارة هائلة ، عاصفة رملية هوجاء - السيارات التي خرجت من الجسر عادت المساء - مدفعين نصبوا في الجانب الغربي - سألوا عن قوة الفالوجة .

- قوة العدد (ابو الفروخ) البارحة ليلا وهم باقين الى الان ، عشر سيارات او اكثر قيافتة هجانة تماما ضابطهم يلبس غترة بيضة لغته العربية ركيكة. حجزهم ان يبقوا الى الصباح وقبل الفجر ارسلهم وافهم انه ٧٠ سيارة ذهبت للجسر وهو يخشى عليهم من مصادفة السيارات - الضابط عيونه زرق .

- انتهت المهمة ، رجعنا من مكمننا في جوار الروضة الى الرحالية .

١٨-٥-١٩٤١ الرحاليه

- فعالية طيارات فوق منطقتنا - اخبار الرسل عن قوة ابي حنيك - الجاسوس اعترف انه مرسل من ابو حنيك لتصيدنا - دورياتنا في منطقة الروضة - العدو مجمع في قارة فهد . ترتيباته نقطة في ابو الفروخ واخرى في قصر الحير وفي جبهة - تم تنظيم المفرزة عندنا - خبر خروج قافلة الارزاق والسيارات من بغداد . استعداد قوتنا للحركة من بغداد . طلب التعاون للمباغتة مع سعيد .

١٩-٥-١٩٤١

- نحن لا نزال بانتظار عودة سياراتنا من التصليح في كربلاء ووصول القافلة

والقوة من بغداد . حياة بطالة مملة بدون عمل - العدو الموجود في قارة فهد انسحب امس الى جسر الحبانية - حرارة الجو معتدلة جدا .

٢١-٥-١٩٤١

- وصلت المفرزة الى كربلاء - سياراتنا في كربلاء لم تصلح بعد . ارسلت وجيه لجلب ما يمكن جلبه منها - ارسلت مفوض اضافة على المفوض صالح الذي ارسلناه امس لجلب المفرزة وحراسة السيارات التي يمكن تصحيحها - لم يشاهد نشاط للعدو اليوم .

- اخبار جسر الفلوجة والفلوجة تقلقنا - الجو جيد .

٢٣-٥-١٩٤١

من رحالية الى هيت - الحركة للمقر الجديد .

تجولنا في منطقة ابي الفروخ وسرنا على طريق الجسر طريق الرطبة . وبتنا في عين وزا .

٢٤-٥-١٩٤١

تقدمنا الى الطريق قرب المحمديات بقصد العبور الى المقر الجديد معنويات الشرطة رديئة جدا خاصة المفوض صالح فهو يكاد يثير قضية سوري عراقي وفتنة المعسكر . اما السيارات الثقيلة فهي بلاء ولا يمكن اي حركة معها . وتسبب اجهادا لا يطاق وإضاعة في الوقت لا يتلافى . لا بد من التخلص منها .

تحركنا صباحا من (وزا) الى قرب الطريق . فكان رتل من سيارات مهمات العدو يمر باتجاه الرمادي . رؤيتهم فقط سببت ذعرا عظيما خاصة في نفوس الشرطة وآمر السرية . أضاعوا رشدهم . ارسلت سيارات مهمة لاستطلاع احدى الوديان . فأخذوا يتخيلون كل حجرة او شجرة دبابة معادية . وهذه المعنويات سببت لنا عدم الاتيان بأي حركة ضد العدو . وهكذا فلتت من ايدينا فرصة قيّمة نادرة . ولكنا اخيرا أرغمناهم على العبور وتم بسلام . ولكن سيارات الشرطة المطلوب منها اتخاذ التدابير اللازمة لحماية المرور لم تلتفت اليها ، بل مروا الطريق مرور الشريد وتركوا القوة تحت رحمة اي سيارة معادية واحدة . وصلنا مساء الى الكبية . فكان حماس شديد وهوسات وكرم زائد . فاتصلنا مباشرة (بصديمي) وهيب والحديثة .

٢٥–٥–١٩٤١ كبيسة

– ارسلت المعاون السيد محمد الياسين مع ضابط من كل سرية لتأمين محلات للقوة في هيت . نحن ننتظر تلفونا للحركة الى هيت – تبدو باتصال مستمر مع العدو من الكفرة الى الرطبة . وهو مركز للدعاية والاستخبارات المعادية وللشغب .

– رسول ابو حنيك : عيسى الكباس – رسل من قبلنا الى مناطق العدو من اهالي كبيسة .

٢٧–٥–١٩٤١

نزحت عوائل كثيرة من الرمادي بفوضى وحالة يرثى لها . هوجمت ونهبت من قبل بعض افراد ابو عساف – اتخذت تدابير شديدة وانقذ الكثير منها . سرقات عامة وفوضى واسعة . ارسلت مقترحات وتقارير خاصة – تنتهي القوة للحركة نحو الغرب استطلاع وقتال .

٢٨–٥–١٩٤١

اخبار الرسل – قوة ضعيفة في الرطبة – تحكيمات جوارها ونقل الجنود بالطائرات الى (ابي قور) من فلسطين – الاتيان بسرية للرطبة – الرطبة قاعدة – تموين – الحركة غدا .

٢٩–٥–١٩٤١

تحركنا الساعة ٤ صباحا باتجاه العوامل . فصيلين ٨ سيارات مدفعين ٣ مدرعات . الساعة ١٠ تصدينا الى قافلة مسلحة معادية، وبعد غارة قصيرة شتتنا القافلة ، واسرنا ١١ نفر وجندي وستة سيارات وكثير من العتاد والسيارات المعطلة . تاثير عظيم ، حماس كبير (١) .

---

١ – اذكر ان بين السيارات واحدة فيها قطع غيار لآليات الجيش البريطاني والثانية فيها قطع اقمشة كيميائية ضد الاحتراق . وقد مر بمقري بعد الحادثة عز الدين الشوا وطلبت منه ان يقوم بمهمة الترجمة بيني وبين الاسرى البريطانيين . وبهذه المناسبة أذكر انه في اثناء اعدادنا لثورة ١٩٣٦ قدم الى منزلي في بغداد عوني عبد الهادي ومعين الماضي وعز الدين الشوا مبعوثين من قبل المفتي » وقد ذكر عوني عبد الهادي انه يتمنى لو يرى فلسطينيا يصفع ضابطا بريطانيا على وجهه وأجبته ان صفعة عربي لضابط بريطاني ثمنها القتل ، وطلقة رصاص على ضابط ثمنها القتل ، فلماذا تفتش عن الارخص . اما عز الدين فقد قال ان ما يتمناه ان يرى في يوم ما ضابطا عربيا يأسر قوة انكليزية ويتولى ، اي عز الدين ، الترجمة .

٣١–٥–١٩٤١

– تحليق الطائرات اليوم – الاخبار السوداء . هدنة . فرار القواد . قرار الحركة الحديثة .

تأثير اخبار الهدنة السيء والخطير .

٢–٦–١٩٤١

– وصولنا الحديثة – الاوامر بتسليح المعدات والسيارات والجنود .

– حماس الضباط . قرار الاشتراك بالحركة . التردد . القرار واخيرا الثبات على اتباعي .

٣–٦–١٩٤١

وصول عانة . الحماس الشديد والهوسات . الاستقبال . وضع القائمقام مع متصرف الرمادي . التجسس علينا من قبل حكومة الرمادي . الخوف والحذر الشديد بنا .

– ارسال حمد بك مع الاخ للاتصال – وصول علي عبد الكريم – تلفون المدفعي لنا .

٤–٦–١٩٤١

ارسال علي عبد الكريم للاتصال – الاتصال والقوة والحركة والحالة – الاعانات – ملجأ .

٩–٦–١٩٤١

ارقام المصفحات الانكليزية المعطوبة في معركة الخضيرة حصيبة » .

وتصمت مفكرتي بعد هذه الحادثة ، ولكني اذكر جيدا انه زارني بعد معركة الحصيبة في مقري بين الحدود العراقية السورية الدكتور (ران) مندوب المانية الذي حضر الى سورية للتأكد فيما اذا كان الجيش الافرنسي الموجود في سورية قائم بتنفيذ وقف القتال بعد هزيمة الجيش الفرنسي في اوروبة ، وقد طلب مني

ان يأخذ السيارات التي وقعت في يدي اثر الموقعة لانهم أحوج لها مني ، وطلبت مقابل ذلك ان اعطى تجهيزات لعشرة آلاف مقاتل من ملابس وسلاح ومدفعية عدا الطائرات من النوع والمقادير التي يستخدمها الجيش الفرنسي . بعد ان تهيأت الفرصة الان لتنفيذ خطتي في سورية التي رسمت قبل الحرب . وكنت قد عاودت الاتصال برجال القبائل على الحدود . ولكني علمت وقبل أن أتمم الاعداد بأن قوة بريطانية تتقدم نحو تدمر لتطويقها ، وتوجهت مع جماعة صغيرة لانقاذ تدمر . وخشية أن تطول المسافة وجهت نداء خاصا دعوت فيه القبائل للانضمام وطلبت من أكرم زعيتر ان يذيعه بعد انطلاقي . واتجهت من الحصيبة الى البوكمال في رتل من السيارات. وبعد استراحة قصيرة في الطريق ، سبقتني خلالها مخابرات قائد منطقة الفرات الفرنسي الكولونيل (ريو دوكرو)، وكان مقره في دير الزور، وقامت طائرات بريطانية بقصف سيارتي وكنت استقلها مع ثلاثة آخرين بينهم حمد صعب، ولم أع سوى اصوات مدوية ودماء ساخنة تسيل على جسمي . ما حدث فعلا انه إثر القصف قُتل حمد صعب والسائق وجرحت مع مرافقي الآخر ، ونقلت في سيارة بيك اب الى المستشفى في دير الزور ثم الى مستشفى حلب حيث جاء الزعماء السوريون لزيارتي وقد فقدوا الامل في انقاذ حياتي ــ ودبَّر الدكتور (ران) امر نقلي الى المانية .

... حينما فتحت عينيّ ، وجدت نفسي في مستشفى (هنزا كلينيك) في برلين وكان لباسي عبارة عن اربطة بيضاء تلفني من اعلى الرأس الى أخمص القدمين . وهنا عاد الوعي الى نفسي ، فتمثل لي شبح المعركة التي صُرعت فيها.

فقد كنت يومئذ مسرعا الى نجدة تدمر، بعد الهدنة التي عُقدت بين الجيشين العراقي والبريطاني في حرب ١٩٤١ ، ولم أتقيد يومئذ بهذه الهدنة اولا لانني لم اكن مرتبطا بصورة رسمية بالجيش العراقي ، وثانيا لشعوري بمقدرتي على الاستمرار في الكفاح .

كانت عناية الالمان بي ممتازة فعلا ، وقد استقدموا لمعالجتي من الجبهة البروفسور «تونيس» وهو من اشهر جراحي العالم ، فأجرى لي العمليات اللازمة في راسي وجسمي ــ وأخرج منهما تسع عشرة قطعة رصاص ، ولكن رصاصة واحدة في مؤخر الرأس عجز عن اخراجها ــ وهي لا تزال في نقطة ما من رأسي. وقد وصف جسمي بأنه منجم رصاص وان بقائي حيا هو اغرب حادث عرفه بين ألوف الحوادث التي مرت به في عملياته لجرحى الحرب . وكان يعودني من وقت لآخر شخصيات كثيرة من العرب والالمان ، حتى اذا بدأت حالتي تتحسن ، اخذت شخصيات من الحزب النازي تتفقدني في المستشفى بصورة تكاد لا تنقطع . وكانوا يسألونني باهتمام عن المعاملة التي القاها في المستشفى . وبعد مضي ستة اشهر تقريبا على وجودي في المستشفى ، سمح لي بالتجول في حديقته ، وبدأت احاديث

الذين يعودونني تتخذ شكلا جديدا ويتخللها الاعراب عن اغتباطهم بشفائي ، وترديد هذا القول على مسمعي «انك ستستطيع قريبا مغادرة المستشفى ، فتستعيد نشاطك وتشترك في القتال» . وكانوا يشيدون بالنصر الذي تلاقيه الجيوش الالمانية في مختلف ميادين الحرب ، ويستبشرون باقتراب بعض هذه الجيوش من حدود البلاد العربية .

وكان قد لحق بي الى المانيا المرحومان اخي يمني وابني مجدي ، ليطمئنا الى سلامتي ويطمئنا والدتي . وكانا ينامان في المستشفى حيث كنت أعالَج . وذات يوم دخل عليّ ضابطان المانيان ومعهما اشخاص باللباس المدني ، وأخذوا يرددون عليّ تلك الاحاديث التي كنت بدأت أملَّها . على انهم كانوا هذه المرة أوفر صراحة وأكثر جدا ، فأضافوا الى اقوالهم السابقة قولهم «ستتعاون معنا في تحرير البلاد العربية» . فقلت لهم انا لست قائدا في جيش ولازعيما ، وليس لي اية صفة رسمية ينتفع بها في حالة اشتراكي في الحرب . ولديكم في المانيا زعماء عرب ، كسماحة المفتي الحاج امين الحسيني والسيد رشيد عالي الكيلاني ، وهما قادران ان يعاوناكم معاونة قد تنتفعون بها . فرد عليّ احدهم قائلا : انت محارب قديم ولك خبرة ونفوذ ، فمعاونتك لنا قد تكون أجدى من معاونة السياسيين ، ونحن في حالة حرب . قلت : وعلى اي اساس تطلبون مني الاشتراك معكم في الحرب، وماذا يمكن ان يجني العرب من هذا في حالة انتصاركم ؟ قال : هذا امر ليس بذي بال ، والمهم هو ان تثق بالفوهرر ، قلت : وما الفائدة من ثقتي بالفوهرر ، وأنا فرد من أفراد العرب ؟ ان المهم ان تثق الامة العربية بالفوهرر ، وبما يقطعه لها من عهود . وانصرف الجماعة وفي نفوسهم شيء من عدم الارتياح (١) .



وقد عاودت الكتابة في مفكرتي بعد ان اجتزت مرحلة النقاهة :

«من كروم ماخر (٢) ١٤-٨-١٩٤١ .

---

١ ـ حدثت مشادة بيني وبين احد الضباط الالمان من تشكيلات القوة المعروفة بـ S.S. بعد ان اصررت على اخذ اعتراف رسمي بحقوقنا واستقلالنا قبل الالتزام بالعمل بجانب المانية . وهددني قبل مغادرته غرفتي في المستشفى . وفي اليوم التالي علمت ان ابني قد نقل لاجراء عملية سريعة في معدته اثر تناوله دواء معينا توفي على اثرها وحضر لتعزيتي ضباط المان كبار على رأسهم غروبا وأخبروني بأن الفوهرر امر باقامة جنازة عسكرية له ورفضت الخروج بالجنازة مخاطبا اياهم بأن الذي قتله هو الذي سيخرج بالجنازة .

٢ ـ كان من القيادة العامة الالمانية وقد بدأ يتردد عليّ وأنا في المستشفى .

ـ زيارات انواع السيارات المسلحة والمقاتلة ـ المتحف العسكري وبقية المتاحف
ـ مستودعات التدريب .

ـ طلب كروم ماخر كتاب (البدو) رقم ٢ من الحركات .

ـ وافق على كل المواضيع ووعد بالتنفيذ وبمرافقتي شخصيا» .

وقد طلب كروم ماخر ان اكتب تقريرا كاملا عن الحركات في العراق وأسباب الهزيمة وكتبت في مفكرتي ما يلي :

«ـ العوامل التي أدت الى الحرب ـ حالة الجيش العامة قبيل الحرب ـ العوامل التي أدت الى خسران الحرب ـ حالة البلاد العربية وشعورها خلال الحرب العراقية الانكليزية ـ موقف الالمان من العراق والبلاد العربية قبل الحرب وبعد الحرب ـ اعلان الحرب ـ حالة القيادة العامة والوزارة ومدى تأثير مداخلات الشخصيات الغير عراقية في الامور العسكرية والسياسية مباشرة ـ اهمية طريق عمان الرطبة والحرة : اهمية الدجلة ـ درس تشكيلات الحرب ـ استعداداتنا الناقصة ، بعد تجسم خط الرطبة لدى القيادة طلبهم ذهابي ولو شخصيا لوحدي ـ الحركة من بغداد . الصعوبات والمشكلات في الطريق ، من المتطوعين والسيارات وأدوات السيارات . معارك الرطبة ، تأثيرها ، نتائجها . تخوف العدو من التقدم . تعطيل المواصلات» .

وعدت أفصّل في مكان آخر من مفكرتي حركات بريطانيا في العراق في تقرير (سيقدم) على النحو التالي :

ـ كيف استعمل الانكليز آلياتهم في حرب العراق ـ الآليات في التموين في الهجوم الصحراوي ـ في الهجوم على المواقع ـ كيف نحن استعملنا آلياتنا في جميع هذه الحالات ـ الطائرات الانكليزية ـ تأثير الاراضي الرملية والمياه على حركات العدو ـ جذب العدو الى الاراضي الصعبة ومباغتته . تمسك العدو بالطرق بعد تضليله . قطع مواصلاته وإلجائه على الدفاع دوما ـ استعمال الجنازير في الرمل للسيارات الثقيلة . تطبيق سياراتنا ـ الاعمال الخلفية ضد قواعد العدو ـ النقص الفادح عندنا عدم وجود الاسلحة المقاومة للآليات ماذا استفاد العدو من هذا النقص . اسلحتنا وأسلحتهم ـ الوديان الصحراوية الوعرة وتأثيرها في نصب الكمين والتستر من الطائرات ـ استخباراتنا واستخباراتهم ـ الانجليز: البدو جنود البادية . اهالي المدن واليهود ـ عدم كفاية وسائط النقل للمياه والبنزين والتموين . مياه الصحراء والاعاشة ـ ماذا يجب ان يعلم الجندي عن مشكلات ومتاعب الصحراء . السيطرة على كديم تدمر سبع بيار والرطبة والتنف

والهباريات تجعل الباديتين الشامية والعراقية تحت السلطة المطلقة ـ تأثير حركاتنا في الصحف الافرنسية ـ صعوبة تموين واتصال القطعات مع بعضها في الصحراء. النقاط الجوية والمؤثرة على هذه الطرق . منطقة الحرة وأهميتها ـ احتلال التسع نقاط مع الحرة وتحصينهم ثم تخصيص ارتال صغيرة الية لربطهم ولاعمال مشتركة يؤدي الى قطع كل صلة ما بين جيش العدو في سورية والعراق ويجعل أجنحتهم ومؤخرتهم في خطر دائم ـ الطرق ، المياه ، محطات الطيران . في هذه الاماكن ـ أثر البرد والامطار والحر والزوابع الرملية ـ الصحراء والوديان في ايام الامطار وأيام الصيف ـ استعداداتنا» .

وكنت أتابع في نفس الوقت تطورات الاخبار في العالم العربي وجبهات القتال فكتبت في ١٤ـ٨ـ١٩٤١ :

«خلاصة تقرير الاخبار :

١ ـ عُهد الى الامير عبد الله بحماية طريق حيفا ـ بغداد .

٢ ـ واجه ناجي السويدي محمد علي الشيخ ومحمود علي محمود سفير العراق في طهران وطلبوا منه العودة مدعين ان رشيد عالي كان يحكم حكما ديكتاتوريا في العراق .

٣ ـ مظفر عين مديرا للامن العام في بغداد . متصرف الديوانية وآخرون ممن حكموا سنتين حبس من قبل الانكليز مع كثير من الضباط ومن فرقة واحدة (٥٢) ضابطا حُبسوا في احدى معسكرات الاعتقال .

٤ ـ تعهدت روسيا وبريطانيا مساعدة تركيا في حالة اعتداء دولة اوروبية عليها ثم بضمان حدودها .

٥ ـ تذهب وحدات (فيلمي) (١) في اول آب الى اثينة . اي يبدأ بالنقل .

٦ ـ ويفل في بغداد وقد أعد حملتين ميكانيكيتين احداهما في العراق للزحف الى معاونة روسية في اتجاه القفقاس والاخرى في سورية للزحف في نجدة تركيا عند اللزوم» .

وكان الالمان يبدون للشخصيات العربية التي لجأت الى المانية كل استعداد

---

١ ـ جنرال الماني كلف على رأس جيش الماني بالزحف نحو البلقان .

لمساعدتنا في تحرير البلاد العربية مقابل الانضمام الى القوات الالمانية التي ستزحف نحو البلاد العربية عن طريقي البلقان وشمال افريقية ، ولكن كنا نشترط قبل الاقدام على هذه الخطوة اخذ ضمانات كافية من الحكومة الالمانية حول مصير البلاد العربية وضمان حقوق العرب وحريتهم واستقلالهم ، وكنت انا واخواني نرفض الانفراد بالموضوع لاننا لسنا مفوضين وليس لنا صلاحية ونطلب الاتفاق مع الزعامات العربية التي كان بعضها يقيم في المانية والآخر في البلاد العربية . وقد كتبت بهذا الشأن في مفكرتي تحت موضوع (المطاليب من الالمان) ما يلي :

«ـ الاعتراف باستقلال العراق وسورية وفلسطين ـ السعي لاعادة الحدود المسلوخة من الاراضي السورية ـ اتحاد عربي بين اقطار سورية والعراق وفلسطين والسعي لادخال بقية الاقطار الى هذا الاتحاد ـ المساعدات اللازمة لانهاض البلاد ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا» .

وتقدمت بتقرير سياسي لخصته في مفكرتي :

«مقدمة : خدمة العرب والمانيا وإزالة الافكار المغلوطة ، اقوى واصدق حليف لالمانية العرب : خصائصهم . وفاؤهم . تاريخهم . مجدهم حضارتهم خدمتهم للبشرية . بأسهم وقابليتهم وذكاؤهم . حبهم للالمان وآمالهم منهم .

ـ مصلحة المانيا : يقضي بتكوين هذه الامة . هي تكون استنادهم في الشرق وهي التي تخلص وتعاون المانيا وحدها . وبتكوينها تحترم الانسانية ومبادىء هذه الامة اقربها الى المبادىء الالمانية . فهي عدوة اليهود والراسمالية . وكل ما جاء في موضوع الآري والسامي غير صحيح . واني أرشد المانيا بهذا الطلب لمنافع ومجد واحذرها من مشاكل وكوارث تتجلى بعد عشرات او مئات السنين .

ـ ان مظاهرات الانحطاط والتفرقة لا يدل على طبيعة العرب . ولا يوجد امة من الراقية والمتمدنة تخلو من هذه المظاهر والاختلافات ولا يوجد أمة على الارض تحملت ما تحمله العرب وصمدت على مر الدهر كما صمدت الامة العربية .

ـ ان اكثر المعلومات عند الغرب عن العرب مغلوطة وكان يؤثر فيها الحقد والتعصب الديني فتشوه تاريخ العرب وحصلت الافكار المغلوطة التي نقشت في اذهان الاوربيين ولم تذهب الى يومنا هذا .

ـ ان فتح السيف يزول بانثلامه وبقيام سيف ضده . ولكن الفتح الخالد فتح القلوب والمصالح المشتركة .

ـ اسباب فشل السياسة الانكليزية والافرنسية في الشرق . وكره العرب لهم . المقاصد الاستعمارية . سوء النية . سلب البلاد .

ـ اعتمادهم على الشخصيات الغير وطنية . تحكيم العناصر الاجنبية واليهود في البلاد . فقدان الشعب الثقة من كل من عمل معهم حتى ولو كان وطنيا .

ـ قوة البلاد هي قوة الشعب . انتباه الشعب اليوم .

ـ اختلاط العناصر الغريبة في المدن وتقربها من السلطات الاجنبية سببت المشاكل وضياع الصورة الحقيقية للأمة العربية .

خلاصة :

يجب ان لا يدخل الجيش الالماني للبلاد العربية كفاتح ومستعمر كما دخلت جيوش فرنسا وانكلترا البلاد حيث اصبحت البلاد كلها في حالة عداء مستمر واضاعت كل فرصة لانهاض البلاد وتأمين مصالحها . فكان باستطاعة كل منها ان يكوّن من البلاد العربية امة قوية حديثة مخلصة تؤمن بمنافعهم وتغنيهم عن كل المشكلات التي وقعت لهم طوال السنين . لذلك يجب ان لا يكون الجيش الالماني في البلاد العربية كما هو في بولونيا او صربيا او تشيكوسلوفاكيا الذين ينتظرون الفرص للايقاع بالمانيا .

ـ اني لم اجد بين الامم من يحب الالمان كما يحبهم العرب . وتامل منهم .

ـ يجب ان يسبق الحركات تصريح رسمي يضمن للعرب استقلالهم ووحدتهم .

ـ تشكيل قيادة عربية تؤلف جيشا عربيا يسير جنبا الى جنب الجيش الالماني كما هو الحال في الحرب الماضية مع الشريف حسين .

ـ بدون هذا لا يمكن ان يكون العرب اصدقاء ولو كان معكم الرسول بنفسه . ولا يستطيع اي عربي حر الاشتراك قطعا وكل من يدخل معكم البلاد يدخل بوجه اسود » .

وقد اتبعت هذا التقرير السياسي بملحق ورد فيه :

«ـ ان العرب يمكنها ان تشترك بالسراء والضراء معا .

– ان يعطي للجيش تعليمات بانهم يدخلون بلادا صديقة وان البلاد معادية للانكليز واليهود وان العرب ليسوا من اليهود .

– ان كلمة (انتي سميت) هي دسيسة يهودية استغلتها ضد الالمان ليكون هجومهم على اليهود موجه الى شعوب اخرى ايضا » .

وتعددت لقاءاتي مع الشخصيات الالمانية وسجلت بعض ما دار من حديث مع مليشر وورمن :

«سياحة نوري السعيد الى سورية – نشاط الانكليز في البلاد العربية لاستجلاب العرب – الاذاعة عندنا وضرورة ترتيبها – ضرورة تنظيم العرب في المانيا وربطهم في مركز واحد – مستقبل البلاد العربية وسياستها – وضع التدريب في اثينة(١) . الجنود لا ينفعون والضباط في اثينة لا يتدربون – خطيئات الالمان تجاه اخواننا في سورية وايران – مطالب الالمان واهدافهم في البلاد العربية – اذاعة اخرى من راديو برلين وروما» .

وفي ٣ ايلول ١٩٤١ دونت محادثاتي مع مليشر وورمن :

«١ – لم يسمع لنا نصحا منذ القديم واعتبر راي من لا يمثل وادى الى خطيئات متزايدة .

٢ – تصريح المانيا في الراديو بخصوص اعتماد العراق على المانيا في قتالها كان له اسوأ تأثير . خطأ فاحش .

٣ – بعد الهدنة لم يسعَ احد من الالمان للاتصال بي وانا أقاتل وكل يعرف مكاني . وقصدوا قائد الموصل وهو مستسلم .

٤ – لم يهتم احد برجالي الذين حاربوا والذين اعطيت قائمتهم وكذلك برجالنا السياسيين مما أدى الى انجرارهم وجلب عوضا عنهم اطفال لا قيمة لهم برايي اشخاص لا قيمة لهم .

٥ – لم ادرِ الى اليوم ماذا حل بمن وصل الى تركيا ولا عن طريق اسمائهم شيء .

---

١ – وجدت تشكيلات عربية في معسكر للتدريب في آثينه محل (سونيون) وكان الرئيس المسؤول عنها هو المفتي .

٦ – لم يعمل اي شيء لجلب الضباط من طهران وترك امرهم للانجليز وسوف يكون مصيرهم افدح ثغرة في اعتبار المانيا في البلاد العربية .

٧ – انني امثل الشعب العربي وثقة اكثر من اي شخص او ملك آخر .

٨ – نحن نطلب من المانيا ان تصحح خطيئاتها الماضية وتعترف لنا باستقلالنا السياسي والعسكري والاقتصادي ووحدتنا وحدودنا كما اعلنت وكما يأمل كل عربي .

٩ – كما اننا نريد ان نعلم مطاليب المانيا من البلاد العربية .

١٠ – نريد من المانيا تعهدا خطيا بذلك ، لنضمن انحياز العرب لنا جميعا وقتالهم في صفنا .

– انني لا استطيع الاشتراك الا على هذا الاساس . والا فانني معذور عن الاشتراك .

– ضرورة تنظيم ارتباط بيني وبين الخارجية للاتصال الدائمي» .

اما مطاليبنا العسكرية من فيلمي فقد اخصتها في مفكرتي كما يلي :

«– ملاك التشكيلات . فرقتين – الجيش السوري وضباطه والعراقي وضباطه . وتشكيل قوة مختلطة من هذه الصفوف كنواة الجيش العربي المقبل – تشكيلات صحية – تصحيح الاخطاء التي ضيعت الاعتماد على المانيا – محاربة الدعاية الانكليزية – تصريح عن استقلال العرب وحريتهم وان لا يدخل الجيش الالماني فاتحا ومستعمرا كالافرنسي والانكليزي – ضرورة مرافقة جيش عربي يتكون في البلاد العربية مع الجيش الالماني .

واستمرت مساعينا خلال عام ١٩٤٢ دون ان تحقق نتائج عملية . وزاد في عرقلتها الانشقاق الذي وقع في المعسكر العربي بسبب اختلاف الآراء بين الزعامات العربية التي كانت تنتقل بين المانيا وايطاليا وعلى راسهم سماحة المفتي ورشيد عالي الكيلاني(١) . وسجلت في مفكرتي خلال ذلك العام بعض اليوميات التفصيلية:

---

١ – اذكر بهذه المناسبة ان الجنرال (فيلمي) قد دعاني لشرب فنجان شاي في منزله ، وعندما حضرت الى منزله وجدت الدكتور غروبا كذلك (صهره) ، وأخذنا نبحث في طريقة =

«٢ كانون ثاني ١٩٤٢ :

«ـ مواجهة مع (سميح) (١) ، تحذير من الاسترسال والتساهل قبل اعتراف كامل (تحريري) . موضوع المعسكرين .

١ ـ تثبت الغاية : وهي الاشتراك في القتال لاجل تحرير واستقلال البلاد العربية التي تعترف به الحكومة الالمانية .

٢ ـ قيادة عربية وعلم عربي ولباس عربي والايعازات عربية .

٣ ـ يتعاون بعض ضباط الركن للجنرال فيلمي مع القيادة العربية للتدريب والتجهيزات والارتباط مع مقر فيلمي .

٤ ـ يجمع كل ابناء العرب ويفرقوا حسب قابليتهم الى صفوف حيث تفتح دورات للاسلحة الحديثة والاساليب الحديثة .

٥ ـ تكون الدورات ثلاثة مراحل . الاولى ضباط صف ـ الثانية رؤساء عرفاء ـ الثالثة ضباط .

٦ ـ تعترف الهيئة العربية برتبهم ويكونون نواة لجيش المستقبل . اظهرت لسميح تألمي من عدم سؤال رشيد عني وانا احد الضباط الذين قاتلوا حتى النهاية وجرحت وصديقه الخاص .

٧ ـ تدريبهم حسب منهاج يعطى من القيادة العربية وذلك ينظم على اساس ما تحتاجه من التدريب .

= للتخلص من المأزق الخطر الناجم عن خلافات الزعماء فاقترحت عليهم بأنه نظرا لان السيد رشيد عالي كان رئيسا للوزارة العراقية ، والمفتي كان رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين، ارى ان تتشكل حكومة عربية في المنفى (في المانيا) وان يكون رشيد عالي رئيسا للحكومة ، وان يكون سماحة المفتي رئيسا للمجلس الوطني، على ان تكون مقررات الحكومة بكاملها خاضعة لمراقبة وتصديق رئيس المجلس الوطني . وبهذه الطريقة يستلم كل واحد رئاسة كانت من اختصاصه . وقد أقر الاثنان على ان الاقتراح معقول ويجب الاخذ به والتخلص من هذه الفوضى الخطيرة .

١ ـ اقصد المفتي .

٨ ـ تأمين الاسلحة والتجهيزات لملاك شامل وليس لوجود المعسكر (١) فقط .

١٥ يناير ـ سميح يريد الملك والخلافة .

الحامي (٢) اكبر مشجع لهذه الفكرة . لا يقبل اي مداخلة ولا يعترف بوجود اي شخصية من العرب مستبد بكل المواضيع . كلف الرشيد برئاسة وزارة عربية ولما سأله من الملك أفهمه ضمنا وهل غيره أحق للملك .

٢٢ يناير ـ انشقت العرب الى شطرين عراقي وسوري والمسؤول سميح وانشطرت القضية بذلك الى شطرين عراق وسوريا وفلسطين . ولكن السوريين كذلك مستائين والالمان اخذوا يتذمرون من الوضع غير المتحد . الجهود متجهة من كل ناحية لحصر السلطات في مركز رشيد والناحية الدينية والدعاية بسميح .

٢٦ يناير ـ برقية الى عدنان في اسطنبول في الامور القضية في خطر . سميح يستبد ـ سرعة ارسال التفويض (٣) .

٣١ يناير ـ برقية من عدنان . انه سيرسل التفويض غدا مستعجلا . سيبقى في اسطنبول ينتظر كتابي .

٣ فبراير ـ تحادثت مع (سميح) بوضوح وصراحة عن حراجة الموقف وانشطار العرب والقضية العربية بسبب اشتغال كل من ناحية . وبعد حديث طويل في هذا الموضوع طلبت من سميح حفظا للسمعة وحرصا على المصلحة وتوفيرا للجهود وذلك ان يتولى العراق الدفاع والتمثيل عن العرب وان تعاونه سوريا . وقد عاهد واقسم الايمان الغليظة بأنه مستعد بتوقيع وثيقة يتعهد فيها بأنه لا مطمح له بأي منصب في المستقبل وانه يمشي وراء رشيد بصفته ممثلا رسميا ويسانده بدون اي مخالفة فأفهمت ذلك الى رشيد فسُرّ سرورا شديدا . ولكن بلغني بأنه مساء اليوم ذاته قلب عن فكرته وادعى انها مؤامرة ضده وطلب مواجهة الاميرال سرا لوحده دون علم من رشيد وغروبا .

١٢ فبراير ـ افهمني رشيد ان (سميح) يقوم بجميع المقابلات والمحادثات الرسمية وحده ويستأثر بالكبيرة والصغيرة ولم يطلعه على شيء الا التافه وانه فهم

---

١ ـ أعني معسكر سونيون في آثينة .

٢ ـ أعني به موسوليني .

٣ ـ المقصود عادل العظمة . وكنت اطلب ارسال تفويض الى رشيد عالي الكيلاني لاننا رأينا ان المفتي متفاهم مع الايطاليين .

بأن سميح يريد القضية لنفسه وان القضية العربية في خطر . لذلك اضطر اخيرا الى انقاذ العراق على حد قوله فسعى للحصول على اعتراف باستقلال العراق .

١٥ فبراير – سميح يقول بأن الجماعة لم يعطوا اي شيء رسمي ما عدا الوعود واظهارهم حسن النية لانهم لم يقبلوا بتشكيل حكومة عراقية في برلين كما طلب رشيد .

١٩ فبراير – افهمني كروم ماخر بأن كل من سميح ورشيد طلبا من الخارجية تأسيس مكتب عربي على انفراد اي مكتب للعراق وآخر سوري . ولكن الخارجية رفضت واقرت طلب رشيد فقط . يقول كروم اننا عندما نمتشق الحسام فلا يبقى سميح ولا غيره اي عند بدء الحركات في بلادنا تكون الكلمة للجماعة (١) فقط .

٢٦ فبراير – افهمني غروبا بعد رجوعه من روما بأن الجماعة (٢) يتمتعون بأقصى الرفاهية فكل بقصر لوحده وخدمه وحشمه وسياراته مؤمنة . ولما سألته عن القضية قال انهم ممنونون جدا من سيرها . وعندما سألته هل حصلت نتيجة ما مثبتة من المفاوضات اجاب لا بعد لم يحصل شيء . ولما سألته عن السبب وهل لموقف فرنسا في الموضوع من تأثير على مجرى قضية سوريا قال نعم . وهذا يؤيد ما قاله لي كروم ماخر من ان وضعية فرنسا وانحيازها لطرفهم واحتمال استعمال اسطولها في صالحهم كل ذلك يدعو الجماعة بأن لا يعملوا ما يزعل الافرنسيين ولو كانت الرشوة من جلدنا .

٧ مارس – افهمت غروبا في اجتماع بأن الدعاية بالنسبة الى البلاد العربية ضعيفة وان البلاد تجهل نوايا الالمان اخذت تشك . فقال صحيح ان الدعاية ضعيفة ولكنه اتخذ التدابير لاصلاحها . وانه عندما يعود رشيد سوف يتكلم بالراديو ، ثم يعقبه سميح فيتكلم ويخاطبون العرب ، وعندئذ تلتهب الجزيرة من اقصاها الى أقصاها ضد بريطانيا . قلت ولكن العرب اذا لم يحسوا شيئا يطمئن استقلالهم وامانيهم فلن يسمعوا او يعملوا مع اي شخص كان .

---

١ – يعني الالمان فقط .

٢ – اي جماعة المفتي . اذكر بهذه المناسبة ان الدكتور غروبا قال لي بأن الكونت تشيانو قدم كتابا لريبنتروب وزير خارجية المانيا : يعترف فيه باسم الحكومة الايطالية بأن يكون المفتي زعيما على البلاد العربية ويطلب من الحكومة الالمانية اعترافا مماثلا ورفض الطلب .

١٤ مارس – قال مرة اننا سنذهب الى هناك اقوياء وهذه ترددت من نسيبه (فيلمي) وجماعته ومن كروم وجماعته عدة مرات (١) .

١٩ مارس – اما ملاحظاتي الشخصية فالالمان ليسوا حسني النية بلا شك ولا يعطفون على العرب بصورة اكيدة ، ولا يتمنون لهم كل خير حقيقة . ولكن مع ذلك زعماءنا ليسوا أكفاء الادارة السياسة العربية في هذه الظروف العالمية القائمة .

٢٢ مارس – بلغني ان سميح ينشىء معسكرا عربيا آخر في روما شبيها بمعسكر اثينة . فالعرب سيكونون اذن في صفوف ايطاليا والمانيا لتأمين نفوذ في مناطق مختلفة .

٢٦ مارس – اما في روما فسميح ورشيد كل يعمل لوحده . ويقابل لوحده ويفاوض لوحده . وقد انشطرت القضية منذ بدئها الى شطرين واظن من الصعب تأمين مطاليب العرب بهذه الطريقة والوسائل ، فالانانية قتالة وفي سبيل الكرامة الفردية كرامة الامة تداس وتضيع .

٢ ابريل – صرح وزير الاقتصاد الالماني فونك عند زيارته روما بأن سواحل البحر الابيض المتوسط هي ضمن نفوذ ايطاليا ولا يحق لاحد التدخل في شؤونها مطلقا .

٩ ابريل – الالمان يقولون انهم يريدون ان يعطوا كل شيء ولكن الطليان غير موافقين والطليان يدّعون خلاف ذلك (وما بين حانا ومانا) .

١٥ ابريل – مونش (ميونيخ) اليوم تقابلت صدفة مع عباس الحلي آتيا من روما الى برلين فادلى اليّ بالحديث التالي :

١ – عدم ذهابي الى روما من تخوف سميح وحتى رشيد لما قام به من الدس والشغب ضدي (للحامي) فتخوف سميح وعرقل سفرتي .

٢ – ان المفاوضات الجارية هي فردية وتنحصر اولا بطلب كل منهم ملكا اي

---

١ – في حديث جرى بيني وبين غروبا بحضور محمود الرفاعي وبعض الاخوان من العرب قلت لغروبا : اني أعتقد من صالحكم ان لا تدخلوا البلاد العربية الا والعرب متأكدين ومطمئنين من حسن نواياكم وإلا ستجدون العرب معارضين وعند اللزوم بالقوة . قال لي : اشكرك وتأكد بأننا سنذهب اقوياء .. وهذه بينت أسلوب تفكيره .

موقعا شخصيا ثم في قضية البلاد ولكن اقليميا. فهذا يريد ملك سوريا وفلسطين وذلك ينشد العراق فقط. وعلى هذا الاساس تنقسم العرب في روما كما في برلين الى معسكرين يتراشقان المسبات ويدسان ويشاغبان ضد بعضهما لتأمين مراكز زعمائهم .

٣ – ان سميح اقنع رشيد بلزوم الموافقة والاشتراك بتشكيلات (اللازيون) العربي في ايطاليا . وقوامه من عرب سوريا والعراق والمغرب وغيرهم ، واودع هذا المشروع للتنفيذ الى ناجي ، ولكنه لم يقبل وتغيب رشيد لكي لا يتظاهر بالقبول وينسب اخيرا الى المفتي وناجي .

٤ – ان ناجي انذر الرجلين اما بان يتفقوا على منهاج عربي او ان ينسحب الى اسطنبول ويعلن مطامعهم الشخصية وتضر القضية العامة من ذلك .

٥ – ان سميحا انذر غروبا بلزوم فصل يونس البحري عن الاذاعة نظرا لمسباته المتوالية (للسميح) فلم يقبل غروبا وحصل خلاف شديد بين الطرفين وان سميح اقام ضجة ضد غروبا في روما ومن قبل احتجاجات وغير ذلك طالبا عدم مداخلة غروبا بشؤون العرب او انه ينفصل ويذهب الى سويسرا .

٦ – ان ابراهيم الراوي اراد الانضمام وحبذ ذلك المفتي ولكن دس عليه سليمان عند رشيد فأبى خروجه من معتقله .

– ان ناجي ومحمد حسن سلمان غير ممنونين بتاتا ومعهم الشريقي وانهم ينوون القيام بتشكيلات جديدة للمعارضة والمطالبة بقبول قضية عربية وانهم ينوون التعاون معي في برلين . وهكذا اصبحنا في نظر الالمان كما يصرحون دوما كل فرد مستقل لوحده وضد اخيه من العرب . وان ناجي بك يطلب ان لا يكون مربوطا برشيد وغروبا بل يطلب ان يكون مربوطا بالجبهة العسكرية فقط .

١٢ ايار ١٩٤٢

١ – صرح لي كروم ماخر ان سميح طلب من موسوليني تأسيس (اللازيون) العربي في روما فلم يجدوا سوى ١٥ عربي و١٥ هندي. ولعدم كفاية هذا المقدار طلب من موسوليني نقل المعسكر من (سونيون) الى ايطاليا فطلب موسوليني في اجتماع سالزبرغ من الفوهرر نقل المعسكر وكافة العرب من المانيا الى ايطاليا فلم يوافق .

٢ – بمناسبة طلب ممدوح من المعسكر قال كروم انه لا اعتبار للتعهد الذي

وقعه العرب فيجب ان يبقى في الخدمة الى نهاية الحرب وليس كما يظنون الى نهاية التدريب وانهم لبسوا لباس الجندي الالماني لذلك يجب ان يخضعوا للقوانين الالمانية وللاوامر والتعليمات الالمانية الى نهاية الحرب والا تبدل المعاملة مع العرب وتلغي كل شيء وتقلب كل شيء .

١٣ ايار – زرت رشيد بك بمناسبة عودته فأفهمني انه حصل على كل شيء وعلى الاستقلال المطلق التام وانه لم يبق امامنا الا تنظيم شؤوننا الداخلية كما نرغب وانه لا بد من ازالة كثير من الشخصيات في سوريا والعراق وتنظيف البلاد منهم بتاتا واما ابن سعود فاما ان يدخل الى نطاق الوحدة او الاتحاد او يرغم على ذلك بالقوة وانه سيجتمع معي للتداول في كل هذه المواضيع ولأي الامور .

١٥ ايار

تغديت عند المفتي وبعد الطعام اختلينا مقدار ساعتين ودارت عدة احاديث ومواضيع وعتابات . والخلاصة فيما يتعلق بالقضية كما يأتي :

١ – ان المحور لم يعترف برشيد كرئيس حكومة العراق الان ولكن سيعترف به في المستقبل لان الفوهرر كان قد انتقد الحكومات التي لا ارض لها ولا شعب انتقادا شديدا .

٢ – انه تبودلت تحارير اعترف المحور بها للعرب بالاستقلال التام والسيادة بالوحدة العربية بالغاء الوطن القومي اليهودي وبطلب التعاون في الحركات المقبلة في البلاد العربية وهذه الكتب عبارة عن وثائق وليست معاهدة لان المعاهدة لا تعقد الا بين حكومة وحكومة وانهم لا يعتبرون رشيد يمثل الحكومة الان . ثم تكلمنا في حالة العرب المحصورين هنا وبعض الدسائس والمشاغبات فقررنا بعد الاقتراح عليه : معالجة حالة (سونيون) – حالة اولاد العرب وتنظيمهم – تنظيم الدعاية العربية . وعلى هذه الخلاصة تقرر ان نجتمع اجتماعات عديدة وان نبدأ بالعمل معا وانه كلما سمع او علم بشيء يطلعني وان اعمل انا كذلك مثله .

١٩ ايار – زارني الكولونيل سيمن من الشعبة الاجنبية في القيادة الايطالية . وبعد المجاملات دار الحديث حول اللازيون العربي في روما أفهمني انه تأسس هذا اللازيون منذ شهر وان الموجودين عددهم ٣٠ بقيادة بدري الذي يمثل الجبهة العسكرية العربية وانه سيجلب الى هذا المعسكر الاسرى الفلسطينيين والمصريين من ليبيا وستكون مهمتهم التخريب والاستخبارات وسيلقون بالبراشوت وراء الخطوط في الجزيرة وانه لا يمكن تشكيل جيش نظامي للقتال . وعندما سألته عن مصير الضباط والجنود العرب الذين سيلتحقون من البلاد العربية قال

يكونوا تابعين لقيادة هؤلاء كما كان الامر مع الضباط العرب الذين التحقوا بجيش الشريف حسين . الفكرة لا تختلف عن فكرة الالمان وقصدهم استخدام أفراد عرب لمصلحتهم وليس تكوين جيش كما نفهم نحن ونطلب .

٢٢ ايار — اخبرني كروم ماخر ان الدوتشي يعتقد بأنـــه حامي العرب (١) وذلك بسبب نفوذه المقرر على شواطىء البحر الابيض . ولذلك هو وحده يحق له تشكيل اللازيون العربي وأما مفرزة سونيون فما هي الا مفرزة عربية من تشكيلات (فيلمي) تابعة للقيادة الالمانية وليس للعرب اي شأن بها . وان محمد سلمان يجب ان يذهب الى سونيون وانني عند بدء الحركات يجب ان اشترك مع حملة الجنرال في (فيلمي) للاستفادة من نفوذي وخبرتي في البلاد العربية وبالطبع للصالح الالماني فقط وليس للعرب والقضية العربية . هذا ما يفكرونه وشتان ما بين ما نفكر نحن وما يفكرون والله المستعان .

٢٥ ايار ١٩٤٢ — افهمني (سميح) ان غروبا ساله هل تكلم مع الدوتشي في موضوع اللازيون العربي في روما فأجابه بأنه لم يتكلم معه في موضوع اللازيون بل كان الاتفاق على موضوع (مركز تدريب عسكري في روما فقط) . فقال له غروبا: ان الشائع بأن سميح متفق على الموضوع مع الدوتشي فقال انه مستعد ان يدلي بتصريحات وبأسئلة يطرحها على الغير الايطالي في برلين بحضور مسؤول الماني وعسكري الماني وبحضور سيمن الضابط الايطالي الموجود الان في برلين وطلب هذا الاجتماع الذي سيكون فيه رشيد بك ايضا فتقرر ان يكون يوم الخميس الموافق ٢٨ مايس . ثم سأل سميح غروبا عما يشاع عن محادثات الدوتشي والفوهرر في سالسبورغ عن موضوع نقل المعسكر العربي من سانيون الى روما . فأجابه انه لا يعتقد ولكن الدوتشي والفوهرر متفقين على جميع الشؤون العربية منذ سنين .

---

١ — اذكر بهذه المناسبة انه في اثناء زيارتي لرشيد عالي الكيلاني في روما اقترح عليّ بعد احاديث طويلة عن المستقبل العربي وعن مواقف الالمان وايطاليا ، ان ازور رئيس الوزارة الايطالية من باب المجاملة بعد أن أخبرني بان الطليان يحملون عني فكرة مغلوطة ، وقد رافقني في الزيارة الدكتور جابر العمر من الشخصيات العراقية المرموقة . وقد سألني رئيس الوزارة الايطالية (الدكتـــور ملليني) فـــي اثناء نقاشنا حول اقتراحات المانيا للزعامة العربية واصراري على اننـــا لنا وحدنا حق الاختيار ولا شأن للاخرين بذلك ، قال لي بنبرة عصبية ظاهرة : اننا أدخلنا في حسابنا عندما ندخل بلادكم بأن نفرض سياستنا بالقوة . فقلت له : ليتك لم تذكر القوة لاننا نحن الذين اعتدنا على استعمال القوة ضد كل معتدي وطردناهم من بلادنا وانتم لستم اقوى من الانكليز ولا من الافرنسيين، الذين خرجوا من بلادنا مطرودين اذلاء ، تاركين الكثير من معداتهم واسلحتهم في الميــــدان . فوقف وقال بعصبية : سوف يكون الحساب عسيرا . وقلت له : نعم بأن الحساب سيكون عسيرا وداميا اكثر مما تظنون وتعتقدون . وخرجنا من مكتبه .

فيقول سميح انه يريد ان يعرف منهم اذا كان هناك اتفاق يجب ان يكون بعلـــم العرب او ان يطلعوهم عليه . وطلب مني سميح ان ننسى الماضي وأن نتعاون من جديد بكل اخلاص ! وانه ترك بدري للتدريب على الهندسة العسكرية فقط وانه سيطلب رحيلهم الى برلين .



مع تراجع المانية على جميع الجبهاتخفت نشاط مفاوضاتنا وفقدنا الامل في تحقيق ما نصبو اليه وقدر لنا ان نشهد تقدم قوات الحلفاء نحو برلين في أعنف المعارك التي عاصرتها في حياتي . كانت برلين تكسوها طبقة كثيفـــة من الثلج ، ويتصاعد من خرائبها بدون انقطاع ، دخان الحرائق التي سببتها قنابل المعارك قبيل فاجعة الهزيمة . وكان الشعب الالماني الذي انقلب فجأة الى شعب شبـــه بدوي ، يعيش في ملاجىء رطبة قذرة مظلمة ، يئن تحت هذه الطبقة الجليدية بردا وجوعا . وكان يقتات بكسرات من الخبز من فضـــلات الجيش الاحمر . واجسام ابنائه تكاد تكون عارية كمساكنه ، بفضل موجات النهب المتتالية التـــي طفت عليه .

لقد اختفت من برلين الاعلام الالمانية، واختفت معها صور زعماء الرايخ الثالث. وكذلك الملابس العسكرية الالمانية ، لتطالعك في كل مكان الملابس العسكريـــة الروسية . وكانت سيول قوافل السيارات الروسية تنقل الالمان رجالا ونســـاء واولادا ، الى مصير مجهول ، تتلوها قوافل اخرى تحمل ادوات المعامل الالمانية المفككة الى روسية واستمرت هذه العمليات اشهرا طوالا . وفي صباح يوم ماطر دخل الى منزلي نفر من الشرطة المدنية وطلبوا مني ان ارافقهم فورا ، ففعلت ، ومعي زوجتي ومرافقي حميد الصافي ، فقادونا الى مركز عسكري روسي ، رأينا فيه الوفا من الاجانب منتشرين في الخلاء . وبعد برهة اطل علينا ضابط روسي، كلم بعض الجنود ، فاذا هم يسوقون هذا القطيع من البشر ، مشيا الى حيث لا ندري . كان ذلك في ٢٩ ايار من عام ١٩٤٦ . وصلنا مساء الى بسدورف قرية في ضواحي برلين ، حيث اوقفنا الجنود تحت الاشجار ، بالقرب من مقبرة ، لم يتم فيها بعد دفن قتلى معارك برلين الاخيرة . وفي الصباح الباكر ، ساقونا الى معسكر لا يبعد كثيرا عن القرية المذكورة ، وهناك أفهمونا انهم سيعملون علـــى اخراجنا من المانيا لنلتحق بأوطاننا ، فاستبشرنا خيرا . ولبثنا في هذا المعسكر عشرات الايام ، كنا نساق طيلة هذه الايام لتكنيس الطرقات ، وتنظيف الاراضي المحيطة بالمعسكر من الاقذار ، ومن ... الاموات . وفي احد الايام ، وبينما كنا نقوم بمثل هذه الاعمال ، اقترب مني ضابط روسي وخاطبني باللغة التركيـــة وباسمي الصريح ، طالبا مني ان ارافقه لمقابلة قائد روسي كبير في احد المواقع العسكرية . فأخذ يستجوبني بدقة وتفصيل ، استجوابا ، تناول سيرة حياتي

كلها ، ولاسيما خلال اقامتي في برلين ، وامتد حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وفي اليوم الثاني اعاد الكرة ، واستمر الامر هكذا مدة اسبوع كامل . وكان الذين يستجوبونني يحرصون على ان يُؤكدوا لي اقتناعهم بتعاوني مع الالمان ضد الحلفاء ، فصرحت لهم انني كنت أميل الى التعاون مع الالمان ، وروسيا نفسها كانت تتعاون معهم ، واني نقلت الى المانيا فاقد الوعي بسبب جراحي الثخينة وبقيت فيها قصد التداوي. ثم انقطع الاستجواب مدة شهر كنت خلالها في سجن في حي «اورانين شتراسه» . وطلبت اعلام زوجتي ومرافقي بمكان وجودي . ومكثنا في السجن معا ستة اشهر ، خرجنا بعدها وليس بين أيدينا ورقة ما ، تثبت هويتنا . وفهمت ان سبب اخراجنا من السجن ، بعد التشديد المرهق علينا فيه ، كان تحقق المراجع المختصة من صدق قولي ، وكان ذلك خلال الشهر الذي انقطعوا فيه عن استجوابي .



بعد ان خلي سبيلنا ، فرضت السلطات الروسية علينا اقامة جبرية ، في غرفة من دار مقابلة لمركز عسكري روسي في برلين . وعادت هذه السلطات تطلبني للتحقيق معي من جديد ، من حين الى حين . وأخذت أفكر في ايجاد وسيلة ، تساعدني على الاتصال بالبلاد العربية للحصول على وثيقة تتيح لي الظهور والتجوال ، بشيء من الحرية ، حتى يكون في استطاعتي حين الاقتضاء اعداد العدة للهرب ، والعودة الى الوطن . وكنت مطلعا الى حد ، على حوادث بلادي بواسطة الراديو ، فكنت اعلم مثلا ان دمشق قصفت بالمدافع ، وان الفرنسيين خرجوا منها ، وان سورية اعلنت استقلالها . فكانت هذه الحوادث من جهة ، وما أعانيه من مرارة المراقبة والقلق من جهة اخرى ، تغمرني بموجات من الامل والالم، وتزيد في نفسي الرغبة في العودة السريعة الى الوطن لاشاطر الشعب شرف الكفاح . وكنت على مثل اليقين ان أحداثا جساما ستتناول كيان الامة العربية ، لما كنت اسمعه عن مدى نشاط اليهود في الاوساط الاميركية والانكليزية من اجل ما يسمونه وطنهم القومي . وأبلغني بعض الالمان القادمين الى برلين من مناطق الاحتلال الغربية عن وجود مدارس عسكرية لتخريج ضباط صف من اليهود يشرف عليها مدربون انكليز وأمريكان ويهود . وان وحدات يهودية كاملة من مختلف الاسلحة تقيم في معسكرات انجليزية وأمريكية . ولم يكتم الجنود اليهود عزمهم على الذهاب الى فلسطين بعد اعادة الاستقرار الى المانيا . وعلمت بأن كثيرا من الجنود والضباط البولونيين الذين رافقوا الجيش البريطاني في قتاله ضد المحور ارسلوا الى فلسطين وان عددا آخر سيتبعهم في ما بعد . وأكد لي كثير من الالمان المطلعين ان لليهود تشكيلات خاصة في المانيا وايطاليا تعمل على جمع الاسلحة المختلفة والعتاد بكميات كبيرة ووضعها في مستودعات منتشرة على شواطىء البحر المتوسط .

وبالاضافة الى ذلك وردت اليّ اخبار كثيرة عن مدى نشاط واستعداد اليهود للاسراع في تحقيق الدولة والوطن اليهودي في فلسطين . وهذا ما جعلني اتأكد ان نزاعا مسلحا سينشب عاجلا ام آجلا في فلسطين .. وكان توقعي هذا النزاع المسلح ، وشوقي الشديد الى الاشتراك فيه ، يزدادان يوما فيوما . ولكن الاخطار التي كانت تحدق بي ، والرقابة الشديد المفروضة عليّ ، كانت تجعلني اكثر حذرا مني في اي وقت مضى .

فما العمل ؟ كانت هيئة مشتركة من الدول الاربع في برلين ، قد تأسست ذلك الحين لاعطاء جوازات خاصة ، يجب ان تؤشر عليها السلطات الاربع ، كيما يستطيع المرء ان يغادر المنطقة بصورة رسمية علنية . وكان املي بهذه الطريقة ضعيفا جدا . وأخيرا تيسر لي ارسال احد رفاقنا (السيد ابراهيم المسقاوي) من ابناء طرابلس ، الى باريس ليحصل لنا على جوازات سفر بأسمائنا الصريحة من المفوضية السورية . وزودته بكتاب الى القائم بأعمال المفوضية السيد شاكر العاص ، أرجو منه ان يتصل بالمراجع الفرنسية المختصة لتوعز ، اذا امكن ، الى من يمثلها في القطاع الفرنسي في برلين ، ان يسهلوا لي اتمام معاملة جوازات السفر . وقد حدث ذلك فعلا ، اذ ان مسيو «لافاستر» الذي يعرفه السوريون معرفة جيدة يوم كان في الشام وفي حلب ، ويعرفني جيدا يوم ثورتي على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، والذي كان ممن يمثلون فرنسا في القطاع الفرنسي في برلين ، والذي اندهش او غضب ــ لا ادري ــ يوم عرض عليه ضابط فرنسي جوازات سفرنا . وكان همي الوحيد ايجاد طريقة لايصال هذه الجوازات الى القطاع الفرنسي مع بقائي حيث انا ، اي في القطاع الروسي ، للتأشير عليها دون الاصطدام بأي حادث قد يفسد علينا العملية كلها . وكان قد اتصل بي ان السلطات الانكليزية في برلين ، تجدّ في طلبي . وتنوي ان تطلب من السلطات الروسية ان تسلمني اليها بحجة ان القضاء الانكليزي حكم عليّ بالموت بسبب قيادتي ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ . فصممت على تضليل هذه السلطات ما استطعت . وكان للجاسوسية الانكليزية عمال من الالمان انفسهم كان لا بد ان اتقي شرهم فتلبست شخصية كولونيل روسي من سمرقند ــ تركستان ــ وحملت اسم نزار ملحقا به (اوف) فأصبحت اعرف بين الالمان في تلك المنطقة باسم الكولونيل (نزاروف) .

وأخيرا تمكنت من الحصول على وعد اكيد من سيدة فرنسية كانت تعمل في القنصلية الفرنسية في القطاع الفرنسي من برلين بمساعدتنا ، وكانت الواسطة بينها وبيننا ، سيدة المانية صديقة ، وقد سلمنا هذه السيدة جوازات السفر . وبعد اسبوع جاءتني وقالت لي انني استطيع تسلم الجوازات قريبا جدا من الجهات المختصة . وفي اليوم الثاني ارسلت مرافقي ، فعاد اليّ ووضع بين يديّ جوازات السفر تامة المعاملات . ولم استطع الا ان ارى كثيرا من النبل ، في عمل المراجع الفرنسية العليا في باريس ، تجاه خصم ثار عليهم وحارب جيوشهم .

ولن انسى مساعي الحكومة اللبنانية في هذا السبيل فقد أوعز رئيسها في ذلك الحين السيد سعدي المنلا الى وزيرها المفوض في موسكو السيد خليل تقي الدين ان يقوم بكل ما يمكن من جهود لتسهيل مغادرتي المانيا وعودتي الى لبنان ففعل ، ولكن الروس في موسكو وفي برلين انكروا وجودي انكارا تاما .



لم يبق علينا سوى ترتيب العملية اللازمة الحكيمة ، لمغادرة الدار ، في غفلة من عيون الرقابة الروسية . وكان عليّ ان ابعد زمرة المراقبة عنا نهارا واحدا على الاقل . واخذت استعرض الوسائل وادرسها بتدقيق ، فلم ترضني واحدة منها. عدا الدفتيريا .. كان مرض الدفتيريا منتشرا يوم ذاك في برلين ، يفتك يوميا بالمئات من الالمان ، وكان الروس يخشونه خشية شديدة . واستدعيت طبيبا المانيا كانت تربطني به صداقة متينة ، وطلبت منه ان يشخص فيّ مرض الدفتيريا ، وان يعالجني شكليا وينشر الخبر مجسما في مختلف الاوساط ، وقام الطبيب بالمهمة واشاع انني في خطر الموت فهلعت قلوب المراقبين وابتعدوا عن مركز المراقبة . فاغتنمت الفرصة بسرعة فائقة وهيأت امتعتي والسيارة التي ستقلني وكانت لصديق عربي ، وابلغت صاحبة الدار والخادمة انني ذاهب الى براغ ، واوصيت الخادمة ان تقول للروس اذا هم سألوها ، ان شخصية عربية تظن انها سياسية ، اتت اليّ بسيارة عليها علم غريب ، وسلمتني اوراقا لا تدري ما هي ، واصطحبنا معها ، انا وزوجي ومرافقي ، لنسافر الى الوطن عن طريق براغ – بودابست – استنبول . وكان لا بد لي من هذا التضليل لتوجيه البحث عني وجهة غير الوجهة التي اقصد اليها ، فأتمكن خلال ذلك من الوصول الى اول مفوضية عربية في باريس .

وهكذا غادرنا المنزل في ٨ شباط سنة ١٩٤٧ وخرجنا من القطاع الروسي في برلين الى القطاع الاميركي منها ، دون حادث . ولجأنا الى بيت صديق عربي هو السيد انور بركات وهو الذي اقلنا بسيارته . فأعد لنا كل ما يلزم من المعاملات للسفر في قطار الى باريس . وانتقلنا الى محطة «فانزيه» لنستقل قطار الساعة الثامنة مساء الى عاصمة فرنسا . وفي القطار وجدنا عددا غير يسير من الجنود العرب المغاربة المسرّحين ، فاختلطنا بهم وتبادلنا الاحاديث معهم بلغتنا العربية فأفسحوا لنا مكانا في احدى العربات واحاطونا بكثير من الرعاية . وحوالي الساعة الواحدة صباحا ، كنا قد دخلنا في المنطقة الفرنسية ، ووصلنا بعد الساعة الثانية الى حدود فرنسا . وفي محطة «فورباخ» وطأت أقدامنا ارض فرنسا ولم يبق يخامرني اي قلق ، فان الحكم بالموت الذي كان أصدره عليّ القضاء الفرنسي بسبب الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، كانت قد الغته السلطات الفيشية ، على اثر حوادث العراق وسورية عام ١٩٤١ .

وصلنا الى محطة باريس وذهبنا فورا الى المفوضية السورية فيها . ووجدت نفسي لاول مرة في ظل علم عربي ، وفي دار حكومة عربية ، في عاصمة فرنسا . وحينما كنت اصافح السيد شاكر العاص ، القائم بأعمال المفوضية ، كنت اشعر كأنما انا أصافح العرب اجمع . وبعد هنيهة رافقنا احد موظفي المفوضية الى فندق (برنس دي فال) في (الشانزيليزه) ليحجز لنا محلا فيه . وفي مكتب الاستقبال طلب موظف المفوضية حجز جناح باسمنا ، ولما علم المستخدم ان الجناح يحجز لنا ، القى علينا نظرة ازدراء ، ما ازال اشعر بوطأتها حتى اليوم . وما كدت استقر في غرفتي حتى قرع جرس التلفون ، وكلمني احد المستخدمين قائلا ان (مستر هارولد كنغ) مدير شركة رويتر في فرنسا ، يرغب في مقابلتي . وكان صوته ينم عن دهشته ، على ان اعتذاري عن عدم تلبية رغبته كان مدعاة لدهشة اعظم . ولكن المستر كنغ عاد فأصر على طلبه مقابلتي ، فعينت له موعدا في مساء اليوم الثاني . وطلب مني عدد غير قليل من مراسلي الصحف الاميركية والفرنسية والسويسرية ، ان اتحدث اليهم فحددت لهم الموعد نفسه الذي حددته للمستر كنغ . وانتشر بعد هذا خبر وجودي في باريس ، في كثير من الصحف العالمية والاذاعات .



... كانت باريس في ذلك الحين لا تزال تعاني وطأة البؤس والشقاء نتيجة الحرب والاحتلال . وكان الضباط والجنود من اميركان وانكليز يملأون الشوارع والملاهي والفنادق ومن النادر ان ترى ضابطا فرنسيا . وكنت اسعى جهدي لاغادر باريس بأسرع ما يمكن ، خوف الوقوع في شراك الروس ، وخشية من ملاحقة الانكليز ، لاسيما وقد بدا لي جليا ، ان الاميركان والانكليز هم اسياد الموقف في فرنسا . وفي صباح ٢٢ شباط سنة ١٩٤٧ ذهبت مبكرا الى مطار (بورجيه) فاحتللنا انا وزوجتي ومرافقي المقاعد التي خصصت لنا في الطائرة ، لننتقل الى القاهرة مباشرة وبدون توقف . وارتفعت بنا الطائرة الى ما فوق الغيوم ، والارتياح يملأ جوانحي علما مني ، اننا سنصل مساء ذلك اليوم الى ارض الوطن بعد غياب طويل وحوادث جسام . وكان ركاب الطائرة من الاجانب الذين لا اعلم عنهم ولا يعلمون عني شيئا . ثم علمت فيما بعد ان ركاب الطائرة من اعضاء الوكالة اليهودية في تل ابيب ، يعودون الى فلسطين بعد انتهاء مؤتمرهم في لندن .

وبينما الطائرة تسبح بنا في الفضاء ، كنا نحن نسبح في احلام لذيذة من مشاهدة للاوطان والاهل والاصحاب ، الى مضي في العمل والجد والكفاح . ولم يقطع سلسلة هذه الاحلام الا تحول فجائي في سير الطائرة واتجاهها الجديد نحو الشرق ، الامر الذي لم استطع تعليله ، واحببت ان استفسر عنه من مواكب الطائرة الذي كان يمر في تلك اللحظة بجانب مقعدي ، فسألته متى نصل الى القاهرة ؟

فأجاب اننا سنصل متأخرين عن الموعد مع الاسف ، واسترسل يقول انه ورد على الطائرة برقية من فلسطين تدعوها للهبوط في مطار اللد . فذهب بي الخيال الى انه فخ نصبه الانكليز للقبض عليّ ، وأمعنت في التفكير ، فلم أوفق هذه المرة الى مخرج . ووددت لو ان الطائرة تسقط بنا في البحر ولا تسقط في أيدي الانكليز. وأحببت ان لا تشعر زوجتي بشيء مما بي فرحت أحدثها ولكن دون ان استطيع اخفاء انفعالي ، غير انها وقد اعتادت المفاجآت برفقتي منذ عرفتني ، قالت لـــي ببرودة لا بد ان شيئا جديدا قد حدث ، فأجبتها اننا سنتأخر قليلا عن موعـــد وصولنا . وغرقنا في تفكير لم نفق منه ، حتى شاهدنا أنوار اللد . هبطت الطائرة وغادرها ركابها جميعهم ، بينما بقينا نحن الثلاثة في مقاعدنا . وبعد برهة وجيزة دخل الى الطائرة اثنان من الموظفين في الامن العام الفلسطيني العرب واستعرضا حقائبنا بالقرب من باب الطائرة ثم اقترب احدهما وجلس على مقعد خلف مرافقي ودار بينهما باللغة العربية الحديث التالي :

ـ الحمد لله على السلامة كيف حالكم .

ـ الله يسلمك وانتم كيف حالكم .

ـ ايش حالنا الله يخلصنا من هذه الحال ، ثم اشار نحونا وسأل مرافقي :

ـ من هؤلاء ؟

ـ لا أعرفهم .

ـ قرات اسم فوزي القاوقجي في لائحة الركاب فهل هو هنا .

ـ لا ادري ، عمري ما سمعت بهذا الاسم .

ـ لا بد هؤلاء (مشيرا الينا) من اليهود .

ـ لا اعرف .

ولكن موظف الامن العام أصر على اننا من اليهود ، فوافق مرافقي اخيرا على احتمال كوننا يهودا . ثم جاء شرطي عربي الى ربان الطائرة وسأله : هل هناك غير هؤلاء الركاب الثلاثة . فأجابه الربان بالنفي ، فانصرف وبقينا نحن الثلاثة في الطائرة ، ثم نهضت ومشيت نحو الباب وأنا أتصور ان أسلاك التلفون في فلسطين مشغولة بنقل أخباري الى السلطات البريطانية وان التعليمات بشأننا في طريقها

الى من يلزم للقبض علينا . ووقفت في باب الطائرة وأنا أدخن على مهل باحثا ، دون جدوى ، عن حيلة لانقاذنا . واذا ضابط بريطاني يقترب من سلم الطائـــرة ويصعد السلم بالبرودة الانكليزية المعروفة ، حتى مر بجانبي ودخل الى الطائرة ثم قفل راجعا ، وكنت اترقب في كل لحظة ان يوجه اليّ كلمة أعد لها جوابا ولكن لم يقل كلمة واحدة وغادر الطائرة ولم يعد . فبقيت جامدا في مكاني بضعة دقائق مثقلا بأعصاب متوترة . ومر ربان الطائرة فسألته هل يطول بقاؤنا في هذا المطار؟ فأجاب ان الطائرة ستتابع السفر بعد انتهاء تموينها بالبنزيـــن ولن يتجاوز ذلك عشرين دقيقة .

وكنت أراقب حركة المطار قدر ما استطيع لاعلم اذا كان هناك من ترتيب يؤول انه ضدنا ولكنني لم اتأكد من شيء .. وعندما انتهى تموين الطائرة بالبنزين اغلق المواكب بابها ودرجت الطائرة ثم ... طارت . وأخذ مطار اللد يتضاءل ويتوارى تدريجيا ، وتضاءلت وتوارت معه نوبة القلق والاضطراب التي لازمتنا مدة وجودنا في المطار . ولم أشعر براحة الا بعد ان دخلنا سماء مصر وبدت لنا أنوار القاهرة. وعندها فقط شعرت براحة نفسانية .

ودخلنا الى غرفة الشرطة في المطار وكانت الساعة آنئذ تشير الى الثانيـــة صباحا ولما سألت ضابط الخفر متى نستطيع الذهاب الى القاهرة ، فوجئت بجوابه انه يأسف أن يبلغني ، ان هناك امرا خطيا يمنعني من دخول القطـــر المصري ، وأطلعني على منطوق ذلك الامر ، فاذا هو امر قديم العهد صادر عن وزارة سابقة، ارسل الى شرطة المطار بتاريخ جديد . قلت وما العمل اذن . قال ان في الصباح الباكر طائرة مسافرة الى اللد وبيروت وسيحجز لنا مقاعد فيها . فطلبت اليه ان يسمح لي بالاتصال تلفونيا بالسيد عبد الرحمن عزام، وطمأنني السيد عبد الرحمن عزام انه سيتصل بالوزارة المختصة لايقاف مفعول الامر المذكـــور . واتصلت بالمفوضية اللبنانية في القاهرة فكلمني السيد حليم ابو عز الدين الذي عمل كثيرا من اجلي . وبعد مخابرات كثيرة مع المراجع الرسمية في القاهرة وفي الاسكندرونة حيث كان السيد النقراشي رئيس الحكومة المصرية يومئذ ، أبلغني ضابط الخفر انه تلقى امرا يخولنا حق البقاء في مصر اربع وعشرين ساعة . وبينما انا أوقع على اوراق بهذا المعنى وصل السيد حليم ابو عز الدين بسيارة المفوضية اللبنانية التي أقلتنا معا الى فندق «كونتيننتال» فوصلنا اليه في الساعة الثامنة صباحا . ثم استمرت المباحثات والمقابلات بشأن اقامتنا في مصر الى ان أبطل مفعول الاقامة المحـددة .

الفصل الثالث

هكذا ضاعت فلسطين (١)

يتناول هــذا الفصل جزءا من مذكراتي التي تتعلق بالحــرب التي اثيرت من اجل فلسطين ولما تنته بعد ، اذ اننا ما نزال في حالة هدنة مع اليهود ، لا يعلم احد ـ رغم جميع الظواهر ـ كيف تنتهي . صحيح ، اننا نعيش في زمن تقوم فيه هيئة أمم متحدة على اسس من الحرية والحق والعدل والسلام ، غايتهــا الحؤول دون اعتداء أمة على اخرى ، وصد هذا الاعتداء اذا هو وقع ، اما بالطرق السلمية ، او بقوة السلاح اذا اقتضى الامر . ولكننا راينا كيف ان هيئة الامــم المتحدة هذه ، خرجت في قضية العرب في فلسطين عن مبادئها المكتوبة ، فهيأت للعدوان سبيلا ، وشجعته وساعدته ، ثم راحت تبرره باسم «الامر الواقع» وتقر المعتدي عليه ، بينما تحرم المعتدى عليه من استعمال القوة لنقض ذلك «الامــر الواقع» بأمر واقع آخر ، بحجة الحرص على السلام العالمي ، والخوف من الاخلال بالامن ، الخ .

في «مشروع» هذه الحرب ، اي حرب فلسطين ، وتمني الجامعة الى القيام بدور ما على راس قوى المتطوعة ، المعروفة باسم «جيش الانقاذ» . ولقد مثل هذا الجيش في حرب فلسطين دورا ، ولكنه لم يكن الدور الذي اردته له ، ولا الذي اراده هو . ولما كانت تلك الادوار ما تزال مغمورة ، فانني أقدمت على اخراج هذه المذكرات ، لجلاء الغوامض وتنوير العرب بكثير مما يجهلون .

---

١ ـ كتب هذا الفصل عام ١٩٥٠ .

ان مذكراتي هذه ، هي سرد لحوادث ووقائع مثبتة بوثائق رسمية ، من رسائل وبرقيات بتواريخها وارقامها واسماء اصحابها ، والمداولات واحاديث كانت تدور في مؤتمرات واجتماعات حضرتها ، انشرها بالحرف ، فان تعذر ، فبالمعنى والروح تماما . وسيلمس فيها كل من يقراها ، الحقيقة المرة ، ولكن الناصعة ، لمسا ، ويجد فيها وثيقة تاريخية دامية مليئة بالعبر لمن يريد ان يعتبر . وهناك حوادث حربية وقعت في مناطق خارجة عن منطقة جيش الانقاذ ، مررت بها بإيجاز ، لان الوثائق التي تثبتها تنقصني .

وارجو ان يكون في نشر هذه المذكرات جلاء واضحا لاسباب كارثتنا في فلسطين ، خدمة لبني قومي ، في ميدان النشر ، لا تقل عن خدمتي المتواضعة لهم في ميادين القتال .

فوزي

فلسطين في مصر ـ من القاهرة الى بيروت

بعد ان نزلت القاهرة احاطني بنو قومي ، من مصريين وغير مصريين ، بأحسن مظاهر الرعاية والتكريم وظلت قاعات «الكونتيننتال» مدة غير قصيرة ، تغص بالمهنئين بسلامة العودة ، وخصتني الصحافة بعناية فائقة ، وقد كان الحديث الغالب في هذه الزيارات والحفلات ، وفي ما عقبها من اجتماعات حضرتها ، خاصة وعامة ، حديث فلسطين . وشعرت ان الحماسة لنصرة فلسطين قوية جدا ، في نفوس الذين اجتمعت اليهم من المصريين ، وغيرهم من رجالات العرب في مصر . ولمست اعتقاد الجميع ان قضية فلسطين ستحل في مصلحة العرب، وبقوة السلاح ، وفهمت من خلال الاحاديث المختلفة عن فلسطين ، ان سماحة الحاج امين الحسيني معني بالامر عناية خاصة وانه بدأ يعد العدة ليوم عصيب قريب . وان الجامعة العربية قدمت اليه اموالا طائلة بدأ يشتري بها السلاح والعتاد لتحرير فلسطين ، وانه قد جمع كميات كبيرة في مستودعاته الخاصة في فلسطين وفي مصر . كما انه بدأ ينظم تشكيلات واسعة النطاق داخل البلاد ، تكفل ـ اذا اقتضى الامر ـ القيام بعمل حاسم لحل قضية فلسطين حلا حاسما . وانه اصبح لديه من المعلومات الدقيقة عن تشكيلات اليهود وقواهم ومدى تسلحهم، ما يؤكد تفوق العرب في فلسطين عليهم ، ويؤيد الاعتقاد بسهولة تطهير فلسطين منهم ، فأثلج صدري ما سمعت واسرعت الى مقابلة سماحته ، وتحدثنا في كل المواضيع الا موضوع فلسطين ... فقد لمست عنده رغبة في عدم التحدث معي بهذا الموضوع ، لم أفهم لها سببا ومع ذلك فقد وضعت نفسي تحت تصرف سماحته ، من اجل فلسطين ، اذا ما أقدم يوما على القتال واراد ان اكون في

عداد المجاهدين ، فشكرني بسرعة وغيّر مجرى الحديث . وقد حرت في تعليل وضعه ذاك ، وودعته وانا اقول لنفسي لعل سماحة المفتي قد هيأ من الترتيبات ونظم من الصفوف ، ما يجعله مطمئنا الى التغلب على اليهود ، وحل قضية فلسطين ، من دون اية حاجة الى «ازعاج» اخوانه وابنائه العرب من غير فلسطين.

وتوالت الحفلات والاجتماعات وتكررت الاحاديث عن فلسطين في حماسة واطمئنان ، ولكنني كنت دائما قلق البال غير مطمئن القلب ، وهذا ما حملني على ان ازور سماحة المفتي ثانية وان اكاشفه بقلقي على فلسطين وبرغبتي في القتال ، ولكن صدوده هذه المرة ـ وقد اذهلني ـ كان اشد منه في المرة السابقة . فأخبرته بعزمي على الاشتراك في معركة فلسطين وانصرفت وانا عازم على ان اعود واتحدث مع سماحته مرة ثالثة ورابعة اذا اقتضى الامر ، بعد ان استقر في البلاد واطلع على الحالة العامة . وكان يرافقني في زيارتي الاولى والثانية الاستاذ محمد علي الطاهر . وخلال وجودي في مصر ورد عليّ برقيات كثيرة من مختلف انحاء البلاد العربية ، وخاصة من طرابلس تدعوني الى زيارتها ، على انني شعرت من برقيات وزير خارجية لبنان السيد هنري فرعون التي ارسلها اليّ عن طريق المفوضية اللبنانية في القاهرة ان هناك خوفا من ظهوري في لبنان مظهر المتمتع بقوة شعبية كبيرة ، وانه من الانسب ان ادخل الى لبنان دون سابق موعد .

فنزلت عند هذه الرغبة دون مبالاة ، وهبطت بيروت دون موعد سابق ، ولكن هذا لم يمنع سريان خبر وصولي بسرعة غريبة فتدفقت جماهير من مختلف الهيئات والاحزاب في بيروت وطرابلس تهنيني بعودتي الى الوطن وترحب بي . وعلمت ان طرابلس تعج بالمستقبلين الذين جاؤا من داخل البلاد السورية يظهرون فرحهم بعودتي . ومن الاحاديث العادية المتبادلة بين بعض الذين زاروني في بيروت ، شعرت ان هناك فئات واحزابا متخاصمة تتجاذبني ، والبلاد على ابواب انتخابات نيابية ، فلم ترتح نفسي الى ذلك وتقرر ان اذهب الى طرابلس على اساس منهاج وضعته لجنة للاستقبال تمثل فيها مختلف الهيئات والاحزاب في طرابلس .



الدماء في طرابلس

غادرنا بيروت في ٤ اذار ١٩٤٧ في قافلة صغيرة من السيارات كانت تزداد كلما اقتربنا من طرابلس ، وكانت هناك قوة من الدرك والشرطة لتأمين النظام فعجزت عن تأمينه ، وبدأ اطلاق النار بشكل يكاد يكون جنونا . فأيقنت ان حوادث دامية ممكنة الوقوع في كل لحظة لا يمكن الحيلولة دونها الا بمعجزة . واستمر

الموكب في سيره نحو طرابلس والجماهير تزداد كثافة وحماسة ، وأزيز الرصاص يتفاقم لحظة بعد لحظة ، حتى كأننا في معركة . وما ان وصل الموكب الى مدخل المدينة حتى بدا لنا معسكر كبير فاذا هو لاخواننا الذين جاءوا من داخلية البلاد ، حمويين وحماصنة . ويريدني المعسكر على ان اتوقف وأتناول القهوة . وما هممت بالنزول من السيارة ، حتى اختـُطفت اختطافا ، ولم اشعر الا وأنا على الاكتاف، فاقد الارادة ، وهتافات الجماهير الغارقة في هتافات الرصاص ، تقرع أذني قرعا، وانقضت زيارة المعسكر بعد عناء شديد بسلام ، ثم اختلط الحمويون والحماصنة في الجماهير ، وكانت هذه الامواج البشرية تجرفنا انا وقوى الدرك حتى وصلنا الى ساحة التل في منتصف المدينة ، وتوقف الموكب على ان اطلاق النار بقـــي مستمرا بدون انقطاع ، وخيل اليّ انه اتخذ شكلا عنيفا حادا . على ان اصابـــة واحدة لم تقع ، رغم كثافة الجماهير في الشوارع ، وفي الشرفات والنوافذ وعلى السطوح . لم يبق بيننا وبين منزل الشيخ فخر القاوقجي الذي تقرر ان أقيم فيه، الا مسافة قصيرة جدا . وهنا انبرى فريق يريد ان يأخذ قيادة الموكب ، مـــن الفريق الذي كان يقوده حتى هذه اللحظة ، ووقعت الواقعة التي لن أنس حياتي كلها ، وقعها الهائل المؤلم في نفسي ، مالت أفواه البنادق والرشاشات من الاتجاه العمودي الى اتجاه أفقي منخفض ، وأخذت الجثث تتساقط والدماء تسيل في الساحة وفي المقاهي ، فخيل اليّ كأنما نحن في معركة كبيرة ، وبقدر ما اذكر انني كنت احتفظ برباطة جأشي في اية معركة من المعارك التي قدر لي ان اخوضها. شعرت بانقباض شديد جارح في أعماق نفسي . وكان عجزي عن عمل اي شيء مجدٍ ، يزيد في وقع الموقف المحزن في نفسي . وتدخلت قوى الدرك والشرطة بالسلاح ، فتفرقت الجماهير ، ولكن عدد القتلى والجرحى زاد كثيرا . وبعد ساعة من الزمن دخلت المنزل وأنا اكاد لا اعي من شدة ما نزل بي من عذاب نفساني ، يندر ان اكون شعرت بمثله في حياتي .

اخذت أفكر في هذه الجماهير وحماستها ، وهذه الاسلحة وكثرتها ، وهذه الارواح التي طارت دون اي داع او مبرر . وخطرت ببالي فلسطين ، فقلت أليس الاولى بهذه القوة المسلحة ان تصارع اليهود ، وتصب نيران اسلحتها في صدور اليهود ؟ ومن يدري فقد يحدث هذا يوما . وحوالي منتصف الليل دخل عليّ في المنزل ضابط برتبة رئيس في الدرك اللبناني يقول ان قوة من الجيش في طريقها الى طرابلس للمحافظة على الامن ، وان المدينة ستشيع قتلاها غدا الى مرقدهم الاخير وانه قد تقع حوادث دامية ، فهو لذلك يرجو مني باسم الحكومـــة مغادرة طرابلس الى قرية اختارها من قرى جبل لبنـــان ، فغادرت طرابلس ، مختارا «قرنايل» في فندق «سعد زغلول» . وانتشر في القرية خبر وصولـــي اليها ، فأخذت وفود كثيرة تجيء الى قرنايل كل يوم من القرى المجاورة للسلام عليّ . كما جاءت وفود من طرابلس ، ومن دمشق وغيرها من المدن السورية . وألح عليّ الاخوان السوريين في المجيء الى الشام وتحديد يوم وصولي بغية استقبالـــي

استقبالا شعبيا رائعا ولكنني قررت ان ادخل دمشق دون سابق موعد ودون اطلاع احد على الاطلاق .

خلال اقامتي في قرنايل كان كرم بني معروف الذي خبرته من قبل يتجلى امام عينيّ بأروع صوره فأعاد هذا الى خاطري ذكرى كثير من شبان هذه العشيرة رافقوني في ساحات القتال ووضعت بفكري انني سأنتقي من هؤلاء الشبـــان المتحمسين المندفعين فريقا للقتال في فلسطين يوم ينتصب سوق القتال وكنت أحس ان ذلك اليوم قريب .

وخلال المدة التي أقمتها في لبنان ، درست الحالة من جميع الوجوه ، وعرفت في ما عرفته ان التسلح الشعبي غير قليل ، واختلطت بالعناصر المقاتلة التي سبق ان اختبرت قسما منها في ثورات وطنية ماضية ، فتأكدت ان هناك امكانيـــات واسعة ، لتشكيلات مسلحة قوية ، يمكن الاستفادة منها الى حد بعيد ، في معركة فلسطين التي كنت أحس انها تقترب منا بسرعة فائقة ، وكتبت الى سماحة المفتي في مصر وشرحت له الحالة بوضوح كما عرفتها ، ووضعت نفسي مرة اخرى تحت تصرفه من اجل فلسطين ، مبينا له قيمة الاستفادة من الامكانيات الشعبية اذا هي عمل لتنظيمها بجد واخلاص . وسلمت الكتاب الى السيد عز الدين الشوا الذي سلمه الى سماحة المفتي يدا بيد ، ولكنني لم اتلق جوابا . وعلمت فيمـــا بعد ان سماحة المفتي يعتمد على تشكيلات شعبية فلسطينية باسم «الخلايا» منتشرة في انحاء فلسطين كلها ، وهي من القوة ، بحيث تستطيع ان تحل قضية فلسطين ، وان كل ما يطلبه من الدول العربية هو ان تمونه بالمال والسلاح والعتاد . اما انا فكنت أخالف سماحة المفتي بكل اخلاص في رأيه واعتقاده رغم انه لم يكن توفر لديّ من المعلومات الموثوقة ما استطيع ان أقيم معه البرهان المحسوس على خطأ ذلك الرأي . ولكنني كنت أحس وأستنتج ان اليهود الذين ينوون ، في تصميم اقامة دولة يهودية بالقوة ، في فلسطين بين مجموعة الدول العربية والشعـــوب العربية ، وهم من هم في اميركا وأوروبا ، علما ، وفكرا ، وجدا وغنى وحيلة ومثابرة ، لا يمكن الا ان يكونوا هيأوا لانشاء دولتهم ، ما تقتضيه مغامرة كهذه من اسلحة وعتاد وأموال . وقوى مدربة ، وتحصينات ، واتفاقات مع بعض دول غربية لهذا الغرض . مما لا ينفع معه الا ما يماثله ، او ما يقرب منه على الاقل .

الجماعات الشعبية المسلحة ـ اعتداءات اليهود ودعايتهم

دخلت دمشق دون ان أطلع احدا ، مساء ١٢ اذار سنة ١٩٤٧ وحللت في فندق «اوريان بالاس» نزولا عند رغبة الحكومة وذهبت توا الى القصر الجمهوري بصحبة السيد نبيه العظمة . فاستقبلني فخامة الرئيس القوتلي استقبالا وديـــا

حارا ، وجرت بينه وبيني احاديث متنوعة ، ولكنه لم يتعرض لفلسطين ولا انا رايت التعرض لها في المقابلة الاولى ، ولكنني صرحت لفخامته انني اضع نفسي تحت تصرفه المطلق في نطاق خدمة الوطن . وما تنفس صبح اليوم الثاني ، حتى سرى في المدينة خبر وصولي اليها ، فأخذ الناس وفي مقدمتهم اخواني واصدقائي القدماء ، يتوافدون على الفندق ، معربين عن ابتهاجهم بعودتي سالما الى الوطن . ورات هيئة النادي العربي ان اتخذ من النادي مكانا للاستقبال ففعلت شاكرا . واستمرت الزيارات والاستقبالات مدة طويلة . كان يتلطف كل وفد خلالها ، فيدعوني الى زيارة المدينة التي يمثلها ، ولكنني مع الاسف لم اتمكن من تلبية هذه الدعوات الكريمة وانصرفت الى درس حالة الشعب من وجوهها المختلفة ، فاذا في سورية كما في لبنان ، جماعات شعبية كثيرة مسلحة ، واصبح همي تهيئة الطريقة الصالحة للاستفادة من هذه الجماعات ، في فلسطين اذا ما وقعت الواقعة ، ـ وهي ستقع حتما ـ بين العرب واليهود . فقررت ان خير طريقة ، هي اولا ، تحديد عدد هؤلاء المسلحين في كل منطقة ، وتسجيل اسمائهم وتفويض امر كل فريق منهم الى زعيم فيهم مطاع ، يتولى قيادتهم . ثانيا ـ تحشيدهم في اماكن معينة وتدريبهم تدريبا عسكريا . ثالثا ـ تنظيمهم في وحدات مستكملة شروط القتال بأساليبه المختلفة ، حتى اذا جاءت الساعة رمينا بهم اليهود قبل اللجوء الى الجيوش النظامية ، فتستفيد الدول العربية منهم فائدة كبيرة .

وكانت الاعتداءات اليهودية ، خصوصا على الجيش البريطاني ، في فلسطين ، بدأت تشتد ويتردد صداها ليس في هذا الشرق الاوسط فحسب ، بل في اوروبا واميركا ايضا . وكانت اعتداءاتهم تدل دلالة واضحة على مقدار تنظيمهم ، وتسلحهم ، ومدى استعدادهم العسكري وكثرة ما يملكون من مواد متفجرة واسلحة اوتوماتيكية ، يستعملونها ضد الجيش البريطاني ومؤسساته في مختلف انحاء فلسطين ، الى حد اظهر الجيش البريطاني بمظهر الضعف والتردد . وكان ينبغي لنا ان نرى في هذا كله ، ما يدل على مبلغ استعداد اليهود ويحملنا على ان نحسب لهم حسابا . على انني وان كنت حتى ذلك الحين ، غير مطلع اطلاعا حقيقيا كافيا على مبلغ ما في فلسطين من استعداد ، لدى العرب ، من ناحية التنظيم والتشكيلات والتسلح ، فقد كنت أميل الى الاعتقاد ان الحالة حسنة من هذه الناحية ، كلما تذكرت ما قاله لي سماحة المفتي بهذا الشأن في مقابلتي الاولى له في مصر . ثم اقول لنفسي لا بد ان يكون سماحته قد اتم خلال هذه المدة ، النقص الذي يمكن انه كان موجودا ، للقضاء على هذا الطغيان اليهودي ، الذي كان يتجسم يوما بعد يوم . وكان هذا الاطمئنان اذا حدث ما يصدعه او يقلقه ، يستنجد بذاكرتي فتنجده بما تعيه من ذكريات ، عن سماحته تعيد الى خاطري ما كان يتمتع به في المانيا وايطاليا من نفوذ ومن سلطان ، يحملان الاوساط الالمانية والايطالية على تعليق آمال كبار على سماحته ، في بادىء الامر ، للتقرب من العالم العربي والعالم الاسلامي ، والانتفاع بهما بواسطته ، فتزيده هذه الاوساط

من لدنها ، قوة الى القوة التي كان يخيل اليهم انه يتمتع بها ، فتضع بين يديه مبالغ طائلة من الاموال ، عدا ما كان يرد على سماحته من الخارج وتضع تحت تصرفه وسائل مختلفة للاتصال بالبلدان العربية والاسلامية . اذكر هذا كله فأعود الى الاطمئنان ، واقول لنفسي ان سماحة المفتي لا يمكن الا ان يكون استعمل تلك الامدادات والوسائل لتسليح فلسطين وتنظيمها وتهيئتها . ويمكن لهذا الاطمئنان من جهة اخرى ، ما كان يبدو من طمأنينة سماحته وارتياحه الى كل ما يجري ، مما نقل عدوى الاطمئنان الى جامعة الدول العربية نفسها كما كان يظهر ، يوم كان سماحته يحضر بعض اجتماعاتها ، فيخيل الى الجميع ان النتيجة الحسنة المشرفة مضمونة .



اجتماعات ـ مؤتمرات ـ تصريحات

اخذت حمى المؤتمرات والاجتماعات تسري بشكل غريب ، حتى كاد لا يسلم منها راس سياسي ولا عسكري ، واخذ نشاط الرسل والوفود بين الاقطار العربية يشتد ، حتى ليخيل الى المرء ان عواصم البلدان العربية كلها ، غارقة في مؤتمر واحد مستمر لا ينقطع . واسم فلسطين على كل لسان ، والحرب مع اليهود حديث كل فرد كأنما الاقطار العربية في حالة «نفير عام» . لقد كانت حماسة حقيقية فعلا ، لا يعوزها الا ان يستغلها استغلالا شريفا منظما لمصلحة الوطن وخير العرب جميعا ، هؤلاء الرؤساء الرسميون والزعماء الكثيرو العدد ، بأن يجمعوا الصفوف ويضعوا الخطط ويعدوا العدة لقتال عملي جدي ، وانهاء لجولة او جولات حربية قليلة ، بعد ذلك ، مع اليهود في فلسطين ، ويحل العرب قضية فلسطين، ويضعون العالم امام الامر الواقع .

حينما اتذكر تلك المظاهر الحماسية والتظاهرات الصاخبة ، يمر امام عيني ما شهدته منها في لبنان ، في مهرجان قرنايل يوم ٥ تشرين الاول ١٩٤٧ ، الذي تسابق اليه من الشمال ومن الجنوب زعماء يبايعون ، ويقسمون اليمين ليكوننّ في الطليعة من المحاربين ، فاذا هي ـ ويا للاسف ـ كما تبين فيما بعد ، عهود لم يكن اصحابها يشعرون بما لها او بما ينبغي ان يكون لها ، من خطورة وقدسية . وكان ان ذهبت كما تذهب كلمات المجاملة التافهة ، على موائد الطعام والشراب . ومثل هذا الاجتماع كانت اجتماعات كثيرة في مناطق كثيرة ، من اقطار عربية كثيرة .

ولكنني كنت أعتقد وأعلم ، ان هناك فئة حية الشعور ، طيبة النفس ، صادقة

الحماسة في هذه الشعوب العربية انها في غير جماعات الزعماء والمتنفذيـــن وأصحاب الوجاهات . وقد وجدت هذه الفئة فعلا ، ومددت اليها يدي في لبنان وسورية . وكانت هذه الفئة موزعة في مناطق مختلفة ، منها عدد ممن سبق لهم ان خدموا في القوات المسلحة كالجيش والدرك والشرطة ، وكان بين هؤلاء فريق مسلح بالبنادق فاتفقت معهم بسهولة على القتــال في فلسطين . وأفهمتهم ان تعليمات مفصلة ستجيئهم ، ينفذونها لهذا الغرض ، وأعددت لوائح بأسمائهـــم وعناوينهم ووعدتهم انهم سيسلحون تسليحا كاملا . فقد كنت أعتقد وما ازال ، ان الشبان الذين يهرعون الى القتال ثقة بك ، وحبا بفخر القتال في سبيل الشرف، يشكلون ـ اذا هم تدربوا تدريبا حسنا وتسلحوا تسليحا كافيا ـ قوة فعالة ، ينتفع بها في الملمات الى حد بعيد . وقد ساعدني في هذه الناحية ، مساعـــدة فعالة، في لبنان ، وطني مخلص مشهور ، هو الاستاذ علي ناصر الدين .

وفي ١٠ تشرين الاول ١٩٤٧ عقدنا في قصر الجمهورية في الشام وبحضور فخامة الرئيس الاول اجتماعا من اجل فلسطين ، حضره رئيس الحكومة السيد جميل مردم والعميد طه الهاشمي ومن الفلسطينيين السيدان معين الماضي وعزت دروزة . وقد لمست في حديث هؤلاء السادة ، ما يدل على انهم ينحون نحوا ، يختلف اختلافا تاما ، عما كان قائما في ذهني بشأن فلسطين . نحوا لعله يبدو لاول وهلة بمظهره المنطقي الخارجي ، انه لا غبار عليه . وهو يتلخص بما في هذه العبارة ـ مثلا ـ من دلالات .. «ان قضية فلسطين لا تُحل الا بالقتال ، تقوم به الجيوش العربية النظامية ، ولكن يجب ان يسبق القتال نشاط سياسي قوي شامل في دوائر هيئة الامم المتحدة ، ولدى دولها كلها ، فلعل هذه الدول تتهيب الموقف وتبادر الى حل القضية بطرق سلمية ، فان هي لم تفعل ، فاننا نقذف الى الميدان بجيوشنا النظامية ونحطم اليهود» . كانوا يقولون هذا بسخاء وحماسة . ولا ادري لماذا خيل اليّ كأنما وراء هذه الاقوال امرا ، وكأنما يقولونها وكل واحد منهم يعتقد ـ دون ان يفضي الى الآخر ـ ان بريطانيا وأميركا ستحولان حتما دون وقوع حرب في فلسطين ، لانهما حريصتان على ان يكون الامن مستتبا والهدوء مخيما في ما يسمونه الشرق الاوسط وبالنتيجة ، فانهم لن يحاربوا . اذن فما المانع ان يظهروا بطولتهم بالكلام ...

واما الفلسطينيون ، فقد بدا لي انهم يرون القتال الشعبي بينهم وبين اليهود امرا واقعا لا مفر منه ، وانه يجب ان يسبق دخول الجيوش العربية النظامية ، وقد كانوا على صواب ، وكانوا يلحون في طلب السلاح والعتاد ، غير مطمئنين الى ان الاستعدادات التي كان سماحة المفتي يجاهر انه اتخذها ، كافية للقتال ، على انهم من ناحية اخرى كانوا يشيرون ، تلميحا تارة ، وبصراحة تارة اخرى ، الى خوفهم من ان تستيقظ الاحقاد ، وتتجدد الانقسامات والخصومات القديمة في

فلسطين ، في حالة القتال ، اذا ما بقي سماحته منفردا في التصرف بالامكانيات التي تتوفر لفلسطين ، في المال والسلاح والعتاد ، كثرت هذه الامكانيات ام قلت. على ان الاطمئنان الى ان حربا لن تقع ، كان بالجملة هـــو الغالب على الرؤوس السياسية الكبيرة في العرب ومن رسميين وغير رسميين . وكان الاطمئنان يبدو للمتيقظ من خلال الحماسة التي كانت ترتفع درجاتها في التصريحات ، من يوم الى يوم ، بل لعله ـ اي الاطمئنان ـ كان السبب الرئيسي في هذه الحماسة .

خذ مثلا قضية التقسيم ، فقد كان الرؤوس يقولون عند الكلام على التقسيم.. ان التقسيم لم تبت به هيئة الامم المتحدة ، وان قرار التقسيم ، لا بد له من اكثرية غالبية في اعضاء الهيئة ، ويأخذون في عمل الحساب ، حساب التصويت على التقسيم ، ويتفلسفون في الاسباب والعوامل التي تحمل هذه الدولة علـــى التصويت معنا ، وتلك الدولة على التصويت ضدنا ، فيخرجون بنتيجة حتميـــة ـ على رأيهم ـ ان الدول التي ستصوت ضد التقسيم ، عددها اكثر ، فتزداد حـــرارة الاطمئنان ، وتزداد معهـــا حرارة الحماسة للحرب . وحـــرارة التطاحـــن بالكلام على الحرب ... وينسيهم هـــذا كله ، نفوذ اليهود فـــي اميركا وفي انكلترا ، وسلطانهم الشخصي في العلم والمال والتنظيـــم والاتحاد ، والحركة القائمة على الخطط المدروسة المقررة .



وأخيرا اعلن التقسيم . وبرزت الحقيقة عارية مخيفة . وأسقط في ايدي الرؤوس برهة . على انهم سرعان ما عادوا الى طرقهم وأساليبهم المعروفة المنجية. اجتماعات ، مؤتمرات ، تصريحات ، وأشياء اخرى ... ولكن ها هو العلـــم الصهيوني يرتفع لاول مرة في تل ابيب .

وفجأة وبطريقة تكاد تكون اوتوماتيكية ، تتحول اعتداءات اليهود علـــى البريطانيين ، الى اعتداءات وحشية على العرب ، وتروح هذه الاعتداءات وتشتد ويتسع نطاقها بأساليب مختلفة ، غير انها في مجموعها تدل على الحيلة والغدر ، كما تدل على الجد والتنظيم ، والامعان المقرر في الوحشية . ومع ذلك فالرؤوس لا يزالون يعتقدون ان هيئة الامم لن تفسح مجالا للقتال . وأما الانكليز ، فـــان الاعتقاد السائد على الرؤوس الكبيرة ، ان الانكليز معنا في كل حال .. اما الشعب في فلسطين ، وفي غيرها من البلاد العربية ، فقد بدأت صدوره تغلي غليانـــا شديدا ، وأخذ يقوم بمظاهرات صاخبة يطلب ان يسلح . انه يريد ان يقاتل . فأمطرته الرؤوس الكبيرة تصريحات كبيرة ، في كل مكان ، كأنما هي على سابق موعد واتفاق . التصريح تلو التصريح ، بالمناوبة تسكن روعته وتهدىء ثائرته ،

وتعده خيرا . واليهود يعملون جادين في فلسطين وخارج فلسطين ، دونما اجتماعات ، في الظاهر ولا مؤتمرات ولا خطب ولا كلام ولا تصريحات .

وفي هذه الفترة المؤلمة الرهيبة ، بدات تنهال عليّ من الافراد والجماعات برقيات اكاد لا استطيع لها عدا ، بطلب التطوع للقتال ، ما الطريقة لاستثمار هذه الحماسة البريئة استثمارا شريفا مجديا في سبيل فلسطين ، ؟؟ هذا ما كان يأخذ على مناحي تفكيري كلها .



مع جامعة الدول العربية في عاليه

في ٦ تشرين الاول ١٩٤٧ اجتمع في عاليه في فندق طانيوس ، مجلس جامعة الدول العربية اي رؤساء حكومات الدول الاعضاء في الجامعة ، لتقرير ما ينبغي عمله في قضية فلسطين ، بصورة جدية وسريعة . ولم اكن احضر جلسات مجلس الجامعة بصورة رسمية ـ طبعا ـ فانا لست رئيس وزراء ولا وزيرا ، ولكنني كنت على اتصال دائم برجال مجلس الجامعة ، وعلى اطلاع تام على ما يدور من ابحاث ويتخذ من مقررات . وفي اليوم نفسه اي في ٦ تشرين الاول سألني السيد عبد الرحمن عزام امين الجامعة ، والسيد محمد علي علوبه ، رأيي في موضوع الحركات في فلسطين ، فاقترحت عليهما الاقتراح التالي :

اولا ـ تاليف قوة من المتطوعين ينظمها نفر من الضباط ويدربونها تدريبا عسكريا وتسلحها الدول العربية تسليحا جيدا . مع العلم ان هناك جماعات من الراغبين في التطوع مسلحة بالبنادق فقط .

ثانيا ـ تكوّن هذه القوة من مختلف ابناء الشعوب العربية ، خاصة الفلسطينيين .

ثالثا ـ دخول هذه القوة الى فلسطين بعد ان يتم تدريبها وتسليحها ، على احسن وجه ، وبالسرعة الممكنة .

رابعا ـ حشد الجيوش العربية النظامية على الحدود كأداة تهديد ، على ان لا تدخل فلسطين الا اذا استدعت ذلك ضرورة قصوى ، وبعد ان تكون قوات المتطوعين قد مهدت لها السبيل ، وزودتها بكل ما تحتاج اليه من معلومات عن العدو وسلاحه ، وتحصيناته ، ومواصلاته واساليب قتاله ، وقواه المعنوية

والمادية ومدى استعداداته كافة . وقد لا تحتاج هذه الجيوش الى اجتياز الحدود ...

خامسا ـ تنظم قيادة قوات المتطوعين بعد دخولها فلسطين ، وحدات من الشبان الفلسطينيين تدربهم على القتال تدريبا منظما ، وتضمهم اليها للانتفاع بهم في مناطقهم بالدرجة الاولى . وقد وافق امين الجامعة والسيد محمد علي علوبة على هذا الاقتراح .

وتناولت طعام الغداء في ذلك اليوم ، مع السيد محمد علي علوبة والسيد عبد الرحمن عزام ، وقبل الفراغ من الطعام استدعي السيد عزام الى التلفون ، وبعد دقائق عاد وعلائم القلق بادية عليه . واخبرنا ان رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ، أعلمه الساعة ان سماحة المفتي الحاج امين الحسيني وصل الى بيروت . وتشاءم السيد علوبة وقال .. «ما مد هذا الرجل يده الى مسألة الا وافسدها... ربنا يستر». وكنا قد بدانا نتحدث في موضوع القتال في فلسطين فاستأنفت الكلام في الموضوع . ومضيت فيه ، واشار عزام الى عدم ارتياح العراق والاردن الى مداخلاته ، والى اصرارهم على عدم التعاون معنا ، اذا أصر سماحته على السيطرة على كل شيء كما كان يطلب .

وذهبت بعد الظهر الى بحمدون ، لمقابلة رئيس الحكومة العراقية السيد صالح جبر ، واطلعته على اقتراحي وما دار بين السيدين علوبة وعزام وبيني من حديث، فوافق عليه باسم العراق والاردن ، ثم اشار الى وصول سماحة المفتي وقال : ربما عرقل وجوده هنا المباحثات ، وشق الجامعة الى شقين . ـ وكان السيد جبر ممن يعلمون ان سماحته يأبى ان ادخل فلسطين ـ فاستمر يقول : سنتساهل معه حرصا على وحدة الصفوف ، وسنأخذ موافقته على مشروع الحركات ثم نصارحه ان مسألة ادارتها يجب ان تترك للعسكريين . وعدت الى عاليه وبقيت فيها على اتصال دائم بأعضاء مجلس الجامعة ومن اليهم من رجالات العرب السياسيين والعسكريين الذين كانوا يترددون الى عاليه في ذلك الحين ، ومن بين العسكريين الذين كنت اتصل بهم بصورة خاصة اللواء صفوة اسماعيل والعقيد محمود الهندي . وكان مجلس الجامعة استدعاهما لاخذ رايهما بموضوع الحركات في فلسطين .

وبدا سماحة المفتي يتصل بالرجال العسكريين في سورية ولبنان وبفريق من المجاهدين ورؤسائهم الذين اخذوا يترددون الى عاليه ، وكان يطلب من كل واحد منهم تقريرا عن الحالة في فلسطين ، ورايه في الخطة الواجب اتباعها . موهما كلا من الرؤساء انه سيوليه القيادة ، على ان هؤلاء ـ الا أقلهم ـ كانوا يقترحون عليه، اسناد القيادة اليّ ، ويبينون له اسباب ذلك ، فيستاء ويرفض ، وكانت وفود

تجيء من فلسطين ومن بعض مدن سورية ولبنان لزيارته ، ومعرفة ما يمكن معرفته عن مصير فلسطين ، فيغدق على نفوسهم الطمأنينة... وكان الفلسطينيون يطلبون منه السلاح فيعدهم خيرا . وكانت هذه الوفود تتصل بي قبل او بعد مقابلة سماحة المفتي ، فأفهم من مقدميها انهم لا يطمئنون الى قيادة عامة محلية ، خوفا من استيقاظ الاحقاد ، وتجنبا للمآسي التي وقعت خلال سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨ . وكانوا يعلنون ان الضمانة لتلافي هذا في الحركات المقبلة هو ان اتولى انا القيادة . وكنت على اثر وصول سماحة المفتي الى عاليه ، قد زرته ، فرحب بي كثيرا ببشاشته المعروفة ودماثته الحلوة ، فعرضت عليه خطورة الحال في فلسطين ، وقلت له انني مستعد – كما كنت دائما – للقتال حتى الموت في سبيل فلسطين ، واضفت انني لا اعني كثيرا بأن ادخل فلسطين كقائد ، وان الذي يهمني ان اقاتل لانقاذ فلسطين من مخالب اليهود والمستعمرين . واني انا اقاتل كجندي بسيط ، استطيع اذا انا شئت واقتضت ضرورة القتال – ان اقود المقاتلين في كل حين ، فلم يتعد حديثه نطاق الشكر والثناء والتوكل على الله .

وفي ١٩ تشرين الاول سنة ١٩٤٧ سافرت الى دمشق مع السيد عبد الرحمن عزام ، وكان حديثنا طول الطريق لا يتعدى موضوع التدابير التي اتفقنا على اتخاذها في عاليه ، وموقف سماحة المفتي . وفي صباح اليوم التالي استقبلني فخامة رئيس الجمهورية ، فأطلعته على ما جرى في عاليه فارتاح الى ذلك ، وطلب مني ان نجتمع في قصر الرئاسة ، وفي اليوم نفسه اجتمعنا في القصر ، وحضر الاجتماع رئيس الحكومة السيد جميل مردم ، والعميد طه الهاشمي والسيدان عزة دروزة ومعين الماضي . وتناقشنا في موضوع الحركات . وطلب اليّ فخامة الرئيس ، ان اقدم اليه تقريرا مفصلا بالموضوع ، ابين فيه رايي في كيفية اشتراك الدول العربية في اعداد جيش المتطوعين ، ونصيب كل دولة في الاعداد. وانصرفنا لكي نجتمع في منزلي في دمشق ، وبعد بحث الامر ودرسه من وجوهه المختلفة قررنا مجتمعين ما يلي :

اولا – تجنيد الف متطوع ممن سبق لهم الخدمة في الجيش ، او اية قوة مسلحة .

ثانيا – تكليف بعض الضباط وضباط الصف من الجيش السوري لقيادة هؤلاء المتطوعين .

ثالثا – وضع ميزانية لتجهيزهم كما يجهز الجندي النظامي عادة ، ولكن بصورة مصغرة .

رابعا – تقوم الحكومة السورية بتسليحهم بالبنادق والرشاشات .

خامسا – ينشأ معسكر في قطنا لتدريب المتطوعين من اين ما اتوا ، على اساس منهاج يوضع لهذا الفرض .

اتفقنا على هذا ، واخذ العميد طه الهاشمي على عاتقه قضية التجهيز والتسليح والتدريب وتكفل السيد عزة دروزه بقضية الاعانات . وتشكلت على اثر ذلك لجان لجمع التبرعات وتسجيل اسماء المتطوعين . وفي ٢٥ تشرين الاول ١٩٤٧ قدمت الى فخامة الرئيس القوتلي التقرير الذي طلبه مني . ووزعت عدد المتطوعين واسلحتهم على الشكل التالي :

سورية – الف مقاتل مع بطارية واحدة ٧٥ مم .

لبنان – خمسماية مقاتل .

العراق – الفي مقاتل مع بطاريتين .

الاردن – خمسماية مقاتل مع بطارية واحدة .

السعودية – الفي مقاتل .

مصر – الفي مقاتل مع بطارية واحدة .

ويضاف الى هؤلاء جماعة المسلحين الفلسطينيين ، فيتألف من المجموع جيش يتراوح عدده بين عشرة وخمسة عشر الف مقاتل . وسلمت من هذا التقرير نسخة الى فخامة الرئيس القوتلي ونسخة الى رئيس الحكومة السيد جميل مردم . فوعداني انهما سيحيطان الدول العربية علما بالامر ويطلبان موافقتها عليه .

كان سماحة المفتي في خلال هذه المدة ، يعلن امام الرجال الرسميين انه لا يقبل ان اتسلم قيادة جيش المتطوعين ، وكان هؤلاء الرجال ، وغيرهم من الرجالات غير الرسميين ، يحاولون اقناعه بضرورة تسلمي القيادة من اجل خير فلسطين ، فيصر على الرفض ، دون ان يبدي اي سبب معقول مقبول . واخيرا ضاقوا به ذرعا ، كما ظهر ، فصارحوه بأن الافضل والاليق ان يعلن قبوله ، من ان يفرض عليه الامر فرضا ، وكان بين الذين صارحوه بهذا ، اللواء اسماعيل صفوة، والعقيد محمود الهندي . وافهمه فخامة الرئيس القوتلي ، ورئيس الحكومة السيد جميل مردم انهما قررا تسليم قيادة المتطوعين السوريين اليّ .

وبعد مجيء سماحته الى الشام في اوائل تشرين الثاني ١٩٤٧ عقد اجتماع في الزبداني ، وآخر في القصر الجمهوري حضرهما بعض الضباط ولم احضرهما، ومن جملة الذين حضروا العقيد محمود الهندي ، الذي اخبرني ان المسألة كلها

كانت محاولة لاقناع سماحة المفتي بقبوله ان اكون قائد جيش المتطوعين ، ولكنه بقي مصرا على الرفض .

وكان بدا يظهر شيء من الاشمئزاز في احاديث رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والقواد والضباط عن سماحته لاصراره الغريب على موقفه مني ، ليس الا لانه يريد ان تكون القيادة العامة له شخصيا ، وان يكون هو وحده ، صاحب الحق في تعيين قواد المناطق في فلسطين وان يكون كل ما يخصص من مال وسلاح وعتاد لفلسطين تحت تصرفه الشخصي . وبعد عودته من الشام الى عاليه ، اجتمع به السيد معين الماضي وكلمه في الموضوع. وبعد ايام لقيت السيد الماضي ، فقال لي باسما ، ان سماحته ، وافق اخيرا على ان اكون ضابط ركن من ضباطه ، على ان لا ادخل فلسطين. على ان الجماعة قد عيل صبرهم، فجاءني اللواء اسماعيل صفوة والعميد طه الهاشمي في ٦ كانون الاول ١٩٤٧ وكلفاني ، الاول باسم جامعة الدول العربية ، والثاني باسم الرئيس القوتلي قبول القيادة ، فقبلت .

***

جهود واختلاقات – دعايات منظمة

من اليوم السادس من شهر تشرين الاول ١٩٤٧ الى اليوم السادس من شهر كانون الاول من السنة نفسها ، شهران كاملان ، بذل خلالهما سماحة المفتي الحاج امين الحسيني من الجهود لعرقلة الاعمال وتفريق الصفوف . ان جهوده هذه بأساليبه الخاصة المتنوعة ، وان تكن ذهبت هباء من جهة القيادة ، ولم تنفعه شيئا ، فقد اخرت الحركات شهرين كاملين واعتقد انها تركت غير مباشرة ، تأثيرا سيئا جدا في تصرفات جامعة الدول العربية ، من جهة ، وفي سير الحركات في فلسطين من جهة اخرى .

وما كدت اتسلم قيادة جيش الانقاذ ، واحاول المباشرة في العمل ، حتى طغت على بر الشام كله ، وعلى غيره من الاقطار العربية ، موجة من الاشاعات والاتهامات ، ومن التهديدات بالقتل ، وبالثورة ضدي في فلسطين ، بشكل غريب عجيب . انه تقرير يفاجأ به الناس ، صادر عن مكتب «المفتي الاكبر – برلين –» وموقع بامضاء «بدري قدح» . وهو تقرير كان قدمه سماحة المفتي الاكبر الى السلطات الالمانية ، الغرض منه ايهام هذه السلطات انني جاسوس انكليزي ، وهو آخر سهم اطلقه سماحة المفتي ضدي ، في برلين ، ثم عاد فأطلقه في البلاد العربية على اثر اسناد جامعة الدول العربية ، قيادة جيش الانقاذ اليّ . وبلغ بي الاستغراب والدهشة مبلغا لا حد له . واعترف انني قلت بيني وبين نفسي، لاول

وهلة ، هذه فرصة يهيئها لي هذا الرجل ، دون ان يريد ، للهجوم . ثم ترددت. كيف اجيز ذلك لنفسي ، ونحن في بدء الاستعداد لمعركة فلسطين . واستدعيت السيد شوقي العبوشي احد اصدقاء سماحة المفتي ، وهو من وجوه «جنين» ومدير البنك العربي في الشام ، وطلبت منه ان يبلغ سماحة المفتي ، ان نفي هذه التهمة السخيفة امر سهل عليّ جدا ، ولكن الاعمال الجانية ، التي عملها في برلين والمثبتة لديّ بوثائق ناطقة لا يستطيع اذا انا نشرتها ان ينكر واحدا منها . ويكفي ان انشر في الناس وثيقة تطوعه في خدمة الالمان والطليان ، وتشكيله فرقتين يوغوسلافيتين من مسلمي البوسنة ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وما قبضه من اموال طائلة مقابل ذلك ، ومن وعود بمنصب الخلافة الاسلامية الذي كان يحلم به ، في حالة انتصار المحور ، وما سببته هذه المغامرة السخيفة التي كان يعلم انها مغامرة ، وانها فاشلة ، من ويلات ونكبات لهؤلاء المسلمين اليوغوسلافيين الطيبين ، نعم ان هذا وحده يكفي . فقل له ان يكذّب في الحال هذه التهمة الكاذبة ، وان يرعى حرمة الحق والحقيقة والوطن . وإلا فانني ناشر حقيقة اعماله وتصرفاته من دون ان الجأ الى الاختلاق .

وبعد ايام قليلة عاد السيد شوقي العبوشي يتأبط عدة صحف مصرية تحمل في مكان بارز منها تكذيب سماحته ...

في تلك الاثناء كان كثير من مراسلي الصحف الاجنبية يجوبون عواصم البلدان العربية وكل واحد منهم الصديق الصادق ... للعرب . والعدو الألد لليهود ... وكان الاميركيون منهم اكثرهم نشاطا . وتحت ستار اخذ الاحاديث والتصريحات، كان يكمن غرضهم الحقيقي المرتكز في نقطتين ، الاولى – اطلاعهم على كل كبيرة او صغيرة ، اذا امكن ، في الميدان السياسي والعسكري ، والثانية – ايهام العرب – باعتبار انهم اصدقاء للعرب – ان اليهود يملكون من القوى مقدارا هائلا، فيتحدثون عن الدبابات الضخمة والمدفعية الثقيلة المتنوعة ، والاسلحة الحديثة الفتاكة عند اليهود ، وما الى ذلك . وقد تركز نشاطهم برهة من الزمن حولي ، ولما كنت اقول لهم ببرودة ، ان العرب سيستولون بواسطة بنادقهم ، على هذه الاسلحة الرهيبة ، التي يتحدثون عنها لدى اليهود ، او شيء منها على الاقل ، كانوا ينظرون اليّ مبهوتين ... وقد استولى جيش الانقاذ فعلا بسلاحه الخفيف القليل ، على مصفحات ومدافع هاون واسلحة يهودية متنوعة ، وعند الحكومة السورية ، واللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية ، مصداق لما اقول .

على ان هؤلاء المراسلين قد لاقوا كثيرا من النجاح – ويا للأسف – في ايهام العرب وتضليلهم ، وتنشيط عزائم فريق كبير منهم ، خاصة في فلسطين . ولعل هذا كان سببا من اسباب الفشل المؤلمة .

***

بدات هجمات اليهود على العرب في فلسطين تأخذ شكلا منظما ، وبدات صرخات الاستغاثة منها ، تتعالى طالبة الاسراع في النجدة ، وتبين من المعارك الاولى بين العرب الفلسطينيين وبين اليهود ، ان ليس لدى العرب اي نوع من انواع الاستعداد المسلح المنظم ، ولا اي اثر للتدريب ، وان المقاومة التي يبدونها بشجاعة فعلا ، انما هي مقاومة دفاع شخصي ومحلي ضيق ، كما يقع غالبا ضد اعتداء طارىء وعادي ، وبسلاح بسيط ، يملكه عادة قرويون اشتروه بأموالهم الخاصة ، دون اي ارتباط بنظام معين ، او رجوع الى خطة مرتبة . وكان هناك جماعات تنتمي الى سماحة المفتي ، قد سلحها تسليحا بسيطا ، واقام على راسها قوادا . يفرضون ضرائب من اموال واسلحة ، على الاهلين ، بحجة القيام بأعباء حرب . وبدات الشكاوى تنهال على اللجنة العسكرية في دمشق ، وهي اللجنة التي تمثل جامعة الدول العربية ، وازداد الشعور عند الجماهير في الحاجة الى السلاح ، وتدفق مئات بل الوف من هذه الجماهير في طلبه ، على كثير من الاقطار العربية ، القريبة منها والبعيدة ، حتى ان منهم من وصل الى الكويت ، ومنهم من اجتاز الحدود ووصل الى تركيا لهذا الغرض وارتفعت اسعار السلاح حتى بلغ ثمن البندقية الف ليرة سورية . بينما كنا نلاحظ من جهة اخرى ، ان الذين كانوا من الفلسطينيين ينتمون بصورة خاصة الى سماحة المفتي ، كانوا يحصلون بسهولة على السلاح من بعض جهات لها صبغة رسمية ، كبعض هيئات في مصر مثلا ، وكاللجنة العسكرية في دمشق . غير انه ليس من شك في ان عربا فلسطينيين غير قليل عددهم ، كانوا يحبون ان يتسلحوا ، ويتسلحون فعلا ما استطاعوا ، ولكن السلاح قليل واقل منه العتاد . وفي العتاد كانت المشكلة الكبرى . وعلى هذا الاساس لا يمكن ان يقوم هؤلاء الفلسطينيون المتحمسون ، الا بأعمال محدودة جدا ، مهما يكن في نفوسهم من شجاعة ورغبة في التضحية. وانكى من ذلك انه انكشف لنا ان الذين كانوا يفدون من كل صوب والى كل صوب ، لشراء السلاح ، كان بينهم ـ على غير علم منهم ـ اشخاص يدسهم اليهود في صفوفهم ، مزودين بأموال اليهود ليشتروا لهم سلاحا ، ليس لحاجة اليهود الى البنادق ، ولكن ليحرموا العرب ـ ما استطاعوا ـ حتى من هذا النوع من السلاح ، من جهة ، وليساعدوا على ارتفاع الاسعار وتجسس الاخبار من جهة اخرى .

***

الجيش البريطاني . سياسة بريطانيا . موقف الدول العربية

كان الجيش البريطاني في هذه الفترة ، وبعد ان اكدت بريطانيا غير مرة

عزمها على الجلاء عن فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، يعلن من وقت الى آخر ، ان مهمته ـ بانتظار ١٥ ايار ـ تنحصر في المحافظة على الامن الداخلي ، وتأمين اسبابه . والحقيقة ان الجيش البريطاني كان موقفه كما يلي : في الحوادث البسيطة كان يتدخل فيحول دون استمرار القتال . وفي الحوادث المهمة ، كان اذا بدا له تغلب اليهود ، يقف متفرجا ، واذا بدا له تغلب العرب يتدخل ضد العرب .

على انه من الانصاف ان اعلن الان ان افرادا غير قليل عددهم من الانكليز ، من جنود وضباط ، ساعدوا العرب بشكل فردي ، قدر استطاعتهم ، ومنهم من انضم الى العرب وقاتل في صفوفهم قتالا صادقا ، محمولين على ذلك بعوامل مختلفة ، فمنهم من كان يبغض اليهود ويحتقرهم ، ومنهم من كان حاقدا على اليهود لكثرة ما انزلوه بالجيش البريطاني من اهانة واختطاف وقتل . اما السياسة البريطانية العليا فكانت في الواقع ، في جانب اليهود ، وكانت الاوامر الصادرة الى القيادة البريطانية العامة في فلسطين ، لا تخرج عن نطاق هذه السياسة ، مع العمل من ناحية اخرى لايهام السياسيين العرب في كل مكان ، من رسميين وغير رسميين، ان بريطانيا تقف ـ بالجملة ـ الى جانبهم في صراعهم مع اليهود . وكان مقياس التثبت عند «الدهاة» العرب من صحة هذا الامر ، موقف دولة شرق الاردن . فحينما اعلن جلالة الملك عبد الله انه سيدخل فلسطين مقاتلا ، تنفست الدول العربية الصعداء ... اذن ، فالانكليز سيقفون الى جانب العرب . وإلا لما اقدم جلالة الملك عبد الله على التصريح بعزمه على القتال في فلسطين .

ترى أيكون جلالة الملك عبد الله عازما على تحقيق مشروع «سورية الكبرى» عن طريق فلسطين ، هذا ما كان يشغل بال الدولة السورية في الدرجة الاولى . والعراق ، التي سترسل جيشها الى ساحة الحرب في فلسطين ، مارا بشرق الاردن ، ماذا عساها تفعل ، هل ستدعم الاردن لتحقيق هذا المشروع ؟ والملك عبد العزيز بن سعود ، ماذا تراه يدبّر ، يجب ان يكون على استعداد للعمل حين تظهر هذه النيات بوضوح .....

ويسألني فخامة الرئيس القوتلي ذات يوم : ما هي التدابير التي يجب ويمكن اتخاذها للحيلولة دون وقوع هذا الخطر العظيم ؟. فأجيب ان جيش الانقاذ في فلسطين يستطيع ان يحول دون ذلك ، فيحول دون وقوع حرب بين الدول العربية ، الى ان تتمكنوا من اتخاذ ما ترونه لازما من احتياطات ، دون ان يؤثر ذلك في مجرى الحرب بيننا وبين اليهود في فلسطين. فيأمر فخامة الرئيس في الحال بارسال لواء من الجيش السوري الى الحدود الفلسطينية الاردنية ، يجمد هناك.

وطلب جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ان يخصص له منطقة ما ، في شرق

الاردن ، يحشد فيها قواته استعدادا للدخول الى فلسطين ــ وقد لا يكون هناك قوات للحشد ــ فتخوف جلالة الملك عبد الله من هذا الطلب ، واعتذر عن تلبيته، معتقدا ان الغرض منه قد يكون احتلال شرق الاردن ، تنفيذا لمؤامرة ما ، بين الرئيس القوتلي والملك ابن سعود ، على ان يكون القسم الشمالي لسورية والقسم الجنوبي ، وهناك العقبة ، لابن سعود ... وطلب من الحكومة العراقية بإلحاح ان ترسل فورا قوة الى شرق الاردن لاحباط كل مؤامرة سعودية سورية . ووصل الى شرق الاردن لواء عراقي مختلط من المشاة والآليات والمدفعية فاطمأن جلالة الملك عبد الله وسكن . وكانت مصر تميل الى المعسكر السعودي السوري ، وتعده بمعاونتها عند الحاجة ــ ولكن هذا المعسكر كان لا يعتمد كثيرا على هذه المعاونة .

كل دولة من الدول العربية تخشى «شقيقتها» وتطمع بشقيقتها وتتآمر على شقيقتها . وكان في احد اجتماعات مجلس الجامعة العربية في تشرين الاول سنة ١٩٤٧ قد اطلق رئيس الحكومة المصرية السيد محمود فهمي النقراشي باشا تصريحا ، جاء فيه ، ان مصر تشترك في «مظاهرة عسكرية» مع الدول العربية من اجل فلسطين ، ويجب ان تعلم هذه الدول مقدما ، ان الجيش المصري لن يشترك في القتال . وذلك لاسباب مصرية داخلية بحتة ، فلتعمل الجيوش العربية حسابها على هذا الاساس . فجاء هذا التصريح عاملا جديدا من عوامل التخوف والبلبلة . تخوف كل دولة عربية من شقيقتها ... كما ذكرت آنفا . هكذا كان موقف الدول العربية وهي تستعد لانقاذ فلسطين . وهذا ما كان يشغلها في الدرجة الاولى ، وبعد هذا بمراحل بعيدة جدا ، تأتي قضية فلسطين .



حالة الجيوش العربية . اوهام الرؤساء . تحاسد . فوضى . فساد

تسلمت قيادة جيش الانقاذ رسميا في ٧ كانون الاول ١٩٤٧ بعد ما كنت مارستها برهة بصورة غير رسمية ، وبدأت بتشكيل هيئة القيادة والمقر . بعد ان تقدمت الى المفتش العام لجيش الانقاذ العميد طه الهاشمي ، باحتياجات هذا الجيش ، من سلاح وعتاد وغير ذلك . وكانت المفتشية العامة هي المسؤولة عن مثل هذا رسميا . وكان المفتش العام موضع ثقة مطلقة من فخامة الرئيس القوتلي ومن امين الجامعة ، حتى انهما جعلا منه ــ كما اتضح لي فيما بعد ــ المراقب الاول على حركاتي لما كان دخل في راسيهما من اوهام ــ ولا ادري لماذا ــ بأنني وبعض الضباط سنكون عونا للملك عبد الله في تحقيق مشروع سورية الكبرى . او انني قد «افلت» ــ على حد تعبيرهم ــ من بين ايديهم ، فاعلن في فلسطين ادارة مستقلة ، واقوم بانقلاب في سورية ، واقبض على زمام الجيش السوري، فتفقد

«الرؤوس الكبيرة» سلطانها وتفقد معه كل شيء . وذهبت يوما الى عمان في شأن من شؤون الجيش بناء على طلب جلالة الملك وبت فيها ، فقال لي وزير الدفاع السوري ، السيد احمد الشراباتي ، أتعرف ان القصر في الشام لم ينم ، ليلة نمت انت في عمان ...

وقد كنت استمع الى حديث هذه الاوهام ، ينقلها اليّ بعض الذين يحضرون جلسات الساسة والقواد الرسميين ، بكثير من الاستغراب والدهشة . ولكنني لم اكن لأبالي ، وكان همي الوحيد ، الحصول على الوسائل التي تمكنني من القيام بواجبي نحو امتي ووطني ، واعمل دائبا لتأمين احتياجات جيش الانقاذ ، من المفتشية العامة حينا ــ وهي وحدها المسؤولة رسميا عن تأمين هذه الاحتياجات ــ وبواسطة وزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي حينا آخر. وكثيرا ما لجأت الى فخامة الرئيس القوتلي شخصيا لهذا الغرض ، والى لبنان بواسطة الزعيم شهاب، والى شرق الاردن والعراق . وعند الخطوة الاولى العملية ، فوجئت بتصريحات جديدة ، على جانب كبير من الخطورة ، وهي ان الجيش السوري نفسه ، غير مستعد للقتال ، وانه ينقصه السلاح والعتاد .. وان معارك اسبوعين او ثلاثة تكفي لتستنفد منه آخر طلقة ... وبمثل هذا اخذ المقربون من الحكومات العربية يهمسون عن جيوشها .

كأن قضية فلسطين كانت بنت يومها . وكان دولة من هذه الدول العربية ، لم تتوقع ان تقاتل يوما من اجلها .

ويا للخيبة . أكانت تلك التصريحات الطنانة منذ ان تسلمت هذه «الرؤوس الكبيرة» زمام الحكم و«استقلت» في ادارة شؤونه في هذه البلدان العربية كلها ، للتضليل والتخدير والتجهيل ؟.. الم تسمع الرؤوس الكبيرة كثيرا او قليلا ، بالتكتل اليهودي ، والاستعداد اليهودي ، والخطر اليهودي ؟. اذن ماذا كانوا ينتظرون ؟ وما الذي دهاهم طوال هذه السنوات ، خاصة سنوات الاستقلال ؟ فاذا هم في الساعة التي تضعهم فيها الاحداث ، في كل مكان ، كما في فلسطين ، على مفترق طريقي الحياة والموت ، لا يملكون من امرهم شيئا . ولا يملكون من وسائل الحياة شيئا ... اعترف انني كنت اجهل هذه الحقائق المرة المزرية جهلا تاما . وكان يجهلها كثير مثلي .

تسلم اللواء اسماعيل صفوة القيادة العامة للقوات المحاربة في فلسطين ، واصبحت قيادة جيش الانقاذ مرتبطة بقيادته . فشكل هيئة القيادة العامة والمقر ، واتخذ له مركزا في «قدسية» بالقرب من الربوة ، احدى ضواحي دمشق، وما لبث طويلا ، وهو القائد الكفؤ المخلص ، حتى جرفه تيار المؤتمرات والاجتماعات ، ولم يبق له وقتا للاهتمام بشؤون القيادة . فاستقل بالامر

رفيقاه ، العميد طه الهاشمي ، والعقيد محمود الهندي . وكان المتطوعون يفدون على معسكر التدريب من كل مكان ، المصري والعراقي والفلسطيني والسوري واللبناني وغيرهم ، وكان هناك غير العربي الجركسي والكردي والتركي والارمني . وكان السلاح الذي يعطى لهم كذلك خليطا . سلاح فرنسي وانكليزي والماني وايطالي . وكان طبيعيا ان يجيء فريق كبير من المتطوعين اليّ ، فأرسلهم الى المراجع المختصة اي الى المفتشية العامة ، لتسجيل اسمائهم ، فكانوا ، في المفتشية ، يرفضون كثيرا منهم بحجة انهم كان يجب ان يجيئوا رأسا الى المفتشية العامة ، بدون ان يتصلوا بي . انهم يريدون ان يفرضوا عليّ جنودي وضباطي فرضا . يختارون الجنود والضباط الذين يريدونهم هم ، ويدربونهم ، ويعدّونهم على طريقتهم دون ان اتصل بهم الا في ساعة المعركة ، حيث لا يكون احد غيري مسؤولا عنهم ، وعن حركاتهم وتصرفهم في ساحة القتال .

ان العميد طه الهاشمي ، المفتش العام لجيش الانقاذ ، ضابط ركن جيد . ولكنه ليس قائدا. ومن هنا جاءت النظرية ، التي هي ايضا كانت سببا من اسباب تأخر النجدة عن فلسطين . كان المفتش العام يحب ان يتمشى في تدريب المتطوعين على اسلوب يتفق مع اسلوب تدريب الجنود ، الذين جندتهم الخدمة الاجبارية. وكان هذا مستحيلا تطبيقه ، فوضع المتطوع يختلف نوعا عن وضع الجندي النظامي ، والوقت الذي يصرف عادة في تدريب هذا الجندي ، لا نملك منه شيئا، فظروف القتال الذي بدا يستفحل امره في فلسطين ، تفرض علينا الاسراع بالنجدة ، والاعتماد في اتمام النقص الذي قد يبقى في بعض فروع تدريب المتطوع، على شخصية القائد وعلاقة جنوده به ، من جهة ، وطبيعة المعارك التي سيخوضها من جهة اخرى .

وكان سماحة المفتي ماضيا من بعيد في تأليف جماعات مسلحة في فلسطين كيفما اتفق ، يسمي لها قوادا ، أفرادا قد يكونون شجعانا ولكنهم جهلاء ، يحتفظ بهم للمستقبل ، واخذت ترد على المتطوعين الفلسطينيين في معسكر قطنا ، رسائل باسم الهيئة العليا تطلب منهم الفرار بأسلحتهم من المعسكر والالتحاق بهذه الجماعات التي تنتمي الى سماحة المفتي ، وقد عمل بهذه «النصيحة» كثير من هؤلاء المتطوعين المساكين .

***

مخاوف وتصرفات غريبة ـ معلومات العدو ـ ومعلومات عنه

اشرت سابقا الى مخاوف كانت تساور الرئيس القوتلي وامين الجامعة السيد

عزام ، وكان اللواء اسماعيل صفوة ينقل اليّ خبر هذه المخاوف ، قائلا انه كان يحاول ان يمحوها من نفوسهم ، بقوله لهم ، ما دام المال والعتاد بين ايدينا ، فلا مجال للتخوف ، لاننا قادرون في كل وقت ، ان نقضي على كل حركة قد يخطر له القيام بها ، وكأنه كان يريد ان يقول لي من طرف خفي ، اياك . انتبه ، فان «اللجام» بين ايدي الجماعة ، وقد طبق هذا التهديد ، بصورة تدريجية ، حتى جاء وقت لم يكن لدى جيش الانقاذ ، من العتاد ما يكفي للدفاع عن نفسه ، اذا هو هوجم ، وفوق ذلك فقد نشطت القيادات المحلية في فلسطين ، المرتبطة رأسا بسماحة المفتي ، الى العمل لعرقلة حركات جيش الانقاذ ، وبذر بذور التفرقة بينه وبين الفلسطينيين ، ولا ادري أكانت هذه القيادات تتلقى التعليمات بهذا الشأن من مرجع ما ، خارج فلسطين ، ام انها كانت تعمل ذلك من تلقاء نفسها ، واظن ان الافتراض الاول أصح .

اما وضع اليهود ، من حيث عدد المقاتلين ، ومقدار اسلحتهم ومدى استعدادهم فقد كنا نجهله تماما ، والمعلومات التي كانت تتصل بنا عن هذا كله ، من مصادر مختلفة كانت متناقضة . فتارة كانت تصل المبالغة في وصف قوة اليهود الى حد يدخل الذعر في النفوس، وتارة كانت الاخبار تصورهم من الضعف بحيث يخيل الى السامع ان العرب ، سيصلون في سباق الى تل ابيب ، وبدون توقف ، على انني رحت احاول الحصول على معلومات يمكن الركون الى صحتها عقليا ، فاجتمعت لديّ المعلومات التالية ، التي كانت ، على ما اعتقد ، قريبة من الحقيقة :

اولا ـ جيش الهاغانا ـ قيادته الدائمة ـ عدد الضباط ٥٠٠ خمسماية .

ثانيا ـ جنود الهاغانا ـ عددهم ستون الف . مقسمون كما يلي :

أ ـ خمسة عشر الفا تحت السلاح .

ب ـ خمسة وعشرون الفا مدربون ، احتياط .

ج ـ عشرون الفا مسلحون ، يستطيعون الاشتراك في القتال حين الطلب .

ثالثا ـ قوى بوليس نظامية واضافية خمسة آلاف (الايرغون ، وشترين عشرة آلاف) .

السلاح :

كان لديهم ماية وخمسون مدفع هاون .

مائة سيارة مصفحة تصفيحا محليا .

دبابات انكليزية والمانية من بقايا العلمين وطبرق (لم يعرف عددها) .

متفجرات حوالي خمسين طنا .

مع عتاد يكفي لستة اشهر قتال .

الخطة اليهودية :

١ - فصل فلسطين عن بقية البلدان العربية بنسف الطرق التي تربطها بها .

٢ - احتلال المناطق التي يعتبرونها هامة لاتخاذها قواعد في المستقبل .

٣ - دفاع عام الى ان يعرف مبلغ قوات العرب ، وتصل الى اليهود الاسلحة والادوات الجديدة ، وقد تبين فيما بعد ان هذه المعلومات كانت قريبة من الحقيقة .

اما استعدادات المستعمرات الخاصة ، ونوع التحصينات فيها وأسماء كبار القواد ومؤهلاتهم العسكرية ، ذلك كله بقي مجهولا لدينا الى وقت طويل . وأما معلومات اليهود عن قواتنا وتسليحنا ومبلغ استعدادنا فالارجح انها كانت معلومات وافرة . وكان الخطأ الكبير في هذه المعلومات اكثر ما يبدو في ما يتعلق منها بجيش الانقاذ ، فقد كانوا يقدرون عدده ومعداته بأكثر من ثلاثة أضعاف الواقع .

صحيح ان الحكومة السورية قدمت الى جيش الانقاذ من السلاح المقدار الذي تقرر ان تقدمه ، رغم قلة ما كان لديها في ذلك الحين ، وقدمت من الضباط وضباط الصف عددا غير قليل ، وكذلك فعل لبنان . ولكن مع ذلك كانت هذه المقادير ضئيلة جدا بالقياس الى الحاجة ، لاسيما وان بقية الحكومات لم تقدم ما تعهدت به كاملا . وكان السلاح الذي قدمته غير جيد ، اما العتاد فقد نقص كثيرا عما كان مقررا . وكانت الجامعة العربية ، هي التي اخذت على عاتقها ، تقديم السلاح والعتاد الى جيش الانقاذ ، بواسطة اللجنة العسكرية التي أنشئت في دمشق لهذا الغرض ، وكان المتفق عليه ، ان توزع اللجنة العسكرية السلاح والعتاد والتجهيزات ، على قطعات المقاتلين في مختلف المناطق الفلسطينية ، على اساس خطة مقررة . ولكن سماحة المفتي تمكن بوسائله الخاصة ، من تحويل

كميات ، مما خصصه العراق والملك ابن السعود ومصر ، الى ناحيته ، ليوزعها على جماعات معينة مرتبطة به .

ان مشكلة السلاح والعتاد تبدا - ويا للأسف - مع بدء الحركة لمعركة فلسطين ، وحينما بدأت الحكومات العربية - بعد حين - تفكر جديا ، كما ظهر في مشترى الاسلحة والعتاد ، واخذت تنهال عليها عروض البيع من انحاء اوروبة، وبعض انحاء اميركا ، كان اليهود قد فطنوا للأمر ، وانتشر جواسيسهم في كل مكان يتتبعون العرب خطوة خطوة ، ليعرفوا موضع النقص في السلاح عندهم من جهة ، وليفسدوا عليهم عمليات المشترى ويبطلوها من جهة اخرى ، ثم يحولوها الى جانبهم ، وقد وفقوا الى ما يريدون الى حد بعيد ، وساعدهم في ذلك سوء تصرف اكثر الذين ارسلتهم الحكومات العربية لمشترى الاسلحة ، وتلاعبهم . حتى ان هذا الامر ادى الى اقفال اكثر الابواب بوجه الذين ذهبوا لهذا الغرض فيما بعد.



جيش الانقاذ يدخل الى فلسطين

في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الاول من سنة ١٩٤٧ بدأت حدة القتال في فلسطين تشتد ، وكانت المعارك بين العرب واليهود رغم انها موضعية ومتفرقة، تمتاز بطابع بيّن ، هو طابع الاستمرار . وكان اليهود يستعملون مدافع الهاون بكثرة ، ويعتمدون في المدن على المتفجرات ، يستخدمونها للنسف ، فولّد ذلك عند العرب الفلسطينيين شيئا من الرهبة ، وهم ليس لديهم من السلاح والمتفجرات ما لدى اليهود . ولكن المقاتلين كانوا في قتالهم شجعانا ، بينما كانت مزية اليهود تتجلى في التنظيم والحيلة ، اكثر منها في الشجاعة . وكان اكثر ما يؤذي العرب تدخل البريطانيين لمصلحة اليهود ، كلما كانت ظروف القتال في مصلحة العرب. ولم يحجم المقاتلون العرب - وكانوا قلة بالنسبة الى مقاتلي اليهود - عن التعرض للمستعمرات اليهودية ، فاذا هي تتجلى فيها قوة الدفاع اليهودي الحقيقية ، كما تجلى ان اليهود لا يقاتلون بقواتهم الاساسية ، وانما يحتفظون بهذه القوات ، الى ان ينكشف لهم ما سيكون من شأن العرب ، وقوات دولهم في الميدان . وقد تبين ان المعارك التي يقومون بها بدون انقطاع ، انما هي للاستطلاع من جهة ، واحتلال بعض المواقع - اذا امكن - التي يرونها ضرورية للقتال المقبل من جهة اخرى ، وبنسبة توسع الحركات اليهودية ، واشتدادها في فلسطين ، وبنسبة تعالي صرخات الاستنجاد من اهلها العرب ، كان يزداد في قطنا الاختصار في منهاج التدريب . وعلى هذا الاساس اعتبر فوج اليرموك الاول ، بقيادة الرئيس اديب الشيشكلي ، جاهزا للحركة في ٨ كانون الاول سنة ١٩٤٧ على كثير من النواقص.

وفي مساء هذا اليوم تحرك الفوج من معسكر قطنا باتجاه «بنت جبيل» في لبنان الجنوبي ، وفي الليلة نفسها، قامت حركة تضليل كنا قد رتبناها من قبل ــ لتغطية دخول فوج اليرموك الى الاراضي الفلسطينية ، قام بها فريق من العشائر ، في ناحيتي الزوية والقنيطرة ، اقصى منطقة الى شرقي الجهة الشمالية ، فهاجم هذا الفريق بعض مستعمرات الحولة ، وجرت بينه وبين اليهود ، معركة لم تتوقف الا بعد ان تدخلت المصفحات البريطانية ظهر يوم ٩ كانون الاول وقد غنم فريق العشائر ، بعض غنائم من اليهود ، وكبدهم عددا من القتلى والجرحى . وفي خلال المعركة اخترقت قوة الرئيس الشيشكلي الحدود ، حتى وصلت الى قرية فسوطة. كانت مهمتها محددة باستطلاع قوى اليهود في هذه المنطقة ، وتكوين فكرة عن اسلحتهم وأساليب قتالهم، وتخريب الجسور الهامة على طرق المواصلات اليهودية، على ان تتجنب الاصطدام بالبريطانيين ، الا في حالة الدفاع عن النفس .

كان لدخول هذه القوات الى فلسطين ، اثر كبير في ارتفاع معنويات العرب. وانكمش اليهود حينا في مستعمراتهم . وقد تلقينا اول برقية لاسلكية من هذه القوة ، فأرسلنا اليها التعليمات اللازمة .

وكان فوج آخر بقيادة المقدم محمد صفا يستكمل تدريبه وتجهيزه ، وكنا نعول كثيرا عليه ، وعلى قائده . وبالاتفاق مع رئيس الجمهورية أقمنا معسكرا جديدا في قرية ضمير . وتيسر لنا بذلك ، شيء من التكتم في التدبير من جهة ، ووقاية فوج المقدم صفا من الفوضى من جهة اخرى . فكان الفوج الوحيد ، الذي استطاع ان يحتفظ مع الروح الحربية الطيبة ، بالضبط العسكري الصحيح ، وكان قد ارسل الى فلسطين حتى ذلك الحين خمسة آلاف بندقية وتزيد ، غير ان طلبات الفلسطينيين للسلاح ، والعتاد ، كانت لا تنقطع ، وقد قيل يومئذ ان السبب الاول في ذلك هو ان السلاح لم يوزع الا على جماعة معينة . وهم يعنون جماعة المفتي .

كانت ظروف الحال يومئذ تتطلب الاسراع بارسال اكبر قوة ممكنة ، الى فلسطين للقبض على ناصية الامور، وتمهيد السبيل لدخول بقية القوات دون اثارة شيء من الضجيج . وكان فوج المقدم صفا أصبح جاهزا للحركة ، على ان مشاكل كثيرة كانت تقف في وجه دخوله الى فلسطين .. موقف شرق الاردن غير المطمئن، وموقف الانكليز الذي تطور تطورا ملموسا في تلك الفترة . ومسألة عبور نهر الاردن . وقد جاء في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ «مستر اوليفر» وهو رجل انكليزي معروف عاش حوالي خمسين سنة بين العرب في لبنان وهو يدّعي صداقتهم ، يقول لي : «ان الانكليز يمانعون في دخول قوات عربية محاربة الى فلسطين ، قبل ان يتم جلاؤهم عنها» . وانه تكلم بهذا الموضوع مع فخامة الرئيس القوتلي ، وان السفير البريطاني في بيروت أفهم رئيس الحكومة اللبنانية السيد

رياض الصلح ، ان الجيش البريطاني سيخرج فوج الرئيس اديب الشيشكلي من فلسطين ، وهو ــ اي السفير ــ يرجو من الحكومة اللبنانية ان لا تسمح مرة اخرى لاية قوة باجتياز الحدود اللبنانية الى فلسطين . فأجبت «مستر اوليفر» اننا صممنا على الدخول الى فلسطين . وسندخل لمقاتلة اليهود ، دون التعرض للانكليز الا اذا هاجمونا ، فنقف في وجوههم عندئذ ونقاتلهم . وكان الشعور بضرورة دخول فوج المقدم صفا الى فلسطين بأسرع ما يمكن ، بدأ يسيطر على النفوس . وفي هذه الاثناء ارسل جلالة الملك عبد الله يطلب مني أن أقابله ، واعتقدت ان هذه المقابلة ، قد تتيح لي اقناع جلالته ، بالسماح لقوات جيش الانقاذ بالمرور في الاراضي الاردنية ، من نقاط معينة لكي تصل الى المواقع المحددة لها في فلسطين بدون ان يشعر بها اليهود . فأطلعت القصر الجمهوري في الشام على رغبة الملك عبد الله ، فرفض القصر رفضا باتا هذه المقابلة وبذل اللواء اسماعيل صفوة والعميد طه الهاشمي جهودا كبيرة لحمل فخامة رئيس الجمهورية على الرضى عبثا .

وقررنا اخيرا ان يتحرك فوج المقدم صفا ، وكان عدده لا يتجاوز الخمسماية مقاتل . وكانت الامطار تهطل بغزارة شديدة ، والسير على غير الطرق المعبدة يكاد يكون مستحيلا . ونهر الاردن في حالة فيضان غير اعتيادي . فطلبت الى فخامة الرئيس ان نعلم حكومة شرق الاردن بحركة هذه القوة ، اذ انها ستمر في الاراضي الاردنية فأبى قائلا : تعلمونها بعد وصول القوة الى الحدود . ووصلت القوة الى درعا مساء ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ . وكنت قد تقدمتها مع اللواء صفوة والعقيد محمود الهندي لنؤمِّن مرورها قبل ان يتكامل تجمعها ، وأبرقت الى الرئيس اديب الشيشكلي ان يقوم في الليلة نفسها بهجوم على احدى المستعمرات اليهودية في منطقة الجليل لتغطية مرور فوج المقدم صفا من جهة والحصول على معلومات عن العدو ، وتكوين فكرة عن درجة مناعة المستعمرات اليهودية ، ونوع تحصيناتها من جهة اخرى . فقام الرئيس الشيشكلي بحركته الهجومية على مستعمرة جدين بالقرب من ترشيحا. وبينما كانت المعركة دائرة هناك ، كان فوج المقدم صفا ، يعبر الاردن الى المنطقة المخصصة له في فلسطين ..

***

بين الشام وعمان

كان موقف بعض المسؤولين في الشام من طريقة دخولنا الى فلسطين ، سببا من اسباب العقبات التي اعترضت دخول فوج المقدم صفا ، والتي لم تتغلب عليها الا بعد مخابرات ومداولات كثيرة بدأت في درعا . ذلك انه بعد وصولنا الى

هذه البلدة اتصلت بمحافظ اربد في شرق الاردن ، ورجوت منه ان يوافيني الى درعا لامر هام جدا . واطلعته على الواقع ، وما لبث ان اتصل برئيس الوزارة الاردنية ، وبسط له الحالة ، فقال انه يأسف لاضطراره ، وبالنظر لهذه المباغتة ، الى رفض السماح للقوة بالمرور ، فان هنالك تعهدات واتفاقات متبادلة بين الحكومة الاردنية والحكومة البريطانية ، تقتضي اتخاذ تدابير خاصة في مثل هذه الحالات. فاتصلت في الحال تلفونيا بفخامة الرئيس القوتلي ، واطلعته على حقيقة الموقف ورجوت منه التدخل . وقد رجوت من اللواء اسماعيل صفوة ان يذهب بنفسه ، الى الملك عبد الله ويبسط لجلالته حقيقة الموقف ، دون الاشارة الى حديث التلفون هذا . فذهب اللواء صفوة وبعد حديث مع الملك عبد الله سمح جلالته بمرور الفوج ، على ان يكون مروره ، زيادة في الاحتياط ، متقطعا . ولكن المرور بهذا الشكل ، كان غير سليم العاقبة بالنظر الى الوضع القائم فقد ينقضي الليل قبل ان تمر القوة بكاملها ، وهي مضطرة الى عبور نهر الاردن على جسر «دامية» ، الجسر الوحيد الذي يمكن العبور عليه بين بيسان واريحا ، ولكي تصل القوة بعد عبور الجسر ، الى المنطقة المحددة لها في فلسطين ، عليها ان تتجه جنوبا على خط مواز للمستعمرات اليهودية المنتشرة هناك ، والمشرفة على الطريق الذي لا يبعد عنها سوى بضع كيلومترات ، وفي بعض الاماكن كيلومترين فقط على مرمى من الرشاشات والبنادق . ومع ذلك فقد فرحنا كثيرا بهذا الاتفاق ، وجاءنا ضابط اردني مع بعض الجنود ليرافقوا هذه القوة ، فوضعنا معا ترتيبا لعبورها، يضمن وصولها قبل طلوع الفجر . ووصلت القوة في صباح اليوم الثاني الى مواقعها بدون اي حادث . ولكن احتجاجا بريطانيا وجه الى الحكومة الاردنية بهذا الصدد ، تبعه في اليوم الثالث تفكيك جسر «دامية» فككته قوة من الجيش البريطاني ، فانقطعت المواصلات بين الذين دخلوا الى فلسطين من جيش الانقاذ ، وبين من بقي منهم خارجها ، واصبح التموين مستحيلا ، فلم يبق من واسطة للاتصال بهذه القوة الا جسر «اللنبي» وتحرسه قوة من الجيش البريطاني نفسه . على ان تدابير خاصة اتخذت لارسال المؤن لم تكن تخلو من المغامرة ، كان ترسل هذه المؤن ضمن صناديق تعتبر انها صناديق «بضاعة» وتمر مثل كل صناديق البضاعة ، التي تعود الحرس البريطاني رؤيتها تمر كل يوم . وهكذا كان ....

***

الشهداء الاول في جيش الانقاذ

في ليلة ٢١ — ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٨ وقعت معركة جدين بالقرب من ترشيحا ، في المنطقة الشمالية ، بناء على تعليمات ارسلتها الى آمر فوج اليرموك الاول الرئيس اديب الشيشكلي ، وكان من نتائجها الطيبة ، اولا — انها سترت

عبور فوج المقدم صفا الى فلسطين وشغلت عنه اليهود والبريطانيين . ثانيا — انها وضعت بين ايدينا المعلومات الاولى الثابتة عن قوة المستعمرات — اليهودية — ، واساليب الدفاع فيها . ثالثا — انها رفعت معنويات الفلسطينيين الى اقصى حد. رابعا — انها جعلت البريطانيين يترددون في الاشتباك بقواتنا اكراما لخاطر اليهود.

وبالرغم من المفاجأة التي فاجأ بها الرئيس الشيشكلي المستعمرة ، فقد تبين ان اليهود ، في الدفاع عن مستعمراتهم ، يقاتلون بعناد ، عكس شأنهم خارج المستعمرات ، اذ تتخذ المسألة وجها آخر . فان النجدات اليهودية ، مثلا ، التي جاءت لنجدة جدين ، والتي اشتبكت مع قوة من جنودنا اقل عددا وعدادا ، لم تظهر ثبات المستعمرة . وهزمها جنودنا بعد ان كبدوها عددا من القتلى وحطموا لها عددا من المصفحات اكلتها النيران ، بينما المدافعون عن المستعمرة ، بعد ان خسروا مراكزهم الامامية ، واشتعلت النيران في بعض مباني المستعمرة ، التجأوا الى القلعة ، واستمروا في دفاعهم الى ان وصلت ، قبيل الظهر ، قوة بريطانية لنجدتهم ... فتراجعت قوة المقدم شيشكلي طبقا للتعليمات التي لديها ، ولولا القوة البريطانية لتمكنت من احتلال المستعمرة . وكانت خسارتنا ثمانية عشر قتيلا ، كانوا الشهداء الاول في جيش الانقاذ . وكانت خسائر اليهود — الذين استعملوا باتقان بنادقهم ورشاشاتهم ، ومدافعهم الهاون — خارج المستعمرة ، اي بين النجدات ، اكثر منها في داخلها .

وقوّت عندي معركة جدين فكرة القيام بمثل هذه المعارك ، للاستزادة من المعلومات عن العدو ، فطلبت من المقدم صفا ان يقوم بهجوم على احدى المستعمرات اليهودية في منطقته ، فهاجم مستعمرة «الزرّاعة» في غور بيسان ، في المنطقة الوسطى ، الى اقصى الجنوب من مستعمرات اليهود . وقد استفدنا من هذه المعركة فوائد كثيرة ، رغم ان قوانا لم تسلم من الخسائر . وكانت لنا بقية من قوات جيش الانقاذ تنتظر الاوامر بالحركة الى فلسطين ، ومعها شيء من السلاح الثقيل وقد اصبحت مسألة عبورها الى المواقع المحددة لها مشكلة جديدة ، بعد ان فك الجيش البريطاني جسر دامية ، وبت اخشى ان يحمل الجيش البريطاني بطريقة من الطرق ، جيش الاردن على منعنا بالاشتراك معه ، وبقوة السلاح من الدخول الى فلسطين . فخطر لي ان امد يدي راسا ، وبطريقة سرية ، الى الجيش الاردني الذي اعرف عناصره الطيبة ، ففعلت واظهرت لهم رغبتي في ان يلتحق منهم ، من يستطيع بجيش الانقاذ ، ضامنا لهم حقوقهم العسكرية في الجيش . ولم تمض مدة قصيرة حتى بدأ فريق منهم يلتحقون بقواتنا بأسلحتهم ، ووصل عددهم الى حد لا يستهان به . وكان لا يزال فريق ينتظر اول اشارة منا ليلتحق بقواتنا .

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨ جاءني قائد الجيش الاردني اللواء عبد القادر

الجندي الى الشام وابدى عتبه علينا لاهمالنا مخابرتهم ، والاتفاق معهم على كيفية دخول قطعات جيش الانقاذ الى فلسطين ، بشكل يفي بغرضنا ، ولا يحرج موقفهم، وقد قال لي بصراحة : انت تعلم ان المعاهدة التي بيننا وبين بريطانيا هي التي تضمن لنا الاحتفاظ بجيشنا الذي يفوق بعدده ومعداته وتنظيمه مقدرتنا المالية ، فمن الحكمة في مثل هذه الظروف التي نحن فيها ان نتفق فيما بيننا على تدابير تضمن المصلحة الوطنية من جهة ، ولا تثير اي ضجة او سوء علاقة من جهة اخرى. فاجبته انه لا بد لنا من المرور. قال فلنتفق فيما بيننا على طرق خاصة لهذا الغرض ونعد التدابير اللازمة من اجل المستقبل ، فوافقته على ذلك . ثم انتقل للبحث في مسالة فرار الجنود بأسلحتهم من الجيش الاردني ، والتحاقهم بقواتنا ، قائلا ان هذا الامر ، اذا هو استمر فانه يؤدي الى الفوضى في الجيش والاضطراب . والجيش يعد نفسه لخوض معارك فلسطين ، بعد ١٥ ايار ، لذلك فهو يطلب مني ان نتعاون لوضع حد لهذه المشكلة . وتمكنت من الاتفاق مع القائد الاردني على الترتيبات اللازمة التي تسهل لجنودنا العبور من الاراضي الاردنية الى فلسطين ، في اي وقت تشاء .

***

كان همي الوحيد بعد معركة «جدين» ان احصل بأية طريقة كانت على اسلحة ثقيلة لجيش الانقاذ ، فرحت اسعى لدى وزير الدفاع السيد احمد الشراباتي ، لاقناعه بأن يستغني لنا عن بطارية مدفعية واحدة . وبعد مخابرات ومذاكرات مع القصر الجمهوري ، وعدني خيرا . ثم ذهبت الى بيروت واتصلت بقائد الجيش الزعيم شهاب وبوزير الدفاع الامير مجيد ارسلان ، وبرئيس الحكومة السيد رياض الصلح ، وطلبت اليهم بإلحاح ان يمدوني بما يستطيعون من مدفعية ، مبينا لهم شدة حاجتنا الى السلاح الثقيل ، وتسلم جيش الانقاذ من الجيش اللبناني مدفعين عيار ١٠٥ من الطراز الفرنسي الملغي . ثم حصلت على مدفعين اميركيين من عيار ٧٫٥ على «موتور» ثم مدفعين آخرين من هذا الطراز نفسه وقد كان لهذه المدافع اثر كبير في مختلف المعارك التي خاضها جيش الانقاذ .

ما كاد المقدم صفا يستقر بفوجه في القطاع المعين له من منطقة جيش الانقاذ، حتى شعر بنشاط غريب قوي ضد هذا الجيش ، تبديه جماعات مسلحة ، تدّعي انها تنتمي الى سماحة المفتي الحاج امين الحسيني . وقد ارسل اليّ المقدم صفا بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٤٨ برقية يطلب فيها ان ارسل له المفرزة الشركسية التي كانت لا تزال في قطنا ، ليتمكن من السيطرة على الموقف . وبعد برهة قصيرة اطلعني المقدم صفا على اكتشافه مؤامرة لاغتيالي ، يقوم بها احد عشر شخصا مقابل ١٧ الف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة ..

وبالسرعة المكنة ارسلت الى المقدم صفا المفرزة الشركسية .. ولا بد لي من الاشارة الى كيفية عبور هذه المفرزة الى الاراضي الفلسطينية ، كان نهر الاردن مستمرا في فيضانه ، وجسر دامية لا يمكن العبور عليه لانه مفكك . وجسر اللنبي تحرسه قوة من الجيش البريطاني نفسه . ولجأنا الى القوارب ، او ما يشبه القوارب ، ونقلنا عليه الجنود في مكان ما من الضفة الشرقية ، الى الضفة الغربية من النهر . ومن هناك نقلتهم سيارات فلسطينية الى المواقع المعينة لهم . وفي ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨ أعلمتنا الحكومة الاردنية انها لن تستطيع السماح من ذلك اليوم فصاعدا الا بمرور شراذم قليلة من الجند ، لا يسترعي مرورها اي انتباه . وشاء الله فتغلبنا على هذه الصعوبة ايضا فيما بعد .

كنت خلال هذه الاحداث مشغولا بها دون سواها . فكنت ، وانا في الشام ، اجهل ما يجري في معسكر قطنا ، الا ما كان يترامى اليّ من معلومات ، تدل على مبلغ ما انتشر في المعسكر من فوضى ولا مبالاة ، حتى كان النظام والعناية فارقا المعسكر تماما ، منذ ان فارقه المقدم صفا وفوجه ، وكان مما يزيد الفوضى تفاقما وخطرا ، سوء التدبير في اعاشة الجنود المتطوعين والنقص في تجهيزاتهم ، في ايام شديدة البرد كانت تغطي المعسكر خلالها طبقة جليدية لا تختفي الا بعد طلوع الشمس بمدة غير قصيرة . وانتقلت الفوضى الى معسكر «ضمير» بشكل مخيف، بلغ من شدتها ان وقع في المعسكر نفسه نزاع مسلح سقط فيه جرحى ولم ينته الا بتدخل قوة البادية بمصفحاتها . وكان من اسباب هذه الفوضى ، توقف الجيش السوري عن امدادنا بضباط وضباط صف ، فغدا الجنود المتطوعون ، وليس بينهم شخصية عسكرية ، تستطيع فرض سلطتها عليهم ، واحترامها في نفوسهم . فالضباط المتقاعدون الذين كانوا يأتون بهم من هنا وهناك ، كانوا اعجز من ان يقوموا بمثل هذه المهمة . ولما تثبت لي ذلك ، حدثت المفتش العام لجيش الانقاذ العميد طه الهاشمي عن هذه الفوضى ، فغضب ، وراح يعمل بكل ما لديه من وسائل لابقاء المسألة سرا مكتوما عن القصر الجمهوري . وقد زاده ذلك اصرارا على ممانعته في زيارتي المعسكرات بحجة ان مسألة التدريب والتنظيم تخص المفتشية وحدها .

وفي ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ جاءني المفتش العام ، هو نفسه ، يقول ان فوج «حطين» بقيادة الرئيس مدلول عباس متحرك في ذلك اليوم الى فلسطين ، وانا لا اعلم شيئا عن آمر الفوج وضباطه وجنوده ، ولا شيئا عن تسليحه وتجهيزه ، فازداد شعوري بما «يبيتونه» لي من مشاكل تعرقل اعمالي ، وتحد من سيطرتي على جنودي ، الذين سأكون انا وحدي مسؤولا عن تصرفاتهم واساليب قتالهم . ولكنني كنت لا ادع مجالا للتشاؤم او الشك يتحكم بي . واصبح هم المفتشية العامة الوحيد «شحن الجنود الى فلسطين للتخلص منهم ، دون ما نظر الى النواقص المادية والروحية عندهم ، فكان طبيعيا ان تنتقل الفوضى او شيء منها ،

من المعسكرات في الشام ، الى الميدان في فلسطين ، الامر الذي استغله بعض سيئي النية ، واهل الانتهازية والحقد ، وجسّموه ، لتشويه سمعة جيش الانقاذ، غير ملتفتين الى ما قام به هذا الجيش من اعمال البطولة والتضحية في القتال .

***

لن تقابل الملك عبد الله — المفتي قائد عام وخاص

في ٢ شباط ١٩٤٨ طلب محافظ اربد في شرق الاردن بواسطة محافظ درعا في سوريا ، الاجتماع بي فاستأذنت القصر الجمهوري وذهبت في ذلك اليوم نفسه الى درعا حيث اجتمعت به بحضور محافظ درعا ، فأخبرني ان جلالة الملك يريد ان اقابله ، فسررت بذلك ، لما خامرني من امل في ان هذه المقابلة ، قد تساعد على ازالة ما يعترضنا من عقبات في طرق مواصلاتنا ، التي بدات احسب لاحتمال انقطاعها الف حساب . فنهر الاردن لا يمكن عبوره في حالته الحاضرة ، الا على الجسور المنوعة علينا . واطلعت فخامة الرئيس القوتلي على الامر ، وبينت له ما يمكن ان يترتب على هذه المقابلة من فوائد لحركاتنا في فلسطين ، فأباها عليّ بشدة ، وقال لن تقابله الا حين مرورك بعمان .

وكان قد وصل فجأة الى الشام وفي ذلك اليوم نفسه ، اي في ٢ شباط ، سماحة المفتي الحاج امين الحسيني ، لامور قد تكون ذات علاقة بحركات فلسطين ... وكان اللواء اسماعيل صفوة قد اخذ من سماحة المفتي في القاهرة تعهدا مكتوبا ، بواسطة الجامعة العربية ، بأنه لن يتدخل في امور القيادة والحركات العسكرية مطلقا ، ورغم ذلك فقد كان اول شيء طالب به في الاجتماع الذي عقد في القصر الجمهوري في ٥ شباط ١٩٤٨ تعيين ممثلين له في قيادة فلسطين العامة ، وفي قيادة جيش الانقاذ ، وفي كل قطاع من منطقة هذا الجيش .

فراى المجتمعون في هذا الطلب فرضا صارخا ، وان سماحته كان يرمي الى وضع رقباء على القيادة العامة في الشام ، وعلى جيش الانقاذ في فلسطين ، يكونون على اتصال دائم مع عرب فلسطين باسمه . كما كان يرمي ايضا الى توجيه جيش الانقاذ ، التوجيه الذي يضمن له استخدامه لضرب خصومه . ولما علمت بذلك من اللواء اسماعيل صفوة دهشت وابديت رغبتي في الاستقالة حالا ، من القيادة ، وانا بعد استطيع ان اقاتل كجندي بسيط فأقوم بواجبي كعربي شريف. فرد عليّ اللواء صفوة قائلا : لا لزوم لشيء من هذا . ولعل الجامعة نفسها غير جادة في كثير مما تقرر وتقول ...

***

دهاء — شك — سوء نية

اخذت الحالة في فلسطين تتطور ظاهرا في مصلحة العرب وانحصر نشاط اليهود في منطقة يافا ، غير انه كان نشاطا قويا ، فأخذ العرب في تلك المنطقة يستصرخونني لنجدتهم ، فلا استطيع ان افعل ، لان منطقة يافا لم تكن داخلة ضمن منطقة جيش الانقاذ . وبالرغم من ذلك اخذت على عاتقي — متأثرا بوضعهم المؤلم — ان اعمل شيئا . فأوعزت الى المقدم صفا ان يرسل مفرزة من فوجه الى قرى يافا، ويستفز المسلحين من الاهلين للقتال معه ، ففعل ، وتحسنت الحال قليلا ، ولكن ذلك كله كان مؤقتا . لانه لم يكن لديّ من القوات ما يمكنني من الاستغناء عن اية قوة ، في منطقة جيش الانقاذ الواسعة ، هذا عدا قلة السلاح والعتاد . اما في منطقة جيش الانقاذ ، فكانت قواتنا مسيطرة سيطرة تامة ، وكنا لا نشتبك باليهود مرة واحدة ، الا وننزل فيهم الخسائر ونردهم فاشلين .

وفي ١٠ شباط ١٩٤٨ اعتبرت القيادة البريطانية جيش الانقاذ ، مسؤولا عن الامن ضمن منطقته . وفوضت ذلك اليه رسميا ، وبدات تنسحب . ومنذ تلك الساعة اخذ جيش الانقاذ يشرف عمليا على الشرطة وعلى تشكيلات الحكومة المحلية . غير انه بقي للبريطانيين قوات آلية كبيرة في مناطق بيسان وعفولة وحيفا وكان غرضهم من ذلك حماية المستعمرات اليهودية ، وقد صرحوا مرارا انهم مستعدون للتدخل في اية معركة تنشب بيننا وبين اليهود ، ولكن لمقاتلة المعتدي.. والحقيقة ان سياستهم كانت يهودية في المناطق اليهودية ، وعربية في المناطق العربية . ومتذبذبة ، او مع القوي في المناطق المشتركة او المتداخلة .

وفي ١١ و١٢ شباط نشبت معركة فوج اليرموك بيننا وبين قوات يهودية ، واخرى بريطانية ، جاءت لمساعدتها ولم تسلم قواتنا من الاصابات . وجاءتنا بعد المعركة اول برقية في طلب العتاد ، ثم لم تنقطع برقيات جيش الانقاذ بعدها بطلب العتاد ، حتى نهاية الحركات .

وفي ١٣ شباط وصل الى الشام وفد من يافا ينبيء بسوء الحالة ، وان اليهود يشددون الهجوم على يافا ، وان المدينة اصبحت مطوقة تقريبا ، وانه اذا لم تسرع اليها النجدات بأكثر ما يمكن من السلاح والعتاد ، فانها تصبح مهددة بالسقوط في كل لحظة . فأفهمت الوفد انني لا استطيع القيام بأية نجدة ، لان يافا خارجة عن منطقة جيش الانقاذ المحددة بقوات ، لا امر لي فيها ، وهي مرتبطة راسا بالقيادة العامة ، ولا ادري اذا كان لها ارتباط بسماحة المفتي نفسه ، وانه يحسن بهم ان يراجعوا القيادة العامة بهذا الشأن ، وانا بدوري الح عليها ما

استطعت لكي تلبي طلبهم المعقول . وقد لبت القيادة العامة يومئذ شيئا من الطلب ولكن بشكل ضئيل .

***

معركة الزراعة

كانت الامطار التي لم تنقطع منذ شهر تقريبا ، تزداد انهمارا كل يوم ، واصبح غور بيسان اشبه بمستنقع كبير ، ولكن المقدم صفا الذي كنت طلبت منه مهاجمة احدى المستعمرات اليهودية في قطاعه ، كما سبق وذكرت ، كان قد اعد عدته للهجوم ، فانتهز فرصة تحسن الجو في ليلة ١٦ – ١٧ شباط وقام بهجومه على مستعمرة الزراعة ، وكانت الحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة في الاراضي المحيطة بالمستعمرة ، فهي اراضي مفلوحة ذات تربة لزجة ، الحركة فيها تضني الجنود ، ومع ذلك فقد نفذ المقدم صفا خطته ، فخصص للهجوم سرية واحدة مع فصيل اسناد . وسرية اخرى للتظاهر بالهجوم امام مستعمرتين متجاورتين ، وابقى بين يديه فصيلين ، قوة احتياطية . وبدا الهجوم في الساعة ١١و٤٥ ليلا ، فكانت مفاجأة شديدة لليهود . وبعد بدء الهجوم بقليل عاد المطر يتساقط بشدة وبقي كذلك الى ما بعد انتهاء المعركة . وكان جنودنا قد وصلوا الى الاسلاك الشائكة ، حينما بدأ اليهود باطلاق النار من مخافرهم الامامية ، ولكن جنودنا تمكنوا من تقطيع الاسلاك ، واجبروا اليهود على التخلي عن مخافرهم ، واندفعوا الى داخل المستعمرة ، فدارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة استمرت حتى الصباح ، كانت اشارات الاستغاثة خلالها من المستعمرة لا تنقطع ، بينما كانت السرية التي اوكل اليها التظاهر بالهجوم على المستعمرتين المتجاورتين ، تقوم بدورها فتحول دون خروج نجدات منهما ، غير ان نجدات يهودية من مستعمرات اخرى ، وصلت واشتبكت مع جنودنا بقتال عنيف ، خارج الزراعة فاصيبت بخسائر فادحة واضطرت الى الانهزام ، وفي الصباح وصلت قوة بريطانية انجدت اليهود ، فأصدر المقدم صفا امره الى الجنود بالانسحاب .

وقد تبين لنا بجلاء في هذه المعركة ايضا ، اولا – ان اليهود داخل تحصيناتهم، يدافعون عن نفوسهم ببسالة وعناد . ثانيا – ان السلاح الفرنسي الذي بين ايدي جنودنا غير صالح ، وقد تعطل من البنادق والرشاشات نصفها على الاقل بسبب الامطار . ثالثا – ان جنودنا يستبسلون في الهجوم مهما تكن الظروف .

وقد خسرنا في هذه المعركة ٣٧ قتيلا ، واكثر من ذلك جرحى . اما خسائر اليهود فكانت ١١٢ قتيلا اخبرني فيما بعد الكولونيل نلسون الانكليزي ، انهم نقلوهم بسياراتهم «سيارات الانكليز» الى بيسان وانه لا يعرف عدد الجرحى .

واتضح لنا من جديد ان المستعمرات اليهودية محصنة تحصينا قويا ، وان اليهود يعمدون في الدفاع عنها صمودا قد لا يخطر في البال ، وان الاسلحة التي بين ايدينا لا تجدي في تخريبها شيئا . كما تحققنا من ان اليهود يحرصون على عدم مغادرة هذه الحصون ، للقتال في ميدان مكشوف ، الا اذا الجأهم الى ذلك ضرورة قصوى ، وهم يتجنبون ، بكل ما يستطيعون من وسائل ، هذه الضرورة .
وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة .

***

العقلية «التوفيرية» الرخيصة

لم يبق في وسعي ان اغالب شعوري القوي ، بضرورة انتقال مقر القيادة ، مع ما تيسر من المدفعية ، الى منطقة القتال ، رغم ما يزال هناك من نواقص للجيش كنت احاول ان اتممها قبل ان اتحرك ، ورغم ان الامطار كانت لا تزال حتى اول اذار ١٩٤٨ تهطل بغزارة . اما النواقص كسيارات النقل وحمالات المدافع وما الى ذلك ، فقد اصبح الامل عندي في الانتهاء من امرها بسرعة ، ضعيفا جدا ، بالنظر الى النحو الذي كان المسؤولون «الكبار» يسيرون عليه . وارتأى وزير الدفاع والعقيد محمود الهندي مدير الادارة في اللجنة العسكرية ، ان يتحرك المقر الى فلسطين ، بدون المدفعية ، على ان ترسل هذه فيما بعد ، ولكنني كنت اشك في انهم يرسلونها بالسرعة التي تفرضها الضرورة ، وكنت اصبحت أعتقد ان حركاتنا في فلسطين بدون مدفعية ، لن يكون لها كبير شان ، لهذا كله صممت على ان اعمل المستحيل لاصطحاب المدفعية مع المقر . وكنت اعلم ان عبور المدفعية الثقيلة الى الضفة الغربية من نهر الاردن مع وضع الحكومة في شرق الاردن ، امر يكاد يكون مستحيلا . فقررت انشاء جسر نقال على النهر . وبعد ان درس المهندسون المشروع قرروا انه ممكن من الناحية الفنية التنفيذ بسرعة . ولكن الادوات اللازمة لانشاء مثل هذا الجسر مفقودة تماما . . .

لم يبق امامي الا جسر «اللنبي» فقررت ان اتحرك مع المقر والمدفعية ، واعبر على هذا الجسر مهما يكن من امر . وجسر «اللنبي» هذا ، تحرسه على الضفة الشرقية ، قوة اردنية ، وعلى الضفة الغربية قوة بريطانية .

كان ينقص الجيش اشياء كثيرة من المعدات . ولكن اكثر ما يبدو من هذه النواقص ، العقلية «التوفيرية» – اذا صح التعبير – التي كانت سائدة في غير محلها . فاذا كانت هناك سيارة جديدة ، مثلا ، فان سواقها يجب ان يكون من ارخص السواقين اجرة ، دون التفات الى مقدرته واخلاقه ، واذا كانت السيارة

معطلة او عتيقة معرضة في كل ساعة للتعطيل ، فيجب ان يتم تصليحها بأرخص ما يمكن من الاجرة ، دون اي التفات الى جودة العمل والامانـــة فيه ... اعمال مرتجلة آنية صورية . وقد كان للعقلية التوفيرية الرخيصة هذه ، فيما بعد ، نتائج خطيرة بعيدة المدى ، في سير الحركات حتى النهاية ، فسببت فشلا فـــي العمليات حينا ، وهونت من شان انتصاراتنا احيانا .

لقد كان سواقو «العقلية التوفيرية الرخيصة» سببا في تعطيل اكثر من نصف السيارات ، واكثر من ذلك ، فقد حالت هذه العقلية دون مشترى دبابات انكليزية خفيفة عرضت بأسعار منخفضة ، في قبرص، وأثبت الخبراء انها صالحة ، فعرف بها عمال اليهود وتلقوها بسرعة فحرمنا من سلاح يعادل ستة أفواج .

كنت أعتقد ان السبب الوحيد لحرماننا من هذه الدبابـــات هو – كما قلت اعلاه – «العقلية التوفيرية الرخيصة» . ولكن هناك سببا أخطر من هذا السبب وادعى الى الاسف لم اعرفه الا فيما بعد ، من بعض الضباط السوريين . وهو ان الرئيس القوتلي قد رفض تصديق الاعتماد المالي لشراء الدبابات مصرحا ان فوزي يستلم هذه الدبابات للقتال في فلسطين ويعود بها الى دمشق لتحقيق سوريـة الكبرى .

★ ★ ★

حديث الملك عبد الله

بعد ان اطمأننت الى وعد اللواء اسماعيل صفوة ، حددت يوم الحركة الـــى فلسطين ، وتحرك الرتل الذي كان لا يزال ينتظر في ضمير وقطنا صباح ٤ اذار ١٩٤٨ على ان يتكامل تجمعه في درعا عند الغروب . ووصلت مع ضباط المقر الى درعا مساء .

كان الرتل مؤلفا من المدفعية المحملة . «ستة مدافع» ومن سيارات تحمل مؤونة وذخيرة ، ومن سرية مشاة وفصيل المقر . اتصلت فور وصولي الى درعا باللواء عبد القادر الجندي قائد الجيش الاردني في عمان ، واعلمته انني ارغب في مقابلة جلالة الملك عبد الله . ولما جاءني القائد الاردني بنفسه قلت له ، ان معـي سيارات نقل ، تحمل المؤن والذخائر . اقلني بسيارته وذهبنـــا معا الى عمان . دخلت القصر الساعة الثامنة مساء . تناول الملك القضية العربية فقال ما خلاصته، تعلم ان القضية العربية قضيتنا ، وان كل ما ينفع هذه القضية ويؤدي الى وحدة العرب نقوم به مهما يكلفنا ذلك من عنت . وقد حررنا البلاد العربية من النير التركي

بجهودنا . واتفقنا مع العرب على العمل للوحدة التي اجمعت كلمتهم عليها ، بعد ان وضعنا الاسس لهذا الفرض . ومهما يكن من شأن الحوادث التي مرت بنا ، فأنا اعتبر ان واجب الاستمرار في العمل ملقى على عاتقي . وسأستمر في العمل الى ان تتوحد سورية اولا ، فنكون خطونا نحو الوحدة خطوة مباركة . فقلت يـا صاحب الجلالة اننا امام خطر يهودي عظيم ، وهو خطر يهدد البلاد العربية كلها في وحدتها واستقلالها . أفلا ترون جلالتكم تقديم قضية فلسطين الان على اي شيء آخر ؟ قال بلى . سننقذ فلسطين ان شاء الله ونضمها الى شرق الاردن ولا بد لنا من مرفأ ، وسيكون هذا المرفأ حيفا . وسكت قليلا ثم قال : لهذه المناسبة، يجدر بنا ان نعلم ان الانكليز قد يكونون معذورين في موقفهم ، بالنظر الى ضغط اميركا الشديد ، فان اميركا هي التي قررت التقسيم . وقد ضغطت على بريطانيا وغيرها من الدول ضغطا شديدا جدا لهذا الفرض . وارى انه من المستحسن ، ان تنسحب الدول العربية من هيئة الامم المتحدة احتجاجا على تصرفها ، وان تدبر شؤونها معتمدة على نفسها وعلى صداقة بريطانيا .

ما تبقى من حديث الملك ، عبارة عن شيء من العتب والانتقاد . عتب على رجالات العرب ، وانتقاد لتصرفاتهم . وقد اشار الى نشاط الرئيس القوتلي ضد وحدة سورية ، وكيده لشرق الاردن .. اظهر تقديره الشخصي لي واستعداده لمعاونتي في القتال ضمن النطاق المستطاع ، فرجوت منه ان يأمر بتسهيل عبورنا الى فلسطين ، فقال انه سيتصل بقواد جيشه ويأمرهم ان يؤدوا لنا المساعدات اللازمة . وانصرفت بعدها الى دار السيد صبري الطباع حيث نزلت ، فاذا هناك اللواء عبد القادر الجندي وفريق من الاصدقاء. فكلمت القائد الاردني في الموضوع، وطلبت اليه ان يسترجع لنا أخشاب جسر دامية ، فنتولى نحن تركيبها ، ونعبر على هذا الجسر ، فقال ان هذه الاخشاب في حوزة المرجع المختص من الجيش البريطاني . ويمكن استرجاعها عن طريق «كلوب باشا» فاذا انت قابلته فقد يلبي رغبتك .

رحت أفكر في حيلة تمكننا من العبور الى الضفة الغربية من الاردن على جسر «اللنبي» لانه الضمان الوحيد لسلامة العبور في مثل هذا الجو العاصف المطر ، متظاهرا دائما بعزمي على اعادة تركيب جسر «دامية» لنعبر عليه .

وذهبت في الصباح الى دار اللواء عبد القادر الجندي لشرب القهوة ، وبعد هنيهة دخل علينا القائد «كلوب باشا» وبادرني بقوله : نحن نعرف بعضنا عن بعد . ونتعارف الان عن قرب . فأجبته ، لقد عرفنا بعضنا عن بعد كخصوم . اما الان سنتعارف عن قرب كأصدقاء ، تقرب بيننا مصلحة مشتركة . اننا كما تعلم امام اعداء لنا ولكم . ألم يمعنوا في الجنود البريطانيين ، والضباط ، قتلا واغتيالا ؟ انني لا استطيع الاعتقاد انك – بصفتك بريطانيا قبل كل شيء – لا تفكر بالثـأر

لكرامة البريطانيين من اليهود . او انك تمتنع عن معاونة من يقاتلهم من العرب ، وانت قائد جيش عربي . فقال «الليوتننت جنرال كلوب» ماذا تطلب مني من المساعدة ؟ قلت امر بسيط ، ان تأمر اليوم باعادة تركيب جسر دامية ، على الاقل، لنعبر عليه غدا مساء ، وان تعدنا بما تستطيع الاستغناء عنه من سلاح وعتاد . قال اعدك انني سأفعل الممكن ، ولكن اخشاب جسر دامية اصبحت في نابلس ، على انني سأخابر من يلزم لاعادتها . واخذ بذراع القائد عبد القادر الجندي فانتحى به ناحية من الغرفة ، ثم رجع الي مظهرا سروره بهذه المقابلة وخرج . وعاد القائد الاردني يقول لي : لقد امر بتسليمك ثلاثة رشاشات وثلاثة صناديق عتاد . فتظاهرت بالفرح ، رغم ما كان يشغلني من هواجس بشأن العبور على جسر اللنبي.

***

معرفة قديمة ... بيني وبين كلوب

ترجع معرفتي بالقائد كلوب باشا الى حادثتين ، الاولى في سنة ١٩٣٦ وخلاصتها .. انني في شهر تموز من تلك السنة ، اعددت حملة صغيرة في العراق ، لنجدة فلسطين في ثورتها على بريطانيا . وقد شاع خبر هذه الحملة ، فاتخذت القوات البريطانية في العراق وفي شرق الاردن ، احتياطات قوية لمنعها من الدخول الى فلسطين ، والقضاء عليها ان امكن . وكان «كلوب باشا» هو المسؤول عن تنفيذ هذا الامر . وقد وضع تحت تصرفه لهذا الغرض بعض الطائرات البريطانية ، عدا قوات البادية الاردنية بمصفحاتها وهجاناتها . فراح يترصد الطرق الى شرق الاردن ، ولكنني اكتشفت بوسائلي الخاصة طريقا مهمة ، تمر عليها السيارات بصعوبة موازية للحدود الاردنية النجدية ، وتخترق في بعض الاماكن الاراضي النجدية ثم تنفذ الى جنوب مخافر الحدود الاردنية ، فتتصل بالطريق الرئيسية لعمان ، في نقطة قريبة من هذه المدينة . فكنت أسير على هذه الطريق نهارا واكمن ليلا ، حتى قطعت «الحرة» وكان ذلك في شهر تموز ، الذي تثور فيه رياح عواصف تبعث في الجو اعمدة غبار ورمال ، ورغم ما تسببه هذه العواصف من اذى فقد انتفعت بها ، اذ كنت امر بالقافلة بصورة متقطعة ، خلال هذه الاعمدة التي كان يضيع فيها غبار السيارات فلا تثير اي ريب . وبقيت كذلك ، الى ان اجتزت منطقة المخافر بأمان . وكمنت في احد الاودية على بعد بضع كيلومترات من عمان نفسها . ثم تابعت السير بعد منتصف الليل ، مخترقا عمان ، غير بعيد من القصر الملكي ، وكانت كل دورية صادفتها في طريقي ، قد انضمت الي حتى وصلت قبيل الصبح الى المنحدر المشرف على نهر الاردن ، فكمنت في أوديته . ومن هناك وزعت السيارات التي كانت معي على جهات مختلفة من المدن والقرى في شرقي الاردن ، بعد ان هيأت من الدواب ما يلزم لنقل اثقالنا ، حتى اذا جاء الليل، اندفعنا نحو النهر وكان منخفضا جدا وعبرنا الى فلسطين ، دون ان يشعر «كلوب

باشا» بحركتنا ، فكان فشلا له ذريعا ، سبب غضب رؤسائه عليه . وكاد يؤدي الى انهاء مهمته في شرق الاردن . ولكنهم اكتفوا يومئذ ، بأن اعطوه اجازة قضاها في لندن ، ولم يرجع الا بعد انتهاء القتال في فلسطين .

والحادثة الثانية في سنة ١٩٤١ ، عندما اشتبك العراق بحرب مع بريطانيا . فقد أوكل الي يومئذ قيادة جبهة البادية ، واهم نقطة فيها قلعة الرطبة ، التي كانت هدف الجيش البريطاني . وكان القائد «كلوب باشا» مكلفا احتلالها بقوات من الجيش الاردني ، وتشاء المقادير ان اصل الى الرطبة مساء ٩ ايار مع القوة التي كان عددها دون ثلاثماية مقاتل مسلحين بالبنادق وبسبع رشاشات خفيفة لقوة البادية العراقية ، التي اقنعتها بالاشتراك معي في القتال . وكان كلوب باشا طوّق القلعة واخذ يصليها نارا حامية من رشاشاته ومدافعه ، حتى غدت الحامية بين امرين ، الاستسلام او الفناء . فاشتبكنا مع قواته بقتال عنيف حوالي الساعة الثامنة مساء وتغلبت عليها . ثم تقدمت الى المكان الذي كان كلوب قد اتخذه مقرا لقيادته ، وجعلت منه مقرا لي . وفي فجر اليوم الثاني ظهرت الطائرات البريطانية تستطلع مراكزنا ، والطرق المؤدية الى الرطبة من الشرق ، وقصفت القلعة بشدة بينما كنا نحن متمركزين في غربها ، ثم اختفت . وبعد مضي ساعة تقريبا ، عادت طائرة واحدة ، فحومت فوقنا ورمت علينا شيئا ظنناه في باديء الامر قنبلة ، فاذا هو كيس صغير ضمنه رسالة الى «كلوب باشا» من قائد الطيران ، يخبره فيها انهم لم يروا اثرا للعدو (اي لنا نحن) وانه قصف قلعة الرطبة بنجاح ... فكانت هذه الرسالة تسلية لنا . وبعد برهة قصيرة تمكن القائد كلوب باشا من جمع قواته واعادة تنظيمها ، وهاجمنا فوقعت بيننا معركة استمرت يومين ، ثم انهزم بقواته، وشاع يومئذ انه جُرح ، واشاعة اخرى انه قُتل .

وكان فشل القائد «كلوب باشا» هذه المرة اشد . هاتان هما الحادثتان اللتان تعارفنا فيهما عن بعد ، عدوين . ونحن نصنع الان الحادثة الثالثة ، فنتعارف فيها عن قرب .

***

العبور على جسر اللنبي

بعد ان غادرت دار اللواء عبد القادر الجندي ، ارسلت في الحال شخصا أثق به ، الى آمر الحرس الاردني على جسر اللنبي ، محاولا معرفة موقفه من مسألة عبورنا على هذا الجسر ، ومدى المساعدة التي يمكن ان يقدمها لنا . وعاد الرسول يقول ان آمر الحرس الاردني يضع نفسه تحت تصرفي ومعه المعلومات الآتية :

اولا – ان الجسر يغلق من الجهتين ، جهة الحرس الاردني ، وجهة الحـــرس البريطاني ، الساعة ١٢ ليلا .

ثانيا – ان قوافل التموين الاردنية ، التي تمون وحدات من الجيش الاردني، مرابطة في بعض مواقع من فلسطين ، تمر عادة على الجسر في مختلف الاوقات.

اذن ، لماذا لا نمر نحن على جسر اللنبي ، باعتبار اننا قافلة اردنية ، هــذه فكرة .... وارسلت الى آمر الحرس اننا سنمر في تمام الساعة الثانية صباحا . وانه يحسن صنعا ان يرسل – اذا كان في استطاعته – فريقا من جنوده الى راس الجسر الغربي ، بعد ان يكون الحرس البريطاني ، اقفل الجسر وآوى الى مراكز استراحته . وبعد ان اطمأننت الى هذا الترتيب ، عدت الى اللواء عبد القـادر الجندي ، اخبره انني سأتحرك مع القوة التي معي نحو السلط ، وانتظر الى ان يكون تم اعداد جسر دامية . وانه بعد عبورنا نتولى نحن رفع الاخشاب ، دون ان نترك اي اثر يثير الشبهة عند البريطانيين . فقبل اللواء بهذا الراي ، وتحركت مع القوة الى السلط ، ثم تجاوزتها حتى اصبحت على مسافة كيلومترين مـن جسر اللنبي . وارسلت الى آمر الحرس على الجسر اعلمه بموقعي واستوضحه عـن موقفه . وعند الساعة الثانية صباحا جاءني آمر الحرس بنفسه ، يقول ان كل شيء على ما يرام ، على ان يتجنب الجنود الضوضاء حين عبورهم ، وان لا يبدو منهم اية حركة غير حركة السير الطبيعي . وعبر المشاة ثم المدفعية ، فبقية القوة. والحرس البريطاني ينام هانئا بحراسة الحرس الاردني ....

وتجمعنا في اريحا ثم تابعنا السير ، وما ان لاح الفجر ، حتـى كان راس القافلة يدخل قرية طوباس في جنوب فلسطين . ولم يكن احد يعلم بوصولنا ، الا المقدم صفا ، الذي كان قد اتخذ ما يجب من الاحتياطات لحماية هذا العبور .

وصلنا الى طوباس في ٦ اذار سنة ١٩٤٨ . وطوباس هذه ، كانت آخر قرية غادرتها سنة ١٩٣٦ بعد توقف اعمال الثورة . فبعث وجودي فيها ذكريات تمت باوثق الصلات الى البطولة والشرف ، في اعمال عصبة مباركة من ابناء هـذه الشعوب العربية الطيبة ، وضعت بين ايدي العرب يومذاك فرصـة ، لو عرفت «الرؤوس الكبيرة» كيف تستثمرها لحل مشكلة فلسطين ، لحلت هذه المشكلة منذ ثلاثة عشرة سنة ، ولما نشأت الحوادث ، التي اضطرتنا الى العودة للقتال فـي فلسطين من جديد .

كانت الامطار تهطل بغزارة في طوباس وبدون ما انقطاع . وكانت سيارات من قافلتنا مبعثرة بين اريحا وطوباس جامدة ، اما لعطل طرا على محركاتها ، واما لانها غرزت في الوحول ، لجهل السواقين وضعفهم ، ومن هذه السيارات ما كان لا يزال بين عمان ودرعا لهذه الاسباب نفسها . لقد كانت مشكلة السيارات هذه،

المشكلة الثانية بعد مشكلة العتاد . وهما مشكلتان رافقتانا في جميع حركاتنا حتى النهايـة .

***

فلسطين يوم وصولي اليها

كان اول شيء عملته في طوباس ، ان جمعت قادة الافواج في جيش الانقاذ ، وطلبت منهم تبيان حالة الجنود وعلاقتهم بالاهلين ، وموقف هؤلاء منهم ، واعطائي كل ما يمكن من معلومات عن اليهود . ثم بينت لهم منهاج عملنا والخطوط الكبرى لحركاتنا . ومن طوباس سرى خبر وصولي الى فلسطين فلم يأت المساء ، حتى غصت القرية بوفود الفلسطينيين . فرايت ان يكون استقبال الوفود في «قباطية» وان احدد لذلك مدة معينة . وقباطية هذه ، قرية كبيرة بالقرب من جنين ، وهي القرية التي استقبلت فيها وفود المودعين من اخواننا الفلسطينيين بعد توقف القتال في سنة ١٩٣٦ وفيها حدثت معركة التطويق ، التي بيتتها لي اكبر قوة بريطانية في ثورة ١٩٣٦ ، وذلك بعد الهدنة التي حملنا ملوك العرب ورؤساؤهم على القبول بها.
وفي اليوم الثاني لوصولنا الى طوباس تحركنا الى قباطية . وقررت ان اتخذ من قرية جبع ، مقرا للقيادة ، فهي عدا مركزها الجغرافي الملائم ، كانت ميدانا لاحدى المعارك الكبيرة ، التي احرزنا فيها على البريطانيين انتصارا كبيرا ايام الثورة .

وبينما كانت الاثقال والمدفعية تنتقل الى جبع ، وحركات التنظيم قائمة فيها، كنت استقبل في قباطية وفود الفلسطينيين على اختلاف مذاهبهم وميولهـم ونزعاتهم المحلية ، متحمسين للتعاون معنا تعاونا وثيقا . وجاء الى قباطية عدد كبير من مراسلي الصحف ، ووكالات الانباء ، من عرب واجانب لتسقط الاخبار. وكنت اعلم ان كثيرا منهم انما يعنون بما يهم اليهود ، لذلك كانت احاديثي معهم مقتضبة جدا ومقتصرة على مواضيع عامة ، يتخللها شيء من الايهام والتضليل ... وقد طلبت منهم الا يعودوا الى الاقتراب من مراكز قواتنا وانه حين وقوع معارك اسمح لهم ان يشاهدوها باعينهم ، اذا هم ارادوا ، على ان لا يشوهوا الوقائع كما تعود ان يفعل بعض المراسلين .

اما الحالة الداخلية في فلسطين فقد كانت على الشكل التالي : كان هناك عملاء كثر ، يعملون بنشاط في مناطق متعددة ، لمرجعين مختلفين . ففي منطقة الخليل مثلا ويافا ، كان عملاء الملك عبد الله يوزعون بعض الاسلحة والعتاد والاموال ويبثون روح البغض للهيئة العربية ورئيسها المفتي . وكانت منطقة القدس بما فيها رام الله ومنطقة اللد والرملة ، مسرحا خاصا للمفتي . وفي هذه المنطقة كان مركز

القيادة العامة «للجهاد المقدس» الذي كان يراسه عبد القادر الحسيني ، وكانت منطقة غزة ميدانا يتزاحم فيه عمال الملك وعمال المفتي ولكن اكثريتها مع الملك . ومنطقة جنين — نابلس — طولكرم ، او ما يسمونه بالمثلث ، كان يتجاذبها عمال الملك من جهة ، وعمال المفتي ، ولكن بشكل ضعيف ، من جهة اخرى . وكانت بأكثريتها تميل الى سورية والجامعة العربية . وفي المنطقة الشمالية .. الجليل — الناصرة ، وفي حيفا كذلك ، كانت الحالة شديدة الشبه بحالة منطقة جنين — نابلس — طولكرم .

على اساس هذه الصورة الواقعية ، كان الموقف بالنسبة اليّ دقيقا جدا ، وخطرا جدا ، ويكفي ان يشعر اي فريق ، بأي ميل مني نحو الفريق الآخر ، ليثير ضدي حملات مختلفة ، ويدعو الى الانصراف عن التعاون معي . لذلك اعلنت انني انما جئت الى فلسطين للقيام بواجب سأتعاون مع الفلسطينيين كافة على القيام به . وهذا الواجب هو الوقوف في وجه اليهود ، وحماية هذه المنطقة من عدوانهم، ومهاجمتهم لانقاذ ما يمكن من الاراضي الواقعة بين ايديهم . لذلك فاني لن اتساهل ابدا مع اي فريق او اي فرد يخل بالامن ، او يكون سببا للاخلال به وانني سأطبق النظام بدقة وشدة الى ان تدخل الجيوش العربية النظامية الى فلسطين .

واعطي الان صورة لجيش الانقاذ ، هي ايضا صورة واقعية . كان هذا الجيش لا يشبه اي جيش آخر بتسليحه وتجهيزه وتنظيمه وعدده . وكان في الحقيقة لا يملك من القوى المادية — بالنسبة لما يملكه اليهود — جزءا مما ينبغي لجيش ان يملكه ، ليستطيع ان يؤدي المهمة الموكولة اليه ، ولكنه كان يتمتع بحماسة واندفاع شديدين في القتال ، الى حد يقدم معه على اعمال حربية هي بالمغامرة اشبه . وقد اقدم فعلا على مغامرات خرج منها موفقا منصورا . كان — وهو لم يتجاوز عدد مقاتليه الالفين والخمسماية مقاتل — يحتل جبهة ، تمتد من غوربيسان شرقا ، وزرعين شمالا ، وقاقون والطيرة غربا، حتى قلقيلية. وكانت تجهيزاته في تلك الايام القارسة البرد لا تكفي لرد خطر البرد عنه ، وهو مع ذلك يقاتل ليلا نهارا ، كثيرا ما كان يفعل ذلك اياما متتالية ، حتى اصيب كثير من الجنود بالديزنطاريا والامراض الصدرية . وكانت طلباتنا المبنية على الحاجة الملحة ، من اللجنة العسكرية في دمشق ، بهذا الشأن ، وغيره من شؤون تتعلق بالسلاح والعتاد ، تبقى بلا جواب . واذا اجيبت احيانا ، تجاب بارسال كمية ضئيلة لا تغني .

***

منهاج للاعمال الاولية

في ١٠ اذار سنة ١٩٤٨ انتقلنا الى المقر الذي تم تنظيمه ، كما تيسر ، في جبع . وكان منهاج العمل قد استقر على الشكل التالي :

اولا — تأمين الامن المطلق ، وفرض السيطرة التامة على منطقة جيش الانقاذ كلها .

ثانيا — القيام بحركات استطلاعية واسعة ، في مختلف المستعمرات والمناطق اليهودية المتصلة بمنطقة جيش الانقاذ .

ثالثا — استدراج اكثر ما يمكن من القوات اليهودية الى خارج التحصينات ، وانزال اشد ما يمكن من الضربات فيها ، لنضعها في حالة دفاع اطول مدة ممكنة.

اما الامن فقد تمكنا من تأمينه كما يجب . وقد دعوت الفلسطينيين المسلحين بواسطة اللجان القومية المحلية ، لينضم قسم منهم الى قواتنا المرابطة في مناطقهم، فيدربهم ضباط من جيش الانقاذ ، ثم يدافعون مع قواتنا عن القرى العربية ، على ان تخصص لهم رواتب كرواتب جنودنا ، ويمدوا بالعتاد ايام المعارك ، ويبقى قسم آخر ، شبه احتياطي للنجدة عند الحاجة . ولكننا مع الاسف لم نتمكن من الاحتفاظ بعدد كبير منهم لرفض اللجنة العسكرية المرتبطة بجامعة الدول العربية، دفع ما تعهدنا به لهم . وكانت اكثر المعارك تقع على جبهة نوريس — زرعين شمالا، وعلى جبهة طولكرم — بيار عدس — طيرة — قاقون غربا . ففي الجبهة الاولى ، فشلت كل المحاولات اليهودية للاستيلاء على زرعين وباءت بخسائر فادحة . وقد قطعت زرعين طريق بيسا ن عفولة تماما ، وفصلت مستعمرات الغور عن مستعمرات المرج . ولم تجد اليهود تهديدات البريطانيين لنا نفعا . وفي احد الايام اعلنت قيادة الجيش البريطاني ان وحدات من الجيش ستقوم بمناورات في هذه المنطقة ، فاعلنت بدوري ان قوات جيش الانقاذ ، لا تبدي اية حركة ضد اية مناورة يقوم بها الجيش البريطاني ، خارج حدود منطقته ، ولكنها تدافع عن نفسها ضد اية قوة تقترب منها . وحدث على اثر ذلك ان وقعت حوادث في منطقة طولكرم ونابلس، ثم ظهر ان تلك الحوادث كانت مفتعلة كما كنا قدرنا . وعندما تأكد البريطانيون اننا لم ننخدع ، فنسحب من جهة زرعين ، اي قسم من قواتنا ، عمدوا الى تسيير قافلة من دباباتهم على الطريق العام .. بيسان — عفولة ، بقصد تهديدنا تهديدا غير مباشر ، لكي نسحب قواتنا ، او قسما منها من زرعين ، التي كانت عاملا قويا مستمرا في الاشتباكات مع اليهود . كما كانت تهدد طريق مواصلات البريطانيين انفسهم . وقد نسف جنودنا جسرين مهمين على هذه الطريق ، امام زرعين ، اثناء مرور القافلة البريطانية . وتبين لنا بعد حادث النسف ، ان اليهود كانوا يحشرون سياراتهم بين سيارات الجيش البريطاني ، ليمروا بأمان ، ذلك اننا شاهدنا مع

المصفحة البريطانية التي تحطمت يومذاك ، سيارة كبيرة «باص» يهودية محطمة ، قتل اكثر ركابها وجرح الباقون . وبقيت زرعين المسيطرة على هذه الطريق المعطلة، شوكة دامية في جسم المستعمرات اليهودية في هذه المنطقة الى ان «اقتلعتها» الجيوش العربية النظامية ....

كان الامن مستتبا في انحاء منطقة جيش الانقاذ كلها على أتم وجه ، رغم مساعي بعض افراد لتعكيره . والمفارز التي ارسلناها لهذا الغرض بناء على طلب رؤساء اللجان القومية ، قامت بواجبها قياما تاما . واخذ نفوذ البريطانيين يتقلص حتى لم يبق له اي اثر في منطقتنا . وكان الجنود والضباط البريطانيون ، الذين يضطرون الى المرور في منطقة جيش الانقاذ ، من وقت الى آخر ، تطبق عليهم التعليمات الخاصة بالتفتيش واوراق الهوية ، عند كل نقطة يمرون بها ، واصبح لقواتنا حرمة رهيبة في نفوس الجميع ، ويضاف الى ذلك شيء من الرعب في نفوس اليهود ، الذين انكمشوا في مستعمراتهم لا تبدو منهم اية حركة ، بعد محاولاتهم المتعددة الفاشلة في جبهتي زرعين وطولكرم . على ان نشاطهم اشتد خارج حدود منطقتنا ، في منطقتي يافا والقدس . وكانت المعلومات التي لدينا ، تؤكد ان اليهود يعملون بجد لتصفيح اكبر عدد ممكن من السيارات التي لديهم ، كبيرة وصغيرة ، استعدادا للحركات المقبلة ، ولم يكن يسترعي الانتباه بعد ، من سلاحهم اكثر من مدافع الهاون ، التي استعملوها بكثرة في كل مكان . مما ترك اثرا سيئا في معنويات الفلسطينيين الذين لم يتيسر لهم ان يتسلحوا بمثل هذه المدافع .

***

معركة «مشمارها ايمك» الاولى

في اول نيسان ١٩٤٨ اخذ الجو يصحو قليلا ، فقررت ان اخوض معركة قوية في احد المستعمرات اليهودية في مرج ابن عامر ، واخترت من بين هذه المستعمرات اقواها «مشمارها ايمك» اي حامية المرج . قصدت من وراء ذلك التحقق بنفسي من مناعة المستعمرات ومدى مقدرتها على الدفاع ، بالنسبة الى مدفعيتنا . وحسبت للنجدات التي قد تهرع من بقية المستعمرات المجاورة حسابها ، فبالاشتباك مع النجدات اليهودية هذه استطيع ان اقرر كفاءه القوات اليهودية في القتال خارج المستعمرات . تقع «مشمار ها ايمك» على طريق جنين - حيفا ، وفي فم منفرج واد ، يحيط به من الشرق والغرب والجنوب جبال مشجرة ، ويقع شمالها سهل المرج الذي يغص بالمستعمرات اليهودية . ويتفرع من مشمار ، طريق تتصل ببقية المستعمرات في شمالها وغربها وجنوبها . وفي

هذه المستعمرة اقوى الابراج والقلاع . وسكانها من اليهود الشيوعيين وهم يعتدون باستمرار على السيارات العربية المارة امام المستعمرة ذهابا وايابا ، من الشرق الى الغرب وبالعكس . اخترت لخوض المعركة فوجا انتقيت سراياه من افواجنا كلها ، تشترك معه المدفعية . «ستة مدافع» اربعة منها عيار ٧٥ مم . ومدفعان عيار ١٠٥ مم . وثلاث مصفحات . على ان يقوم بالهجوم سرية واحدة ، مع المصفحات والمدفعية . وتقوم بقية السرايا بتخريب الطرقات المؤدية الى المستعمرة ، وارغام النجدات التي ستأتي لمعاونتها ، على قبول المعركة من اية ناحية اتت فتحول بينها وبين الوصول الى المستعمرة . واخترت الساعة الخامسة من يوم السبت في ٤ نيسان موعدا للهجوم ، ذلك لان هذا اليوم ، عدا انه سبت ، كان عيدا عند اليهود . واختياري الساعة الخامسة كان على اساس انه في مثل هذه الساعة ، لن يبقى متسع من الوقت لتدخل القوات البريطانية في المعركة . ولكي أحول نظر اليهود عن هدفنا هذا ، قررت ان تقوم مفرزة من فوج القدم صفا ، بهجوم مضلل على مستعمرة صغيرة بالقرب من زرعين ، اسمها «زراعيم» ليلة ٣ - ٤ نيسان وقامت هذه المفرزة بهجومها ، فدمرت قسما كبيرا من بيوت المستعمرة ، ونسفت مشروع المياه فيها والحوض الذي يسقي اراضي المستعمرات المجاورة ، وتكبد السكان خسائر ، بينما كانت القوة المعدة لمهاجمة «مشمار ها ايمك» تتمركز في مراكزها المحددة . تم ذلك كله ، بدون ان يشعر اليهود بشيء يثير الريب . وبقيت القوة كامنة في مراكزها ، تمنع الدخول الى القرى المجاورة للمستعمرة ، حتى ازفت الساعة المحددة للهجوم . وكنت على التلة الواقعة شرقي مشمار على بعد خمسماية متر منها ، ارقب بالمنظار كل ما في المستعمرة ، فلم أر فيها شيئا غير اعتيادي على الاطلاق . شاهدت قسما من الشبان يلعبون العابا رياضية . وقسما آخر كبيرا على شرفات المدرسة الكبيرة ، يشربون الشاي ويلهون ، وقسما يعتنون بالابقار في مرابطها . وما كاد عقربا الساعة في يدي ، يدلان على الخامسة ، حتى اصدرت الامر للمدفعية ، ففغرت افواهها دفعة واحدة وراحت تصب نيرانها على الاهداف الرئيسية التي عينت لها ، لا تخطىء هدفا ، واهل المستعمرة مأخوذين بالمفاجأة الرهيبة ، ثم اخذوا يتراكضون في انحاء المستعمرة على غير هدي . وراحت سرية الهجوم تساندها المدفعية تتقدم بسرعة ، والمصفحات تزحف على الطريق الرئيسية نحو الابراج ، القائمة على المدخل ، حتى وصل المشاة الى الاسلاك الشائكة وبدأوا يقطعونها . ووصلت المصفحات الى الابراج ، واخذت تصليها نارا حامية من رشاشاتها . ولم تجاوب المستعمرة في البداية الا من هذه الابراج ، وبنار ضئيلة مرتبكة ، وتمركز قصف المدفعية على القلاع . حتى اذا ما قارب المشاة هذه القلاع تقدمهم داخل حدود المستعمرة وهم يطلقون نيران رشاشاتهم هنا وهناك ، أعطيت الاشارة لوقف القصف ، فسكتت المدفعية .

كان الليل بدأ يرمي سدوله ، وبدأ المطر يتساقط بين هنيهة وهنيهة على مهل،

وامتنعت الرؤية . فبدأت القلاع ترمي الجنود على غير هدي بنيران متقطعة . واقترب جنودنا حتى اصبحت القلاع منهم على مرمى القنابل اليدوية ، فقذفوها بها . ومضت المصفحات في زحفها مجتازة الابراج التي اسكتت نهائيا ، حتى ظننت ان هناك حيلة مدبرة للايقاع بقواتنا . فأمرت الجنود بالتوقف . ولما أيقنت ان ليس هناك اية حيلة ، وان المستعمرة غلبت على امرها فعلا ، حرصت على ان لا يأتي الجنود بأعمال التقتيل في النساء والاطفال ، وأمرتهم بالانسحاب الى التلال المحيطة بالمستعمرة ، والمتحكمة فيها الى ان ينقضي الليل .

وأخذت استعد لمواجهة النجدات التي قد تتمكن من الوصول لنجدة مشمار ، رغم علمي ان مفارز من قواتنا كانت قد نسفت الجسور الواقعة على الطرق المؤدية الى المستعمرة. وانتظرت الصباح لارى ماذا عسى انيكون من امر يهود المستعمرة، وأرسلت اليهم انذارا أن يقطعوا كل علاقة لهم «بالهاغانا» فنأخذ نحن المستعمرة تحت حمايتنا، وانهم اذا قبلوا بهذه فليرسلوا وفدا منهم يوقع على شروط التسليم. وفي ذلك الصباح نفسه جاء رسول المستعمرة يعلم آمر الفوج ، المقدم مهدي صالح ، ان هيئة تمثل المستعمرة يصحبها ضباط بريطانيون سيصلون بعد الظهر للمفاوضة .

على ان هذا التدبير لم يكن وحده كافيا لاطمئن الى سلامة جنودنا ، لاسيما ومجموع القوة التي استطعت ان أحشدها لمعركة مشمار هذه ، كانت حوالي ٥٠٠ جندي ، اشترك منها في الهجوم سرية واحدة ، اي ما لا يزيد على ماية وعشرين جنديا ، وكنت أتوقع ان تصل حتما ، نجدات يهودية كثيرة لانقاذ المستعمرة ، ليس لديّ من القوات ما أواجهها به . ولما كنت قد حققت غرضي من مهاجمة مشمار ، وحرصا على سلامة جنودي الذين كانوا قليلي العدد من جهة اخرى ، امرت السرية بالانسحاب لتشترك معنا في مواجهة النجدات اليهودية التي كنت أتوقع قدومها لانقاذ المستعمرة ، بدلا من ان تبقى منعزلة عنا .

***

معركة القسطل ـ قصف القدس

ساءت الحالة في أوائل نيسان في منطقتي القدس ويافا ، وأخذ الخطر في منطقة القدس يشتد من يوم الى يوم ، ذلك ان اليهود كانوا يضاعفون هجماتهم ويستميتون في محاولة الاستيلاء على القرى المسيطرة على طريق باب الواد ، لكي يؤمنوا اتصال تل ابيب بالقدس ، بشكل يمكنهم من تموين اليهود فيها وانقاذهم. فقد كان هؤلاء يعانون ضائقة شديدة جدا ، من قلة المواد الغذائية ، وقلة العتاد،

وكان هدف القوات اليهودية الاول الاستيلاء على قرية القسطل التي تعد نقطة هامة ، وقاعدة خطيرة لتأمين المواصلات بين القدس وتل ابيب . وقد نشبت معارك حامية جدا بين القوات اليهودية المجهزة تجهيزا كاملا بالسلاح والعتاد ، وبين القوات العربية المحلية التي كان يقودها عبد القادر الحسيني ، وكانت هذه القوات رغم شجاعتها تلاقي صعوبات كثيرة في الدفاع عن القسطل ومنطقتها ، لتفوق اليهود في العدد والمعدات والنظام . فأخذت الرسل تأتي الى مقر القيادة في «جبع» تطلب النجدة . ولكن المنطقة كانت خارجة عن نطاق قيادتي . وكان لديّ تعليمات مشددة تحظر عليّ التدخل في شؤونها ، ومع ذلك فقد أمددتها بشيء من العتاد ، ومدافع الهاون والقنابل اليدوية على قلة هذا كله عندنا . ولكن المعركة في القسطل ، ومنطقتها كانت تتطور لمصلحة اليهود ، لوفرة الوسائل عندهم ، وقلتها عند المقاتلين العرب . فأبرقت الى القيادة العامة في الشام ، أنبئها بالموقف وأطلب اليها نجدة تلك المنطقة بسرعة . وفي مساء ٧ نيسان جاءني مدير الصحة في جيش الانقاذ ، والرئيس فاضل عبد الله آمر حامية القدس ، يصحبهما بعض رؤساء المجاهدين وألحوا عليّ في طلب النجدة ، لان المعركة في القسطل كانت قد دخلت في دور شديد الخطورة وأصبحوا يتوقعون سقوط هذه القرية بين ساعة وأخرى . وفي الوقت نفسه كانت قوات يهودية تحتشد امام جبهة طولكرم ، وكنت أتوقع ان يقوم اليهود بهجوم على هذه الجبهة في تلك الليلة ، مما اضطرني الى ارسال برقية تحذير ، الى قائد الجبهة الرئيس مدلول عباس ، طالبا منه ان يكون على استعداد لمجابهة الموقف بما لديه من قوة ، دون ان ينتظر اية نجدة بالرجال او بالعتاد .

وكنت اعلم ان الغرض من هجوم اليهود المتوقع في جبهة طولكرم ، هو ارغامنا على سحب قسم من قواتنا من ميدان مستعمرة «مشمار ها ايمك» التي كنا نحاصرها ، فأصبحت بين امرين .. الانتظار حتى تنتهي معركة «مشمار ها ايمك» وقد يفوت الوقت على النجدة عندئذ او المبادرة الى النجدة في الحال ، مخالفا لما لديّ من تعليمات ، وترك معركة مشمار الى مصير مجهول . انه موقف عصيب . خرجت منه بتقرير النجدة ، متحملا ما ينتج عن ذلك من مسؤولية تجاه القيادة العامة . سأنجد القسطل برتل ، أغامر بسحبه من ساحة معركة مشمار ، اي بفصيل من المدفعية ومصفحتين وسرية مشاة ، أرسله في فترة المفاوضات الدائرة بشأن هذه المستعمرة بيننا وبين الهيئة التي تمثلها . مع علمي ان الاستعدادات في مستعمرات المرج (مرج بن عامر) وفي منطقة حيفا ، كانت قوية جدا ، لتأليف حملة يهودية تفك الحصار عن «مشمار ها ايمك» وتخرج قواتنا ، ان هي استطاعت من تلك المنطقة . فاستدعيت ضابط ركني مأمون البيطار ، وهو من افضل ضباط الجيش السوري ، وسلمته قيادة النجدة لمنطقة القدس ، وطلبت منه الاسراع في العمل ، وبذل كل ما يمكن من مجهود لاسترداد القسطل ، اذا كانت قد سقطت ، وانه يستطيع الاعتماد في حركاته على القوات المحلية المسلحة في تلك المنطقة .

وتحركت هذه النجدة في ٨ نيسان ، واطلعت الوفد الذي جاء في طلب النجدة
على هذا التدبير ، وطلبت منه الاسراع في تهيئة اكبر عدد ممكـــن من المسلحين
المحليين ، للاشتراك في القتال مع النجدة ، اذ انه ليس لديّ في جيش الانقاذ
القليل العدد ، والمنتشر على جبهة واسعة ، قوة استطيع سحبها من مراكزها فوق
القوة التي ارسلتها . وكان تدبيري عاملا قويا في رفع المستوى المعنوي للعرب في
منطقة القدس . ولابقاء هيبة قواتنا في نفوس اليهـــود في مشمار ها ايمك ،
ومنطقتها ، طلبت من المقدم مهدي صالح ، قصف هذه المستعمـــرة من جديد ،
محتجا بتباطؤ اهلها في ارسال الوفد المفاوض ، راميا الى ايهام اليهود ، ان قواتنا
مع مدفعيتنا ، لا تزال في مواقعها المسيطرة على مشمار . وقبيل وصول النجدة
بقليل استشهد البطل عبد القادر الحسيني . فاستولى اليهود على قرية القسطل،
وتشتت المقاتلون المحليون هناك . فسبب ذلك ذعرا بين السكان ، بدأت على اثره
هجرة شنيعة نحو الشرق والشمال . وبينما كانت القوة الموضوعة من جيش الانقاذ
تحت قيادة المقدم المهدي ، تقصف مدفعيتها مستعمرة مشمار ، كانت الحملة التي
ارسلتها نجدة الى منطقة القدس تقصف في الجنوب مستعمرة «مودسا» بالقرب
من قرية القسطل العربية ، ثم اخذت تقصف القسطل نفسها الى ان انهزم منها
اليهود ، واحتلتها القوات المحلية المسلحة بمساعدتنا . ودمرت مدفعيتنا قسما من
مستعمرة «مودسا» وضعضعت سكانها ، ولكن القوات المسلحة المحلية ابت ان
تتقدم لاحتلالها . وقد حاول الرئيس البيطار دفعهم لاحتلال هذه المستعمـــرة
بمساندة المدفعية ، وحماية المصفحات ، ولكنهم لم يفعلوا .

ثم راحت مدفعيتنا لاول مرة تقصف الاماكن اليهودية في القدس ، فدمرت
عدد غير قليل من المباني والمراكز ، والمستودعات اليهودية ، وأثرت هذه المفاجأة في
معنويات اليهود فيها ، تأثيرا كبـــيرا جدا . بينما ارتفعت معنويـــات العرب ،
وتحسنت الحالة في المنطقة كلها تحسنا ملموسا ، ولكنه كان تحسنا آنيا .

على ان الوقع الكبير للقصف كان في نفس البريطانيين ، الذين ما كان ليخطر
لهم ببال اننا نقدم عليه ، وهم لا يزالون في فلسطين . خصوصـــا وقد افاضت
الصحف اليهودية في وصفه ، ونشطت دعاية اليهود في أنحاء العالم كافة لتصويره
بأقبح ما يمكن من التصور . ويظهر ان تأثير هذه الدعاية من جهة ، وضغط السلطات اليهودية
على المراجع البريطانية المسؤولة من جهة اخرى ، حملا البريطانيين على ان يواجهوا الينا
انذارا كان الاول من نوعه ، منذ ان وطئت أقدامنا ارض فلسطين . فقد جاءني معاون
الحاكم البريطاني في منطقة المثلث العربي ، في ١١ نيسان ١٩٤٨ وقال لي : ان
القيادة العامة البريطانية متأثرة جدا من اقدامكم على قصف القدس بالمدفعية ،
وهي تطلب ان لا تعودوا الى مثل هذا العمل في المستقبل ، والا فليس مـــن
المستغرب ، ان يترك عمل كهذا صدى في هيئة الامم المتحدة ، يحملها على التدخل

في قضية فلسطين ، بشكل قد يضيع القضية على العرب من اساسها . فأجبته
ان مدفعيتنا لم تقصف الا الاماكن اليهودية في القدس ، حيث لا وجود لشـــيء
مقدس ... ولكن اليهود الذين تقصف مدفعيتهم باستمرار ، الاماكن المقدسة فعلا
في القدس ، كالحرم وكنيسة القيامة ، ألا يترك عملهم شيئا من التأثير في نفس
القيادة العامة البريطانية . ولا يكون له اي صدى في هيئة الامم المتحدة ... ام ان
قذائف مدفعيتنا من حديد ونار ، وقذائف اليهود من ليمون وشوكولاتة ....
أرجو منك ان تبلغ الحاكم العام والقيادة العامة ، اننا كما تعلمون في حالة حرب
مع اليهود ، واننا سنعمل كل ما نراه في مصلحة العرب ان يعمل . ويستطيع
البريطانيون ان يعملوا ما يرونه في مصلحتهم .

وكنت اعلم علما تاما ان الجيش البريطاني ، وهو في حالة جلاء ، يتجنب كثيرا
ان يجابهنا ، وخطوط مواصلاته كلها تحت رحمة قواتنا .



معركة «مشمار ها ايمك» الثانية

وصل وفد المفاوضة اليهودي الى مقر المقدم مهدي صالح ، وكان مؤلفا من
وجوه مستعمرة مشمار ، مع رئيس بلديتها ، يرافقهم «كولونيل» بريطاني ، وكان
ذلك على اثر القصف الاخير الذي قامت به مدفعيتنا على مشمار في ٩ نيسان ،
وسبب انفجار مستودعات العتاد الباقية فيها ، وتدمير بعض المباني . وتكلـــم
الكولونيل البريطاني فحاول ان يضع في كلامه شيئا من التهديد ، للمقدم مهدي
اذا هو لم يفك الحصار عن المستعمرة ، فلم يبال المقدم مهدي بتهديده وأفهمه ، انه
ينفذ أوامر القيادة ، وان في استطاعته اذا هو شاء ، الاتصال بالقيادة والتفاهم
معها . فلما سمع الوفد ذلك ، أبدى للمقدم مهدي سبب تأخره قائلا انه اتصـــل
بالوكالة اليهودية فأبطأت بالجواب ، على انها تركت لهم في النهاية الخيار ، في
تقرير ما يرونه أنسب لمصلحتهم ، وانهم جاءوا الان للتفاهم معه ، على أن يسمح
لهم بنقل جثث القتلى لدفنها . ونقل الجرحى الى المستشفى ، فأرسل اليّ في
ذلك فلم أر مانعا ، على ان تنتهي هذه العملية خلال ٢٤ ساعة على الاكثر ، يبتون
في نهايتها بقضية التسليم . فوافقوا على ذلك وانصرفوا ، وتولت سيارات النقل
البريطانية نفسها ، نقل قتلى اليهود وجرحاهم . وكان للبريطانيين رتل مـــن
المصفحات والدبابات بالقرب من المستعمرة على طريق حيفا ــ مشمار ، يتستر
ما استطاع التستر ، واليهود ، يداورون في المفاوضة قاصدين كسب الوقت لاتمام
ما كانوا يقومون به من حشد لقوات الهاغانا . وكنا نحن نرمي ايضا لكسب الوقت
في التريث الى ان تعود الينا القوة التي ارسلناها مع المدفعية الى منطقة القدس.

وكانت السيارات التي تنقل قتلى اليهود وجرحاهم، تعود مشحونة بجنود الهاغانا، وبينها سيارات يهودية مشحونة بالسلاح والعتاد ، للحملة التي تتمركز في غرب مشمار ، وفي مستعمرة اخرى الى الجنوب الغربي من مشمار . واتم اليهود استعداداتهم ، قبل ان تعود القوة التي أرسلناها نجدة لمنطقة القدس . وفي صباح ١٠ نيسان بدأ اليهود هجومهم فكان اقوى هجوم قاموا به حتى ذلك اليوم . وكان عددهم لا يقل عن ستة آلاف مقاتل ، مزودين بعدد وفير من مدافع الهاون الكبيرة، وعدد وافر من الرشاشات ، وكان غرضهم تطويق قواتنا وفصلها عن مواقعنا الاساسية . فاضطرت قواتنا للتراجع تدريجيا ، حتى تخلينا عما لا يقل عن اربعة كيلومترات من الاراضي التي كنا نحتلها . وتمركزنا في قرية «منسي» العربية التي كانت محور الحركات ، فاتسعت بذلك جبهة القتال وتخللها ثغرات كثيرة . وتوقفت المعركة مع مجيء الظلام .

وفي تلك الليلة اي ليلة ١٠ – ١١ نيسان اتفقت مع المقدم مهدي على اعادة تنظيم قواتنا وتعديل مواقعها ليتسنى لنا مفاجأة العدو بهجوم معاكس في الصباح. وكانت معنويات جنودنا طيبة ورغبتهم في تجديد القتال قوية . وما أزفت الساعة الخامسة صباحا حتى انفتحت أفواه مدفعيتنا على «مشمار ها ايمك» واخذت تصب نيرانها على الاهداف المعينة لها ببراعة فائقة . ثم اصدرت الامر بهجوم المشاة، فهجم جنودنا على مواقع العدو ، وما هي الا ساعات قليلة حتى بدأت قوات الهاغانا تتراجع متضعضعة ، وبعد قليل انقلب التراجع الى هزيمة نحو مشمار ، والمستعمرات الواقعة الى الجنوب الغربي منها . وراح جنودنا يتقدمون مسرعين وهم يتخطون جثث القتلى والاسلحة المبعثرة في الميدان حتى وصلوا الى التلال المشرفة على المستعمرة من قرب ، والتي كنا تخلينا عنها في اليوم السابق . فأمرتهم بالتوقف عليها والتحصن في مواقعهم . وكنت ابرقت الى الرئيس مأمون البيطار ان يسرع بالعودة من منطقة القدس ليشترك بفصيل المدفعية في المعركة ، على ان يبقي السرية هناك، بقيادة احد الضباط لتدعم المقاتلين المحليين، وتساعدهم على الاحتفاظ بمعنوياتهم ونشاطهم في القتال . فوصل الرئيس مأمون مع فصيل المدفعية وشغل مركزه في ساحة المعركة . وكانت نجدات يهودية على اثر انهزام «الهاغانا» بدأت تفد من المستعمرات اليهودية المجاورة ، استعدادا لهجوم معاكس يقومون به . والرتل البريطاني الذي أشرت اليه آنفا ، مستقر في مواضعه لا يتدخل . ولكن مجرد تمركزه حيث هو ، كان مشجعا لليهود ، ومغريا لهم على القتال . وفعلا بدأ اليهود في الساعة الثالثة بعد الظهر هجوما معاكسا ، كان اشد من هجومهم الاول . واضطررنا مرة ثانية الى التراجع امام تفوق العدو الكبير في العدد والمعدات . واصبح فصيل من مدفعيتنا معرضا لخطر استيلاء اليهود عليه ، فاستبسلت في هذه اللحظة المفرزة الشركسية استبسالا نادرا جدا . واندفع الرئيس مأمون البيطار بنفسه ، لحماية فصيل المدفعية وتأمين انسحابه ، فتم له ذلك وكانت حياته الثمن . اذ انه استشهد في هذه المعركة . توقف تراجعنا للمرة

الثانية في قرية «منسي» ايضا ، ومنها ، عدنا الى هجوم جديد ، فكانت معركة اشبه بمجزرة هذه المرة ، وهزمنا اليهود ، واستردنا ما كنا فقدناه ، وبقيت هذه المعركة ، وهي تكاد لا تتوقف مدة سبعة ايام حتى اخذت تنهال عليّ البرقيات من القيادة العامة في الشام بايقاف القتال لان المعركة – على رأيها – اصبحت معركة استنزاف دماء وعناد وهي لا تستطيع تعويضنا . وتوقفت المعركة عند هذا الحد – طرد اليهود من التلال المحيطة بمستعمرة «مشمار ها ايمك» واستقرارنا في خط «الغبيات الفوقا» وما جاورها من تلال . وقد كانت خسائر اليهود كبيرة جدا بالارواح والسلاح . وقد تأكدنا من الوثائق التي وقعت بين ايدينا ، ان قوات روسية وبولونية وتشيكية ، كانت مشتركة في هذه المعركة . ونشر اليهود يومها دعاية واسعة كاذبة انهم طوقوا جيش الانقاذ وأبادوه ، وعرف العالم ان جيش الانقاذ خرج من المعركة سالما منتصرا . وان خسائر اليهود كانت فادحة جدا مما اضطرهم الى تغطيتها بنشر مثل تلك الاشاعات . ولكنهم عجزوا عن اخفاء مقتل قائد الحملة العام الذي احتفلوا بدفنه في تل ابيب بمظاهرة كبيرة .

وكان من نتائج معركة «مشمار» هذه ، ان بدأت هجرة يهودية من المستعمرات المجاورة لمشمار تحمل الذعر والفوضى لتنشرها بصورة واسعة حيث يستقر المهاجرون .



اللجان القومية و«الجهاد المقدس»

بعد ان سحبنا مدفعيتنا ومصفحاتنا من منطقة القدس ، جدد اليهود هجومهم على القسطل ، فاستولوا عليها وعلى دير ياسين ، وبعض قرى عربية اخرى ، فعم الذعر والفوضى ، المنطقة الوسطى كلها ، وبينما كانت هجرة يهودية تقع من الشرق الى الغرب ، اي من مستعمرات المرج القائمة على مقربة من خطوطنا ، الى المستعمرات القريبة من تل ابيب ، حتى في تل ابيب نفسها ، كانت هجرة اخرى عربية ، ويا للاسف ، تقع من الغرب الى الشرق ، اي من دير ياسين والقسطل وما جاورهما ، الى جنين ونابلس وغيرهما ، وكان في الهجرتين عناصر تدعو الى ترك القتال حتى قامت في تل ابيب يومذاك مظاهرات ضد الحرب . وقامت في اطراف منطقتنا مظاهرات ضد الجامعة العربية . وعلى اثر ذلك جاءني السيد احمد حلمي ومعه نفر من اعضاء اللجان القومية في القدس ورام الله ، وبعض المنتمين الى «الجهاد المقدس» ومع احدهم رسالة من السيد خالد الحسيني ، احد اعضاء الهيئة العربية العليا يستنجدون بي . وقد طلبوا اليّ بعد ان صوروا لي خطورة الحالة ، أن اتولى قيادة منطقة القدس اي الجبهة الوسطى ، فاعتذرت بأن الحالة

التي انا فيها لا تمكنني من ذلك ، عدا ان المسألة تتعلق بالقيادة العامة في الشام. وتشكل وفد منهم ذهب الى الشام لهذا الغرض ، فاتصل بالقيادة العامة للاتفاق معها على ما فاتحوني به ، فأجابتهم انها في سبيل اعداد حملة قوية مجهزة تجهيزا كافيا بقيادة العقيد محمود الهندي ، ستصل قريبا الى الجبهة الوسطى. وقد كانت القيادة العامة تعد هذه الحملة حقيقة ، فأرسل العقيد الهندي الضابط الركن المقدم محمد ناصر ، الى المنطقة ليستطلع الحالة ، فعاد اليه بتقرير يظهر انه كان مثبطا لعزيمته ، فأبى قبول المهمة معتذرا .

وكانت الحالة في يافا كما في القدس ، تسوء من يوم الى يوم ، وتعالت أصوات السخط والاستنجاد ، حتى صكت مسامع القيادة العامة في الشام فأرسلت اليّ ان أبعث من وحدات جيش الانقاذ ، بعض مفارز مع ما يمكن من معدات لنجدة المستنجدين ، على ان تعوض جيش الانقاذ وحدات جديدة مع سلاح وعتاد ، ففعلت ، ولكن القيادة العامة لم تفعل . واصبحت في حالة نفسية قلقة جدا .. قلة في العدد والعدد بعد ان افرزت مفارز الى يافا وبيت سوريك والنبي صموئيل ، ولم ترسل لي القيادة العامة بدلا منها . وفوضى في الجبهة الوسطى تنذر بالتفكك والانهيار ، والشام لا تلبي طلبي بارسال السلاح والعتاد .. حتى خطرت لي لحظة ، فكرة الاستقالة من قيادة جيش الانقاذ ، ولكن فكرة المصابرة ، هي الاخرى كانت قوية عندي ، فلعل القيادة العامة تعمل المستحيل لتوفير الوسائل التي يمكن ان نحسن بها الحالة ولو قليلا ، الى ان تدخل الجيوش العربية النظامية، واخذت أوازن بين الفكرتين ، وأنا أحس عظم المسؤولية الوجدانية في نفسي ، وهل اذا انا داويت الحاضر بالترقيع وانتظرت ، ينتظر اليهود هم ايضا .... وكان الجيش البريطاني في هذه الفترة يستكمل جلاءه عن فلسطين وبسرعة . ولم يكن باقيا من قواته الا القليل الذي يكفي للمحافظة على ما كان لديه من مستودعات للاسلحة والذخائر ، هذه الاسلحة والذخائر ، التي كان ضباط بريطانيون يفاوضوننا ليبيعونا ما نحتاجه منها. كما كانوا يفاوضون اليهود ايضا لهذا الغرض. وقد كنا في وضع لا يمكننا من الشراء ، ويا للاسف ، بينما اشترى اليهود كميات هائلة .

★ ★ ★

الاسباب الرئيسية لسقوط حيفا ويافا
معارك زرعين ، ونورس ، وبقية مواقع الجبهة

كانت خطة انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين ، تقوم على دعامتين ،

الواحدة سياسية والاخرى عسكرية ، ومن البديهي ان تكون الدعامة العسكرية في ترتيب النقل ، كنقل المستودعات والاثقال «الورشات» ومؤسسات الجيش المختلفة، ثم الوحدات ، واخيرا الآليات مع المصفحات ، بطريق معروفة في النظام العسكري. وكان من الطبيعي ان يستخدموا في انسحابهم هذا مختلف الطرق بما فيها الخطوط الحديدية . وقد تم هذا الانسحاب بشكل عادي ولكننا لاحظنا انه كان يرافق الخطة العسكرية في الانسحاب ، خطة سياسية مرسومة ، وهي انسحاب الوحدات البريطانية الموكول اليها المحافظة على الامن والنظام في المدن ، بطريقة فجائية ، يتبعها حالا هجوم فاحتلال . وقد كان من نتيجة هذه الخطة ، سقوط اكثر المدن العربية التي كان يرمي اليهود الى احتلالها قبل غيرها . وهنا تبدو الدعامة السياسية . فقد حدث في حيفا مثلا ، قبيل انسحاب الجيش البريطاني ، ان السلطات البريطانية اخذت تضيق على العرب بحجة الرغبة في سيادة الامن والنظام ، الى ان يتم انسحاب الجيش المسؤول عنهما . وتسهل من جهة اخرى لليهود حرية الحركات بأوسع معانيها . كانت قوات من الجيش البريطاني بحكم مهمتها في المحافظة على الامن والنظام ، تسيطر على الطرقات والمنافذ ، التي تصل حيفا بما يجاورها من قرى عربية ، ومستعمرات يهودية ، فكانت هذه القوات البريطانية تحول من اتصال عرب القرى بحيفا ، لنصرة اخوانهم العرب فيها ، بينما تسهل لليهود الاتصال المتبادل بينهم ، في المدينة وفي المستعمرات المجاورة لها ، وكان هذا التصرف سببا رئيسيا ظاهرا من اسباب سقوط حيفا . وشبيه بموقفهم هذا موقفهم في يافا . فبعد ان تمكنا من ادخال فوج «اجنادين» الى يافا ، وهي في أحرج ساعاتها وتعدل الموقف في مصلحة العرب ، عمد البريطانيون الى فرض هدنة محلية بين العرب واليهود ، فاستغل اليهود هذه الفرصة لاعادة تنظيم وحداتهم ، وتدعيم قوتهم ، حتى اذا ما تم لهم ذلك ، انسحب الجيش البريطاني فجأة وسقطت يافا .

وكان نشاط اليهود يزداد باستمرار في الشمال – منطقة الجليل – وفي الجنوب – منطقة القدس – خصوصا في ناحية بعض القرى المجاورة للمستعمرات اليهودية ، فيبعث هذا اصواتا مستنجدة وصوت من الشام ، من القيادة العامة تطلب تلبية الاستنجاد . وهي نفسها تعلم حقيقة الحال التي نحن فيها ، من قلة عدد وعتاد ، وتعلم ان هذا المستنجد هو ربيبها ، هي اوجدته وربطته بها مباشرة ، واخذت على عاتقها عبء تسليحه وتوجيهه ، وانه خارج عن منطقة قيادتي ، التي حددتها ، ويفصل بيني وبينه مستعمرات يهودية كثيرة ، كما تعلم انها من جهتها، لا تلبي لي طلبا من طلباتي للسلاح والعتاد . وصوت رابع او خامس مبعثه قيادة قواتنا في الشمال ، ينصب في اذني كالرصاص ببرقيات هذه نماذج عنها ..

من آمر الفوج الرئيس اديب الشيشكلي بتاريخ ١٤–٣–١٩٤٨

كارثة الحسينية التي أزالها اليهود من الوجود هي اولى نتائج عدم ارسال التقويات رغم طلباتي المتكررة أتنصل من كل مسؤولية .

آمر الفوج
الامضاء ـ اديب

١٨ـ٣ـ١٩٤٨ من وكيل آمر الفوج في منطقة الشمال الملازم الاول الاتاسي

ساءت حالة المجاهدين المعنوية لعدم تلبية دمشق الطلبات المتتالية بشأن النجدات والاسلحة من كساء وغذاء . التذمر عام يخشى انحلال الفوج .

وكيل آمر الفوج
الامضاء ـ الاتاسي

كانت هذه الاصوات تسبب لي قلقا شديدا ، لا ارى له علاجا ، الا في ان أخوض بنفسي معركة ما . وفي ١٩ اذار ١٩٤٨ تلقيت تقريرا يقول انه منذ يومين، شوهد في مستعمرة «عفولة» تجمعات يهودية كبيرة آتية من مستعمرات المرج ، ومستعمرات منطقة بيسان . فشغلني هذا الامر عن كل ما سواه ، وأنذرت المقدم صفا وطلبت منه تقوية حامية زرعين ونورس ، وزيادة عدد الدوريات الليلية في تلك المنطقة وتهيئة قوة احتياطية ، يكون في استطاعتها الدخول في المعركة فورا. وكنت اتوقع ان تكون المعركة قوية ، لما اعلم من وطأة «زرعين» على اليهود، ورغبتهم في القضاء عليها ، لانها كانت سدا حديديا بينهم وبين جنين ومنطقة المثلث العربي كله ، الذي كانت زرعين مدخله من الشمال . وفي الساعة الثانية والعشرين بينما كانت احدى دورياتنا متجهة نحو «نورس» اذا نيران تنصب عليهم فجأة من مكان يقع الى الجنوب من هذه القرية ، ففضحت هذه العملية خطة اليهود ، وكشفت لنا عن غرضهم من الهجوم الذي يدبرونه . اذ ان وجودهم في ذلك المكان ، لا يمكن ان يفسر الا انهم يرمون الى الفصل بين جنين ومنطقتها ، وبين زرعين ، للقضاء على حاميات جيش الانقاذ في زرعين ونوريس وصندلة . وفي الدقيقة التي انصبت فيها النيران على دوريتنا ، انفجرت اسلحة اليهود من الشمال على مواقعنا في زرعين ، ومن الشرق على مواقع نورس ، ومن الغرب على مواقع صندلة . وقد لحظنا من غزارة رصاص الرشاشات وقنابل الهاون ، ان القوات اليهودية المشتركة في الهجوم ، لا بد ان تكون كبيرة العدد وافرة المعدات . وامتدت المعركة الى مراكزنا كافة ، واطلاق النار يشتد ساعة فساعة ، وبدأنا نسمع أصوات انفجارات هائلة على الطرق التي تصل هذه الحاميات بعضها بالبعض الآخر ، وتربطها مجتمعة، بجنين . فخيل الينا ان الجسور على هذه الطرق قد نسفت كلها ، وأخذت الساعات تمر ، وحدّة المعركة لا تنخفض ، وقد تمكن اليهود من هذا كله

وقوتنا الاحتياطية لم تتحرك من مواقعها ، وكنا ننتظر بزوغ الفجر ، لكي نقوم في ضوئه ، بهجوم معاكس على أخطر نقطة تبدو لنا في صفوف العدو ، وكان كلما ازداد تقدم العدو نحو الحاميات ، ازدادت الحاميات استبسالا في الدفاع . وعند الفجر بلغ اليهود في زرعين ، المراكز الامامية التي اضطرت الى الارتداد ، حتى خطوط دفاعها الرئيسية . فأصدرت الامر للاحتياطي المتمركز في قرية المزار ، بالهجوم على القوة اليهودية المهاجمة حاميتنا في نورس ، ولسرية اخرى بالهجوم على قرية صندلة ، التي اصبح القتال في داخلها . فاندفعت هذه المفارز تساندها مدفعيتنا ، وتحميها مدافع الهاون بحماسة شديدة ، ظهر مفعولها في اليهود منذ الطلقات الاولى ، ودب شيء من التضعضع في صفوفهم ، أدى الى هبوط حدة القتال . وما ازفت الساعة السابعة والدقيقة الثلاثون ، حتى وصلت سريتنا المهاجمة الى داخل صندلة ، وأخذت اليهود من الوراء . وانقلب هجومهم الى دفاع ضعيف ، فهزيمة تعمها الفوضى ، تاركين كثيرا من الاسلحة الخفيفة والثقيلة في ساحة المعركة ، وسريتنا تطاردهم منهزمين باتجاه زرعين ـ العفولة . وكانت حامية زرعين ثابتة تقاتل اليهود من مسافة قريبة ، وهم لا يلقون سبيلا للتقدم نحو خطوطنا ، ولا مخرجا ينهزمون منه للافلات من نيراننا . اما نورس فقد وصلت اليها سرية الهجوم الاولى ، واليهود فيها بين نارين . وأخذت هذه السرية مع حامية نورس ، تطاردهم منهزمين نحو الطريق العام عفولة ـ بيسان . فأوقعت هزيمتهم في صندلة ونورس قواتهم في زرعين ، في خطر التطويق المباشر . وفي تمام الساعة العاشرة ، ظهر على طريق بيسان ـ عفولة رتل من المصفحات والدبابات البريطانية انذر قائدها الفريقين بالكف عن القتال ، والا اضطر الى التدخل في المعركة . وكان واضحا ان اليهود استنجدوا بالبريطانيين لانقاذ قواتهم من المصير الذي كان مقررا لهما .

ومن الفضول القول ان كفة اليهود ، لو كانت هي الراجحة في القتال ، لما تدخل الجيش البريطاني الذي كان هذا شأنه دائما في كل معركة بيننا وبين اليهود . على ان جنودنا لم يكفوا عن اطلاق النار ، حتى تقدم بعض الدبابات البريطانية وأخذ يصب قنابله عليهم فأصيب جنديان من سرية سعدون في زرعين، توفي احدهما فيما بعد متأثرا من جراحه . وكان من المفروض ان نتجنب الاصطدام بالبريطانيين ، خشية ان يكون في اصطدامنا بهم ، مصلحة لليهود . وحوالي الساعة الواحدة توقف اطلاق النار . وانسحب اليهود تحت حماية الدبابات البريطانية التي مكنتهم من سحب كثير من قتلاهم وجرحاهم ، تاركين كثيرا من معداتهم في ساحة المعركة ، على ان عدد القتلى الذين لم يتمكنوا من نقلهم لم يقل عن المائة والعشرين . ولعل احسن وصف لهذه المعركة هو ما وصفه بها مراسلو الصحف الاميركية والانكليزية الذين جاءوا يطلبون الاطلاع على تفاصيلها ، فأرسلت معهم اثنين من ضباطنا الى ساحة المعركة ، وبعد ان جالوا فيها ، عادوا يقولون، انهم لا يعرفون معركة في الحرب العالمية لا تتجاوز منطقتها منطقة هذه المعركة

مساحة ، شوهد فيها من الدماء والاشلاء وظروف الرصاص الفارغة ما شاهدوه في هذه البقعة . على اننا كنا في المعارك التي نختار نحن ان نخوضها ، او تلك التي نحمل على خوضها ، أخشى ما نخشاه فيها ، ان يفرغ عتادنا قبل ان نفرغ من المعركة .

***

المعارك في منطقة عارة

وتلقيت من جديد معلومات تثبت ان هناك تحشدات يهودية كبيرة في منطقة عارة ، مما دعاني الى توقع خوض معركة جديدة قد تكون أشد من معركة زرعين ، وأنا لا استطيع ان أنسى اننا قبل ان نخوض معركة زرعين ، ببضعة ايام ، كنا في حالة حرجة جدا من ناحية العتاد ، مما اضطرني الى ارسال البرقية التالية الى القيادة العامة :

١٦–٤–١٩٤٨ رقم ٢٥١

المعارك الجارية في منطقتنا هي مع النخبة الممتازة والقوة الاساسية في جيش الهاغانا ، منها معارك اختيارية نستطيع تجنبها ومنها ما نرغم على خوضه ، فاذا كان لا يوجد عتاد عندكم ولا يمكن تأمين عتاد فبأي وسيلة تطلبون الدفاع والصمود في القتال ؟ الجامعة قررت الحرب وهي ملزمة بتأمين وسائل الحرب .

الامضاء ـ فوزي

ومع ذلك لم ترسل الينا القيادة العامة عتادا ، ولا أخبارا عن العتاد . ولكن أخبار التحشدات اليهودية ، كانت ترد علينا كل يوم ، وأخذنا كالعادة ، نعد ما يلزم من الترتيبات ، ونجمع ما يمكن جمعه بالتقتير من جبهات مختلفة ونسوقه الى منطقة عارة . وقبل ان تتم ترتيباتنا الترقيعية هذه ، فاجأنا اليهود ليلة ٢٤ ـ ٢٥ نيسان بهجوم مزدوج قامت به قوات كثيفة من مجموعة المستعمرات الواقعة شمالي شرقي الخضيرة ، باتجاه قرية عارة ، وكفرقاع ـ عارة ، يدعمهم عدد كبير من المدافع الرشاشة ومدافع الهاون ، فاكتسحوا كل ما كان لنا من مراكز أمامية غربي طريق اللجون ـ وادي عارة . وتمركز الهجوم على عارة ، حيث كانت سرية من سرايانا لا تزال تدافع باستماتة . فاضطررت الى ان أقذف بحرس مقر القيادة الى عرعرة ، حيث تجمع لدينا سرايا ثلاث ، للصمود في وجه العدو ، وقبول المعركة نهائيا في هذه المنطقة . وفي فجر ٢٥ نيسان اضطرت السرية التي كانت تدافع

عن عارة ، التي التخلي عنها ، والتراجع الى عرعرة ، فتدفقت قوات العدو واستولت على طريق اللجون ـ وادي عارة ، واجتازته نحو الشرق باتجاه عارة نفسها . وحوالي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين ، بدأ الاشتباك الحقيقي في هذه المنطقة ، واشتركت فيه قواتنا كافة . كان هجوم العدو يزداد حدة ساعة بعد ساعة . كان العدو يرمي من هجومه هذا ، الى فصل منطقة اللجون بأسرها ، عن جنين ، وبالتالي النفوذ عن طريق «يعبد» الى «عرابة» ، فيعزل بذلك منطقة جنين كلها شمالا ، عن نابلس ومنطقتها جنوبا . وبذلك يكون قد حقق غرضه الذي فشل في تحقيقه في معارك زرعين . وفي الدقيقة التي كانت المعركة في أوج شدتها ، وطلبات العتاد ترد عليّ بإلحاح من خطوط النار ، كنت أبحث عن طريقة أنهي بها المعركة بأسرع ما يمكن دون مبالاة بما يلزم من الضحايا اذا اقتضى الامر . فانقاذ جنين ومنطقتها ، شيء يستحق التضحية . لذلك لم يبق أمامي الا ان أجازف ، وأزحف بكل ما لديّ من قوات في اللجون الى أم الفحم ، واستنفر أكبر عدد ممكن من المسلحين المحليين في منطقة أم الفحم وأقذف بهم في هجوم مضاد ، الى ساحة المعركة على الجناح الايسر اليهودي المكشوف ، وأسرع بارسال مصفحتين مع فصيل مدفعية كان في المقر الى الميدان . وحوالي الساعة الثانية عشرة كانت هذه القوة ، قد اخذت مراكزها في أم الفحم ، وأخذ شيء من الضعف يبدو على قواتنا في خط النار ، لقرب نفاذ العتاد . ولكنها مع ذلك صامدة بالرغم من كثرة ما كان يقع فيها من اصابات . وفي هذه اللحظة انطلقت قوة أم الفحم في هجومها المضاد نحو قرية «معاوية» ، وما هي الا دقائق حتى اجتازت الطريق نحو الغرب، والتفّت حول عارة ، فأصبحت وراء الجناح اليهودي الايسر تماما ، وأخذت تصب نيران رشاشاتها ومدافعها الهاون ، على هذا الجناح . وفتحت مدفعيتنا الرابضة في جوار أم الفحم أفواهها ، تصب قنابلها على صفوف اليهود بشدة وإحكام ، فتزعزعت القوات اليهودية ، وأخذت بالارتداد نحو الغرب . واندفع جنودنا يطاردون قوات العدو الذي انقلب تراجعه الى هزيمة ، ولم استطع ايقاف جنودنا قبل وصولهم الى ابواب المستعمرة التي بدأ منها هجوم اليهود . وفي فترة المساء، قبيل نزول الظلام امرت الجنود بالعودة الى مراكزهم التي كانوا قد تخلوا عنها ، وبدأت فترة من الراحة يرافقها شيء من التحصن .

كان الشبه بين هذه المعركة وبين معركة زرعين ، كبيرا من حيث قوة الهجوم وأهدافه ونهايته . ولم ينقص المسرح ، الا ظهور الدبابات البريطانية التي كانت بعيدة هذه المرة عن ساحة المعركة .

***

المعارك على جبهة طولكرم

كان لتسلمي قيادة الجبهة الوسطى ، وارسال فوجين اليّ من دمشق ، وبدء

تنظيم قواتنا في تلك الجبهة ، تأثير كبير على خطط اليهود ، المتعلقة بفتح طريق باب الواد ــ القدس . خصوصا بعد ان امرت القيادة العامة ، السيد حسن سلامة، ومن معه من قوات المسلحين المحليين ، بالانضواء تحت قيادة جيش الانقاذ . وحينما بدأنا تنظيم قوات هذه المنطقة التي كان قد استفحل فيها امر الفوضى ، ولكننا تغلبنا عليها ، وجعلنا من المنطقة صفا واحدا تقريبا . فشعر اليهود بالامر ، وأوجسوا خيفة لما قد يشكل هذا من خطر على خططهم في باب الواد والقدس ، حاسبين اننا سحبنا جزءا كبيرا من قواتنا في المثلث العربي ، وأتينا بها الى هذه المنطقة فوجهوا اهتمامهم الى جبهتنا في المثلث وحاولوا القضاء على حاميتنا في زرعين وعارة ، فلما فشلوا كما سبق وبينت ، حاولوا هذه المرة مهاجمة جبهة طولكرم ، ليرغمونا على اعادة ما تصوروا اننا اتينا به من قوة الى تلك الجبهة فيتسنى لهم تنفيذ خططهم في الجنوب ، اي منطقة باب الواد ــ القدس . وجبهة طولكرم هذه ، تمتد شمالا من خربة ميسر حتى جنوب رأس العين ، باتجاه اللد ، كانت بإمرة الرئيس مدلول عباس . وهي بجملتها اراض سهلية تتخللها بيارات ومزارع عربية ويهودية كثيرة . وكانت مسرحا لمناوشات ومعارك مستمرة ، بسبب تداخل المزارع والبيارات العربية واليهودية ، بعضها بالبعض الآخر ، وكثرة ما يقتضيه مثل هذا الوضع ، من اختلاط ومن تشارك دوريات ، مما كان عاملا من عوامل اسالة الدماء بشكل غير منقطع تقريبا ، طوال مدة وجودنا هناك . وهذه الجبهة تقع بإزاء أشد المستعمرات كثافة . وفي ٢٦ نيسان ١٩٤٨ وردت عليّ أخبار تحشدات كبيرة في المستعمرات القائمة غربي قلقيلية ، وفي شمالي غربي قاقون . فأنذرت آمر الجبهة في الحال . وطلبت منه ان يتخذ الترتيبات اللازمة ضد هجوم محتمل على قلقيلية وقاقون . وفي ليلة ٢٦ ــ ٢٧ نيسان حوالي الساعة الثالثة والعشرين انفجر هجوم قوي باتجاه قاقون ، ثبتت الحامية الصغيرة بوجهه مدافعة عن القرية ببسالة نادرة . وطلب آمر الجبهة نجدة للاستمرار في الثبات . ولكنني فضلت ان أتريث قليلا ، ونحن في بداية معركة مجهول تطورها ومصيرها ، بالنظر للوضع الذي كنت فيه ، الذي لا يسمح لي بارسال جندي واحد او طلقة واحدة ، للنجدة ، قبل ان تنكشف المعركة عن الحاجة القصوى اليها . وكنت مصمما من جهة اخرى ، ان أعالج الموقف بما لديّ من قوات ضئيلة ، دون أن أسحب قوة ما ، من الجبهة الوسطى ، التي كنت أخشى عليها خللا يصيبها اذا انا فعلت . وأعددت مفرزة للنجدة من سرية الشراكسة في نابلس ، وسرية عارة ويعبد . وزودتها بأربع مصفحات ومدفعين ، فتكون جاهزة للاشتراك في المعركة عند الضرورة القصوى . وفي خلال هذا ، كان اليهود يتقدمون نحو قاقون ، الى ان تمكنوا من دخولها بعد منتصف ليل ٢٦ ــ ٢٧ نيسان . وراح اليهود يتقدمون من قاقون شرقا نحو الطريق العام بين طولكرم وباقة . وعندئذ ، ارسلت قسما من النجدة التي كنت أعددتها الى الرئيس مدلول ، الذي تمكن بمساعدتها وفريق من المسلحين المحليين ، ان يقوم بهجوم مضاد ، فيسترد قاقون ويهزم اليهود الى خطوطهم الاساسية ويغنم منهم كثيرا من السلاح والتجهيزات. وما ان طلعت شمس

٢٧ نيسان حتى استعدنا كل ما كنا خسرناه ، رغم المصاعب الشديدة التي اعترضت قواتنا في تلك الاراضي المتحولة الى شبه بحيرة من مياه ووحل . وكان القتال على مسافة قريبة لا يزيد مداها عن مدى مرمى القنابل اليدوية ، التي استعملت في المعركة بدلا من الحراب وكانت العامل الحاسم فيها . وما كادت معركة قاقون هذه تنتهي ، حتى بدأ هجوم يهودي أشد باتجاه الطيرة وقلقيلية جنوبا ، ثم تركز تدريجيا على الطيرة. فانكشفت لي أغراض الهجوم وخطورته، فأرسلت فورا البقية من النجدة التي كنت أعددتها لجبهة طولكرم ، ودارت معركة حامية بذل اليهود فيها اكبر مجهود ، للاستيلاء على الطيرة . على ان حامية هذه القرية ثبتت ثباتا عجيبا ، حتى وصل الرئيس مدلول ومعه بقية النجدة . وكانت ترافق هذا الهجوم على الطيرة مصفحات يهودية كثيرة ، عرفنا بينها مصفحات انكليزية ، فوصلت مصفحاتنا في اللحظة المنشودة تماما ، وكان جنودنا بمساندة المدفعية وحماية المصفحات ، يستبسلون في القتال ، الى ان تعطل من مصفحات العدو قسم كبير، واستولى جنودنا على مصفحة يهودية استعملوها في المعركة نفسها لمقاتلة العدو . وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر ، كانت القوات اليهودية على طول الجبهة في حالة هزيمة تامة ، وطاردهم جنودنا حتى مستعمرة كفرهس . وهناك دارت بين الفريقين معركة استولى فيها جنودنا على المستعمرة . ثم أبرق لي الرئيس مدلول ان اليهود قاموا بهجوم جديد على قرية كفرسابا العربية بالقرب من قلقيلية . فطلبت منه ان يتخلى حالا عن كفرهس ، ويتجه بقواته الى كفرسابا حيث انتقل ثقل الهجوم . فترك مفرزة من قواته امام مستعمرة كفرهس لمناوشة اية قوة يهودية ، قد تأتي لنجدة المستعمرة واتجه الى قرية كفرسابا حيث أنهى المعركة فيها بدحر اليهود وتكبيدهم خسائر كثيرة . على ان اغتباطي بهذا الانتصار لم يكن ليخفف من قلقي ، فقد كنت ألمس نفاذ العتاد في كل خط من خطوط القتال ، وأنا اتوقع ان نحمل على خوض معارك قبل ان يصل لنا من العتاد الذي «وعدونا به» كثير او قليل . وكان سخاء اليهود بالعتاد وما يبدو من زيادة التنظيم في صفوفهم يزيدان في قلقي ، على ان انتصارات جيش الانقاذ المتتالية بالرغم من قلة العتاد ، كانت تجعل معنويات جنودنا في ارتفاع مستمر .



تفاقم الخطر على الجبهة كلها
مدفعية جيش الانقاذ تقصف تل أبيب

كان طبيعيا أن تنسحب الكتيبة الاردنية المعسكرة في العفولة ، بعد انسحاب الجيش البريطاني ، وتصبح مطلقة التصرف . وقد اتخذت هذه الكتيبة لها معسكرين ، نابلس ورام الله . ورحت أتصور ان هذه الكتيبة الاردنية ستكون قوة

احتياطية فعالة لجبهتنا في طولكرم ورام الله . ولكن سرعان ما دوت هذه الآمال، بعد اتصالي بقواد الكتيبة ، ومعرفتي منهم ، انهم لا يستطيعون ان يقوموا بأي عمل او حركة على الاطلاق ، قبل دخول الجيوش العربية النظامية ... على ان هذه الكتيبة ، ما كادت تستقر في معسكراتها ، حتى عمد ضباطها الى الاتصال باللجان القومية ووجوه المناطق ، وبدات مآدب وحفلات تقام لهؤلاء الضباط . فتدخلت في الامر ، على اعتبار ان الظروف القائمة ، كانت تفرض الامتناع عن مثل هذه المظاهر، عدا انني كنت اخشى ان تتسبب هذه المظاهرات ، تهديم او تصديع ما كنا بنيناه، من وحدة في الصفوف نسبية .

وتسلمت برقية من القيادة العامة ، تسند الي" قيادة الجبهة الوسطى ، وانها قررت ارسال فوجين من المشاة ، هما في طريقهما الى فلسطين ، ولكن بدون مدفعية ولا مصفحات . وتلت هذه البرقية ، برقية اخرى تقول بضرورة ارسال فوج من هذين الفوجين الى القدس ، نظرا لخطورة الحالة فيها ، وتجنبا لسقوطها بين أيدي اليهود . وكانت الحالة في يافا التي طوقها اليهود وانقطع الاتصال بها ، لا تقل خطورة عنها في القدس . كما كانت الحالة في بيسان وصفد وطبريا وحيفا سيئة جدا . وامام هذا الوضع الخطر العام ، فكرت في ان اباحث القيادة العامة في الامر ، فاستدعتني الى الشام ، وفور وصولي قابلت اللواء اسماعيل صفوة ، وبسطت له الموقف بتفصيل ووضوح . فاجابني متأثرا ، ما العمل وهذه امكانياتنا كلها ... اصبر قليلا ، فستدخل الجيوش العربية النظامية قريبا ، وينقلب الموقف راسا على عقب ... وبينما كنت الح عليه في تدبير ما يمكن من عتاد ، مهما يكن من امر ، اذا ببرقية ترد تقول ان يافا على وشك السقوط ، اذا لم تنجدها القيادة العامة ، فمد الي" يده بالبرقية وقال : انجد يافا يا فوزي ، ان ضياع يافا كارثة. قلت : انجدني بالعتاد ، وسترى انني انقذ يافا . فانجدني وعدا ولم ينجدني عتادا ... وانا الذي كنت اعرف ان حالة يافا ، لا ينفع فيها الوعد ، قررت بيني وبين نفسي ان انجد يافا عمليا ، وليحدث ما يحدث . وكانت الحال في غير يافا ايضا ، في فلسطين كلها ، عدا المنطقة التي يشغلها جيش الانقاذ ، سيئة ، وصرخات الاستغاثة توجه الينا من كل ناحية ، واوامر وتعليمات ترد علينا من الشام القيادة العامة ، ومن مصر ، الجامعة العربية . ومن بيروت ، تحثنا على النجدة . وقد تلقيت بتاريخ ٣٠ نيسان الساعة الحادية عشرة والدقيقة الاربعين، ليلا ، من اللجنة العسكرية التي تمثل جامعة الدول العربية من دمشق الرسالة الآتية اثبتها بنصها :

اخي فوزي بك

تبين من نتيجة المخابرات الهاتفية مع القدس بين قائد الحامية وحلمي باشا ودولتي رياض بك الصلح وجميل مردم بك بأن وضع القدس سيء جدا وتحتاج

الى النجدة وخاصة المدفعية . وقد امرني (يعني رياض الصلح وجميل مردم) بأن اكتب اليكم وابلغكم رجائهما بلزوم نجدتهما ، وقد ارسلنا اليكم اربع برقيات منذ الساعة الرابعة حتى الان ، لذلك ارجو ان تبذلوا جهدكم بارسال هذه النجدة مع تأكدنا بأنكم خير من ينجد في الاوقات الحرجة ، وختاما أرجوكم الموفقية .

المخلص
العقيد محمود الهندي

ومثل هذه الرسالة ، رسائل وبرقيات كثيرة ، كانت ترد علي" من مراجع مسؤولة مختلفة . وهذه نموذج من تلك الرسائل وهي من القائد العام نفسه ، وبخط يده ، يظهر انها نتيجة ضغط الجامعة العربية عليه :

٢ ايار ١٩٤٨

موقف حامية القدس اصبح في منتهى الحراجة . الحامية تكبدت خسائر فادحة ، وهبط موجودها الى عدد ضئيل ، وتخرب قسم كبير من اسلحتها . بعد ايام ستحتشد قوات نظامية وتشرع بحركاتها ، وعليه لا مانع ابدا من استخدام بعض قواتكم في سبيل المحافظة والدفاع عن القدس ويافا ، وبصورة خاصة مدينة القدس . وبوجه اجمالي القيام بما يسمح به موقفكم لتخفيف الضغط عن الحامية والاحتفاظ بمدينة القدس مهما كلفكم الامر ، ولو ادى ذلك الى اخلاء بعض المواقع الثانوية .

الامضاء ــ القائد العام لجيش الانقاذ
« صفوة »

امام هذا الضغط من القيادة العامة ، ومن اللجنة العسكرية التي تمثل جامعة الدول العربية ، هذه المراجع التي اشرفت هي نفسها على اعداد جيش الانقاذ ، والتي تعلم ضآلة عدده ومعداته ، والتي كانت تصم آذانها عن طلبه السلاح والعتاد ، كلما احتاج الى ذلك ، وهو لم تنقطع حاجته الى ذلك ابدا، وهذه المراجع كلها ، وخصوصا القيادة العامة واللجنة العسكرية ، تعلم علم اليقين ان جيش الانقاذ لم يتجاوز عدده يوما ، ثلاثة آلاف مقاتل وان معداته لم تتجاوز عشرة بالماية، كما ينبغي لجيش يشغل جبهة واسعة كجبهته ، بالنسبة لعدده . ومهما يكن من امر ، فقد اضطررت ، الى سحب مفارز من قواتنا المتمركزة في المنطقة وتوزيعها على منطقة القدس واللد والرملة وسلمة والعباسية وبيسان ، مما استنفد كثيرا من قواتنا الاساسية والاحتياطية ايضا ، كما كانت المعارك تستنفد عتادنا او القسم

الاكبر منه . وكنت أعتمد ، في تلبية هذه الصرخات ، قاعدة «الاهم فالمهم» .

وبالرغم من هذا كله ، يجب ان تنجد يافا التي كانت تلفظ انفاسها الاخيرة . فكرت كثيرا وانا عائد من الشام الى فلسطين . وأبرقت الى مقر القيادة في جبع، لتشكيل رتل مرتب من بطارية مدفعية واربع مصفحات ، ومن سريتين ، بقيادة العقيد مهدي صالح ، يقوم بفتح الطريق بين اللد والرملة ، وبين يافا ، لتمكين فوج اجنادين من الدخول بكامله الى يافا . وأصدرت اوامر مشددة الى آمر فوج اجنادين بتسلم قيادة الحامية فيها للسيطرة على الموقف واعادة تنظيم القوات المحلية المقاتلة ، والثبات في الدفاع مهما يكلف الامر ، الى ان تدخل الجيوش العربية النظامية. وفي خلال اربع وعشرين ساعة تألف هذا الرتل، وما ان وصلت الى مقر القيادة الا وكان مستعدا لمغادرة منطقة المثلث ، والزحف امام فوج اجنادين على يافا . وفي فجر ٢٩ نيسان انطلق الرتل نحو المدينة العربية ، فتصدت له في طريقه قوات يهودية استطلاعية ، ولكنها لم تثبت في وجهه ، وانهزمت متفرقة في المستعمرات اليهودية واستمر الرتل في تقدمه بسرعة الى ان وصل الى مستعمرة «مكوى اسرائيل» المتحكمة بطريق يافا، ونشبت بينه وبينها معركة حامية ، قصفت فيها مدفعيتنا ابراج المستعمرة ، فانهزم سكانها ، وتابع الرتل تقدمه ، ملتزما جانبي الطريق العام . متخذا تدابير الحماية اللازمة الى ان دخل الفوج يافا . وهنا انتهت مهمة الرتل ، فاتخذ طريق العودة الى قاعدته ، ولكنه توقف وهو بعد على مسافة اربعة كيلومترات تقريبا عن تل ابيب ، واستدارت بطارية المدفعية — وكان لا يزال لديها ستون قنبلة — نحو تل ابيب فصبتها عليها بسرعة وبراعة، وكانت مفاجأة، المرة الاولى والاخيرة التي فيها ضربت مدفعية عربية مدينة تل ابيب .. ولم يتيسر لجيش من الجيوش العربية النظامية التي دخلت فلسطين فيما بعد ومعها مدفعية ثقيلة وبعيدة المدى ، ان تصل الى مكان تستطيع منه ان تقذف بمدفعيتها الثقيلة والبعيدة المدى تل ابيب . وقد كان لهذا القصف عدا تأثيره المعنوي الكبير ، تأثير مادي تجلى فيما تركته القنابل من خراب ومن حرائق شوهدت نيرانها من القرى المجاورة . وفي الوقت نفسه كانت الاحياء اليهودية في القدس تنصب عليها قذائف مدفعية جيش الانقاذ ، فتحدث فيها كثيرا من الحرائق والتهشيم ، وكان لهذه العملية تأثير كبير في رفع معنويات الفلسطينيين كافة ، وهكذا كان يحدث دائما في الاونة الاخيرة أي قبيل دخول الجيوش العربية النظامية ، فكان كل فلسطيني لا يشعر بالطمأنينة الا اذا وجد في مدينته او قريته قوة من جيش الانقاذ ، مع المدفعية . وكان معنى ذلك اما قوة من جيش الانقاذ معها مدفعية ، في كل مدينة وكل قرية ، واما نزوح ، عن كل مدينة وكل قرية .

★ ★ ★

كانت الاخبار التي ترد علينا ، من عواصم البلدان العربية ، ومن نواحي فلسطين على اختلاف المصادر ، تؤكد وصول نجدات وأسلحة وذخائر الى اليهود، من انحاء اوروبا . وكنت أتوقع دائما نشوب معارك كبيرة ترغم على خوضها في مراكز متعددة من جبهاتنا، خاصة في منطقة القدس ، التي كانت حالة اليهود فيها بدأت تنحط معنويا وماديا الى حد بعيد ، وكنت قد رأيت ان الحاحي الشديد في طلب النجدات والعتاد ، لا يأتي بأية نتيجة . فألححت على القائد العام اسماعيل صفوة ، والمفتش العام العميد الركن طه الهاشمي ، ان يزورا جبهة القتال ليتبينا بنفسيهما حقيقة الواقع ... فأرسلا لهذا الغرض المقدم شوكت شقير عضو اللجنة العسكرية العاملة باسم جامعة الدول العربية ، فبينت له خطورة وقلة عدد الجنود والعتاد بالنسبة لاتساع الجبهة . وحالة الجنود المادية المتصلة بالملابس والاعاشة ، عدا ما أصابهم من الضنك بالنسبة للمعارك المستمرة التي كادت تنهك قواهم ، لانه لم يتح لهم وقت من الراحة خلال عدة اشهر ، لعدم وجود قوات احتياطية . وطلبت اليه ان يزور نواحي الجبهة كلها ، ويدرس الوضع بنفسه . وجاءني المقدم شقير بعد تفتيشه الجبهة مبهوتا ، وبادرني بقوله ، ان جبهتكم كلها في خطر شديد . وليس هناك جيش نظامي يجرؤ على ان يشغل مثل هذه الجبهة اذا كان يريد ان يحافظ عليها فعلا . فقلت له لقد أصبح من واجبك اذن ان تنقل بأمانة ما رأيته الى القيادة العامة والمفتشية العامة فقد يبعث تقريرك فيهما الشعور بالمسؤولية لانقاذ الموقف ، قبل ان تحل بهذا الجيش كارثة تضيعه ، وتسبب ضياع اجزاء من فلسطين لن يستطيع بعدها أي جيش ان يستردها .

كنا في جيش الانقاذ نعتمد بعض ترتيبات خاصة للاستيلاء على مصفحات بريطانية من هنا وهناك ، والجدير بالذكر ان جيش الانقاذ دخل فلسطين وهو لا يملك أية مصفحة حتى ان سيارات النقل التي خصصت لنقلياته كانت قليلة لدرجة ان المفتشية العامة أرفقتها بعدد من البغال لتكون واسطة النقل الاساسية .. وقد تمكنت مفرزة من مفارزنا المعدة لمثل هذا الامر ، من الاستيلاء على مصفحتين بريطانيتين تحرسان سيارة للركاب في احدى الطرقات العامة — وكان ذلك قبل وصول المقدم شقير الى الجبهة بقليل — فاذا بنا نجد في سيارة الركاب هذه أكداسا من الاوراق ، بينها تقارير من الوكالة اليهودية الى وزارة المستعمرات البريطانية ومن قيادة الهاغانا الى الوكالة اليهودية ومراسلات مختلفة بين الصليب الاحمر الدولي ، وهيئات متعددة من اليهود ، فسلمت هذه الاوراق الى المكتب السياسي لجيش الانقاذ . وكان فيه من يقوم بالترجمة من العربية الى الانكليزية والعبرية والفرنسية ومن هذه الى العربية . فاذا به يجد بين هذه الاوراق نسخة من تقرير مقدم من القائد العام اللواء اسماعيل صفوة ، الى اللجنة العسكرية للجامعة العربية مكتوب باللغة الفرنسية ومرسل من مصر الى بن غوريون ، عن

طريق القدس . ويتألف هذا التقرير من اربع عشرة صفحة ، فيها وصف شامل للحالة العسكرية في فلسطين ، ولحالة الجيوش النظامية العربية من مختلف نواحيها . وبكلمة مختصرة يشتمل على كل عورات الدول العربية . فبعد ان اتممت احاديثي عن الجبهة مع المقدم شقير الذي تحقق من صحتها بنفسه ، سألته ، هل قدمتم تقريرا عن الوضع العسكري في فلسطين ، وعن حالة الجيوش العربية النظامية ، الى اللجنة العسكرية ؟ قال . نعم. قلت . هل كان التقرير مؤلفا من اربع عشرة صفحة، وفيه كذا وكذا ... وذكرت له شيئا مما في التقرير ؟ فاجابني مبهوتا . نعم . كيف عرفت بهذا ؟ ولم يعرف به بشر غير اللواء صفوة وانا . قلت. بلى عرف به غيركما ، عرف به اليهود انفسهم وهذه نسخة منه . وضرب بيده على جيبه واخرج منها محفظة تناول منها التقرير وقال ، هذه هي النسخة التي أؤتمنت عليها. ولم يكتب من هذا التقرير سوى نسختين ، احتفظ باحداهما اللواء صفوة . وسلم الاصل بعد تلاوته في الجلسة الى السيد عبد الرحمن عزام باشا امين الجامعة العربية . وفي الحقيقة كانت فضيحة ، ولكنها لم تكن الاولى ولا الاخيرة . وخشيت ان ينسى المقدم شقير المهمة التي من اجلها جاء لفلسطين من شدة ما اعتراه من ذهول . فقلت له : هون عليك ، هذه النسخة لم تصل لليهود حاولوا ان تستدركوا ما فاتكم من قبل ، لنستطيع الاستمرار في القتال الى ان تدخل الجيوش النظامية . ونهض المقدم شقير وودعني ممتطيا سيارته الى دمشق. ومع ذلك لم يأتنا مدد من هناك ....



تعدد الرؤوس والصلاحيات المتناقضة

فصلت فيما سبق كيفية دخول فوج اجنادين الى يافا وهي تلفظ انفاسها الاخيرة . وقد كان لدخوله أثر شديد في ارتفاع معنويات المدينة ولكنه كان آنيا . وكنت اترقب ان يتمكن الفوج من فرض سيطرته على قوات الحامية في يافا ، وان يعيد تنظيمها بشكل يجعل منها قوة تستطيع الصمود في الدفاع الى حين وانا أعلم ان في يافا كميات من السلاح والعتاد ، تساعد على استمرار الدفاع الى مدة قصيرة وهذا لم يتيسر للفوج ان يفعله ، لما كان يسود المدينة من فوضى وتضارب في المسؤوليات والصلاحيات . وقد كانت اللجنة العسكرية في الشام ، عينت المقدم عادل نجم الدين آمرا لحامية يافا المرتبطة بها رأسا . وكان الى جانب جنود هذه الحامية ، سرية يمانية شديدة البأس لعبت دورا هاما في ميادين القتال ، حتى النهاية ، ومفرزة يوغسلافية متخصصة بالهندسة واعمال التدمير . وكانت الحالة في يافا كما يلي :

اولا — سوء ادارة وتصرفات كيفية من المقدم عادل نجم الدين . ثانيا — بلبلة

في الصفوف سببتها اللجنة القومية في يافا التي كانت تأبى تأمين احتياجاتها من شرقي الاردن . ثالثا — فكرة الانقياد الى تعليمات الهيئة العربية العليا . وزاد في الفوضى ، رفض حسن سلامه التعاون مع المقدم عادل ، الا اذا رضي هذا الاخير التقيد بأوامره . وكنت ارفقت آمر فوج اجنادين بعد الاتفاق مع القيادة العامة في دمشق، بأمر يقضي بانسحاب المقدم عادل نجم الدين ، وعودته بمفرده الى دمشق، على ان يتسلم آمر فوج اجنادين قيادة الحامية . وعندما اشتدت الحالة خطورة في يافا، غادرها حسن سلامة الى منطقة اللد والرملة. وانهم لا يطمئنون في حال، الى وجوده فيما بينهم ، فأرسلت آمر فوج حطين الى اللد والرملة للتنظيم والسيطرة على الموقف . وبقيت مفرزتان من جيش الانقاذ في المدينتين لحمايتهما الى ان وصل الجيش العربي الاردني فانسحبتا الى جبهة طولكرم .

ان حالة يافا كما وصفتها، حالت بين آمر فوج اجنادين وبين فرض سيطرته، والقيام بما كان يرجوه من تنظيم ، وبقيت الفوضى مستحكمة ، تزداد كلما ازداد الضغط اليهودي شدة . وقد تلقيت من آمر فوج اجنادين بعد وصوله الى يافا البرقية التالية :

٢ — ٥ — ٤٨ الساعة ١٢ر٤٥

عادل غادر المدينة مع العراقيين واليوغسلافيين بحرا ، المدينة ستكون مقفرة من السكان بعد اليوم . مقدرة المدينة على تموين ما تبقى من الحامية ضعيفة . أنذر البريطانيون اليوم بوجوب ايقاف الرمي من الطرفين حتى نصف الشهر الحالي . في حال عدم الامتثال سيطلق الجيش البريطاني النار .

آمر فوج اجنادين
الامضاء

كانت المدة التي فرضها البريطانيون للهدنة ، وتقيد بها العرب دون اليهود ، تسهل لهؤلاء التغلغل في يافا . مما أدى الى انهيار العرب ونزوحهم .

ومثل حالة العرب هذه في يافا ، كانت حالة اليهود تماما في القدس ، خاصة بعد ان دخلتها قوة جديدة من جيش الانقاذ ، مع مدافع هاون من عيار ٧ر٥ بالاضافة الى فوج القادسية الذي كنت ارسلته اليها من قبل . واخذت القوات اليهودية تستميت في القتال ، لكي تتمكن من دخول القدس وانقاذ اليهود فيها مما كانوا يعانون من الشدة والجوع والعطش . وكاد نشاطهم هذا يؤدي الى سقوط القدس بين ٤ — ٥ ايار . فصممت عندئذ ان اعمل حتى المستحيل لاحول دون تحقيق رغبة اليهود . وقررت ان اقوم بعملية هجوم على القدس من الداخل ،

بواسطة حاميتها ومن الخارج بقوى جيش الانقاذ المتمركزة في نقاط مختلفة من الجبهة ، لتحطيم المحاولات اليهودية ، مهما يكن من كثرة الضحايا التي يمكن ان يتطلبها مثل هذا الهجوم . وأبرقت الى آمر حامية القدس الرئيس فاضل عبدالله، ان يجمع ما يمكن جمعه من قوة يدعمها بكل ما عنده من مدافع هاون ورشاش ويهاجم في صباح ٥ ايار «القطمون» و«الشيخ جراح» بينما نقوم نحن بكل ما نستطيع حشده من قوى ومدفعية بهجوم من الخارج . ورحت طيلة الليل أجمع مدفعية جيش الانقاذ من بعض نواحي الجبهة كالنبي صموئيل وبيت سوريك وغيرهما ، وأحشدها في المواضع اللازمة . وفي صباح ٥ ايار ، بدأ الهجوم وفقا للخطة التي كنت قررتها ، وبشكل لم تكن القدس شهدته بعد . فكانت مفاجأة تركت مفعولا كبيرا جدا تمكنا معه من استرداد الاحياء التي كان فقدها العرب من قبل . وتحطيم المحاولة اليهودية في القدس . وفي صباح السادس من ايار جاءني الكولونيل البريطاني نلسون الى رام‌الله ، ينذرني بلهجة شديدة ان لا أعود الى مثل ذلك قائلا : انه الانذار الاخير ، واصفا قصفنا القدس بمدفعيتنا انه عمل غير انساني ... وانه مخالف لشروط الحرب ... وان الجيش البريطاني مستعد للتدخل بالسلاح اذا نحن عدنا الى قصف القدس مرة اخرى. فأجبته ما دام عدوان اليهود على القدس مستمرا ، فسنستمر نحن على قصف الاماكن اليهودية في القدس لا يمنعنا من ذلك مانع . قال الكولونيل ، انني أقول هذا لمصلحتكم . وان هدنة ربما تعقد بين العرب واليهود . فقلت حينما يقبل العرب بهدنة . ويطبقها اليهود عمليا نراعي نحن هذه الهدنة . على انني أؤكد لك ان هدنة في يافا فرضتموها أنتم لن يقع مثلها هنا . وأنبأت دمشق بالامر . وقد كان اليهود فعلا بين أمرين ، اما ان يقنعوا العرب بقبول هدنة بأية طريقة من الطرق ، ليتنفسوا قليلا في القدس ، وإما ان يحشدوا قواتهم كلها ـ وهذه مغامرة ـ ليقوموا بحملة تنقذهم ، وأخذت مفاوضات بشأن الهدنة تدور في القدس وانتهت هذه المفاوضات باجتماع عقد في اريحا حضره عن العرب ، عبد الرحمن عزام ، والقائد العام اللواء صفوة كما حضره سفير بريطانيا بحثوا فيه نهائيا موضوع الهدنة في القدس . وكان اليهود في حاجة شديدة جدا الى هدنة كهذه فقد كانت القضية بالنسبة اليهم قضية حياة او موت . كانت هذه المفاوضات تدور دون ان يؤخذ فيها رأيي او ان أحاط بها علما ، وكان امين الجامعة واللواء اسماعيل صفوة يتوهمان ان الهدنة في مصلحتنا . وربما كان ذلك لجهلهما كل شيء عن حقيقة موقف اليهود يومذاك في تلك المنطقة . ومرّت مدة ولم نتلق شيئا من المدد ، وكنت قد أصبحت متأكدا من ان ما كان يهول به اليهود علينا ، بواسطة بعض ضباط الاستخبارات البريطانيين ، كان صحيحا . لما لمسته من ازدياد قوة اليهود في العدد والمعدات المختلفة في مجرى المعارك . فعمدت الى ارسال برقية الى القيادة العامة جاء فيها:

٧ ـ ٥ ـ ٤٨ رقم ٢٧ ص.

حذرتكم قبل اليوم وبينت امكانية المفاجآت . أعلمكم بأنني سادافع بما لدي

من قوات قليلة منهوكة ناقصة الاسلحة والعتاد والتدريب والضباط . كما تبين للمقدم شقير نفسه . سأبذل كل ما في وسعي لصد قوات العدو والحيلولة دون تحقيق اهدافه . أخشى ان تتمكن هذه القوات من الوصول الى اهدافها على اجسادنا ...

الامضاء ـ فوزي

ووردت علينا في هذه الاثناء أخبار متتالية عن تحشدات يهودية قوية على طول الجبهة من مختلف المصادر الموثوقة ايدتها استطلاعات قواتنا التي شاهدت نشاط العدو وتنقلاته . فقد أصبح اليهود المحصورون في القدس كما بينت سابقا بين امرين ، اما الاستسلام خوف الموت ، واما حملة عامة مغامرة تقوم بعمليات واسعة قوية لفتح طريق باب الواد ـ القدس . وأخذت التحشدات تظهر على جبهة اللجون ـ عارة ، وجبهة طولكرم ـ الطيرة ، وفي منطقة باب الواد القدس والغرض من هذا كله كان واضحا جدا . ارغامنا على تجميد قواتنا في المثلث ، وعلى سحب بعض قواتنا من الجبهة الوسطى ، ليقوموا من ناحيتهم بهجومهم المقرر لفتح طريق باب الواد ـ القدس ، وبينما نحن في هذه الحال الحرجة ، اطلعت على برقية بشأن انسحاب الجيش الاردني واردة من عمان على آمر اللواء صدقي الجندي في رام‌الله . فأرسلت الى القيادة العامة في الشام البرقية التالية :

٧ ـ ٥ ـ ٤٨ الساعة ٩ ليلا ،

اطلعت على برقية مكتومة «سرية» الى آمر اللواء صدقي الجندي بتاريخ ٣ ـ ٥ ـ ٤٨ رقم ٥٩ ترسم خطة انسحاب للوحدات الاردنية كافة من فلسطين بين ٦ و ١٤ ايار بحيث يكون آخر جندي اردني قد غادر أرض فلسطين عن طريق جسر اللنبي الى الثكنات في شرق الاردن . قد انتهى انسحاب اللواء الشمالي من حيفا . ان انسحاب الجيش العربي الاردني من فلسطين يسبب ذعرا وهجرة عامة نحو الشرق ، اذ ان وجوده ، والامل في دخول غيره بين ١٠ ـ ١٥ الجاري هو الطمأنينة الوحيدة للاهلين . نحن هذه الساعة امام نشاط كبير من تحشدات واسعة كاملة التجهيزات والاسلحة شمالي جنين ، وهناك تحشدات غربي طولكرم قلقيلية . منطقة اللد والرملة ، ومستعمرات ضواحي القدس الغربية . ارجو حضوركم بالذات الى اريحا او عمان غدا للمذاكرة معكم . انتظر الجواب هذه الليلة .

الامضاء ـ فوزي

الى هذا صارت الحالة في فلسطين . وأصبح من البديهي ان نسد الفراغ

الذي تركه الجيش العربي بانسحابه بقسم من جنودنا . في هذه الفمرة شرع اليهود بهجومهم المنتظر .

***

امين جامعة الدول العربية يعقد هدنة

في الساعة الرابعة من صباح ٨ ايار بدأ هجوم يهودي مركز على اللجون ، استمر طيلة النهار ، دافع فيه جنودنا دفاعا باسلا ، وتمكنوا آخر النهار من رد المهاجمين وهزيمتهم . وفي الوقت نفسه قام هجوم آخر على عارة باء بالفشل كهجوم اللجون . وفي الساعة ١٢٫٣٠ من النهار نفسه هوجمت الطيرة ، فصد جنودنا المهاجمين ، وانزلوا فيهم خسائر كثيرة . وفي ليل ٨ – ٩ ايار شن اليهود هجوما عنيفا جدا على سيريس وبيت محيسير في منطقة باب الواد ، وتمكنوا من الاستيلاء على هذه الاخيرة ، بينما صدتهم قواتنا امام سيريس . هذه السلسلة من الهجمات ، كانت مجتمعة ، بداية للهجوم الكبير الذي بذل اليهود وقتا طويلا وجهدا كبيرا ، في اعداده لاكتساح باب الواد والنفاذ الى القدس هدفهم الاكبر . بينما نحن نعاني هذه الشدائد على طول الجبهة بدات المفرزة الشركسية تسلم اسلحتها الى المقر ، طالبة التسريح ، لمعاناتها شظفا لم يعد باستطاعتها ان تتحمله . واخذت هذه الروح تسري الى بقية افراد الوحدات بشكل يهدد بالانهيار ، ولم استطع صد هذا التيار المخيف الا عن طريق اثارة النخوة ومعاني الشرف ، مستمدا ذلك من مجرى المعارك في مختلف انحاء الجبهة .

وكنت أبرقت من قبل برقيات عديدة بشأن الرواتب والتجهيزات والعتاد الى القيادة العامة في الشام . دون كبير جدوى وفي التاسع من ايار أبرقت البرقية التالية :

٩ – ٥ – ٤٨ القيادة العامة .

تأخر الرواتب سبب افلات السيطرة منا على الجنود . نصف المفرزة الشركسية ترك سلاحه . سيعقب هذا انحلال في القوة ان لم تتداركوا الموقف .

الامضاء – فوزي

وفي ١٠ ايار ابرقت الى القيادة العامة برقية اشد لهجة قلت فيها :

القى امس ٧٥ جنديا سلاحهم من جنود المدفعية والمصفحات . هل هذه

ارادتكم ووعودكم . سأضطر الى اخذ اسلحة المتذمرين وارسالهم اليكم . احملكم مسؤولية هذا التذمر من الجنود . قد طفح الكيل .

رغم هذا كله كانت القيادة العامة ومعها المفتشية العامة ، كأنهما يجهلان كل شيء عن الموقف ، مثلما كنت انا اجهل كل شيء عن الهدنة التي كانوا يدبرونها حتى جائني من آمر حامية القدس الرئيس فاضل عبدالله ، صورة برقية مرسلة اليه من القيادة العامة في الشام هذا نصها :

٧ – ٥ – ٤٨ آمر حامية القدس

اتفق الامين العام للجامعة العربية مع السلطات المختصة في القدس على ايقاف النار من الجانبين اعتبارا من الساعة ١٢ من يوم السبت الموافق ٨ مايس ١٩٤٨ في مدينة القدس فيجب تنفيذ ذلك واخبار قائد الجبهة الشمالية .

الامضاء – صفوة

فبهت من هذا التصرف ولم أر في مهلة الهدنة سوى فرصة لايصال قوافل المؤن والذخائر الى يهود القدس تخفيفا لوطأة الجوع والعطش والضغط واستعدادا للهجوم الكبير الذي يعدونه . مع انني كنت قد استدركت الوقوع في مثل هذا الخطأ ، ببرقية ارسلتها الى آمر حامية القدس هذا نصها :

٦ – ٥ – ٤٨ – رقم ٣ ص

اي مشروع للهدنة لا تبتدىء فيه قبل مراجعتنا . الشرط الاساسي مهما كلف الامر هو ان ترجع القوات اليهودية الى مراكزها القديمة . وان يكون حي الشيخ جراح ضمن المناطق العربية عندما ينسحب الانكليز .

الامضاء – فوزي

على انني تسلمت اخيرا برقية من القائد العام يظهر انهم كانوا يعتقدون فيها الفرج وهذا نصها :

٩ – ٥ – ٤٨ – رقم ٧٢ و

قطعات جيش الاردن المرابطة في فلسطين حاليا يتوقع انسحابها كي تخرج

من القيادة البريطانية لتدخل في امرة القيادة الاردنية لتزحف مجددا الى فلسطين . وهي جزء من الجيوش العربية . كل ما كان لدينا من احتياط قليل أرسل الى أديب . ليس لدينا قوة لارسالها اليكم في الوقت الحاضر . نقر خطورة موقفكم . وثقة الجميع بحسن قيادتكم تجعلنا نطمئن لاحتفاظكم بالوضع الراهن لبضعة ايام ريثما تشرع الجيوش العربية بالزحف ولو أدى ذلك لاخلاء بعض مواقع ثانوية . انبئونا رأيكم بشأن حامية القدس والحاقها بكم . فيما اذا تقررت الهدنة بصورة نهائية .

الامضاء ــ صفوة

ترى ما معنى هذا ؟... أهو لا مبالاة بجهل ؟ أم أنه أمر مبيت متعمد الغرض منه الاساءة الى قوات الانقاذ .. هذه القوات التي ثبت ان الجيوش العربية التي زحفت على فلسطين لم يتيسر لها مجتمعة ان تقوم بما قامت به من معارك كللها النصر ، وان تحتفظ بما احتفظت هي به من مناطق ومواقع . ماذا يجب علي أن أفعل ؟ أأغادر الميدان واسهل لليهود الاستيلاء على فلسطين كلها بوثبة او بوثبتين ؟ كلا . انني لن اغادر الميدان مهما يبلغ من شأن المهازل (المبكية) ولن أتيح لليهود أن يحتلوا اي موقع من المواقع التي أحميها بجيش الانقاذ مهما يكن هذا الموقع ثانويا. ولن أترك لهم فرحة فتح باب الواد ــ القدس . او سحب حامية القدس وأكافح حتى تدخل الجيوش العربية النظامية فاسلمها المناطق التي في عهدتي والتي يرقد على حدودها مئات الشهداء من جنودي .



رسالتان من رئيس الجمهورية السورية ومن الحاج امين الحسيني

في هذه الظروف الخطيرة المخيفة كان سماحة المفتي قد خابت آماله . فلا القيادة العامة لحرب فلسطين قد حصل عليها. ولا الحكومة التي (حاولوا) تأسيسها في فلسطين ليكون رئيسها وتكون الثامنة في الحكومات العربية تمكن من تأسيسها ، فاهمل فترة ، ويبدو لي ان بدء دخول الجيوش العربية الى فلسطين ، كان العلامة المنتظرة لبروزه على المسرح . فتؤلف بعد دخول الجيوش العربية فورا حكومة في فلسطين يكون هو رئيسها (على ان يصبح من بعد رئيسا لدولتها) وعلى هذا الاساس ، طلب اليه ان يدخل الى فلسطين ويعد العدة اللازمة قبيل وصول هذه الجيوش لاعلان الحكومة المقررة . فاختار منطقة الجليل مركزا لحكومته هذه، في البداية . ولكنه بعد ان درس الحالة ، تردد في الامر ، لاسيما بعد ان شعر ان

رغبة أهل الجليل في حكومته رغبة فاترة. وفكر في منطقة المثلث العربي ، ومنطقة القدس حيث كنت اقاتل بجيش الانقاذ . هذه المنطقة التي لم يكن فيها ، ما يمنع من اقامة الحكومة سوى وجودي انا بالذات . ولكن التغلب على هذا الامر ليس عسيرا . وفي ٦ ايار ١٩٤٨ جاءتني رسالة من السيد محسن البرازي ، رئيس ديوان رئاسة الجمهورية السورية ، وضمنها رسالتان ، الواحدة من فخامة الرئيس والثانية من سماحة الحاج امين . كانت الرسالة الاولى مملوءة بكلمات العطف والرقة ، وتطلب مني التعاون مع سماحته لان المصلحة الوطنية ، تقضي بذلك. اما رسالة سماحة المفتي فكانت عبارة عن ثناء كبير علي ، واطراء لاعمالي واعلان ثقته القوية بي . ثم تقول .. ان التعاون الوثيق بيننا أمر ضروري ، كما ان نسيان الماضي أمر ضروري جدا .

قرأت الرسالتين وتعجبت كثيرا ، فأنا ما امتنعت يوما ، ولا أمتنع ، عن التعاون مع أي كان من أبناء وطني من اجل المصلحة العربية العامة . ولكن تجاربي واختباراتي في الماضي ، تؤكد لي أن التعاون أمر مستحيل ، ومع ذلك كله ، أجبت على الرسائل أنني مستعد للتعاون معه ، وأنا مصمم على ان لا أحيد قيد شعرة عن الخطة التي ترمي الى الحيلولة دون كل ما يمس الامن وسلامة الجيش والمجاهدين الفلسطينيين . وما كاد جوابي يصل الى فخامة الرئيس القوتلي ، حتى تسلمت من المقدم صبحي العمري رسالة يقول فيها ، انه أصبح رئيس ركن مقر سماحة المفتي الذي سيزحف قريبا الى منطقتنا ، ويطلب مني ان أرسل اليه ثلاث سيارات للركوب وسيارتين (بيك آب) و ١٣ سيارة شحن ، يستخدمونها في نقل المقر الى منطقتنا . فأجبته مهنئا اياه بمنصبه الجديد ، ومرحبا ، بقدومهم ، مبينا له أنني ليس في وسعي ان ألبي طلبهم ، وان السبيل الوحيد ، هو ان يراجعوا القيادة العامة في دمشق فتؤمن لهم ما يشاؤون . الا ان المقدم صبحي العمري لم يجب ، كذلك لم يدخل المفتي مع اركان حربه فلسطين .

وكنا في غمرة من القتال يومئذ لم يسبق لها مثيل . فاليهود على طول جبهتنا يقومون بنشاط غريب ويستعدون استعدادا كنا نشعر به بخطورته ، لمواجهة الجيوش العربية المترقب دخولها في القريب . كما يعملون في مختلف الانحاء للتخلص من جيوب عربية متداخلة في مناطقهم ، كانت ميدانا لجيش الانقاذ ، مع انها ضمن المناطق اليهودية في «التقسيم» . ومعركة باب الواد الكبرى قد بدأت.



الكولونيل نلسن لا يفي بعهوده

كانت مستعمرتا قلندية ونيفي يعقوب، الواقعتان على طريق رام‌الله ــ القدس،

تحولان بيننا وبين الاتصال بهذه المدينة . وكانت نيفي يعقوب التي تبعد عن رامالله حوالي عشرة كيلومترات ، قائمة على رابية صغيرة مشرفة على الطريق العام ، الذي يصل القدس برامالله ثم بالمثلث كله ، فكان اليهود يطلقون النار من حصون المستعمرة وابراجها المتحكمة بالطريق العام على كل سيارة تمر ، فيوقعون اصابات كثيرة في النفوس ، وأصبحت المواصلات بين المثلث والقدس لا يمكن ان تتم الا بواسطة طريق القدس – اريحا ومنها الى نابلس . وقد جاءني يوما السيد احمد حلمي باشا من القدس بهذا الشأن وتمنى لو ان في الامكان التخلص من هذه المستعمرة . فقررت التخلص منها ، واخذت أحشد من القوة ما أراه ضروريا لذلك فشعر اليهود بالامر ، وقبل ان نبدي اية حركة ضدها ، جاءني الكولونيل نلسن آمر القوات البريطانية المسؤول عن المواصلات في هذه المنطقة ينذرني ان اي هجوم على المستعمرة ، يؤدي الى تدخل القوات البريطانية للدفاع عنها ، وانه ارسل أربع مدرعات ترابط على الطريق العام امام ابوابها لهذا الفرض ، فقلت للكولونيل ، انني مضطر الى الاتصال بحامية القدس التي أصبحت مربوطة بي ، فاذا كنت تريد ان تأخذ على عاتقك الدفاع عن المستعمرة ، فمن الانصاف ان تأخذ على عاتقك ايضا الدفاع عن الطريق العام ، فوعدني بذلك وطلب مني ان لا أقوم بحشد اية قوة في المنطقة الغربية من باب الواد، متعهدا ، ان يحمل اليهود على ان لا يقوموا بأية حركة في تلك المنطقة الى ما بعد ١٥ ايار ١٩٤٨ ، وكانت لدى الكولونيل نلسن قوات كبيرة في اللطرون ، القائمة على ملتقى طرق عديدة تأتي من الغرب فتتصل بطريق باب الواد القدس ، واتفقت معه على هذا الاساس مطمئنا الى وعده . واجلت عملية الهجوم على نيفي يعقوب ، باعتبار ان المواصلات تكون مضمونة ، واستخدم القوة المعدة لمهاجمة نيفي يعقوب في غير مكان من الجبهة ، على ان اخبارا بدات ترد علي منذ ٧ ايار ١٩٤٨ تؤكد بدء تحشيدات يهودية قوية ، في المستعمرات الواقعة جنوب باب الواد – القدس خاصة في عرطوف ورخبوت ، فتحققت ان الحركات التي كنت اتوقعها للهجوم اليهودي الكبير ، على طريق باب الواد – القدس ، دخلت في الطور العملي . وحينما اعلمني قائد الجبهة الوسطى المقدم مهدي صالح ليل ٩ – ١٠ ايار ١٩٤٨ بقيام اليهود بحركة هجوم على باب الواد ابرقت اليه البرقية التالية :

١٠ – ٥ – ٤٨ – رقم ١٠ ص

اتصل بالكولونيل نلسن واطلب رايه في موقف اليهود من باب الواد ، لقد وعدني انه يحول دون اي هجوم يهودي حتى ١٥ ايار . استعمل ما عندك من قوات لتسيطر على الموقف سأحضر مع طلبك حالا .

الامضاء – فوزي

ولم يستطع المقدم مهدي الاتصال بالكولونيل لانه كان متغيبا طبعا ... وبدات المعركة وسجلنا تحيزا جديدا لاصدقائنا البريطانيين...وفي الليلة نفسها ، وردت علي برقية من قائد جبهة اللجون – عارة تنبىء بهجوم يهودي على جبهته . وبرقية اخرى من قائد جبهة طولكرم تنبىء بهجوم على هذه الجبهة وتطلب النجدة والعتاد . ولم يكن لدي اي جندي او اي صندوق عتاد للنجدة ، فجيش الانقاذ مشتبك الان في القتال . وقد ابرقت الى قواد الجبهات برقية واحدة اقول لكل منهم اني انما اعتمد على حسن قيادتكم وبسالة جنودكم . النجدات في الطريق .

وفي صباح ١٠ ايار كانت القوات اليهودية اكتسحت بيت محيسير والتلال المسيطرة على باب الواد ، ووصل رتل من القوات اليهودية المتقدمة من الغرب الى مدخل باب الواد ، من الجبهة الغربية . ورتل آخر آت من القدس الى مدخل باب الواد من الشرق . ولولا هدنة القدس التي تموّن خلالها اليهود ، واستعدوا ، لما استطاع هذا الرتل التحرك لقتالنا .

كانت القوات اليهودية وفيرة العدد كثيرة العدد ، من مدفعية ميدان التي تظهر لاول مرة في المعركة ، الى مدافع الهاون ، فمدافع ضد الدبابات ، الى كثير من المصفحات ، وكان يرافق الرتل القادم من الغرب مفرزة هندسية مزودة بجارفات ضخمة خاصة لازالة الصخور المتراكمة على الطريق وشقها بأسرع ما يمكن . وامام الضغط الشديد لهذه القوات كانت جنودنا تتخلى عن التلال الواحدة بعد الاخرى ، واستمرت المعركة طيلة النهار ومصير جيش الانقاذ بين يدي القدر ، حتى اذا نزل الليل ، بدا الموقف مائلة كفته ، الى جانب اليهود ، بشكل خطر ، واوشك العدو ان يفتح الطريق . وبينما كنت في مقر قيادة الجبهة ، رأيت جنود السرية اليمانية التي وصلت مؤخرا من يافا متفرقة ، وليس لديها سلاح ، وخطر لي – وانا اعلم مقدار شجاعة هؤلاء اليمنيين – ان اقذف بهذه السرية الى ساحة المعركة . بعد ان اختبرت في نفوسهم رغبة في القتال ، في المعركة بيننا وبين اليهود التي تدور اليوم وهي معركة خطرة جدا ، وطلبت من المقدم مهدي ان يأمر من يهيء لهم الطعام في الحال ، ثم يوزع عليهم ما عنده من سلاح لجنود مسرحين وقتلى وجرحى ، واستقدمت من نابلس من بقي من الجنود الشراكسة وتلفنت الى مدير الادارة في مقر قيادة جيش الانقاذ ، ان يجرد حرس المقر مما لديهم من عتاد ، على ان يبقى لكل واحد منهم عشرين طلقة . وطلبت آمر المصفحات المرحوم الملازم فائز حديفه ان يأتي بما لديه من مصفحات في المقر . ومن آمر المدفعية الملازم عفيف البزري ، ان يجمع من مدفعيتنا الموزعة اربعة مدافع على الاقل (اي نصف مدفعية جيش الانقاذ) على ان تكون كلها في رامالله قبل منتصف ليل ١٠ – ١١ ايار وسحبت من الفوج العلوي المرابط في النبي صموئيل وبيت سوريك ، فصيلتين من احتياطي الفوج . ورتبت من مجموع هذه القوة رتلا اعتمد عليه ، يحتشد في بيت نوبا ويالو الساعة الثالثة من صباح ١١ ايار ، ويقوم الساعة الرابعة بهجوم مضاد على القوات

اليهودية التي احتلت التلال المشرفة على طريق باب الواد – القدس ، ويمنع اليهود من فتح الطريق ، مهما يكن الامر ، من غير مبالاة بما يتطلب هذا العمل من ضحايا. وثارت في نفوس الضباط حماسة ملتهبة ، قرات صورتها في وجوههم . وقال المرحوم الملازم حديفه كلمة واحدة ، سننتصر . وكان موقفنا هذه الليلة ، يشبه موقفنا في مشمار الليلة التي جاءنا في غدها النصر .

تمت ترتيباتنا وفقا للخطة التي رسمتها تماما ، وبدا هجومنا المضاد في الساعة المحددة له ، واندفع جنودنا بحماسة تكاد تكون جنونية ، والمدفعية تقصف اهدافها مساندة الهجوم قصفا عنيفا ببراعة فائقة ، بشكل لا أتذكر انني شهدت مثله في الحروب النظامية التي اشتركت فيها من قبل ، وانطلق آمر المصفحات بمصفحاته غير مكترث بوعورة الارض وكثافة النيران ، يهاجم المصفحات اليهودية، ويدمر كل ما يصادفه في طريقه من قوات للعدو وارغمها على الهزيمة . ولم تستطع القوات اليهودية الصمود في وجه جنودنا ، واستمرت المعركة بهذه الحدة حتى الساعة العاشرة، وتصدع الخط اليهودي كله وتخلت القوات اليهودية عن مراكزها، وبدات في صفوفهم هزيمة جماعية تامة . وفي الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ وصلتني من المقدم مهدي هذه البرقية :

استولت قواتنا على جميع المرتفعات والاحراش . قتلى اليهود لا تحصى ، غنائمنا الى الآن ٣٥٠ بندقية ، طاردنا اليهود المنهزمين ، تخطينا طريق باب الواد – القدس باتجاه بيت محيسير ، لاحتلالها .

وبعد ساعة وردت برقية اخرى تقول ، فصلنا ما يقارب الالف يهودي في بيت محيسير عن بقية القوات اليهودية، لم يخلص منهم الا من فر، باتجاه مستعمرة عرطوف ، طهرت قواتنا بيت محيسير وخربة حرسيس . تستمر المعركة في الاحراش بعنف شديد . عدد الغنائم والقتلى اليهود يزداد من لحظة الى لحظة ، تشترك قوة من المسلحين المحليين مع قواتنا . نطارد اليهود نحو (المستعمرات الخمس) .

وفي الساعة الخامسة عشرة لم يبق لليهود في المنطقة كلها اي أثر . وكانت غنائمنا من الاسلحة كثيرة ، بينها اربع مصفحات صالحة للاستعمال ، عدا ما تحطم من المصفحات اليهودية التي بلغ عددها ١٣ مصفحة . وان نتيجة هذه المعركة كانت تختلف عن غيرها من المعارك السابقة ، بوفرة الغنائم وتنوعها ، وظهور اسلحة جديدة لم نعثر على مثلها قبل ذلك ، كمدافع مضادة للطائرات وللمصفحات ، وصنوف من التجهيزات المتنوعة .

واما نتائج هذه المعركة من الناحية الادبية فكانت – اولا – القضاء على آمالهم

في الاستيلاء على القدس نهائيا قبل دخول الجيوش العربية . ثانيا – خيبتهم المريرة بالاتصال بالقدس ، وامداد اليهود فيها البالغ عددهم اكثر من مئة الف وترك مصيرهم معلقا برحمة القدر .... ثالثا – تاكدت القيادة اليهودية كما ازداد يقيننا نحن بأن كل معركة تنشب بيننا وبينهم في العراء وخارج المستعمرات تنتهي بهزيمتهم . مهما بلغ تفوقهم في العدد والمعدات . وفي هذا اليوم نفسه تصل لي من قائد جبهة طولكرم الرئيس مدلول عباس البرقية التالية :

انتهت المعركة بانتصارنا في الساعة ٢٣ و ٤٥ . قتلى اليهود ٧٥ في ساحة المعركة غنائمنا كثيرة .

وكذلك تلقيت برقيات مشابهة من جبهة عاره واللجون .



بن غوريون ومعركة اللطرون وباب الواد

كان لانتصارنا في باب الواد ، صدى قوي جدا في البلدان العربية ، وأثر معنوي كبير . وكانت الحال على عكس ذلك تماما – طبعا – في الاوساط اليهودية، مما أدى الى قيام مظاهرات صاخبة في القدس وتل ابيب ، تطالب السلطات اليهودية بانهاء الحرب او فتح طريق باب الواد القدس .

وكان طبيعيا ان تحدث معركة باب الواد هذا التأثير في نفوس اليهود، فالقوات اليهودية التي قضت مدة طويلة تستعد لشن هذه المعركة ولتحطيم قواتنا ، في تلك المنطقة ، وانقاذ يهود القدس ، هالها ان تكون نتيجة المعركة هزيمة لها تامة . فقد كان اليهود يعتبرون هذه المعركة حدا فاصلا . وهناك تصريح لـ (بن غوريون) في صحيفة يهودية حكومية نقلته جريدة «الحياة» البيروتية في نشرتها في ١٤ كانون ١٩٥٠ ، «يجب ان نذكر معركة اللطرون ، اي باب الواد التاريخية التي سبقت دخول الجيوش العربية الى فلسطين ، والتي تعتبر بمثابة نقطة تحول خطيرة في حياة القدس اليهودية وبقائها» وتضيف الصحيفة الحكومية اليهودية ، «ان نصف الفرق اليهودية المرابطة في جميع جبهات فلسطين ، اشتركت في تلك المعركة التاريخية بالاضافة الى الف وخمسماية بندقية (جندي) جمعت بعناء شديد » . كانت هذه هي المرة الثانية التي ننقذ فيها القدس من السقوط من ايدي اليهود . وقد قضينا يومئذ على احلامهم . وفي اليوم الثاني لانتصارنا في هذه المعركة تلقيت برقيات تهنئة عديدة ، منها برقية الملك عبدالله ، وبرقية وزارة الدفاع في الشام. اما القيادة العامة في الشام ، فقد حافظت على قاعدة «الصمت زين ...» .

كانت الصدمة لليهود في معارك باب الواد قوية ، الى حد انها حطمت غرور القيادة اليهودية . فأخذت تفكر كما بدا لي فيما بعد ، في محاولة جديدة ، ان لم يكن لفتح الطريق ، فلمعركة ثانية تثأر فيها للهزيمة . فقد شاهدت قواتنا الاستطلاعية ليلة ١٢ ــ ١٣ ايار في غربي اللطرون ، وفي منطقة خلده ، تجمعات يهودية كان من بينها بقية القوات المنهزمة في معركة باب الواد . فوضعت في مراكز رئيسية من باب الواد سرية من المتطوعين الاردنيين ، ومعها قوة من المسلحين المحليين . وجمعت قواتنا المنتصرة في معركة باب الواد في المراكز الاتية ــ بيت نوبا ــ يالو ــ دير ايوب . على ان تكون مستعدة دائما لمجابهة اية مفاجأة في اية لحظة . وفي صباح ١٣ ايار قام اليهود بهجوم جديد مركز ، على اللطرون ــ المركز المهم في تلك المنطقة ــ بينما كان يقوم هجوم يهودي آخر على الطيرة ــ قلقيلية ــ كفر سابا . وبعد جولة عنيفة . سريعة ، تمكنوا من الاستيلاء على اللطرون ، ولكن قبل ان يثبتوا اقدامهم فيها ، قذفت بقواتنا جميعها على اللطرون ، وبدأت المعركة بحماسة وضراوة، لا تختلفان عنهما في معركة باب الواد. ولم ينتصف النهار حتى انهزمت القوات اليهودية ، وتمركزت قواتنا في قرية اللطرون . وقد ترك اليهود في ساحة القتال عدا القتلى ، عددا كبيرا من المصفحات المحطمة ، والمدافع ، وكثيرا من الاسلحة المتنوعة ، وغنمت قواتنا في باب الواد ، اربع مصفحات صالحة للاستعمال ، واعتقد انه كان لذعر اليهود من انكسار قواتهم في باب الواد ، قبل يومين ، أثر في هزيمتهم في هذه المعركة .

ان معركة باب الواد ــ اللطرون هي أكبر معركة خاضها جيش الانقاذ في فلسطين الوسطى في العراء وخارج المستعمرات كما كانت معركة مشمار ها ايمك اكبر معركة خاضها جيش الانقاذ ضد أمنع المستعمرات . وقد سقط القائدان اليهوديان لهاتين المعركتين قتلى في الميدان مع اكبر عدد من الجنود . وقررت القيادة اليهودية العليا اقامة نصبين تذكاريين في هذين الميدانين ولعل في اقتصارها تشييد هذين النصبين معنى عظيما لوطأة جيش الانقاذ الثقيلة التي خلفها في نفوس اليهود .

***

الخطة الرئيسية للجيوش العربية
تلاعب الرؤساء قبل البدء بالمعركة

ايقنت بعد معارك باب الواد واللطرون انه لن تجري معارك بيننا وبين اليهود في الفترة الباقية بين يومنا وبين ١٥ ايار . لذلك قررت ان البي دعوة الملك عبدالله ، واغتنم الفرصة لزيارة مقر القيادة العامة للجيوش العربية النظامية في الزرقاء ،

لابحث مهمتي الجديدة ، التي من المفروض ان تبدأ ، بعد دخول هذه الجيوش الى فلسطين . وعدت الى رام‌الله وانا مصمم على متابعة سيري الى عمان . وقبيل وصولي الى رام الله ، لاحت مستعمرة (نيفي يعقوب) فتجلى لي موقعها من المواصلات العربية واعتداءاتهم المستمرة على العرب ، فقررت ان أعمل فيها عملا، يكون خاتمة اعمال جيش الانقاذ ، فأقدمها مع مستعمرة قلندية المجاورة لها هدية الى الجيوش العربية . وأخذت وأنا في طريقي الى عمان أفكر في تدبير الخطة المثلى لتنفيذ فكرتي ، فتذكرت قضية العتاد ، فأرسلت الى القيادة العامة في الشام البرقية التالية :

١٣ ــ ٥ ــ ١٩٤٨ ــ رقم ١٠٠ ص

صرفت مدفعيتنا خلال معارك باب الواد واللطرون ١١٠٠ طلقة عيار ٧٥ . ولم يبق لدينا الا القليل . اما عيار ١٠٥ فقد اعلمتكم انها نفذت أرجو ارسال الفي طلقة منها . وخمسماية طلقة عيار ٤٠ للمصفحات وعتاد فرنسي .

الامضاء ــ فوزي

فكان نصيب البرقية ، كنصيب ما سبقها من برقيات ، فلا عتاد ولا جواب .

وصلت الى عمان ، فاذا في القصر الملكي ، الوصي على عرش العراق الامير عبدالاله ، ووزير الدفاع السيد ارشد العمري ، ورئيس الحكومة المصرية محمود النقراشي ، ورئيس الحكومة اللبنانية رياض الصلح ، وامين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام ، واللواء نور الدين محمود ، القائد العام للجيوش العربية النظامية ، واللواء صالح صائب رئيس أركان الجيش العراقي ، والقائد المصري سعد الدين صبور ، واذا هم قد انتهوا بصورة حاسمة ، من وضع الخطة لدخول الجيوش العربية الى فلسطين . فرحب بي الملك عبدالله ، وأسمعني كثيرا من عبارات التقدير، التي اشترك معه فيها جميع الحاضرين . ثم عرفت ان الذي تقرر في هذا الاجتماع ..

خطة الدخول الى فلسطين كما يلي :

يدخل الجيشان السوري واللبناني من شمالي فلسطين وهدفهما الاول حيفا.

ويدخل الجيشان العراقي والاردني من الشرق وهدفهما العفولة ــ حيفا .

ويدخل الجيشان المصري والسعودي من الجنوب وهدفهما يبنى ــ رحبوت.

اما الهدف الثاني للجيوش جميعها فهو تل ابيب . ومعلوم ان الملك عبد الله هو القائد العام الاسمي طبقا لما اتفقوا عليه . بينما أسندت القيادة العملية للواء نور الدين محمود كما ذكرت . وبدأت الجيوش تحتشد وتساق على اساس هذه الخطة ، ولكن بعدد أقل مما كانت قررته الحكومات العربية ، استنادا لرأي رؤساء أركان الجيوش . فقد كان المقرر ان يكون مجموع الجيوش العربية ، يتراوح بين خمس وسبع فرق . وكان الهدف الذي يصر عليه الملك عبدالله ، هو على ــ حد تعبيره ــ سحق رأس الحية ، ويعني تل ابيب . وكان لاصراره هذا علاقة بآراء الجنرال (كلوب) التي يظهر انها تبدلت ، قبيل ان تنفذ الخطة المرسومة ، اذ ان الجيش السوري بعد ان تحشد في الاراضي اللبنانية، على حدود فلسطين،سحب الى منطقة سمخ ، وراح الجيش العراقي يتحشد امام جسر المجامع .

أخذت هذه الجيوش مراكزها ، وهي تجهل كل الجهل ، كما تبين فيما بعد ، حالة اليهود ، ومقدار قواتهم ومدى تسلحهم ومناعة تحصيناتهم . وعلى العكس من ذلك تماما ، كان اليهود يعرفون عن هذه الجيوش كل شيء تقريبا . وكان امام الخط الذي تجمعت فيه الجيوش العراقية والسورية ، مستعمرات يهودية ، انشئت في منطقة التحصينات التي كان الجيش البريطاني اقامها في خلال الحرب العالمية الثانية ، لصد زحف الجيوش الالمانية ، فيما اذا تمكنت من اختراق تركيا وانحدرت الى الجنوب ، وهي تحصينات تعرف باسم خط ايدن . وكان تبديل الخطة بهذا الشكل ، كأنما هو يرمي الى تحطيم الجيشين السوري والعراقي ، والمعركة لم تكد تبدأ ، والى ضعضعة المعنويات العربية من وراء ذلك ، وهذا ما حدث ويا للاسف فيما بعد .

بعد ان فض الاجتماع الذي ذكرته ، في القصر الملكي في عمان ، طلبت مواجهة اللواء نور الدين محمود القائد العام ، لاستعلم منه عن مهمتي بعد ١٥ ايار . واجتمعت به في مقر قيادته العامة في الزرقاء . فأجابني انه ليس عنده اي شيء يتعلق بجيش الانقاذ . وان هذا الجيش مرتبط بالجامعة العربية ، فيحسن بي ان اسأل امين الجامعة . فاندهشت وقلت له .. انت القائد العام وأنت الذي يعين لكل جيش من هذه الجيوش العربية الواجب الذي يقوم به . قال : اذا كنت تريد البقاء بجيش الانقاذ حيث هو ، فلا بأس . ولكن مهمتكم تنتهي بعد دخول الجيوش النظامية . وقلت في نفسي لعله وهو القائد العام ، يعرف ان ما لديه من قوات يجعله في غير حاجة الى جيش الانقاذ . خصوصا وقد فهمت منه خلال حديثنا ان معرفته بهذا الجيش لا تختلف عن معرفته بالقوات اليهودية . اي انه يجهل كل شيء ...وحين وصولي الى عمان ، وجدت بطاقة دعوة باسمي من امين الجامعة السيد عزام ، لتناول طعام الغداء في المفوضية المصرية ، واجتمعت على الغداء بفريق من القواد المصريين وضباط الطيران . وبعد التعارف طلب الي السيد عزام ان احدثهم بما عندي من معلومات عن الحالة في فلسطين . فأطلعتهم على أهم ما

لدي وبسطت لهم امورا اختبرتها بنفسي . فكانوا يسجلون اقوالي ويشكرونني والتفت الى السيد عزام وصارحته بما بدأت أشعر به من تشاؤم ، بعد ان اطلعته على ما دار بيني وبين القائد العام من احاديث وقلت له ..

ان القائد العام احالني عليه ليحدد لي واجب جيش الانقاذ بعد ١٥ ايار . وكان طبيعيا ان لا يكون عند السيد عزام أية فكرة بهذا الشأن كما قال لي، واضاف الى ذلك انه سيراجع القيادة العامة وينبئني بالذي تحدده من واجبات . ثم أخذ يسألني عن رأيي في الخطة العامة ، وخاصة ما يتعلق منها بالجيش المصري واهدافه . فصارحته بعدم اطمئناني الى هذه الخطة ، وخاصة ما يتناول منها الجيش المصري ، بعد التبديل الذي عرفت انه ادخل على اساس الخطة ، وبما في نفسي من هواجس ، وانني أخشى ان يكون للبريطانيين أصبع في هذا التبديل الغرض منه الوصول الى حل مشاكلهم مع مصر عن طريق ايقاع كارثة في هذه الجيوش . قال وكيف تتصور ان ذلك يمكن ان يتم ؟ قلت : ان مواضع الجيش الاردني تقع مباشرة الى الجناح الايمن للجيش المصري ، والجيش الاردني يخضع لاوامر الجنرال كلوب الذي له عليه من السلطة اكثر مما للملك عبدالله نفسه .

ولا استبعد ان يتقيد الجنرال كلوب بما توحيه اليه مراجع بريطانية اكثر منه بما يوحيه اليه الملك عبدالله . فاذا شاءت بريطانيا مثلا ان تنال مأربا من مآربها ، تستطيع ان توعز الى الجنرال كلوب فيتدبر الامر بما يحقق ذلك المأرب كما لو أتى عفوا . كأن يأتي بحركة ما في حال نشوب معركة بين القوات اليهودية وبين الجيشين المصري والاردني ، فيترك ثغرة تستطيع القوات اليهودية التسرب منها، لضرب الجيش المصري ، من حيث لا يحسب لذلك حسابا . حتى وفي غير حالة نشوب معركة ، تستطيع بريطانيا ، اذا هي كانت مصممة على ايقاع الكارثة ان توقعها ، كأن يتخلى الجنرال كلوب بحجة ما ، عن مراكز عسكرية ذات قيمة خطيرة ، فينفسح المجال لليهود لانزال ضربتهم . وسألني القائد المصري صبري بك كيف يمكن ان يقع ذلك بالتعيين ؟ فقلت : لو خطر للجنرال كلوب ان يتخلى عن اللد والرملة ، مثلا ، بحجة من الحجج فيحتلها اليهود فينكشف لهم بالنسبة للوضع القائم ، الجناح الايمن للجيش المصري ، ويسهل عليهم ايقاع الكارثة . واني لمتشائم جدا من التبديل الذي طرأ على الخطة العامة المرسومة قبل البدء بتنفيذها ، لانني أخشى ان لا يكون في قيادة جيوشنا من الصلابة ما يمكنها من المضي في تنفيذ الخطط مهما يكن من رفعة مقام الشخصية السياسية التي تحاول التدخل في الامور العسكرية . ويزيد في تشاؤمي انني المس نقصا في الخبرة ، وضعفا في الشخصية عند البعض ، مما يعرض القيادة للتأثر بالاهواء والاراء السياسية ، اكثر منها بالخطط العسكرية المقررة. ونحن الان لا نزال في بداية البداية ، فينبغي ان نتجنب وقوع كوارث ، ان هي وقعت في الجيوش العربية تفضي بها الى

الخروج من فلسطين محطمة القوى والكرامة . وينفسح المجال امام اليهود، للتغني بمعجزة من هذا الطراز ..

وسألني عزام ما العمل ؟ فقلت له .. العمل ان تضعوا جيش الانقاذ الى يمين الجيش المصري، ليكون بينه وبين الجيش الاردني. فاغتبط بهذه الفكرة ، وتحمس لها وقال انه سيعمل كل ما يستطيع لتحقيقها . ثم انصرفت عائدا الى الجبهة ، وفي نفسي انقباض شديد . فلما وصلت الى اريحا استوقفني امام فندقها الكبير، جماعة فترجلت ، واذا بالجماعة مؤلفة من منير ابو فاضل ، واميل الغوري ، وفايز الادريس وغيرهم ، واخذوا يشكون ما يلاقونه من مستعمرة نيفي يعقوب ومن اعتداءات ومن قطع للطريق . فقلت لهم عسى ان تمروا غدا من رام‌الله الى القدس ، او من هذه الى رام‌الله ، ولا تروا في الطريق نيفي يعقوب .

وصلت الى جبع وأبرقت الى المقدم مهدي ، قائد الجبهة الوسطى في رام الله ان يهيء رتلا قويا لاحتلال مستعمرتي نيفي يعقوب وقلندية . وانني آت اليه ، في ذلك المساء .

وفي رام‌الله ، رسمت خطة مهاجمة المستعمرتين وتم تنظيم الرتل وفي صباح ١٥ ايار بدأ هجومنا على نيفي يعقوب وقلندية، وكانت مدفعيتنا تطلق البقية الباقية من عتادها على ابراج نيفي يعقوب وحصونها ، التي لم تقاوم طويلا ، ومصفحاتنا تصلي بنيرانها مداخل المستعمرة وأوكار الرشاشات فيها ، فلم يتوقف المشاة تحت حماية هذه النيران الى ان احتلوا المستعمرة ، ولم يستعملوا من اسلحتهم بعد دخولهم المستعمرة الا القنابل اليدوية ، لقذف المنازل التي اختبأ فيها فريق من أهلها . وتحطمت الابراج والحصون وتهدم قسم من الدور وقتل من اليهود عدد كبير ، وانهزم الباقي . وقبيل الظهر ، انتهت حياة نيفي يعقوب وقلندية . وأخذ العرب يمرون بسلام من القدس الى رام‌الله وبالعكس .

***

العودة بعد الانسحاب وانقاذ القدس

في الساعة العاشرة من صباح ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ زحفت الجيوش العربية من مراكز تحشدها الى اهدافها الاولى في فلسطين ، وكانت محطات الاذاعة في العواصم العربية ، تذيع خطب رؤساء الدول ، والحكومات، على الشعوب العربية، واعدة اياهم باقتراب ساعة تصفية الحساب مع اليهود ، مؤكدة لهم النصر . ومظاهر الافراح قائمة في كل مدينة عربية وفي كل قرية ، ولم يكن احد من العرب

يشك في النصر الموعود ، سوى القيادة العامة لهذه الجيوش ، ومن ورائها الرؤساء والزعماء العرب الرسميون . واعترف انني كنت مع جيش الانقاذ ، الذي انتهت مهمته في صباح ذلك اليوم ، كما قالت القيادة العامة ، من الذين لا يشكون في هذا النصر . وكان الهدوء بدأ يسود جبهتنا ، عدا حوادث طفيفة موضعية ، كانت تعكر صفو هذا الهدوء . وحول تفكيري في ذلك الحين ، الى أمر واحد ، هو ترتيب انسحاب قواتنا وتجميعها في مكان ما ، فنعيد تنظيمها ونوفر لها شيئا من اسباب الراحة ، التي كانت في حاجة شديدة اليها ، بعدما عانت ، ولاسيما في الايام الاخيرة ، من شدائد .

ولكن البرقيات اخذت ترد علي من الشام ومن عمان . من الشام ، الحاح في سرعة الانسحاب ، والعودة الى دمشق . ومن عمان ، اعلام بأننا اصبحنا مرتبطين بقيادة الجيش الاردني ، بينما كانت تصريحات الملك عبدالله تنبيء بحل جيش الانقاذ ... وقد كان لهذا التناقض وهذه الفوضى وقع سيء في نفسي ، واكثر ما شغلني هو لمن يجب ان اسلم المناطق التي هي في قيادتي ؟ ومتى اسلمها ؟ فعدت الى عمان حيث كانت لا تزال القيادة العامة لجيش الاردن،وقابلت اللواء عبد القادر الجندي ، وأعلمته ان مهمتي قد انتهت كما تقول القيادة العامة للجيوش العربية. وانني سأسحب جيش الانقاذ . ولكنني أحب قبل ذلك ان أعلم من الذي سيحل محل هذا الجيش ؟ فأجابني ، انه لا يعلم شيئا عن ذلك . والمسألة تخص الجنرال كلوب. وكان «الجنرال كلوب» في غرفته المجاورة لغرفة اللواء عبد القادر الجندي، فدخلت مع اللواء الجندي على «الجنرال كلوب» وأنبأت كلوب «انني سأسحب قواتي في غد ذلك اليوم اي في ١٧ ايار ، وان الانسحاب سيتم في خلال ثلاثة ايام . وطلبت منه ان يصدر الامر لمن يلزم ليحل محل هذه القوات . واطلعته على خطة الانسحاب باختصار . وهي الخطة التي كنت قررت ان يتبعها قواد جيش الانقاذ ، لكي يتخذ هو بدوره الترتيبات اللازمة ، بهذا الشأن . وقد حاول «الجنرال كلوب» حملي على تبديل الخطة وتأخيرها ، فرفضت على اعتبار ان الاوامر كانت قد صدرت ، وبدأ بتنفيذها . وكان الحاح دمشق من رئيس الجمهورية الى القيادة العامة ، يتتابع بضرورة الاسراع في الانسحاب . وقد تبين لي فيما بعد ، ان هذا الالحاح ، كان الباعث عليه تخوف رئيس الجمهورية من استيلاء الملك عبدالله على جيش الانقاذ ، وتوجيهه حسب رغباته .. هذه الرغبات التي تتمثل في نظر الرئيس في شيء واحد هو تحقيق مشروع سورية الكبرى . وقد كان انسحابنا المبني على تخوف الرئيس ، وبهذه السرعة خطأ عسكريا ، لم يكن في الامكان تداركه . فالخطة المثلى كانت في ان تبقى القيادة العامة للجيوش العربية النظامية ، جيش الانقاذ في مراكزه ، وتزيل ما كان يشكوه من نقص في السلاح والعتاد ، وتجعل منه ستارا حديديا تتحشد وراءه الجيوش النظامية او بعضها ، وتستفيد من اختباراته ، وتضع خططها في ضوء معلوماته وتجاربه . على ان الواقع انه بالرغم من وجود قيادة عامة للجيوش العربية النظامية ، فقد كان كل

جيش يخضع لقيادته الخاصة ، التي لا تطمئن الى القيادات الشقيقة .... وكانت هذه الجيوش ذات القيادة العامة الواحدة ، والمتجمعة على ارض واحدة ، ولاغراض واحدة ، اكثر تفوقا وتفككا من اية مجموعة من جيوش ، اجتمعت للقتال لهدف واحد ...

اخذ الجيش الاردني يحل محلنا في الجبهة ، وشعر من المرحلة الاولى ، ان هذه الجبهة ، اوسع بكثير من ان يستطيع تغطيتها ، مع ان عدده يفوق اضعافا عدد جيش الانقاذ ، ومعداته لا يجوز عمل مقارنة بينها وبين معداتنا ، فاكتفى باحتلال مواقع اعتبرها رئيسية ، كالمدن ، واهمل احتلال مواقع اخرى خطيرة اعتبرها ثانوية . واستمر انسحاب قواتنا بنظام تام ، طبقا للخطة المقررة خلال ١٦ و ١٧ و ١٨ ايار واصبحت منطقة القدس ، ومنطقة باب الواد ، واللد والرملة ، ومنطقة المثلث في عهدة الجيش الاردني . ويظهر ان اليهود راوا في انسحاب جيش الانقاذ فرصة لتحقيق رغباتهم ، في بعض هذه المناطق ، وكانوا قد فشلوا في تحقيقها وهي في عهدتنا . وبينما كانت قواتنا تتجاوز في انسحابها نابلس الى الشرق ، وردت علي البرقية التالية :

١٨ – ٥ – ٤٨ الساعة ١٥ر٣ مستعجل للغاية .

من عبد القادر الجندي الى فوزي

القدس في ضيق شديد . على وشك الانهيار . هل باستطاعتكم نجدتها بأقرب وقت وبأقرب طريق .

الامضاء – عبد القادر

فاستغربت هذه البرقية استغرابا شديدا . ومهمتي منتهية من ١٥ ايار ، والقدس اصبحت في عهدة الجيش الاردني ، قوات جيش الانقاذ تجاوزت في انسحابها نابلس . وكانت هذه اول مرة يستنجد فيها اللواء عبد القادر الجندي بجيش الانقاذ . فوقعت في شيء من الحيرة ثم أرسلت الى اللواء الجندي البرقية التالية ...

١٨ – ٥ – ٤٨ الساعة ٥،١٥ الى عبد القادر باشا الجندي

جواب برقيتكم قصفناها البارحة ساعتين . قواتنا سحبناها . أنتم على الابواب . نجدتكم لها اسرع واسهل . لا تضيعوها .

الامضاء – فوزي

ولكن برقية اخرى ترد علي من القدس هذا نصها :

١٨ – ٥ – ٤٨ الساعة ٣،٥٥ مستعجل جدا .

الحالة خطرة . العدو يقوم بهجوم عام في قطاعات المدينة . المدفعية تقصف بشدة من كل ناحية . يجب ان تصلنا النجدات والا فمصيرنا الفناء . الفناء أؤكد لكم الفناء وسقوط المدينة . القنابل تسقط في الحرم . آمر حامية القدس .

الامضاء – فاضل

فهزت هذه البرقية كياني هزا عنيفا ، وتولتني حيرة تامة ... لقد غادرنا المنطقة كلها . وحل محلنا فيها الجيش الاردني وهو أقوى منا بكثير فلماذا لا ينجد القدس ...

هل أعود لنجدتها دون مبالاة بمسألة انسحابنا . أم أترك هذا الامر لمسئولين عنه رسميا ؟ واذا سقطت القدس ؟؟.... وبينما هذه الافكار تضغط بشدة على راسي ، اذا برقية اخرى من الرئيس فاضل تصل لي .

١٨ – ٥ – ٤٨ الساعة ٥،٢٠.

ازدادت الحالة سوءاً. المدفعية تقصف الحرم . واأسفاه على المدينة المقدسة..

ازحفوا لانقاذ الموقف . الارواح تنتظر نجدتكم السريعة . آمر حامية القدس.

الامضاء – فاضل

ازالت هذه البرقية كل أثر للتردد في نفسي . وقررت العودة رغم الاوامر التي لدي بالانسحاب ، ورغم مرابطة الجيش الاردني في القدس ، ورغم قلة ما لدي من عتاد ، غير حاسب اي حساب لما قد يترتب على هذه العودة والنجدة من معارك ، قد نضطر الى خوضها من جديد ، وارسلت الى آمر الحامية في القدس البرقية التالية :

١٨ – ٥ – ٤٨ الساعة ٥،٣٥ آمر حامية القدس .

اثبتوا . اطلعت سورية والاردن على برقياتكم انا آت لنجدتكم .

الامضاء – فوزي

وأرسلت للمقدم مهدي صالح ، الذي كان لا يزال في رام‌الله ، برقية أطلب فيها ان يعيد المدفعية التي كانت في طريقها ، منسحبة الى نابلس ، ويرفقها بسرية من الفوج العلوي، لا تزال عنده، وبجميع ما يمكن جمعه من المسلحين الفلسطينيين، والمتطوعين الاردنيين ، ويذهب لقصف القدس ، والحيلولة دون سقوطها بأيدي اليهود . وان يقوم بمظاهرة دخول الى حي الشيخ جراح بأسرع ما يمكن . وبينما كانت المعارك في القدس تدور بالشدة التي وصفها آمر الحامية الرئيس فاضل ، كانت قواتنا تعود ، وتتجمع في المواقع التي عينتها لها ، في ضواحي هذه المدينة. وفي صباح ١٩ ـ ٥ ـ ٤٨ كنت في مرصد مدفعيتنا ، حيث المقدم مهدي ، وآمر اللواء صدقي الجندي ، والامير نايف الذي جاء ليشاهد حركة القصف .

كانت اصداء الرشاشات والبنادق تتجاوب في اطراف القدس ، وفي داخلها، يقابلها من ناحية أخرى ، صدى طلقات هزيلة ، تسمعها بين الحين والحين ، ويتخلل هذه الطلقات اصوات انفجار قنابل يدوية وقنابل مدافع .

اذن فالمدينة المقدسة على وشك السقوط. وطلبت الي الملازم عفيف البزري.. ان يطلق كل ما عنده من قنابل لانقاذ المدينة. وحددت له اهداف القصف . وفتحت المدفعية افواهها ، ورحنا نشاهد من مرصدنا جماعات كثيرة تخرج من القدس ، وبدأت علائم الاضطراب واليأس على وجه الامير نايف ، ووجه اللواء صدقي الجندي ، عندما بدأت قنابل مدفعيتنا تنفجر في المدينة ، ووراء الخط الذي كنا نسمع اصوات الطلقات ، والانفجار منبعث منه . وبدأت السرية العلوية ، ومعها المتطوعون الفلسطينيون والاردنيون ، يتقدمون نحو الشيخ جراح ، في حماية نيران المدفعية ، ولم تمض دقائق حتى شعرنا ان الرمي قد خفت ، ولم نعد نسمع الا اصوات طلقات بعيدة ، عرفنا انها من المدينة القديمة ، ثم أخذت تقترب منا تدريجيا، ومدفعيتنا مستمرة في القصف، معتمدة طريقة ما يسمى السد الناري، حتى بدا لنا ان اطلاق الرصاص ، أصبح من منطقة الشيخ جراح ، على جنودنا المتقدمة ، نحو هذا الحي، عندئذ تركز قصف مدفعيتنا على هذا الحي ، الذي ثبت لنا ان القوات اليهودية ، المنسحبة من امام المدينة القديمة تحولت اليه . فتهلل وجه الامير ووجه صدقي الجندي ، وقال الاول .. لقد انقذها جيش الانقاذ مرة اخرى ، وأنقذ معها كرامتنا . فلماذا لا تعمل أنت هكذا. .اجابه آمر اللواء صدقي، ليس لدي اوامر ... فقال له مسكين . ترى ماذا سيحل بك بعد انسحاب هؤلاء ...

واحتدمت المعركة في الشيخ جراح احتداما شديدا ، ثم أخذت تهدأ تدريجيا حتى انتهت عند الظهر بانقاذ القدس من السقوط الذي كان محتما . فالتفت الي آمر اللواء الاردني صدقي الجندي وقلت له . منذ هذه اللحظة أنتم المسؤولون عنها . فأنا لن أعود .

وطلبت من المقدم مهدي صالح ، ابقاء القوات التي لديه ، في اماكنها حتى المساء وان يسحبها ليلا ثم يعود الى الاستمرار ، في الانسحاب العام ، طبقا للخطة المقررة ، وهذا ما حدث فعلا . وكانت عربات العتاد يسمع لها بسيرها في هدوء الليل ، قرقعة صاخبة ... لانها ... فارغة .



الجيوش العربية تطلب نجدتنا

كان المقرر ان يتم انسحاب جيش الانقاذ في ٢٤ ايار ، فيشغل الجيشان العراقي والاردني المواقع التي كنا نشغلها. كنت منقبض الصدر من هذا الانسحاب، بينا الجيوش العربية النظامية تزحف على فلسطين ، بشكل كان يخيل الي معه ، انها ستحطم القوات اليهودية ، او ترغمها على الاستسلام ويكون جيش الانقاذ قد حرم من شرف النصر النهائي ، بينما هو الذي أعد عدته ومهد له الاسباب .

وقد ابتهج الفلسطينيون وتحمسوا كثيرا ، لدخول الجيوش النظامية ، لاعتقادهم انه قد جاء الفرج واقتربت ساعة النصر النهائي . ولما تمت عملية انسحابنا ، ذهبت الى عمان ومنها الى الزرقاء ، وكان ذلك في ٢٣ ايار ، فاذا اللواء نور الدين محمود ، القائد العام للجيوش العربية النظامية ، يستقبلني في مقر القيادة ، ودلائل الارتباك بادية على وجهه ، وسألني اول ما سألني ، اين وصلت قوات الانقاذ في الانسحاب . فاجبته انها تجتاز اريحا باتجاه عمان . ومنها الى الشام . قال بلهفة ، ارجو ان ترسل فوجين منها فورا ، الى جسر المجامع ، لدعم قوة عراقية امام مستعمرة «غيشر» التي لم تستطع مدفعيتنا التغلب عليها ، وقد تحرجت حالة افواجنا هناك . قلت ان مدفعية جيش الانقاذ ، مدفعية خفيفة، وجنودنا غير نظاميين من جهة ، ومن جهة اخرى فهم منهوكي القوى . وأهم من هذا كله ، انه لم يبق لدى المدفعية ولا الجنود شيء من العتاد ، فاذا وفرت لي القيادة العامة ، العتاد للمدفعية وللمشاة ، فانني مستعد رغم كل شيء ، لنجدة الجيش العراقي . فقال ان جيش الانقاذ مرتبط بجامعة الدول العربية وهي التي يجب ان تدبر العتاد ... والمسألة تحتاج الى وقت طويل ... قلت وفر لي عتادا وخذ مني نجدة ، وانا باق في شرق الاردن هذين اليومين ، فابعث الي حينما يتدبر الامر . وفي عمان ، بعث اللواء نور الدين محمود يطلبني لمقابلته ، فعدت توا الى الزرقاء، وما ان لقيته حتى قلت له ها أنذا على استعداد ، هل هيأتم العتاد . قال ، لا . ولكن الجيش الاردني يقول انه لا يستطيع ان يشغل الجبهة التي كان يشغلها جيش الانقاذ ، بالنظر لاتساعها ، وهو يرى نفسه مضطرا الى حشر اكثر قواته في منطقة القدس ، فانا ارجو منك ان ان ترسل فوجا من جيش الانقاذ الى جنين . فقلت

وهذا ايضا انا مستعد للقيام به ، ولكن لا عتاد لدي . قال ، (ماكو عتاد) . فقلت له : انني مضطر الى الاشراف على عملية انسحاب قواتي ، فأرجو ان لا تبعث الي بعد ، الا اذا توفر لديك العتاد اللازم .

وفي صباح ٢٤ ايار ذهبت الى مقر القيادة العامة في الزرقاء، بناء على طلبها، وانا أقنع نفسي هذه المرة انها وفرت لي العتاد . ورأيت اللواء نور الدين محمود مرتبكا. وقال بحدة ، ان الجيش السوري في سمخ في حاجة شديدة الى النجدة، فارسل الينا فوجين لنجدته ، قلت يا حضرة القائد ، اتريد ان نحارب بالحجارة والعصي أم ماذا ؟ .. اذا كنتم جادين فعلا ، فاعطوني ما اقاتل به . وفي خلال حديثي معه ، رن جرس التلفون ، فاذا الرئيس الرفاعي يقول ، البرقية المستعجلة من الشام تطلب حضورك اليها بسرعة ، وان رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ينتظرك فيها . فقال القائد العام ، لعل الجيش اللبناني ايضا في حاجة الى النجدة ... (يابا روح الله يساعدك ويساعدنا) .

* * *

موقف المفتش العام والحكومة السورية
من جيش الانقاذ اثناء عودته الى الشام

وصلت في ٢٦ ايار الى الشام واجتمعنا في وزارة الدفاع ، الوزير احمد الشراباتي ورئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ، والمفتش العام لجيش الانقاذ العميد طه الهاشمي والقائد العام لجيش الانقاذ اللواء اسماعيل صفوة والعقيد محمود الهندي . وبدأ وزير الدفاع السوري السيد الشراباتي الحديث بقوله ، ان الجيش اللبناني في موقف حرج جدا . وأرى من الواجب ان ننجده بأسرع ما يمكن. وقال السيد رياض الصلح ، ان قوة من الجيش اللبناني اصطدمت باليهود داخل الحدود اللبنانية ما بين عيترون وبليدة ، والحالة حرجة ، فسألت السيد رياض الصلح هل ان المعركة لا تزال مستمرة، فقال لا ، ولكن الحالة خطرة. فقلت له ، ان جيش الانقاذ ليس لديه عتاد ، وجنوده قواهم منهوكة وينقصهم كثير من التجهيزات ، كالملابس وغيرها ، وهم في حاجة شديدة الى شيء من الراحة ، والى اعادة تنظيمهم فاذا كان الموقف ليس من الخطورة بحيث ينفسح المجال لنا لاعادة تنظيم قواتنا وتجهيزها بما يلزمها ، فان نجدتنا تأتي أقوى . ولكن المجتمعين كلهم أصروا على ضرورة ارسال جيش الانقاذ كله الى الحدود اللبنانية ، عدا فوج المقدم صفا الذي يرسل الى منطقة سمخ . واتفقوا على ان الحكومتين السورية واللبنانية تضمنان اكمال تجهيزات جيش الانقاذ ، وتوفير كل ما يلزمه من عتاد بعد وصوله الى المواقع اللازمة ... فاستغربت الحاحهم بهذا الشكل : فاذا كانت

الحالة خطرة جدا، وكان هناك معارك يجب ان نخوضها على الحدود اللبنانية فكيف نفعل ، وتلك حالة قواتنا .

ترى أيمكن ان يكون الغرض ابعاد جيش الانقاذ عن دمشق بأي ثمن ، او يكون الفرض زج هذا الجيش ، في مأزق حرج خطر يضطر فيه ، اما الى ان يفنى واما الى قبول هزيمة . ولم يمض الا قليل حتى بدأت قطعات الجيش تصل دمشق الواحدة بعد الاخرى ، فأخذت تظهر لي اشياء غريبة ، بشأن المواقع التي خصصت لتجمعها . مثلا ، قد خصص المفتش العام خمسا واربعين خيمة في أزرع للمشاة، الذين يبلغ عددهم اكثر من الفين . وازرع هذه ليس فيها من المياه ، ما يكفي سكانها ، عدا ان الخيم لا تتسع حتى لاقل من نصف هذا العدد . وغدا قسم كبير من هؤلاء الجنود ، يحرقهم حر الشمس نهارا ويؤذيهم البرد ليلا ، لقلة ما لديهم من تجهيزات ، وقد أدى الازدحام الى اقتتال على المياه ، وطلبت نقل القوة الى معسكر قطنه فانتقلت اليه . وتحددت اماكن متفرقة لجيش الانقاذ . فالاليات في مكان ، والمدفعية في مكان آخر ، والمشاة في مكان ثالث ومستودعاته في مكان رابع . حتى غدا الجيش متفرقا مشتتا ، وكانت هذه المعسكرات كلها ، تحت حراسة بعض وحدات من الجيش السوري ، والشرطة العسكرية . وعمد المفتش العام الى تسريح فريق من الجنود ، كان يجردهم حتى من سلاحهم الشخصي . ثم اصدر امرا لفوج حطين ، بالتحرك الى بنت جبيل ، وامرا آخر لفوج اليرموك ، بالتحرك الى سمخ ، دون مراجعتي فرأيت انه لا بد من مفاتحة رئيس الجمهورية بهذه الامور ، وكان ذلك في ٢٧ ايار . واذا عند الرئيس المفتش العام نفسه . فأوضحت للرئيس اولا الفوضى التي بذر بذورها «تنظيم» هذا القائد المفتش العام . وانه لم يكلف نفسه زيارة الجبهة مرة واحدة ، وانه لم يكن يبالي بحاجتنا الى العتاد . وانه استقبلنا بفوضى لعلها تفوق الفوضى التي شيعنا بها .واخيرا رجوت منه اعفائي من القيادة وتسليمها الى المفتش العام نفسه . وسكت المفتش العام ولم يدافع عن نفسه بكلمة واحدة . اما الرئيس فقام يسترضيني بالعبارات التقليدية ، ويحاول ازالة سوء التفاهم ، قاطعا على نفسه عهدا ان ما جرى من قبل ، لن يجري مثله فيما بعد .

***

بين تفكيرهم وتفكيرنا

غادرت القصر الجمهوري ، وذهبت الى منزلي ، لاول مرة بعد قيام الحركات في فلسطين . فذهبت وعائلتي لتناول الغداء في الربوة . وتنبهت لاصوات جنود متعالية في اناشيد حماسية تنبعث من سيارات بدأت تمر امام اعيننا متجهة نحو

بيروت . واطلت النظر الى هؤلاء الجنود ، فاذا هم جنود جيش الانقاذ . فوج حطين ، ورئيسهم مدلول عباس آمر الفوج . ويتحرك الفوج ، وانا لا اعرف عن حركته شيئا ... ولم تمض غير ساعات على العهد الذي قطع في القصر ... وذهبت توا الى القصر الجمهوري ، واطلعت الرئيس على هذه الحادثة ، وذكرته بالعهد الذي قطعه . فرد قائلا : مستحيل . سأستدعي الساعة ، طه باشا . لا تتأثر . اطمئن .

ورحت بعدها ارسل الوحدات الى لبنان ، وهي لا تزال ناقصة التجهيزات ، والسلاح والعتاد ، بل والعدد ايضا . اذ ان الجنود الذين في المستشفيات، واولئك الذين استشهدوا في ساحات القتال ، لا يزالون ضمن العدد المسجل على جيش الانقاذ ، بينما لم ينضم الى الجيش بدلا منهم . وفوق ذلك فقد اقتطعوا من هذا الجيش فوج اليرموك ، وارسلوه الى سمخ ، بدون رأيي ، على انهم عوضوني عنه، فوجا من قوة البادية . وقد استغربت هذا التدبير ، ولكن حوادث اخرى بدات تقع، انكشف لي في ضوئها هذا اللغز . ان لبنان كان حقيقة في خطر ، وان جيشه الصغير لم يكن كافيا لحماية حدوده الطويلة ، وتحت ستار حاجة لبنان الى المعونة لدفع الخطر «تعمدوا» ابعادي مع جيش الانقاذ عن الشام ، والجيش في اقصى حالات الضعف ، وكان استبدالهم بفوج اليرموك افضل واقوى فوج في جيش الانقاذ فوجا من قوات البادية ، يرتبط آمره برابطة الولاء الشخصي لرئيس الجمهورية ، تدبير خاص ، الغرض منه ، وقوف هذا الفوج في وجه اية حركة انقلابية في سورية او لبنان ، على اعتبار انهم كانوا يتصورون انني افكر في انقلاب .



ينامون مستريحي البال ...

في ٢٩ ايار كانت وحدات جيش الانقاذ قد اتخذت مواقعها على الحدود اللبنانية ، وجئت في اليوم نفسه الى بيروت ، فقابلت في وزارة الدفاع ، الوزير والزعيم شهاب ، قلت لهما انني ذاهب الى الجبهة . فرافقاني اليها ، وبعد ان اجتزنا مدينة صور ، باتجاه بنت جبيل ، رأيت وحدات من مشاة ومدفعية وخيالة من الجيش اللبناني عائدة نحو بيروت . فسألت الزعيم شهاب ما شأن هؤلاء الجنود ؟ قال . انهم عائدون من المعركة التي نشبت بيننا وبين اليهود في عيترون – بليده . سحبناهم ليأخذوا قسطا من الراحة . ولما اقتربنا من جسر تبنين الذي يبعد عن الحدود اللبنانية الفلسطينية ١٥ كيلومترا الى الشمال ، رأيت جنودا يعملون تحت هذا الجسر ، فسألت الزعيم ما شأنهم قال انهم يزيلون الالغام التي

كنا وضعناها لنسف الجسر ، منعا لتقدم القوات اليهودية نحو صور . وارى انه لم يبق من داع لها ، بعد ان جئتم لمعاونتنا . بجيش الانقاذ .

وصلنا الى تبنين،فاصطحبت معي آمر فوج قوة البادية، المقدم طالب الداغستاني، ومررنا ببنت جبيل ثم بعيترون ، فاصطحبت معي آمري الافواج فيهما ، ومن عيترون تابعنا السير مشيا الى ان وصلنا الى التلال الواقعة على الحدود ، وهي تبعد ثمانماية متر عن قرية المالكية التي يحتلها اليهود . ورحت اراقب المالكية هذه، فبدا لي هناك تحصينات قائمة في بعض الاماكن على عدة خطوط . واليهود في حركة تدل على انهماكهم في اقامة تحصينات جديدة .

تقع المالكية على تلال تشرف على طريق عيترون – سعسع وعيترون – قدس – النبي يوشع وعيترون – بليده – ميس الجبل – مرجعيون . وهي تحمي من جهة اخرى سهل الحولة ، القائم بين الحدود اللبنانية والحدود السورية وتعتبر بهذه الصفة مركزا مهما يشكل قاعدة خطيرة ، تستطيع القوة المرابطة فيها ، تهديد بنت جبيل ، والقسم الجنوبي كله من جبل عامل ، كما تهدد مستعمرة المنارة القائمة على عشرة كيلومترات الى شمالي المالكية،الطيبة والقسم الشمالي الشرقي، من جبل عامل . واحتلال هذا الجبل حتى القاسمية ، ودمجه في اسرائيل ، هو احد اغراض اليهود الرئيسية المعروفة . وكانت القوة التي بأمرة الرئيس اديب الشيشكلي ، التابعة لجيش الانقاذ ، تحتل المالكية . ولكن اليهود الذين هاجموها مستميتين ، تمكنوا من انتزاعها من بين يدي الشيشكلي واحتلالها . وكنت وانا ادقق في تفحص المالكية ، وما يحيط بها ، افكر في ضرورة احتلال هذه القرية ، لانها تشكل خطرا شديدا على قواتنا المرابطة بالقرب من هذه المنطقة . فاخذت ادرس ، استنادا لوضع الاراضي، وماهيتها ، الخطة التي يجب ان تتبع لاحتلالها. وانا مطمئن الى انها الخطة التي ستضع المالكية بين يدي . وتركنا مرصدنا هذا ، فرحت في الحال ، ابدل مواقع قواتنا وترتيبها ، بشكل يتلاءم مع الخطة التي رسمتها . وهناك صافحني وزير الدفاع اللبناني ، الامير مجيد ارسلان والجنرال شهاب عائدين الى بيروت . ولا انسى قول الجنرال شهاب لي وهو يصافحني مودعا .

(هالليلة سأنام بالبيجاما . وكذلك يفعل فخامة الرئيس) .

بعد ان انهيت ترتيباتي الرئيسية عدت الى بيروت في ٣٠ ايار لارى ما تم بشأن العتاد الذي كانوا وعدوني بتقديمه الى جيش الانقاذ . وكان موقف رئيس الحكومة اللبنانية الشيخ بشاره الخوري ووزير الدفاع اللبناني موقفا حسنا جدا.

فقد تسلم جيش الانقاذ بواسطتهما العتاد الموعود . وحين ما قابلت الرئيس ، قال لي : أصبحت من يوم وصول قواتكم الى الحدود مستريح البال .

***

خطة سحق رأس الافعى
معركة المالكية

كانت خطة الجيوش العربية النظامية بعد التعديل في مواقع تحشيدها ترمي الى الزحف باتجاه ناتانيا فتل ابيب ، اي رأس الافعى ـ على حد تعبير الملك عبدالله ـ ولكن حركات الجيش السوري امام سمخ ، وحركات الجيش العراقي امام مستعمرة غيشر ـ جسر المجامع ، والفشل الذي نتج عن هذه الحركات في ٢٢ ـ ٢٣ ايار ، والضعف الذي شعر به الجيش الاردني. بعد ان تسلم مناطق جيش الانقاذ ، وفشل الجيش اللبناني في معركة الحدود في بليده ، هذا كله قد سبب تبديلا اساسيا ، في الخطة الرئيسية المرسومة للهجوم العام الذي كان مقررا في ٣٠ ايار ، وبقيت فكرة الاحتفاظ بالمناطق العربية في حدود التقسيم هي الاساس . وقد تبين لي فيما بعد ان هذه الفكرة كانت منذ البدء الفكرة الاساسية عند البعض . وقد انكشفت لليهود هذه الخطة ، كما انكشف لهم حقيقة التسلح في الجيوش العربية ، ومدى قواتها ، لذلك كنت اعتقد اعتقادا تاما ، ان هجومنا على المالكية انما هو هجوم موضعي يقوم به جيش الانقاذ منفردا ، وقد جرأني هذا ، على طلب المعونة من الجيش السوري ، كأن يساعدنا طيرانه في عمليات استكشاف المالكية والنبي يوشع والهراوي ، وفي قصف المالكية اذا امكن ، بقنابل الطيارات فلبى سلاح الطيران في الجيش السوري طلبي ، وقام بعمليات استكشاف في المواقع المذكورة ، عرفنا بنتيجتها ان لليهود ، تحصينات قوية من الخنادق ، وعددا كبيرا من «بلوك هاوس» قلاع صغيرة محصنة تحصينا متينا . وشاهدت الطيارات ايضا ، تجمعات يهودية كبيرة في جوار المالكية . وتمت ترتيباتنا ضمن نطاق المستطاع فقررت الهجوم في السادس من حزيران ، وجمعت آمري الافواج وبعض الضباط ، في مقر القيادة في تبنين ، واطلعتهم على قراري الاخير ، وأمليت عليهم الخطة التي رسمتها ، وكان وزير الدفاع اللبناني حاضرا هذا الاجتماع . وهذا ملخص خطوطها الرئيسية .

اولا ـ الفوج اللبناني مع مدرعاته يتجمع ليل ٥ ـ ٦ في مفرق طريق بليده ـ عيترون ـ المالكية ويقوم بهجوم على المالكية من الشمال ، متجها نحو الجنوب والشرق . ويتجمع فوج البادية مع مدرعاته بين عين ابل ورميش ، فينحدر على طريق ثانوية باتجاه صالحة، في الاراضي الفلسطينية ، متابعا حركة التفافه باتجاه

صالحه ـ المالكية، ويقوم بهجومه عليها من الجنوب الى الشمال ، فيتلاقى الفوجان في المالكية . اما المدفعية بكاملها ، فتأخذ مواضعها بالقرب من عيترون على ان يكون مرصدها ، فوق التلال المشرفة على المالكية ، والتي تبعد عنها ٨٠٠ متر الى الغرب ، حيث أكون مع المقر في المرصد . وقد احتفظت بالسرية البدوية وسرية اخرى درزية ، كقوة احتياطية تسد الثغرة بين جبهتي الفوجين المهاجمين ، اي الفوج اللبناني وفوج قوة البادية ، كما وضعت سريتين من فوج حطين بقيادة المقدم مدلول عباس ، الى يمين الفوج اللبناني ، وقررت في هذا الاجتماع مع الضباط حتى التفاصيل ، في الخطة التي يجب ان تنفذ ، وارسلت مع الفوج اللبناني المقدم شوكت شقير، كضابط ركن يشرف على مراحل تنفيذ الخطة ومع فوج قوة البادية، الرئيس عامر حسك ، كضابط ركن بالمهمة نفسها . ولم يبق الا اختيار ساعة الهجوم . فحاولت ان يكون في الساعة المختارة شيء من المباغتة ، ولذلك قررت ان يبدأ الهجوم الساعة الثالثة عشرة من يوم ٦ حزيران ، باعتبار انها ساعة تناول الطعام والراحة ، وكان اليهود يتوقعونه في الصباح او في الليل ، وهكذا توفرت المباغتة فعلا ، كما اردت . وكان لدى آمر فوج البادية معلومات ، ان في صالحة قوة يهودية وتحصينات قوية ، وقد أصر على صحة هذه المعلومات ، والواقع انه لو صحت فيكون للامر تأثير شديد في خطتنا ، قد يؤدي الى فشلها ، منذ الخطوة الاولى ، لذلك ورغم اعتقادي بعدم صحة هذه المعلومات ، ولازالة الوهم المستولي على آمر الفوج ، وانزال الطمأنينة على نفسه ، طلبت من المقدم مدلول ، ان يرسل دورية استطلاع قوية للتثبت من الامر . وانه اذا كانت الاخبار غير صحيحة ، تبقى الدورية في صالحة ، الى ان يمر فوج البادية . وتحركت الدورية . وأصدرت الاوامر فبدأت القوات تنفذ منها ما يختص بالتجمع في مواقع الشروع بالهجوم ، وكان كل شيء يجري طبق المرام . وصلت الدورية الى صالحة ، وتمركزت فيها ، وارسلت تنبيء بخلوها من العدو. وفي الساعة الثانية عشرة تماما كنت في المرصد يصحبني وزير الدفاع اللبناني ، والجنرال شهاب ، واخذت استطلع بكل دقة وضع المالكية ، فاذا هدوء تام وسكون شامل يخيمان عليها ، فكان ذلك كمقدمة للعاصفة التي ستمزق بعد دقائق هذا السكون . وتقدم الي آمر المدفعية الملازم عفيف البزري يقول ، ان الساعة ١٢ و ٥٨ دقيقة وان المدفعية جاهزة . فأمرته ان يبدأ القصف في تمام الساعة الثالثة عشرة بالضبط .

وثارت العاصفة في الساعة الثالثة عشرة تماما. وانفجرت افواه ثمانية مدافع تصب قنابلها على اهدافها الاولى ، منسجمة مع حركات المدرعات ، والمشاة التي اخذت تبدو متقدمة رويدا رويدا ، من اهدافها . واخذ اليهود يتراكضون من امكنة استراحتهم للاحتماء بالخنادق والقلاع ، وبعد برهة اخذت قنابل المدفعية اليهودية تنصب على جنودنا ، ومثلها الرشاشات والبنادق ، فاشتعلت الجبهة نيرانا حامية ، وكان فوج قوة البادية لم يظهر بعد في الميدان ، ذلك ان اليهود كانوا قد نسفوا جسرين على طريقه ، التي تفصله عن هدفه في المالكية ، الامر الذي

كنت اتوقعه ، فحسب اليهود في الساعة الاولى من المعركة ، ان هذا هو الهجوم كله فكثفوا قواتهم في الناحية الشمالية من الجبهة ، وراحت المدفعية تصب قنابلها بلا انقطاع على هذه الناحية . وبدت حركات اليهود متضعضعة مما عرضهم لاصابات كثيرة ، وفي هذه اللحظة ، ظهرت الطائرات السورية فعينا لها بواسطة اللاسلكي ، الاهداف التي يجب ان تقصفها ففعلت بنجاح . وطلبنا منها ان تحدد لنا المكان الذي وصلت اليه قوة البادية ، وتستطلع الطرق ، المؤدية الى المالكية من الشمال والشرق ، وهل يظهر فيها نجدات يهودية ؟ فعرفنا من الطائرات ان فوج البادية اقترب من المالكية ، ويسرع اليها ، وان نجدات يهودية من النبي يوشع والهراوي قادمة الى المالكية . وفي الساعة الخامسة عشرة ، دخل فوج قوة البادية خط النار، واشتبك مع اليهود في الناحية الجنوبية من المالكية، ووصلت النجدات اليهودية الى هذه الناحية نفسها ، من خط النار واعتقد انها كانت القوة الاحتياطية اليهودية ، فانشطرت القوات اليهودية الى شطرين ، في الشمال من المالكية ، وفي الجنوب تدافع مستميتة ، على ان قواتنا استمرت في التقدم ، واخذت الاصابات تزداد من الفريقين ومدفعيتنا تتحول من هدف الى آخر ، فتدك اهدافها دكا متواصلا ، وحينما بدا لليهود ان هذه هي قواتنا كلها ، وتوزعت قواتهم لصدها في الشمال والجنوب ، امرت سرية البادية ، والسرية الدرزية وهما القوة الاحتياطية لدي ، بالهجوم على قلب المالكية في تمام الساعة السابعة عشر ، وكان لا يفصلهما عن المالكية اكثر من ٤٠٠ متر فكانت مباغتة جديدة لليهود، وانطلقت السريتان المذكورتان في هجومهما ، وقطع جنودهما ما يقارب نصف المسافة التي تفصلهما عن المالكية ، دون ان يصادفوا مقاومة تذكر . وبلغت المعركة الذروة في نواحي الجبهة كلها ، وضغط الهجوم يستمر ، وحماسة الدفاع اليهودي تزداد شدة ، ولكن لم تمض برهة قصيرة بعد انقضاض قوتنا الاحتياطية ، حتى شعرنا بتضعضع صفوف اليهود ، واخذت وحدات يهودية تترك مواقعها ، امام القوات المهاجمة الاولى ، لصد هجوم القوة الاحتياطية ، غير مبالية بالخسائر ، على اعتبار ان هجومنا اذا نجح فسيشطر القوات اليهودية الى شطرين يعرض كلا منهما للاسر او الفناء ، اذ كان الانسحاب امرا يكاد يكون مستحيلا . فسقط عدد كبير من القتلى امام هذه الحركة . وكانت قواتنا وصلت الى حقول الالغام التي أخذت تنفجر بغزارة ، فأثقلت حركة الهجوم ، ولكنه بقي مستمرا . وكانت قنابل مدفعيتنا ونيران رشاشاتنا ، تتلقف القوة التي افرزها اليهود ، للوقوف بوجه قوتنا الاحتياطية «السريتين البدوية والدرزية» وتتلفها . وكان اليهود في نقاط دفاعهم ، مكشوفين ، لنيران مدفعيتنا . وراح فريق منهم يشعل النيران في حقول الزرع ، فقام سد من النيران بينهم وبين قواتنا . على ان التضعضع في صفوفهم اخذ يبدو واضحا . فاستولى جنودنا في الناحية الشمالية من المالكية ، على الابراج والتحصينات التي تشغل الخط الامامي ، كما استولوا في الناحية الجنوبية على تحصينات معسكر المالكية . واخذت نيران الزروع تخمد ، فاندفع

جنودنا في تقدمهم وبدا تراجع القوات اليهودية من الخطوط الامامية نحو القرية من الشمال والجنوب ، وفئات منها تنكمش نحو شرقي القرية ، فكانت اول علائم الهزيمة ، وما أذنت الساعة ١٩ مساء حتى كان جنودنا استولوا على التحصينات كلها ، وانحصر الدفاع في اطراف القرية ، فتمركز القصف عنها . وبدأت نيران مدافعهم تتضائل ثم ساد الظلام فأصدرت امرا بالتوقف وتحصين المواقع المحتلة ، على ان نستكمل المعركة في فجر الغد، ولكن سرية البادية والسرية الدرزية وسرايا من حطين ، بعد ان توقفوا عادوا الى التقدم من دون امر ، ودخلوا القرية وقضوا على من فيها من المدافعين . وانتهت المعركة حوالي منتصف الليل بهزيمة تامة لليهود . وعندما دخلت بقية قواتنا في فجر اليوم الثاني الى المالكية بهتوا من كثرة ما رأوه من قتلى اليهود ووفرة ما تركوه من عتاد ومدافع هاون من بينها ما هو من عيار ١٢٠ أضخم مدفع رأيناه في حرب فلسطين،وهو من صنع معامل سانتاتيان الفرنسية . وقد هالني منظر بعض القتلى من اليهود ، مضمدي الجراح ، مما يدل على انهم كانوا يقاتلون وهم جرحى . وكان من بين الوثائق التي وجدناها معهم مخطط يبين موقع الالغام ، اعاننا على تجنب الكثير من الخسائر في الارواح . ومع ذلك فقد بقيت هذه الالغام المبثوثة في حقول مختلفة تهددنا بالخطر حتى بعد شهرين من احتلالنا المالكية .

تخلصنا من المالكية . وارسلت رتلا من فوج حطين الى قدس ، التي تبعد ما يقرب من كيلومترين الى شرقي المالكية ، فاحتلها وفرضنا سيطرتنا على المنطقة . واليهود تغمرهم حالة من القلق قلما صادفوا مثلها .



مؤامرات الهدنة الاولى

قررت معركة المالكية مصير الحدود اللبنانية ، ومصير جبل عامل كله ، فأصبح في أمان مؤقت على الاقل . كما قررت مصير القوات اليهودية التي كانت تهدد من المالكية ، بالخطر الشديد ، كل ما جاورها . وفتح أمامنا بعد هذا الانتصار ، مجال اوسع للاتصال بالجيش السوري ، بحركة متقابلة ، فيما اذا اقدم على عملية ما ، وكان له صدى كبير في الاوساط العربية والاجنبية . وفي ٨ حزيران طلب مني رئيس الحكومة اللبنانية ، التوسع في الاراضي الفلسطينية ، اذا كان ذلك ممكنا، فأجبته ان هذا ممكن وضروري ، ولكن بقية قواتنا لا تزال في دمشق . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس لدينا عتاد سوى قليل من عتاد المدفعية ، بعث الينا به الملك عبد الله ، وشيء من عتاد المصفحات ، ومدافع الهاون ، وبعض سيارات. وهذا كله في دمشق . ورجوت منه ان يبذل ما يستطيع من جهد لكي نحصل على

العتاد ، فوعدني بذلك على اعتبار انه يجب القيام بسرعة ، بعمل يكون له تأثير في مجرى المفاوضات للهدنة . وكانت كلمة الهدنة اخذت تتداولها الالسن ، دون ان نعلم من اسبابها وشروطها شيئا . وكان السيد عبد الرحمن عزام قد مر ببيروت في طريقه الى دمشق ، فهنأني بانتصار المالكية ثم فاجأني بمسألة الهدنة وسألني رأيي فيها . فقلت ان الهدنة تعقد عادة ، بعد هزيمة العدو فيطلبها المنهزم ، وهذا امر لم يحدث بعد ، فلا نحن انهزمنا او انسحقنا ولا اليهود انهزموا او انسحقوا ، على ان حالتنا نحن العرب ، خير من حالة اليهود . فلست ارى اي معنى . قال ان الاميركان والانكليز يضغطوا علينا ضغطا شديدا ، لنقبل الهدنة . وقواد الجيوش العربية يشكون من قلة العتاد ، ويطلبون قبول هدنة . فقلت له انني استغرب هذه الشكوى ، وهم لم يخوضوا بعد اية معركة كبيرة تستنفذ العتاد ، وتحملهم على الشعور بالضعف . قال انه امر لا بد منه ، فالحكومات العربية مشتركة مع القواد، في الراي بضرورة قبول الهدنة . قلت ان الهدنة معناها اعطاء فرصة لليهود ليزيدوا في تسلحهم وفي قوتهم وتنظيم صفوفهم ، بعد ان شعروا ان الجيوش العربية قوية بسلاحها وعددها . ولديّ من المعلومات ما يؤكد ان بواخر مشحونة سلاحا وعتادا، ترسو في موانىء الادرياتيك والبحر الاسود ومياه فرنسة ، وهي مستعدة للسفر الى تل ابيب عند اول اشارة . فقال هذا صحيح ، ولكن انكلترا واميركا ستحولان دون سفر هذه البواخر . وقد وعدنا بذلك ، قلت له : اما انا فأعتقد انه ربما كان لضغط الاميركان والانكليز عليكم لقبول الهدنة ، غرض واحد ، هو تسهيل سفر هذه البواخر الى الموانىء اليهودية . فاليهود اليوم في حالة ضعف بالنسبة لنا نحن . وارجو منك ان تبذل كل ما في وسعك لاحباط مشروع الهدنة، وقد تكون الهدنة مبدأ كارثة فلسطين . قال : سأبذل ما في وسعي ولكن يجب على كل حال ان لا نغالي في التشاؤم الى هذا الحد .

وفي صباح ٩ حزيران تسلمت من قيادة الجيش السوري برقية هذا نصها:

غدا اعتبارا من الساعة السادسة صباحا هجوم عام على كل جبهاتنا بقصد استجلاب جميع احتياطي العدو نحونا وتسهيل مهمتكم .

الامضاء ـ قائد الجيش السوري

استغربت هذه البرقية استغرابا شديدا . وانا لا اعلم بشيء عن «مهمتنا» ، واخذت افكر في هل ان هذا الهجوم العام يقوم به الجيش السوري هو بالاشتراك مع بقية الجيوش العربية النظامية ، وهل الهجوم الذي كان مقررا ان يقع في ٣٠ ايار ، ثم اجلوه الى اليوم ، ام هو مظاهرة عسكرية يقوم بها الجيش السوري منفردا ، ليفسح لنا مجالا للتغلغل في جنوب فلسطين ، ومعداتنا من قوات ومصفحات لم تصل بعد من الشام ، ام انه الدور الذي لعبوه معنا يوم كنا في

الجبهة الوسطى ، يحبون ان يتمموه هنا ، اي توريطنا وتعريضنا للخسران ؟ فأرسلت الى القائد العام للجيش السوري مستفهما .

ويأتيني الجواب البرقية التالية :

٩ـ٦ـ١٩٤٨ رقم ٧٨

جواب برقيتكم رقم ٧ مهمتكم استمرار الهجوم الخاطف نظرا للوضع السياسي.

الامضاء ـ القائد العام

هجوم خاطف .. بأي اتجاه.. والى اي هدف... «نظرا للوضع السياسي». أيكون المقصود الهدنة ؟ هل تقررت الهدنة اذن ؟ وهل يكون « الهجوم الخاطف » للجيوش العربية عبارة عن مظاهرة عسكرية ، ترغم اليهود على قبول ما يفرضه العرب عليهم من شروط .؟

★★★

الهجوم على الناصرة ـ دخولنا اليها قبيل الهدنة

على اثر الضربة التي انزلناها باليهود في المالكية ، ركن هؤلاء الى الهدوء التام على هذه الجبهة ، على انهم بدأوا يقومون بنشاط قوي في منطقة الناصرة ، ويهاجمون بعنف قريتي لوبيا ومجد الكروم . انهم يريدون ان يحتلوا اكثر ما يمكن من قرى وأراض عربية ، قبل حلول الهدنة . وينوي العرب القيام بمظاهرات عسكرية لا تترك الا صدى فرقعة موضعية ، فعزمت على الاسراع الى نجدة لوبيا ومجد الكروم ، للحيلولة دون سقوطهما في أيدي اليهود ، معتمدا على ما لديّ من قوات ضئيلة . انها مغامرة بالنظر لقلة العدد والمعدات عندنا ، ولكن برقية وردت عليّ من القيادة العامة للجيوش العربية أزالت هذا التردد . وهذا نص البرقية :

٩ـ٦ـ١٩٤٨ رقم ٧٩

من القيادة العامة الى فوزي وقيادة الجيش اللبناني ..

هجم العدو ليلة ٨ ـ ٩ على مجدل والناصرة ولوبيا ومسكنة . صد الهجوم

عدا لوبيا لا يزال مستمرا عليها. نرى انتقدم قوىفوزي نحو الجنوب باتجاه الناصرة مما يؤدي الى تهديد قوى اليهود والهاغانا وتخفيض الضغط على القرى المذكورة .

الامضاء ــ نور الدين

لم يبق من مجال للتردد ، مهما يكن من خطر المغامـرة ، فهي اذا نجحت سيكون لها شأن كبير جدا ، وانها لتنجح اذا هم امدوني بالسلاح والعتاد ، وتحرك الجيش العراقي من ناحيته ، فأزحف من الناصرة الى العفولة ، ويقوم الجيش العراقي بحركة مماثلة على هذه المستعمرة المهمة جدا فنحتلها معا . ونشطر القوات اليهودية والاراضي اليهودية الى شطرين ، شرقي وغربي ، فتنقطع كل علاقة بين القسم الزراعي ، والقسم الصناعي منهما ، وفي مثل هذه الحال يستحيل عليهما الصمود وقتا طويلا . وينفسح المجال امام الجيوش العربية ، لتصفية المناطـق اليهودية الواحدة بعد الاخرى . اما اذا لم يمدوني بالسلاح والعتاد ، ولم يتحرك الجيش العراقي لسبب ما ، فستكون المسألة عبارة عن توريط جيش الانقـاذ احتلال جبهة واسعة جدا ، بقوى ضئيلة العدد والمعدات جدا ، وفي وجـه مستعمرات يهودية محصنة وقوية جدا ، تحيط بجيش الانقاذ من الشرق والجنوب والغرب . وقد نرغم عندئذ على خوض معارك ليس فيها اي تكافـؤ بيننا وبين اليهود ، مما قد يؤدي الى تحطيم جيش الانقاذ ، وضياع منطقة الجليل بأسرها . وكنت استبعد رغم كل ما مضى ، ان «يقفوا» مني هذا الموقف . فان فيه ما قد يحمل على القول انه يشبه الخيانة ...

على ان ارتيابي في تصرفات القيادة لم يبلغ هذا الحد . وحالة منطقة الناصرة حرجة جدا، والاوامر التيتلقيتها من القيادات كلها، تطلبمني التقدم نحو الناصرة، فاذا انا تقدمت ، فلا يمكن ان يتخلوا عني ، وكل امداد يمدوني به ، هو في الوقت نفسه امداد لهم جميعا . امداد للجيشين السوري والعراقي معا . ولان الخط الجديد الذي سأتمركز فيه ، سيجعلني قادرا على معاونـة الجيش العراقي ، وتحمل قسم كبير من العبء الذي يتحمله وتسهيل مهمته ، فيما اذا قرر يومـا الهجوم بأي اتجاه كان . وهكذا تكون الحالة بالنسبة للجيش السوري ايضا . وقد جاءني احد المقاتلين الفلسطينيين المكنى ابو ابراهيم ، وكان رئيسـا للمسلحين المحليين هناك ، يعلمني انهم لم يستطيعوا الصمود ، فاضطروا الى الانسحاب . واحتل اليهود المواقع الحساسة على طرقات الناصرة المؤدية الى الغرب كلها ، وقوات اخرى قطعت طريق الناصرة الوحيد ، المؤدي الى الشرق ، عند مستعمرة الشجرة ، فأصبحت الناصرة منعزلة ، وهي على وشك السقوط . فقررت نهائيا الاسراع في نجدة المنطقة مهما يكن من امر ، عازما على ان اختم عمليـات جيش الانقاذ بانتصار يجعل هذه المناطق ضمن نطاق الخطوط العربية ، قبل بدء الهدنة، ولو بساعة واحدة . وكانت محاولات اليهود في هجومهم على لوبيا ومسكنة ومجد

الكروم والناصرة ، ترمي الى الفرض نفسه ، بالنسبة اليهم . فأسرعت حالا بارسال شيء من العتاد المتنوع ، وفصيلين من المشاة ، الى لوبيا ، ومثل ذلك الى مجد الكروم . واشتبك جنودنا يساعدهم المسلحون المحليون ، فور وصولهم ، بالقوات اليهودية المهاجمة ، فصدوها وعطلوا بعض مصفحاتها ، وغنموا منها بعض الاسلحة. وباحتلال لوبيا من الجنوب ومجد الكروم من الغرب تأمنت طريق حركاتنا. وارسلت قوة صغيرة ، الى الفراضية ، على طريق صفد ــ الرامة ، فتأمنت حركاتنا مـن الجبهة الشرقية . ثم جهزت من فوج حطين رتلا وسريتين وأربع مصفحـات وبطارية ــ مدفعية واندفعت بهذه القوة صباح ٩ حزيران باتجاه الرامة ومنطقة الناصرة . تاركا الفوج اللبناني في منطقة قدس ــ بليدة ، وفوج قوة البادية في المالكية . واتخذت بعض الترتيبات في تربيخا غربي سعسع . وفي ترشيحا غربي طريق سعسع ــ الرامة . وفي حماية هذا الستار كان الرتل يسير بسرعة نحو الرامة ، ومنها باتجاه لوبيا ــ الناصرة ، عندما اخذنا نبأ غير رسمي ان القتـال سيتوقف الساعة الثامنة من صباح ١٠ حزيران . فأرسلت من الرامة الى المقدم شقير في المقر هذه البرقية :

٩-٦-١٩٤٨ رقم ٤

توغلنا حتى سعسع ترشيحا الرامة المغار . انقذنا المجدل ولوبيا . سنتقدم الى الناصرة . اعلمونا الموقف عند طالب (آمر فوج قوة البادية) تلفنوا الى رياض بك وتأكدوا منه توقيف القتال غدا الساعة الثامنة صباحا . اعلمونا .

الامضاء ــ فوزي

الوقت ضيق .. واليهود اقوياء في منطقة الشجرة ، على طريق الناصرة ، فيترتب عليّ ان اطرد اليهود من هذه التلال ، لاشق طريقي الى الناصرة ، فأنظف التلال المشرفة عليها ، والسيطرة على طرقها من ناحية الغرب . هذا كله يجب ان يتم قبل الساعة الثامنة من صباح ١٠ حزيران . اذن فلأتسلم قيادة الرتل بنفسي. كان وزير الدفاع اللبناني الامير مجيد ارسلان يرافقني ، وقد سهل لي وجوده الحصول على حاجيات كثيرة لجيش الانقاذ ، كالبنزين وبعض المؤن ووسائل النقل وغير ذلك . وفي ليل ٩ ــ ١٠ حزيران ، كانت ترتيباتي تامة للهجوم على اليهود المتحصنين شمالي مستعمرة الشجرة ، على طريق الناصرة . وفي الساعة الخامسة مـن صباح ١٠ حزيران اصدرت الامر بالهجوم على الشجرة ، فاندفع مشاتنـا تساندهم المدفعية بقصف عنيف جدا ، ويحميهم عدد من المصفحات ، نحو التلال التي تفصلها عنهم اراض منبسطة مكشوفة ، معرضة على طول المسافة ، لنيران اليهود ، فلم يكن لنا من بد ، من تحمل خسائر ، كان من الطبيعي ان تقع فـي جنودنا ، الى ان علقت اقدامنا بالمرتفعات . فعززناها وأيدينا فيها . وفي الوقت

نفسه ، قامت قوة من جنودنا بهجوم آخر من لوبيا ، التي اتخذناها قاعدة لهذا الهجوم ، اشترك فيه فريق كبير من المسلحين المحليين . وجذب دوي المدافع فريقا من الاهلين المسلحين من منطقة الناصرة ، نحو تلال الشجرة من الغرب . وكان الهجوم عنيفا جدا وسريعا ومدفعيتنا تزداد شدة في اطلاق نيرانها ، مبدلة اهدافها بسرعة تتفق وحركات الهجوم السريع . وفي تمام الساعة السابعة بالضبط ، بدات القوات اليهودية تنهزم على طول خط النار ، باتجاه مستعمرة الشجرة ، فطاردت قواتنا المنهزمين ، واستمرت مدفعيتنا في القصف، فصبت قنابلها داخل المستعمرة نفسها . وعندما وصل جنودنا الى جدران المستعمرة وكانت بدات تشتعل فيها نيران كثيفة كانت الساعة الثامنة تماما . ودخلت سرية من قواتنا مدينة الناصرة بقيادة الرئيس مدلول عباس . وفي هذه اللحظة توقفت مدفعيتنا عن القصف تنفيذا للاوامر واخذ ازيز الرصاص من الجانبين يخف رويدا رويدا الى ان تلاشى. تركت امام مستعمرة الشجرة ، سريتين من فوج حطين ، ومعهم المسلحون المحليون . ودخلت الناصرة ومعي وزير الدفاع اللبناني الامير مجيد ارسلان . واستقبلنا الاهلون في دار البلدية مع قوات من الشرطة . وخاطبني رئيس البلدية قائلا : اننا منذ ليال عديدة والخوف يمنعنا من النوم ، ولو لم تدخلوا اليوم لكنا رحلنا عن المدينة .

***

أخطر وضع لجيش الانقاذ

اصبحت قواتنا تحتل خطا لا يبعد سوى ٧ كيلومترات عن العفولة ، التي كانت بادية لعيوننا ، وواقعة في متناول نيران مدفعيتنا . وساد الهدوء الجبهة بطولها . ولكن اليهود لم يرق لهم هذا الوضع الذي يهددهم بالخطر ، فراحوا يتحرشون بقواتنا في قرية الشجرة ، ويهاجمون قريتي شفا عمرو والبروة . وجاءني من هذه القرى شكايات ، واخبار تنبىء بتخوف الاهلين وتفكيرهم بالنزوح، فأرسلت الى شفا عمرو ، فصيلين من المشاة ، ومثلهما الى البروة ، فانسحب اليهود من جوار هاتين القريتين .

لقد اصبحنا على خط يبعد من عكا ٩ كيلومترات ، واحد عشر كيلومترا عن حيفا ، نهدد بفصل المستعمرات الواقعة شمالي عكا عن تلك الواقعة جنوبا . ولا يفصلنا عن الجيش السوري من ناحية الشرق ، سوى ثمانية كيلومترات . وهكذا اصبح وضعنا اخطر وضع على الاطلاق هدد احلام «اسرائيل» ، في مختلف ادوار القتال . وهو اخطر وضع كذلك ، دخل فيه جيش الانقاذ . اذ اصبحت قواتنا ، وعددها لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل ، تحتل جبهة يعادل طولها جبهات الجيوش السورية واللبنانية والعراقية مجتمعة . كان وضعا خطيرا ودقيقا جدا . وكان

موضع استغلال يمكن ان يؤدي الى نصر للعرب سريع حاسم ، اذا أقدمت القيادة العربية العامة ، على امدادنا ، والتعاون معنا في القتال . فقد كنا بهذا الوضع نستطيع بالاشتراك مع الجيش العراقي ، احتلال العفولة ، فنكون انزلنا ضربة قاصمة بالعمود الفقري «لاسرائيل» ونستطيع اذا أمددنا بالسلاح والعتاد فقط ، أن نسترد حيفا ونحتل نهاريا ، او اننا كنا نتصل في حالة الامداد بالسلاح والعتاد فقط ، بالجيش السوري ، وبالاشتراك معه ، يمكن ان نحتل الحولة بكاملها . فاذا لم تفعل القيادة العربية العامة شيئا وتجاهلت ، وتجاهل معها الساسة في الشام ومصر والعراق والاردن ، هذا الوضع ، فانهم ينزلون بنا ضربة قاضية ، قد تودي بجيش الانقاذ وبالجليل كله ، ويكونون قد اهدوا بموقفهم هذا ، النصر الذي اصبح في يمين العرب ، هدية الى «اسرائيل» .

في ليلة ٩ـ١٠ حزيران

لقد كان لهجومنا هذا الاخير على القوات اليهودية ، تأثير صاعق ، فراحوا يتوهمون قواتنا ومعداتنا ، اكثر مما هي في الواقع أضعافا مضاعفة ، وحملهم ذلك على حشد اكثر قواتهم ، واشدها بأسا على طول جبهتنا ، وفسح هذا الحشد ضدنا مجالا للجيش السوري ، فاحتل مستعمرة مشمار هايردن التي تبعد كيلومترا واحدا عن الحدود السورية .

لقد كان اغتباطي بهذا الوضع الذي وفقنا اليه ، واملي بالاعمال الكبيرة التي نقدر على القيام بها ، استنادا الى هذا الوضع ، كبيرين ، لا يعادلهما الا تخوفي من احجام القيادة العامة ورجال السياسة ، عن استثمار هذا الوضع الخطير ، وفي هذه الفترة الخطيرة ، من مجرى الحرب في فلسطين ، تصل اليّ في ١٥ حزيران ، برقية من المفتش العام لجيش الانقاذ العميد طه الهاشمي ، يطلب فيها اليّ الحضور الى الشام ، للمداولة مع بقية القواد في خطة مشتركة ، نطبقها بعد انقضاء مدة الهدنة . ففرحت بهذه البرقية ، وقلت لنفسي انني سأقنع هؤلاء القواد ، باغتنام الفرصة للاستفادة من وضعنا الممتاز ، ذهبت الى دائرة اركان الجيش السوري في دمشق ، وهناك لقيت المفتش العام ومعه الزعيم حسني الزعيم قائد الجيش ، منفردين ، وقال المفتش العام : سنبحث نحن الحاضرين فيما يجب عمله ، ونتفق على خطة نعلم بها بقية القواد . وجلسنا نحن الثلاثة حول منضدة عليها خارطة كبيرة لفلسطين ، ورحت اشرح الموقف وكيف يمكن ان نستغله بالاشتراك مع الجيشين السوري والعراقي ، على النحو الذي سبق وذكرته . فقال دعنا نبحث الساعة في ما يمكن ان تقوم به من اعمال بما لديك الان من قوات ووسائل يعني لا تنتظر منا اي شيء .. قلت ان امكانياتنا الحالية ضعيفة، وقد نفشل في اي عمل ، اذا هاجمنا اليهود . وسردت له بالتفصيل عدد جيش الانقاذ يومذاك ، ومعداته ، مقابل قوات كبيرة من اليهود تحيط بنا من الشرق

والجنوب والغرب ... فالتفت الى الزعيم حسني الزعيم وسأله : وانت ماذا تنوي ان تعمل .. فوضع الزعيم قلما على مشمار في الخريطة ، واشار الى الطريـق المؤدية الى ماحانايم ، وقال .. انا سأتقدم بهذا الاتجاه ، عندما يتقدم فوزي الى هذه المستعمرة ويتخطاها باتجاهنا . قلت بعد ان اتخطى هذه المستعمرة لن يبقى اية حاجة لتقدمكم ، اذ اصبح تقريبا في مستعمرة مشمار التي تحتلونها . فقال ، واضعا راس القلم على خربة ابو زينة الواقعة على الضفة الغربية من نهر الاردن ، اذن اتقدم من هنا على الطريق الموازية لبحيرة طبريا ، اذا تقدم فوزي على نفس الطريق باتجاهي .. قلت : اي انه يجب عليّ ان اقتحم المستعمرات القائمة على هذه الطريق كلها فأتقدم نحو خربة ابو زينة ، بعد ان أقضي على كل مستعمرة وكل يهودي ..

وبينما كنت أفكر باشتراكهم في القتال او بمعاونة تأتيني منهم ، بدون ان يقاتلوا ، للوصول الى اهداف كبيرة عامة ، اذا هم يفكرون باستخدام ما لديّ من قوة ، لتنظيف ساحات امام خنادقهم ... وزاد قلقي على الجبهة التي مكن لها جيش الانقاذ، باندفاعه وبسالته واخلاصه في القتال ، بعد الذي سمعت وشهدت. ورغم ذلك رحت اشرح لهم ما يمكن ان يسببه تقاعسهم عن امداد هذه الجبهة من اخطار ، ومن تفويت للفرص قد يؤدي بالعرب الى خسران كبير ولكن دون جدوى. وغادرت القاعة التي كنت اشعر كأنما في جوها الثقيل كابوسا يبعث في النفس الاسى والنقمة واليأس ... ولكنني ما تركت دائرة الاركان حتى شعرت بعاطفة تلهب أعصابي ، ورحت أردد لنفسي .. سأقاتل . ولو بقيت بمفردي في ساحة القتال فأعطي الضريبة المترتبة عليّ ، وعليهم ايضا ، لهذه الارض المقدسة ، المجبولة بدم الاجداد .

رجعت الى الجبهة ، اتفقد كل مركز فيها ، ورحت اتحدث الى الضبـاط والجنود ، لاستطلع مبلغ القوة في عزيمتهم ، فاذا انا كالعادة المس ان القوة في نفوس هؤلاء الشجعان ، هي أقوى ما عندنا من قوى ، ذلك ان القوى المادية كانت محدودة دائما . وكان يسود الجبهة شيء من الهدوء مرده الى انشغال اليهـود باستعداد واسع النطاق ، يبعثه ما يصل اليهم من اسلحة وعتاد ووحدات . بينما كنا نحن العرب لم نعمل ساعة واحدة من ايام الهدنة للاستعداد لما قد نفاجأ من احداث . اللهم عدا المؤتمرات والاجتماعات السياسية ، كما يسمونها ، والعسكرية الفارغة ، واقامة المآدب والحفلات ، على ان هذا الهدوء في الجبهة لم يطل امره ، فقد بدأ اليهود تحرشاتهم الموضعية بنا ، على نقاط الجبهة كلها . وكان لهـذه التحرشات طابع استطلاعي الغرض منه ، معرفة ما قد نكون اعددناه من سلاح وعتاد وقوات . وفي صباح ١١ حزيران ١٩٤٨ اي بعد الهدنة بيوم واحد ، قام اليهود بهجوم على البروة ، في الساعة الحادية عشرة والنصف ، بعد قصف جوي شديد واحتلوها . وقامت قواتنا بهجوم مضاد ، فاستردتها ، فقامت علينا قيامة

وسطاء الهدنة ، وطلبوا منا اخلاء البروة ، على اعتبار اننا معتدون في رأيهم ، فلم نذعن لطلبهم . وفي ٢٠ حزيران ١٩٤٨ قاموا بهجوم على خربة راس علي ، الواقعة بالقرب من شفا عمرو ، فاحتلوها . فأبيت رغم ضعفنا ان ترسخ في أذهانهم فكرة اننا ضعفاء ، واصدرت الامر بالقيام بهجوم مضاد ، في اليوم الثاني ، واستردت قواتنا هذه القرية . وقام اليهود كذلك بحركات هجومية في قرية الشجرة ، وفي المالكية ، وفي البروة ، غربي مجد الكروم ، فصددنا حركاتهم هذه كلها ، على ان حركات اليهود ، اخذت تتوسع وتشتد . وتصل اليّ معلومات من وزارة الدفاع اللبنانية ، مصدرها وزارة الدفاع السورية ان هناك تحشدات يهودية غربي طبريا وامام البروة .

وعلى الاثر ارسلت ما لديّ من قوة احتياطية في الرامة ، لتقوية البروة . على ان يقوم محل هذه القوة سريتان من فوج قوة البادية يكون جنودهما قوة احتياطية لجبهتنا كلها . وابرقت بذلك الى آمر فوج قوة البادية ، فعلق هذا موافقته على امر يأتيه من قيادة الجيش السوري ..

وابرقت برقيات شديدة اللهجة الى القيادة السورية العامة ، والـى وزارة الدفاع السورية ، ولكنها دون جدوى . وقامت القوات اليهودية بالهجوم الذي كنا نتوقعه على البروة ، بقوات كبيرة مزودة بالمدافع والمصفحات وهي مصفحـات ومدافع ، تظهر لاول مرة في المعركة ، مما يدل على انها من حصاد الهدنة . وكانت النتيجة ان احتل اليهود البروة ، وحاولنا في اليوم الثاني استرجاعها بهجـوم معاكس وبقوة تمكنت من جمعها ، من صفوف القوات الضئيلة في مختلف مواقع منطقتنا يصحبها مدفعان . فأحاط جنودنا بغربي البروة ، وكادوا يستردونها حين خرجت من ميناء حيفا ، بارجة حربية ، اخذت تقصف قواتنا ومدفعيتنا بمدافعها الضخمة البعيدة المدى ، فحالت بيننا وبين البروة .

لم نعلم جنسية هذه البارجة ، على انها ليست يهودية من غير شك . وقد تكون انكليزية او اميركية وهذا الارجح ، ولو لم تنسحب مدفعيتنـــا في الوقت المناسب لكنا خسرناها . وأرسلت الى وزير الدفاع السوري البرقية التالية :

٢٥-٦-١٩٤٨ رقم ٢١

على اثر البرقيات الواردة من منطقة مجد الكروم تفيد تحشيدات كبيرة وسيل نجدات يهودية على المنطقة ونتيجة برقية عمان الى وزير الدفاع اللبناني بلزوم اتخاذ تدابير ضد التحشدات اليهودية في منطقة طبريا ، ارسلت قوة الى البروة . وامرت سريتين من قوات البادية بالحركة الى الرامة كاحتياطي للجبهة . امتنعت قـوة البادية عن تنفيذ الامر بناء على عدم موافقة القيادة السورية . هذا التدخل الجاهل

للموقف وللجبهة ادى الى حرماننا من قوة احتياطية ضرورية والى ضياع البروة نتيجة هجوم يهودي كبير . اطلب معاقبة وكيل قائد قوة البادية واعتبر القيادة السورية مسؤولة عن هذه النتيجة .

الامضاء ـ فوزي

وكان جواب هذه البرقية من القيادة السورية العامة ما يلي :

٢٥ـ٦ـ١٩٤٨ رقم ٤٨/٢

من القائد العام الى فوزي

جوابا على برقيتكم يجب استعمال قوى الانقاذ .

الامضاء ـ القائد العام

***

الخطر اليهودي الداهم على لبنان

انها مؤامرة تؤدي ليس فقط الى ضياع جيش الانقاذ ، بل الى ضياع منطقة الناصرة ، وربما الجليل كله كما ضاعت البروة . اليست القيادة العربية العامة وقيادة الجيش السوري هما طلبا مني التوغل في هذه الاراضي فاتسعت جبهتنا هذا الاتساع ، فما بالهما يتصرفان هذا التصرف الذي لا يمكن ان يستنتج منه الا مؤامرة ؟... وقررت ان اذهب بنفسي الى بيروت ، فأطلع رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح على هذه الحالة وعلى ما يبيتونه لنا من تدابير تجعل الجليل بل ولبنان ايضا في خطر ، ولكي استعين به لتصفية الحساب مع المفتشية العامة لجيش الانقاذ ، ومع القيادة العامة للجيش السوري ، واستقيل من قيادة جيش الانقاذ اذا انا لم افلح بمسعاي . وذهبت الى بيروت فاذا امين جامعة الدول العربية السيد عبد الرحمن عزام ورئيس الحكومة السيد رياض الصلح ، في القصر الجمهوري اللبناني ، فاجتمعت بهما بعد خروجهما من القصر ، وبسطت لهما الموقف في الجليل بالتفصيل ، مطلعا اياهما على موقف العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الانقاذ من هذا الجيش . واعلمتهما انه رغم ما نعانيه من قلة عدد في الجنود ، وفي العتاد بالنظر الى اتساع جبهتنا ، فالمفتش العام لا يزال واضعا يده على ما بقي من وحدات لجيش الانقاذ في دمشق وما له فيها من

معدات .. وفوق ذلك فهو قد امر باعادة ضباط من جيش الانقاذ الى قطعاتهم في الجيش السوري ، وليبحثوا عن قائد غيري لجيش الانقاذ . قال رئيس الحكومة اللبنانية سنذهب معا الى دمشق فنحل هذه المشاكل حلا نهائيا . وذكرت رياض لعهوده التي قطعها اليّ وانه اعتبر كلامه هذا عهدا وان اعتبره هو المسؤول عن تأمين هذا الموضوع .

وفي طريقنا الى دمشق حدثني السيد عبد الرحمن عزام قال .. انه حينما كان يقاتل الطليان في ليبيا ، كان يقاتلهم احيانا بماية مقاتل ، وحينا بثلاثين . وكان سلاحه غالبا السلاح الذي يكسبه من الطليان . وجيش الانقاذ عبارة عن عصابات يمكن ان يقاتل بمثل هذا العدد ، من دون حاجة الى سلاح وعتاد . وان الجيش الاردني مقيد بقيود بريطانية يسهر عليها كلوب باشا . وان الملك عبد الله، قد يكون مرتبطا بعهود مع اليهود . وأظنه لن يحارب ، وطبيعي ان الجيش العراقي لن يختلف موقفه عن موقف الجيش الاردني . وان الجيش المصري المؤلف من ثلاثين الف ، لا أدري متى يقاتل ، ومتى يترك ميدان القتال ، والجيشان السوري واللبناني من الجيوش (الغلبانة) وانه غير مؤمن بالاستمرار في القتال ، لهذا كله فهو يرى انه لا بد من التفاهم مع اليهود ومع الاميركان والانكليز ، فالمهم ايجاد حل يقبل به اليهود ، ويكون في ظاهره خير للعرب . فبهتّ من هذا الحديث . وقلت له اذن لقد انتهى كل شيء . فلماذا تجرون العرب الى الحرب ؟.. قال كنت أعتقد ان الحرب غير واقعة في فلسطين . وان بريطانيا وأميركا ستحولان دونها ، وتحلان القضية حلا سلميا ...

وصلنا الى دمشق ، فشرحت للرئيس القوتلي بحضور رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، حقيقة الموقف بالتفصيل وبالضبط ، وقلت له انني لن استطيع الاستمرار في القتال في هذه الظروف . فقال الرئيس بشيء من الحماسة لا . لا . هذه امور سنحلها كلها غدا .

وفي اليوم الثاني اي ٢٩ حزيران ١٩٤٨ اجتمعت في نادي الضباط مع عبد الرحمن عزام وجميل مردم ورياض الصلح وطه الهاشمي وحسني الزعيم والعقيد محمود الهندي . فتكلمت في الموضوع الذي من اجله جئت الى الشام ، وبسطت لهم الموقف في الجبهة بدقة وتفصيل . مطالبا تأمين السلاح والعتاد للجبهة ، وكان مناصري الوحيد في هذا الاجتماع رياض الصلح يؤيد جميع طلباتي ولعل ذلك حرصا منه على الحدود اللبنانية . وانتهى الامر بشيء واحد ، هو فصل المفتشية العامة عن القيادة العامة عمليا وبوعود لتموين الجبهة بكل ما تحتاجه .

وفي ذلك النهار وصل (الميرالاي) المصري سعد الدين صبور الى دمشق وهو كبير مستشاري القيادة العامة للجيوش العربية . فسألته عن خطتهم بعد

انقضاء الهدنة ، فقال لا نعلم ما الذي سنفعله بعد الهدنة . فالجيوش العربية مستقلة بعضها عن البعض الآخر والسياسة هي وحدها التي توجه كل جيش الوجهة التي تريدها . وانه سيعمل لعقد مؤتمر عسكري يقرر خطة واحدة مشتركة . وان الجيش المصري يشغل الان خط اسدود ـ السوافير ـ جلادية فالوجة . وبعد الهدنة سيبدأ بتطهير بعض الاماكن الواقعة على خطوط مواصلاته، واذا لم يتقدم الجيش الاردني فهو سيظل في خطوطه ولن يحاول التقدم خطوة واحدة لانه لا يثق بجيش يقوده قواد انكليز. وهذا الجيش ثابت ويطلب من الجيش المصري ان يتقدم الى ناحيته ، والا فهو لا يتحرك .

عدت في ٣٠ حزيران الى بيروت ، ومنها الى الجبهة ولم احصل الا على وعود واخذت أشباح انهيار الجبهة وانا في طريقي اليها ، تتمثل لعيني ، ولم يبق لي الا امل واحد ضعيف جدا ، هو ان يتحسس لبنان خطر الموقف على حدوده ، فتحمل فكرة الدفاع عن النفس والرغبة في البقاء ، رئيس الحكومة اللبنانية ووزير الدفاع والقائد العام للجيش اللبناني ، على ان يمدوني بشيء من العتاد ، واجتمعت بهم في دار الاركان . وبحثنا فيما يمكن عمله ، وبالرغم من عدم وفرة العتاد لدى الجيش اللبناني ، فقد سلموني كمية من العتاد الفرنسي ، تسد قليلا من حاجتنا. وعدت الى الجبهة افتقدها مرة اخرى ، وكان الهدوء لا يزال يسودها ، واليهود يستعدون من ناحيتهم باستمرار لا ينقطع ، فجمعت آمري الافواج والضباط واطلعتهم على ما حدث معي وانني عازم على الدفاع حتى في هذه الظروف العصيبة، قياما بالواجب ليس الا ، من غير ما نظر الى ما تفعله جيوش الحكومات العربية . وأفهمتهم ان من رأيي ان لا نتخلى عن شبر من الارض الا محطمين ، وبينما نحن في هذه الحالة من الحرج والخطر ، تلقيت من القيادة العامة للجيوش العربية البرقية التالية :

٥ـ٧ـ١٩٤٨ رقم ١٣٣ من القيادة العامة العليا الى القيادة اللبنانية وفوزي.

راجعنا مناضلو اجزم وجبع وعين غزال طالبين تموينهم بعتاد افرنسي والماني وانهم في موقف خطر جدا يرجى ايصال كمية من العتاد من النوعين المذكورين من الناصرة بالسرعة الممكنة . اعلامنا .

الامضاء ـ قيادة عامة عليا

فدهشت من جهل القيادة العامة العليا ، مواقع هذه القرى بالنسبة لجبهة جيش الانقاذ ، وهي تقع على ثلاثة عشر كيلومترا من حيفا الى الجنوب ، وفي منطقة الجيش العراقي ، ويفصلنا عنها خط طويل من المستعمرات الكثيفة المتصلة الواحدة منها بالاخرى ، ومن جهلهم حالة جيش الانقاذ ، الذي يركض قائده من

مكان الى آخر ومن حكومة الى حكومة من هذه الحكومات العربية المحترمة ، ليستجدي العتاد طلقة طلقة .

وارسلت الى القيادة العامة العليا برقية جوابية هذا نصها :

٨ـ٧ـ١٩٤٨ رقم ٢٩

أعلمت القيادة العامة عن مواقع هذه القرى وعدم وجود اي اتصال بيننا وبينها وضرورة نجدتها بواسطة الجيش العراقي المتحشد بالقرب منها .

الامضاء ـ فوزي

وكان اليهود كما تبين ، قد اتموا استعداداتهم ومدة الهدنة على وشك الانقضاء ، ووصلت لي البرقية التالية تعلن لي باستئناف المعارك :

٨ـ٧ـ١٩٤٨ من مهدي الى فوزي

نحن نشتبك في معركة حامية فوق تلال الشجرة منذ الساعة الثانية من هذا الصباح . يجب ارسال مصفحات ومدفعية ليس لدينا عتاد هاون . عتاد انكليزي الماني بنزين .

الامضاء ـ مهدي

***

توفيرا لبعض دريهمات يجازفون بالارواح والكرامات

تلقيت من الرئيس مدلول عباس في جبهة الشجرة البرقية التالية :

٨ـ٧ـ١٩٤٨ رقم ١٠٢ من مدلول الى فوزي .

ليس لدينا قطرة من البنزين . نريد عتاد انكليزي ، ليس لدينا ولا طلقة منه. عتاد هاون ٦١ وهاون ٨١ وعتاد رشاش وعتاد الماني .

واحتدمت المعركة في الشجرة ، وامتدت الحركات الى بقية انحاء الجبهة ، فظهرت لاول مرة منذ قيام الحرب في فلسطين ، طائرات حربية يهودية في سماء

ترشيحا ، قصفتها قصفا شديدا ، ولاول مرة ظهرت مدفعية يهودية ثقيلة في جبهة الشجرة . وقام اليهود بهجوم آخر في ١٠ تموز على تل كيسان تدعمه دبابات ثقيلة تظهر كذلك لاول مرة .. تشرشل وشيرمان .

في هذه الغمرة ، ونحن نتدبر الامر ضمن نطاق امكانياتنا الضعيفة ، للصمود في وجه الهجوم الواسع ، الذي بدات مقدماته بهذه الشدة ، وهذه الاسلحة الثقيلة الجديدة ، تصل اليّ من القائد العام للجيش السوري برقية هذا نصها :

١٠-٧-١٩٤٨ من شجاع الى فوزي

يهاجم العدو مراكزنا غرب كعوش (مشمار هايردن) نطلب مساعدتنا بهجوم لتخفيف الضغط .

طائرات من نوع القلاع الطائرة بأربع محركات .

الامضاء – شجاع

وارسلت هذه البرقية :

١٠-٧-١٩٤٨ رقم ٣٨ من فوزي الى الهاشمي والقائد العام للجيش السوري

تشرع قواتنا الساعة ١٥ بهجوم على مستعمرة عين زيتيم وصفد ، تؤازرها مدفعية ومصفحات . انبئونا الموقف الاخير عندكم .

وشرعنا بالهجوم في الساعة المعينة على عين زيتيم ، وتقدمت قواتنا الى ضواحي المستعمرة وتناولت بالمدفعية ابواب صفد ، وبعض المواقع المهمة فيها . واشتعلت الحرائق في كل مكان من المستعمرة ، فتخوف اليهود من هذا الهجوم الغير منتظر الذي قام به الفوج العلوي ، بقيادة آمره الرئيس غسان جديد ، فتحولت قوات منهم ، وكانت تهاجم الجبهة السورية الى صد هجومنا ، فجمدها الفوج العلوي في جبهة صفد . وهكذا زال الضغط عن الجيش السوري ، واحتفظ بكعوش . اما في الشجرة فقد صدت قواتنا هجوم اليهود ، وانتزعت منهم الاماكن التي كانوا قد احتلوها ، كما كانت صدت هجومهم الاول على تل كيسان ، والهجوم الذي بدا من البروة ، باتجاه مجد الكروم ، وبقيت المعركة مستمرة على طول الجبهة بلا انقطاع . فأبرقت الى الهاشمي برقية بتاريخ ١٠-٧-١٩٤٨ رقم ٣٩ أعلمه بهذه المعارك ، وانه لم يبق لدينا طلقة واحدة لمدفعيتنا من عيار ١٠٥ راجيا

منه ان يرسل الينا ما تبقى لجيش الانقاذ في الشام من عتاد . وبقيت البرقية بدون جواب ....

ووصلتني من القيادة العليا العامة برقية ١١-٧-١٩٤٨ مع نسخ منها الى القيادة السورية والقيادة اللبنانية .. يهاجم العدو بقوة من قرية صليخ مواقع الجيش السوري . يقوم الرف العراقي فورا بضرب قوات العدو المهاجمة . تقوم قوى فوزي برد الهجوم بالتعاون مع القوات اللبنانية لكي يخفف الضغط .

القيادة العامة العليا
الامضاء – صلاح الدين

وبرقية اخرى بالتاريخ نفسه هذا نصها :

١١-٧-١٩٤٨ . مستعجل جدا

من صلاح الدين الى فوزي .

قوّوا قواتكم في الناصرة لحركة تعرضية باتجاه العفولة بأسرع ما يمكن لتسهيل حركات الجيش العراقي في المنطقة الواقعة بين جنين والعفولة .

الامضاء – صلاح الدين

ترى أيعتقد هؤلاء ان لدى فوزي في الجبهة معامل تفبرك سلاحا وعتادا ؟ وانه يخلق جنودا لصد الهجوم اليهودي على جبهة كاملة بطولها وعمقها ؟ ثم يرسل امدادا الى الجيشين العراقي والسوري ؟... ان هذه الحركات التي تعنيها القيادة العليا العامة والوارد ذكرها في البرقية الثانية هي الحركات التي كان ينوي الجيش العراقي القيام بها لاسترداد جنين ، وكان اليهود احتلوا قسما منها في معركة بدات من زرعين ، التي كان يحميها جيش الانقاذ قبل ١٥ ايار ١٩٤٨ ، ويحمي منها منطقة جنين كلها . وقد جاء فوج عراقي يومذاك من جنوبي جنين فقام بهجوم معاكس على اليهود وطردهم منها ، وانقذ المدينة ، فتراجع اليهود ثلاث كيلومترات الى الشمال ، وبقيت تلك المنطقة ، عدا جنين ، بين أيدي اليهود . وفي النهار نفسه تلقيت برقية أخرى من الجيش الاردني هذا نصها :

١١-٧-١٩٤٨ الساعة ٢١و٥٠ رقم ١٠٦

اليهود يشنون هجوما شديدا على مدينتي اللد والرملة . تمكنوا من دخولهما الساعة ١٥و٣٠ من هذا اليوم الممانعة ضعيفة .

الامضاء – قائد عام

من ذا الذي يخطر له اننا كنا نقاتل ، وهذه حالنا من قلة العدد والمعدات . وعلى جبهة مثل الجبهة التي كنا نشغلها ، وننجد مع ذلك الجيوش العربية كلها طلبت منا النجدة . وليس هناك حكومة او قيادة تنجدنا في محنتنا ، ولو بالعتاد دون الرجال .

ولكي أبيّن من جديد ما قد ينتج عن هذه الحالة ، مما قد يجرنا الى كارثة ، ابرقت الى المفتش العام لجيش الانقاذ البرقية التالية :

١١-٧-١٩٤٨ رقم ٢

ان كل الاحتياطي للعتاد الافرنسي هو ١١ صندوقا . عدم توفيقي او توفيقكم لتلافي خطر هذا النقص يجبرني على سحب المسلحين بالافرنسي الى الوراء . يعني اكثر من نصف القوة والباقي يلتزم الدفاع الموضعي . وبذلك تنقلب الخطة والمهمة.

بلا جواب .

الامضاء – فوزي

واخذ الهجوم اليهودي بالاتساع فشمل موقع الليات في جبهة ترشيحا ، فصدته قواتنا هناك واتسعت الغارات الجوية وقصفت الناصرة . لم يبق من مخرج لجيش الانقاذ من هذه المحنة ، الا ان يقوم من منطقة الشجرة بهجوم على العفولة ليجر قسما من القوات اليهودية الى هذا المركز الحساس ، فيما لو قام الجيش العراقي ، بحركة مقابلة على هذا الهدف .. العفولة .

وخطر لي ان اثير حماسة الجيش العراقي ، لتنفيذ هذه الفكرة ، فأبرقت الى القيادة العامة العليا والى القيادة السورية هذه البرقية :

١٢-٧-١٩٤٨ رقم ٦

اكثر قواتنا متحشدة امام الشجرة في منطقة الناصرة . مشتبكون على طول

جبهتنا الغربية . نتمم استعداداتنا لهجوم قوي باتجاه العفولة . اعلمونا موعد حركاتكم .

الامضاء – فوزي

ولكن ...... ليس من جواب .

***

اصبح العتاد أغلى قيمة من الدماء

المعارك تدور على طول الجبهة عدا منطقة المالكية – قدس – بليدة . ونشعر ان العتاد اصبح عندنا اغلى قيمة من الدماء . وكانت المعركة الدائرة في الشجرة اشد هذه المعارك واقساها ، فقد كان اليهود يستميتون لطرد قواتنا عن التلال المشرفة على الشجرة ، ليقطعوا علينا طريق الناصرة ، ويطمئنوا الى سلامة العفولة وطبريا . ولهذا الفرض كانت النجدات اليهودية تتدفق على جبهة الشجرة بدون انقطاع . واضطررت الى اخذ شيء من عتاد قواتنا في المواقع القليلة التي كان يسودها الهدوء يومئذ ، لكي انجد به مواقع الجبهة المحتدمة فيها المعارك ، تاركا مصير الاولى الى القدر . وكان القتلى والجرحى من جنودنا ، يزداد عددهم بين لحظة واخرى . وكانت البرقيات في طلب العتاد من مختلف انحاء الجبهة تتدفق عليّ بدون انقطاع .

وفي ١٢-٧-١٩٤٨ تلقيت برقية من الرئيس اديب الشيشكلي هذا نصها :

من اديب الى فوزي

ردت المصفحات لنفاذ عتادها .

الامضاء – اديب

وقد كان هذا الضابط ، ومركزه في الرامه ، مسؤولا عن تموين جبهة الشجرة فقط . لقد غدا الموقف حرجا جدا وخطرا جدا لا يمكن التغلب عليه الا بالانسحاب من تلال الشجرة وتعريض منطقة الناصرة كلها للسقوط ، او بأن نعمل المستحيل ، ونغامر في محاولة لطرد اليهود والاستيلاء على قاعدتهم مستعمرة الشجرة . رغم وفرة العتاد لديهم والاسلحة الثقيلة الجديدة ، والقوى الاحتياطية التي تصل الى الميدان . ورتبت قوة هجومية تقوم بهذه المغامرة على ان احرم بعض

انحاء الجبهة من بعض مدافع ومصفحات لمساندة الهجوم وحماية المهاجمين . وفي ليل ١٢ – ١٣ تموز قمنا بهذه المغامرة ، فاستبسلت قواتنا المنهوكة بعد ان كان قد مر عليها ستة ايام بلياليها في قتال مستمر ، واندفعت اندفاعا جنونيا يائسا ، فسحقت القوات اليهودية سحقا غير مبالية بكثافة نيرانها ، من مدفعية – مصفحات – رشاشات – بنادق – تسير على جناحها الايسر مصفحاتنا الاربع ، تحميها وتسهل لها التقدم حتى وصلت الى منعرج الوادي الواقعة فيه مستعمرة الشجرة، ودخلت المصفحات المستعمرة ، واستمر اليهود في انهزامهم . وتلقيت في ١٣–٧–١٩٤٨ برقية رقم ١٣٩ من مهدي الى فوزي تعلمني بذلك .

قضينا بهذا الانتصار على مستعمرة الشجرة ، القاعدة اليهودية الخطيرة . وأصبح طريق العفولة مفتوحا أمامنا . فما الحيلة لاستثمار هذا الانتصار ؟ وكيف نستطيع الصمود في هذه الجبهة ونحن لم نتمكن من تعويض نقطة واحدة من الدماء التي بذلناها ، وطلقة واحدة من العتاد الذي أحرقناه ، ثمنا لهذا الانتصار. وكانت خسائرنا : ١ – آمر فوج حطين الرئيس مدلول جرح وخرج .

٢ – وكيل آمر الفوج الملازم عبد الله محمود جُرح واستمر يقاتل جريحا حتى خارت قواه من النزيف .

٣ – الوكيل الثاني لآمر الفوج استشهد .

٤ – آمر السرية الثالثة الرئيس كمال عبد الله جُرح ، الملازم طهبوب جُرح ، والملازم جابر استشهد ، والملازم هرقزنة استشهد ، والملازم عبد الله الاسود استشهد . ولم يبق من هذه السرية سوى ١٦ جنديا (السرية عادة ١٢٠) ولا تختلف حالة بقية السرايا كثيرا عن هذه الحالة . وتلقيت برقية من الرئيس عامر تكمل هذه الصورة ..

١٣–٧–١٩٤٨ الساعة ٧و٤٠ رقم ١٤٨ من عامر الى فوزي .

تحشيدات للعدو في كفرسيت (بالقرب منمستعمرة الشجرة) مدافعها الثقيلة العيار تقصف مواقعنا بشدة . القتلى والجرحى عندنا بازدياد . الاجهاد المتواصل انهك الجنود . الآخرون لا يوجد لديهم عتاد .

الامضاء – عامر

يجب ان يعلم العرب ، وتعلم الاجيال المقبلة هذه الحقيقة .. ان تخلينا عن تلك

المنطقة لم يكن نتيجة لارادة اليهود النصر ، اكثر مما كان نتيجة لارادة العرب «بعض العرب» القهر ، قُهرنا فقهرنا ....

***

هل هناك مؤامرة مع العدو لدخول الناصرة

كان لنا في الناصرة سرية تعاونها قوة من الشرطة الفلسطينية العربية يبلغ عددها ١٧٥ شرطيا ، وحرس من الاهلين المسلحين يبلغ عددهم المايتين . وفي القسم الغربي من الناصرة ، كانت قوة من المسلحين على رأسهم «ابو ابراهيم» يبلغ عددهم ١٥٠ ، كانوا مسلحين برشاشات عديدة ، وبنادق ضد المصفحات . وكانت هذه القوة تابعة للهيئة العربية العليا . على ان ابا ابراهيم كان يراجعنا بين الحين والحين ، طالبا منا المساعدة بالعتاد فنساعده بأكثر مما نستطيع . والى جانب هذه القوات كان هناك ما يقرب من مائتي مسلح من اهل الناصرة نفسها . وكانت خطة الدفاع عن الناصرة ، قد رسمها آمر جبهة منطقة الناصرة طبقا لارشادات القيادة، وبالاتفاق مع رؤساء المقاتلين المحليين . فحفرت هذه القوات خنادق ، وأقامت تحصينات ، وبثت ألغاما في بعض الاماكن ، ذلك كله بالتعاون مع الاهلين . وكان في صفورية ، التي تبعد نحو ٥ كيلومترات الى شمال الناصرة ، قوة من المقاتلين المحليين على رأسهم ابو محمود الصفوري يبلغ عددها حوالي ماية مقاتل ، وهذه ايضا كانت مرتبطة بالهيئة العربية العليا . وكان لنا فصيل واحد من فوج حطين في قرية شفا عمرو ، يساعده مسلحون من القرية يبلغ عددهم ١٢٠ مسلحا ، وعلى اساس هذه الترتيبات كان يمكن اعتبار الناصرة محمية ضد هجوم يهودي يأتي من الغرب او من الشمال الغربي . اذ ان مجموع هذه القوات المخصصة للدفاع عن الناصرة ، يبلغ ضعف القوة المدافعة عن الشجرة العربية . فالموقف اذن من هذه الناحية على الاقل يدعو الى الاطمئنان . وتمكنت بذلك من تلبية اصرار وزير الدفاع اللبناني الامير مجيد ارسلان عليّ ، في الحضور الى بيروت ، لعل في ذلك بابا للفرج ، فذهبت الى بيروت فعاليه ، لحضور الاجتماع الذي كان منعقدا بتاريخ ١٥ تموز ١٩٤٨ في دار السيد عمر الداعوق . ولقيت «الميرالاي» صبور وأمين الجامعة السيد عبد الرحمن عزام ، ثم رئيس الوزارة السورية جميل مردم ورئيس الوزارة اللبنانية رياض الصلح والقائد العام للجيوش العربية اللواء نور الدين محمود . وفاجأني السيد عزام بأنباء ما يعالجونه من مشاكل خطيرة تتعلق بالقيادة العامة العليا ، وما هناك من عبث بأوامر هذه القيادة . وحدثني عن عدم الثقة بين الجيوش ، الامر الذي حال دون تعاونها المشترك في القتال . وعن النقص في العتاد لدى كل جيش . ثم قال لي ، انه يعتقد ان الملك عبد الله عازم على ان ينسحب من القتال ، متأثرا بعامل «تفكيرهم» في انشاء حكومة او «دولة عربية في

فلسطين برئاسة المفتي . ثم سألني قائلا : اذا انسحبت شرق الاردن من القتال ، هل في استطاعة جيش الانقاذ ان يسد الفراغ الذي يتركه الجيش الاردني ؟.. فقلت : الا تذكر انني كنت اقترحت عليك ابقاء جيش الانقاذ في مواقعه الاولى ، يوم اجتمعنا في عمان ، وكانت الجيوش العربية النظامية تدخل الى فلسطين ، ربما يكون الوقت قد فات الان فان الجليل بحاجة الى من يحميه . وعدت اقول لعزام هل تنوون اعطاء عتاد لجيش الانقاذ ، ليستطيع حماية الجليل . ان المقاتلين المحليين هم ايضا يشكون ما نشكوه نحن ، فأجابني جوابا موجزا بليغا . ولم يكن جواب اي واحد من المجتمعين ليختلف في الجوهر عن جواب عزام .

غادرت مكان الاجتماع وفي نفسي كثير من المرارة . وفي مساء ذلك اليوم نفسه تلقيت البرقية التالية :

١٥–٧–١٩٤٨ الساعة ١٧ رقم ١٥٣ من عامر الى فوزي .

بعد معركة شديدة تمكنّا من استرجاع تل التين واصبح طريق لوبيا – الناصرة امينا . خسائر العدو كثيرة . نيران المدفعية تتعرض لتمركزنا . اخبرني مساعد فوج حطين ان شفا عمرو سقطت بيد اليهود واعتقد بدون قتال .

الامضاء – عامر

فكانت اكثر البرقيات التي تلقيتها خطورة واشدها تأثيرا في نفسي . ايكون هناك مؤامرة ما ، دبّرها اليهود للنفاذ الى الناصرة بعد المحاولات العسكرية والمعارك الكثيرة التي كلفتهم ضحايا وخسائر لم تكلفهم مثلها بقية المعارك مجتمعة . وصممت على الذهاب الى الجبهة . وابرقت الى المقدم صفا آمر لواء اليرموك الاول ، ان يرسل سرية سعدون البدوية بسرعة ، وهي من اقوى سرايا اللواء ، لتكون تحت تصرف آمر منطقة الناصرة المقدم مهدي صالح . وفي الساعة التي كنت أهم فيها بركوب السيارة تلقيت البرقية التالية :

١٦–٧–١٩٤٨ الساعة ٧ صباحا مهم ومستعجل جدا

من مساعد حطين الى فوزي

صفورية مطوقة برتل من الدبابات اصبح على بعد كيلومتر من الناصرة . صفورية على وشك السقوط . انقذوا الموقف .

الامضاء – مساعد حطين

وصلت الى مقر القيادة وتفكيري متركز كله : اولا – في كيف انقذ الموقف ، ثانيا – ما هو العامل الرئيسي الذي جر الى هذا الوضع . واذا ببرقيات تنتظرني هذه هي نصوصها :

١٦–٧–١٩٤٨ الساعة ٩ر٢٥

الساعة ٩ر٢٥ من اسماعيل «اي الصفوري قائد المسلحين» الى فوزي

دخل اليهود بدباباتهم الثقيلة «تشرشل» صفورية . المعركة تشتد على ابواب الناصرة . الاهالي يهربون . انقذوا الموقف ..

وبرقية اخرى من اسماعيل نفسه في النهار نفسه :

الهجوم يشتد على الناصرة . الاهالي يرفضون المقاومة . رئيس البلدية يطلب عدم المقاومة خوفا من تدمير المدينة اذا سقطت بيد اليهود .

وبرقية ثالثة هذا نصها :

١٦–٧–١٩٤٨ من اكرم الى فوزي

اهالي الناصرة يرحلون . البوليس هرب . الموقف حرج جدا . المعنويات منهارة . لا يوجد بنزين . اليهود يهاجمون من كل الجهات . انقذوا الموقف .

الامضاء – اكرم مساعد فوج حطين

امرت حالا بسحب سرية حطين والسرية اليمنية وسرية سعدون « السرية البدوية» من جبهة الشجرة ، مع كل ما لديهم من مصفحات ، وسوقهم بقيادة المقدم عامر رئيس ركن الجبهة ، الى الناصرة ، للحيلولة دون سقوطها . وقبيل هذا بقليل اي في الساعة ١١ر٣٠ دقيقة تلقيت من المقدم مهدي صالح برقية رقم ١٩٤ هذا نصها :

من مهدي الى فوزي مستعجل جدا .

١٦ / ٧

اهل الناصرة يرحلون باستمرار . حاولنا منعهم فرفضوا . يؤثرون على

معنويات الجنود بدعاياتهم . الحالة خطرة . يوجد حركة يهودية من جبهة طبريا . ربما تكون استعدادا للتقدم نحو المغار . ارسلوا قوة للمحافظة على المغار التي تقع خلفنا .

الامضاء ــ مهدي

من اين وكيف اسد هذه الثغرة ؟ واصد هذه الحركة الخطيرة الواسعة ؟... ان احتلال اليهود للمغار ، معناه شطر جيش الانقاذ المنهمك بالقتال في جبهة الشجرة والناصرة ، الى شطرين والقضاء عليه . لقد سحبت من مختلف انحاء الجبهة اكثر مما يمكن ان يتحمل الموقف سحبه من قوات لدعم جبهة الناصرة ، واصبحت مواقعنا في كل مكان عدا هذه الجبهة ، لا تقوى على تحمل ضربة واحدة . وبالرغم من هذا سحبت سرية من جبهة ترشيحا التي كانت تدور فيها معركة حامية ، لصد الهجوم عن المغار ، وارسلتها الى الناصرة ، فاشتبكت مصفحاتنا مع الدبابات اليهودية على طريق الناصرة . وفي مساء يوم ١٦ــ٧ــ٤٨ اتتني برقية من المقدم مهدي يقول فيها :

صد الهجوم . غير ان العدو يبدي مقاومة شديدة . موقفنا جيد . سنقوم بهجوم بباقي القوى . فوج الحسين والسرية اليمنية على جناح العدو الايمن . سرية سعدون على الجناح الايسر سنوافيكم النتيجة .

الامضاء ــ مهدي

لقد تحسن الموقف قليلا . ولكن مصفحاتنا رغم استبسالها ، لن تستطيع رد الدبابات الثقيلة ، ولم يحاول جندي واحد من جنودها ان يترك مكانه . وكان طبيعيا ان يفشل الهجوم ، بعد ان زال ركنه الرئيسي وهو المصفحات . فأبرقت الى القيادة اللبنانية والقيادة السورية والى القيادة العامة العليا ، شارحا لهم الموقف ، طالبا منهم النجدة بما يستطيعون ، لتخفيف الضغط اليهودي ، وانقاذ الناصرة ، فكان الجواب اللبناني برقية هذا نصها :

١٧ــ٧ــ١٩٤٨ رقم ٦١ من الامير مجيد الى فوزي

حركوا الدبابات اللبنانية حالا الى المعركة . ربما يتأخر احضار الحاملات وارسالها . انتظروا برقية اخرى . تحرك نحوكم المقدم شقير ومعه التعليمات .

الامضاء ــ مجيد

واصدرت امرا في الحال بتحريك هذه الدبابات ، ثم استفسرت عنها بعد قليل ، اين وصلت فتلقيت من الرئيس اديب الشيشكلي البرقية التالية :

١٨ــ٧ــ١٩٤٨ رقم ٩ من اديب الى فوزي .

الدبابات اللبنانية معطلة في سعسع .

الامضاء ــ اديب

ومعنى ذلك انها تبعد عشرين كيلومترا ، او اكثر عن الناصرة ، وفي اليوم نفسه تلقيت من القائد العام للجيش السوري هذه البرقية :

الى نور الدين القائد العام وفوزي .

شوهدت ستين سيارة باتجاه طبريا ــ رشبيليا يرجى عمل حاسم للتخفيف . اسلحة العدو وافرة ثقيلة .

الامضاء ــ شجاع

وتستمر قواتنا في الدفاع عن الناصرة ، وليس بينها وبين القوات اليهودية المهاجمة ، اية نسبة على الاطلاق من حيث العدد والمعدات ، وكثرة الآليات . وتذوب هذه القوات من ساعة الى ساعة تحت نيران العدو .

ودخل اليهود الناصرة من جهتين : الغربية ، والغربية الجنوبية ، واصبحت قواتنا المدافعة الضئيلة ، هدفا لنيران مختلفة ، فانسحبت مهشمة مشتتة ، ولم يسلم من جرحى جنودنا الا القليل . لقد دافع جيش الانقاذ ببطولة وصبر نادرين، عن تلك المنطقة طيلة تسعة ايام كاملة ، اذ انه قد ترك في الميدان اكثر من ثلثي عدده بين قتلى وجرحى . لقد قام جيش الانقاذ بواجبه بطراز مثالي البطولة .

★★★

بعد سقوط الناصرة

سقطت الناصرة، وضاعت بهذا السقوط فرص لا تعوض . واصبح همي الوحيد الان ، سحب قواتنا المشتبكة بالقتال في الشجرة ، بأقل ما يمكن من الخسائر ،

واتخاذ خط جديد وترتيبات جديدة ، لتثبيت الجبهة بما لديّ فقط من قوات ووسائل . مع علمي ان القوات اليهودية ، اذا استمر الوضع عندنا كما هو ، من حيث الفقر في الرجال وفي العتاد ، في استطاعتها ان تكتسح الجليل كله ، حتى الحدود اللبنانية .

لم يبق للشجرة اية قيمة بعد سقوط الناصرة . وأخذ النشاط الجوي اليهودي يزداد ضد قواتنا التي كانت تقاتل لا يفصلها عن العدو الا أمتار ، بينما اخذت قوة يهودية تتقدم من الناصرة نحو الشجرة ، ومن طبريا نحو لوبيا ـ الشجرة ، وأصبحت قواتنا معرضة لخطر التطويق فالابادة ، فوضعت السرية البدوية ، في وجه القوة اليهودية الآتية من الناصرة . والسرية اليمنية في وجه القوات الآتية من طبريا . وذهبت بنفسي لانقاذ قواتنا في الشجرة . وأخذنا نتظاهر بهجوم على القوات اليهودية هناك ، بمفارز صغيرة ، بينما اصدرت امرا للسرايا بالانسحاب واحدة بعد الاخرى . فتمت عملية الانسحاب لآخر جزء من قواتنا ليل ١٧ـ١٨ تموز بخسائر كانت تكون طفيفة ، لولا عمل القصف الجوي المتواصل ، ليلا نهارا. وكانت حركة الانسحاب هذه تتم مشيا لقلة وسائل النقل ، وفقدان البنزين . وكنت قررت اتخاذ خط عيلبون ـ كفرمنده ، خطا اساسيا الدفاع ، مع ترتيبات اضافية تمكننا من السيطرة على سهل البطوف، الواقع شمال صفورية. وترتيبات اخرى في قرية معاوية ، التي تبعد كيلومترا واحدا عن بحيرة طبريا . ومن جهة الغرب خطا يمتد من غربي كفرمنده ، باتجاه قرية كابول ، ـ شعب غربي مجد الكروم ـ يركة ، حتى ايكريت وتربيخا شمالا . وكان خطنا هذا ، يبعد عن الشجرة اربعة كيلومترات ، وعن صفورية ما يقارب هذه المسافة الى الشمال . اخذت وحداتنا مواقعها الجديدة ، وأنا مصمم على الدفاع لمنع اليهود من التغلغل داخل الجليل ، مع علمي ان قواتنا في حالة رثة منهوكة الاعصاب ، لما تحملته من شدائد القتال والحرمان المستمر ، خلال الايام التسعة الفائتة ، وجرحانا يملأون الاماكن التي اتخذناها مستشفيات ، في الرامة وبنت جبيل وصور وبيروت . وبالرغم من هذا كله ، فقد كان مجموع الجنود يحافظون بالجملة ، على رباطة جأشهم ومعنوياتهم الممتازة .

وفي ١٨ تموز وقواتنا لم تكد تستقر بعد على الخط الجديد ، بدأ اليهود بهجوم تسانده الدبابات والطائرات باتجاه عيلبون . وهجوم آخر في النهار نفسه على ترشيحا . وهجوم ثالث على ميرون في جبهة صفد وعلى طبطبة ، وعلى مجد الكروم ، فاشتبكت قواتنا مع العدو على طول الجبهة في خطوطها الجديدة ، بقتال عنيف استمر نهار ١٨ وليل ١٨ ـ ١٩ تموز . وكان الغرض من هذا الهجوم ظاهرا وهو ان يرمي اليهود بقواتنا الى الشمال قبل ان تستقر في مواقعها او تأتيها نجدات ، لينقضوا على جيش الانقاذ ، ويحتلوا الجليل كله . على ان جنودنا تمكنوا من صد هذه الهجمات كلها يوم ١٩ تموز ، ولكن مستودعاتنا اصبحت فارغة،

فكنت أعمل كل ما في وسعي لتجنب المعارك ، الى ان يتيسر لي الحصول على شيء من العتاد ، بواسطة رياض الصلح والامير مجيد ارسلان . وفي هذه الفترة فوجئنا بهدنة جديدة تبدأ في الساعة ١٧ والدقيقة ٣٠ من ١٩ تموز ١٩٤٨ فأبلغت وحدات الجيش قرار الهدنة ، وطلبت منهم ألا يعتدوا في خلالها ، على ان يردوا كل اعتداء بشدة ، دون ان ينتظروا اي امر . وكانت هذه الهدنة ، تختلف في جوهرها ومظهرها عن الهدنة الاولى كل الاختلاف ، وقد اصبح اليهود حقيقة ومظهرا أقوياء، وأصبح العرب بالعكس رغم ما جاءت به الجيوش العربية من قوات جديدة . وكان ملحوظا ان فرح قواد الجيوش العربية بهذه الهدنة ، لا يقل عن فرح الساسة الذين عقدوها . وبقي الامر كذلك حتى حل محل هذه الهدنة هدنة دائمة ، وقعت فيها الحكومات العربية الواحدة بعد الاخرى على صك من العار لا يُمحى ، وبنى عليه اليهود «دولة اسرائيل» في الارض العربية المقدسة .

وكل جيش عربي قاتل في خلال هذه الهدنة انما قاتل مرغما ، ردا لعدوان يهودي ، وحبا بالبقاء ليس الا . عدا جيش الانقاذ ، الذي استمر يقاتل غير متقيد بهدنة ، وحمل اليهود غير مرة على الشكوى ولم يشك مرة واحدة . وكان الهجوم اليهودي في جبهة ترشيحا ، يستمر بشدة هائلة ، نظرا لما كان يتلقاه العدو في هذه الجبهة من نجدات متواصلة . وأصبحت ترشيحا في خطر السقوط في أيدي اليهود ، وبسقوطها تنفتح ثغرة امام العدو ، ويستطيع ان ينفذ منها الى قلب الجليل ، ويشطر قواتنا الى شطرين في الجنوب وفي الشمال ، فينتهي الامر بضياع الجليل بكامله ، ولم يكن في الامكان انقاذ الموقف الا بمعجزة ، في نواح من الجبهة ، صدت فيها الهجمات اليهودية ، فأخذت من قوات هذه النواحي ما أمكن من عتاد ، وقذفت به الى جبهة ترشيحا ، وقررت ارسال بطارية من المدفعية اليها. واضطرتني قلة العتاد الى ارسال مدفعين فقط .

وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح ٢٠ تموز كانت الطائرات اليهودية ذات المحركين والاربعة محركات ، تقصف مواقع قواتنا الخالية ساعتئذ ، لان هذه القوات كانت قد تركت مواقعها ، في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة تماما ، لتقوم ، بهجومها المعاكس على اليهود . وبدأ اليهود يتراجعون عن ترشيحا ، ثم انقلب تراجعهم الى هزيمة ، امتدت الى اكثر من عشرة كيلومترات غربي ترشيحا، فاستولينا على كثير من الغنائم ، منها مصفحتان اميركيتان استخدمناهما في المعركة نفسها لمطاردة المنهزمين . وبعد فشل الهجوم اليهودي هذا ، ساد الجبهة كثير من السكون . وجاءني يوما مدير الصحة في جيش الانقاذ ، يطلب مني سيارات لنقل مستشفى الرامة ، فدهشت من هذا الطلب وسألت عن السبب فيه ، فعلمت ان المقدم اديب الشيشكلي كان اخذ يطوف في القرى، معلنا آنسحاب جيش الانقاذ من المنطقة كلها ، وانه هو الذي انذر مدير صحة الجيش لترحيل

المستشفى الى صور ، فاضطررت عندئذ الى سحبه من المنطقة وارساله الى دمشق وأبرقت الى المفتشية العامة البرقية التالية :

٢٠-٧-١٩٤٨ رقم ١٣٦ من فوزي الى الهاشمي

بناء على طلب المقدم الشيشكلي الالتحاق بالجيش السوري سلمنا قيادة اللواء الثاني الى الرئيس عامر مؤقتا . يبقى المقدم شقير رئيس اركان جيش الانقاذ. ارجو موافقتكم وارسال آمر للواء اذا كان ذلك ميسورا .

وذهب اديب الشيشكلي ولم يأت بدلا منه .

وكنت قد تلقيت في مساء ١٩ تموز برقية من وزير الدفاع اللبناني هذا نصها:

١٩-٧-١٩٤٨ الساعة ١٩و٢٠ دقيقة رقم ١ .

من وزير الدفاع الى فوزي

جميل مردم وعزام باشا في بيروت . ان امكن حضوركم غدا . فانهما اخرا سفرهما لهذه الغاية .

الامضاء - وزير الدفاع

وقبيل مغادرتي مقر القيادة الى بيروت ، تلقيت من القيادة العامة العليا برقية هذا نصها :

٢١-٧-١٩٤٨ الساعة ٩ و٣٥ دقيقة .

يهاجم اليهود منذ الساعة السادسة من يوم ٢٠ القرى العربية المنعزلة .. اجزم - جبع - عين غزال بالمشاة والمصفحات والطائرات . ارسل اكبر ما يمكن من قواتك لمساعدتهم فورا . اعلامنا .

الامضاء - صلاح الدين «نور الدين»

كانت هذه البرقية اكبر صدمة نفسية اتلقاها في فلسطين ، فقد اثبتت لي من جديد ، هذا الجهل المطبق العجيب المستولي على القيادة العامة ، والذي لم

يذهب به الاختبار ، بعد وجود هذه القيادة مدة من الزمن في فلسطين . ان القرى التي تسميها البرقية ، تقع الى جنوب حيفا ، وفي منطقة الجيش العراقي . ويفصلنا عنها كما بينت سابقا ، ما لا يقل عن خمسة وعشرين كيلومترا «خطا هوائيا» عدا المستعمرات اليهودية التي تعادل اكثر من نصف المستعمرات جميعا .

وصلت الى بيروت في ٢١ تموز تلبية لرغبة وزير الدفاع اللبناني ، وكان الهدوء قد ساد الجبهة كما ذكرت آنفا وهو هدوء آني سيعقبه حركات قوية من غير شك ، بعد ان ينظم اليهود قواتهم من جديد . وعلمت ان الاجتماع الذي دعيت اليه ، معقود في بيت رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح في عاليه ، وكان هناك جميل مردم رئيس الحكومة السورية والامير مجيد ارسلان وعبد الرحمن عزام وعبد الجليل الراوي من المفوضية العراقية . وبدا عزام يتكلم عن الحالة السيئة وانسحاب شرقي الاردن من القتال ، وغير ذلك من امور ، متذمرا من الحالة. فالقضية لا يزال ربحها بين ايدينا ، اذا كان هناك جد في الامر ورغبة خالصة في القتال . وان الامر ينحصر في ما يتعلق بي في قضية العتاد ، واذا كان هذا غير ممكن فالمجال بعدها للتألم واليأس ، لان فلسطين تضيع حتما ، واضفت الى ذلك قولي انه لم يعد سرا سخط الشعوب العربية على حكوماتها ، وان هذه الشعوب بدأت تفقد الثقة بالجيوش ، وهذا امر خطير جدا ، اذ ان الجيوش ليست ضعيفة ولا جبانة . ثم قلت ما خطب هذه الهدنة ؟ وما العوامل التي ادت الى عقدها ؟ الجيوش العربية بلغت من القوة ضعف ما كانت عليه يوم الهدنة الاولى . فانبرى السيد عزام للجواب وقال : ايوه . ذلك ان ضغط الاميركان والانكليز علينا كان شديدا جدا «وعلى شان كده احنا عاوزين نتكلم معاك» وحتى هذه النقطة من الحديث لم ار سببا معقولا لطلبهم مني حضور هذا الاجتماع . ثم قال عزام : سنجتمع بك الساعة الثالثة بعد الظهر في بيت الامير مجيد ونتكلم مطولا .

***

بين خدمة المبادىء وخدمة الاشخاص

كان الاجتماع في دار وزير الدفاع اللبناني مجيد ارسلان ، مقتصرا على رياض الصلح وعبد الرحمن عزام والقائم بأعمال المفوضية العراقية عبد الجليل الراوي . وبعد برهة وجيزة فاجأنا سماحة المفتي الحاج امين الحسيني وكأنه آت لزيارة الامير مجيد ، دون ان يكون لديه سابق علم بهذا الاجتماع . وكنت جالسا الى جانب السيد عزام فدعا هذا سماحة المفتي للجلوس الى جانبه الآخر وراح امين الجامعة يبسط بفصاحة وألم الحالة السيئة التي وصل اليها العرب في فلسطين، والتفت الي وقال : وهذا يقتضي يا فوزي ان تتعاون وسماحته . واجبت عزام

ان سماحة المفتي لا يثق بي ولا انا أثق به . وأنت تعلم انني أخدم قضية ومبادىء، ولا يعنيني امر الاشخاص الا بقدر ما يخدمون هذه القضية وهذه المبادىء . قال عزام يا فوزي ، كلنا فينا عيوب . ولكن الظروف الحاضرة تقضي علينا بتناسي الماضي . قلت لعزام : وعلى اي شيء تريد ان نتعاون .. قال اننا نقوي جيش الانقاذ بما تطلب من سلاح وعتاد ، وننشىء جيشا فلسطينيـــــا بقيادة المفتي ، وتتعاونان على القتال .. وبذلك يكون لنا قوة غير نظامية تستمر في القتال غير متأثرة بضغط اميركا وبريطانيا ... في جيش الانقاذ شبان فلسطينيون يقاتلون معنا ، وزيادة عددهم لا تتطلب قيادات جديدة ، والذي أعلمه انك انت نفسك شكوت أمامي كثيرا من تعدد القيادات . على انه اذا كان المقصود تسمية المفتي قائدا ، فالامر بسيط .. ولكن من اين لكم ان تجهزوا هذا الجيش وتسلحوه ؟.. قال في مقدورنا ان نفعل . قلت وفي مقدوري ان أقاتل على هذا ، ما دمتم توفرون السلاح والعتاد لجيش الانقاذ .

كل ما يهمني ان تقرروا المضي في الحرب . موفريـــن الوسائل للحرب . فالنتيجة التي تنتظرنا فاجعة ، اذا لم تبادر الحكومات العربية في الحال الـــى امدادنا بالسلاح الثقيل والعتاد . وأوضحت له ذلك بصراحة تامـــة وبالارقام . فطلب مني رئيس الحكومة اللبنانية ان اضع له على الورق كل ما يحتاج اليه جيش الانقاذ من سلاح وعتاد ، ففعلت وسلمته اللائحة ، فقال ان ما يترتب من هـــذه الكمية على الحكومة اللبنانية اعدك الان انني سأسلمه لك . وانني سأسعى لدى بقية الحكومات العربية لتسلمك ما يترتب على كل واحدة منها . وقد وفى رياض الصلح بوعده ، اما بقية الحكومات فلم تفعل شيئا .

ورحت أسائل نفسي عما يمكن ان يكون الغرض من محاولة السيـــد عزام هذه .. فيما اذا كان جادا ، فتجلى لي ان الغرض الاول منها قد يكون طرح العبء عن الحكومات العربية ، والقاء المسؤولية على أكتاف هذه القـــوات ، ليوهموا الشعوب العربية ، ان الفشل اذا هي فشلت ، وستفشل حتما بهذه الشروط ، ليست الحكومات والجيوش النظامية مسؤولة عنه .

وانصرف المجتمعون وبقي المفتي وحده ، فاستدعى اثنين من الذيـــن كانوا ينتظرون خارجا نتيجة هذا الاجتماع ، من رجاله احدهما «ابو ابراهيم» والآخر «محمود الصفوري» وكانا يقاتلان الى جانب قواتنا ، ولكنهما مرتبطان بالمفتي يصدر اليهما الاوامر لجمع رجالهما في أماكن حددها لهما . وانصرف كل من المجتمعين الى شأنه ، ولم ينفذوا شيئا مما اتفقوا عليه حتى الان .... واختفى سماحـــة المفتي ، ولم يظهر الا عند تشكيل ما سموه حكومة عموم فلسطين ... في غزة . اما انا فعدت الى الجبهة صفر اليدين من العتاد ومن ... لعلي استطيع القول، الآمال ... على انه من ناحية اخرى كانت تبدو لعيني مظاهر الحب والتقدير

لهذا الجيش من ابناء الشعوب العربية وتتجسم لي الهوة التي بين هذه الشعوب وبين حكوماتها . ومرت كذلك امام عيني ، صور للمؤتمرات والاجتماعات العربية المتتالية ، التي عقدت من اجل فلسطين ، وأخذت أفكر فيها ، فلا ارى غير عامل واحد كان يوحيها، هو عامل الرغبة في التظاهر بالحرب التي لم يعدوا لها معداتها، فتورطوا وشعروا متأخرين بهذا التورط ، وأصبح همهم الوحيد الخروج من الوهلة التي رموا انفسهم فيها ، لا يسألون عن ثمن مهما يكن ، الا ان يكون القتال . وصلت الى مقر القيادة في ٢٣ تموز ١٩٤٨ فجمعت ضباطي وأطلعتهم على ما وقع لي في هذا الاجتماع . وما كدت انتهي من حديثي معهم ، حتى بدأت البرقيات تنهال عليّ منبئة بهجوم يهودي جديد على الموقع الجنوبي من الجبهة الغربية . هجوم على قرية سخنين تسانده المدفعية والطائرات . وتقاتل فيه قواتنا ببسالتهـــا المعتادة وتنتهي البرقيات بطلب العتاد ، فحاولت كالعادة ان أحرم القوات غير المشتركة في القتال الدائر شيئا من عتادنا .. فان املا كان يخامرني في ان عتادا سيصل الى الجبهة قريبا من لبنان . اما العتاد الانكليزي فقد كان يكاد يشرف على النفاذ، وأصبحت أعني بالطلقة الواحدة منها عنايتي بنقطة الدم . وتغرب شمس ذلـــك النهار والمعركة مستمرة فأتلقى من آمر الموقع الجنوبي في الجبهة الغربية ، المقدم صفا هذه البرقية :

٢٣ـ٧ـ١٩٤٨ رقم ٢١ من صفا الى فوزي .

الساعة الان الثامنة والنصف . لا تزال المعركة دائرة في قطاعي سخنين ـ شعب ـ ميعار ، منذ الخامسة صباحا . ادركنا بذخيرة انكليزية .

الامضاء ـ صفا

وتوقفت المعركة عند منتصف الليل ، ثم استؤنفت في صباح ٢٤ واستمرت حتىانتهت بعد الظهر بانتصار لقواتنا، وهزيمة لليهود، الذين تركوا في الميدان كثيرا من الاسلحة ، استولينا عليها وعلى مصفحتين صالحتين وسيارة جيب . وبانتهاء المعركة انتهت عندنا الذخيرة الانكليزية . وأصبحت حائرا في كيـــف أدبر شيئا منها . وجدير بالذكر انه بعد الهدنة الثانية اخذنا نشعر ان السلاح اليهودي قـــد توحد ، فقد كانت البنادق التي تقع بين ايدينا ، من العدو ، كلها المانية صنـــع تشيكوسلوفاكيا وعليها الشعار اليهودي .. النجمة المعروفة . وقد كانت قبل ذلك بنادق المانية عليها النسر الالماني والصليب المعكوف ، طراز ١٩٤٥ فكنا ننتفع بما نغنمه من اليهود احيانا ، من عتاد الماني بعض النفع . وكان السلاح اليهودي الاخير يدل على ان اليهود بدأوا يسخرون مصانع معينة لتصنع لهم الاسلحة باسمهـــم الخاص ، وبعد الانتصار وصل اليّ من المفتش العام لجيش الانقاذ البرقية التالية:

٢٤ـ٧ـ١٩٤٨ الساعة ١٤ و١٥ دقيقة رقم ٥٦١٢ .

نظرا للموقف المالي امنعوا تجنيد المتطوعين في الافواج بدلا من المسرحين والشهداء .

الامضاء ـ الهاشمي

لقد وعدوني منذ يومين بزيادة عدد جيش الانقاذ ، فما حدث في هذين اليومين .. قطع للعتاد وتنقيص للعدد وتأخير للرواتب «وو ....» ان هذا لكثير. أيرمون الى ان يزجونا في وضع لا نستطيع معه القتال ؟ فينفسح المجال للعدو ، ويحتل كل يوم قرية او منطقة ونحن نتفرج ؟ اننا لا نستطيع ان نكون متفرجين . وسأقاتل ما دمت على رأس هذا الجيش . او سأتخلى عن القيادة . المهم أن يقاتلوا . لانني أعتقد انهم اذا قاتلوا عمليا فسينتصرون . وقررت ان استقيل من القيادة ساعة أطمئن الى شيء من الاستقرار على الجبهة بطولها .



المساومة على أرواح جنود جيش الانقاذ
استقالتي من قيادة الجيش

المعارك مستمرة في ٢٥ و٢٦ و٢٧ تموز ١٩٤٨ في قطاع ترشيحا ومجد الكروم وسخنين وكفرمند ، وعيلبون . معارك عنيفة تنزل باليهود كثيرا من الخسائر في الارواح والسلاح . وتلقيت بعد هذه المعارك وخصوصا معركة ترشيحا من المقدم مهدي صالح البرقية التالية :

٢٥ـ٧ـ١٩٤٨ الساعة ٧ و٥٠ دقيقة رقم ١٩٥ من مهدي الى فوزي

ذهب الوسيط الى اليهود لجلب عشرين شخصا منهم بناء على طلب اللجنة وموافقتنا لاخذ القتلى لان روائحهم تؤذي الجنود .

اخذت حدة المعارك تخف ، وجاءتنا لجنة من وسطاء الهدنة لوضع حد نهائي للقتال ، مقررة بقاء اثنين منهم في صفوفنا . واثنين في صفوف اليهود كمراقبين، واذا الهدوء يبسط جناحيه على الجبهة . ويلجأ اليهود الى السكينة .

وشعرت ان الحالة بدأت تستقر . ومرت مدة لم يقع فيها حوادث حربية . ولكن حوادث ادارية وقعت في جانبنا نحن فقط .. ذلك ان رواتب الجنود لم تدفع ، او دفع شيء الى البعض منهم ، ولم يدفع الى البعض الآخر ، مما سبب استياء شديدا في نفوس الضباط والجنود .

بينما كنت أعالج هذا الموضوع مع المفتشية العامة ، وغيرها من المراجع العليا، وصلني من امين الجامعة السيد عزام كتاب مؤرخ في ٢٩ـ٧ـ١٩٤٨ ، مضمونه ، ان الجامعة عزمت على تخفيض جيش الانقاذ ، نظرا لحراجة الموقف المالي عندهم، مع ان عزام نفسه منذ ايام قليلة جدا ، قرر ان يزيد عدد جيش الانقاذ ، ووعدني بذلك ، فما معنى هذا التراجع ؟. ان موقف هؤلاء الناس عجيب فعلا ...

وفي ٣٠ـ٧ـ١٩٤٨ أبرق المقدم صفا الى المفتش العام بطريق القيادة البرقية التالية :

لا يوجد لدى الفوج اللبناني بنادق مضادة للمدرعات . تفضلوا بارسال البنادق الثلاث الباقية لنا مع طلقاتها على وجه السرعة . وجودها بين أيدينا خير من بقائها في مستودعاتكم . نستنكر موقفكم ازاءنا ومساومتكم على أرواحنا .

الامضاء ـ صفا

لم تبق المسألة محصورة بي وحدي لاتداركها ، فقد بدأ ضباطي يشعرون بغرابة الوضع وشذوذه . وأخذ يسودهم جميعهم شعور غريب . وهنا قررت قرارا نهائيا ان أتخلى عن القيادة فأقدم استقالتي لعل في ذلك شيئا من الفرج والخير لجيش الانقاذ ، وقد فعلت . وهذا هو نص الاستقالة بالحرف ..

جيش الانقاذ ـ القيادة الرقم ١٤٧ التاريخ ٥ـ٨ـ١٩٤٨

سعادة الامين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا

وصل لي كتابكم المؤرخ في ٢٩ـ٧ـ١٩٤٨ المتعلق بعزمكم على تخفيض ملاك جيش الانقاذ الى النصف تقريبا . وقد فهمت بعد مباحثتي في الامر مع فخامة الهاشمي ، ان عزمكم على اتخاذ هذا الاجراء مبني خصوصا على الرغبة في تخفيف النفقات التي يتطلبها هذا الجيش في وضعه الحاضر ، وعلى الصعوبة التي تواجهونها في تسليحه وتموينه بالعتاد اللازم . قبل ان ادخل في تنفيذ هذه الصعوبات ، لا بد لي ان اعرض عليكم وضع جيش الانقاذ الحالي ، والواجبات العسكرية الملقاة على عاتقه . يرابط جيش الانقاذ على جبهة طولها ١٤٣ كيلومترا يتصل بها ١١ طريقا رئيسية ، تخرج من ٧ قواعد يهودية عسكرية كبرى . اما المنطقة التي يحتلها هذا الجيش وهي منطقة الجليل الاعلى ، فهي خيرة اراضي الجليل على الاطلاق ، وأكثرها سكانا وأخصبها تربة . وان كانت تضم جبالا شاهقة ومنيعة . ان تخفيض عدد جيش الانقاذ الى النصف لا يحل مشكلة العتاد ابدا التي يتخبط فيها هذا الجيش ، ولا نواقصه الاساسية ، التي رافقته منذ البداية .

تدركون هذا متى علمتم موجودنا من العتاد الحالي هو ١٨ طلقة لكل بندقيـــة انكليزية و٤٥ افرنسية و٦٥٠ طلقة للرشاش ، وبدون اية طلقة لمدافع الهاون على اختلاف انواعها . وكذلك للمدافع عيار ١٠٥ ولكن لدينا ٨٠٠ طلقة لمدفع عيار ٧٥ . ان تخفيض جيش الانقاذ الى النصف يعني بصورة جازمة لا يخالفني فيها اي قائد عسكري ، انني لا استطيع البقاء والاحتفاظ بالجبهة التي أرابط فيها . ويعني ضرورة الانسحاب الى مقربة من الحدود اللبنانية ، ان لم اقل الى داخل الحدود اللبنانية ، ويعني هذا فقدان الجليل بكامله ، اي اعطاء اليهود امكانيات اقتصادية وعسكرية وسياسية واسعة جدا ، وتكليف الدول العربية اعانة مائة الف لاجىء فلسطيني آخر . اما قضية استعادة ما سنفقد من الاراضي بواسطـــة جيش فلسطيني ، ينظر في انشائه الان ، فهذا امر خيالي . واذا تم يوما فسيكلف من الضحايا والاموال ما لم يكلف جيش الانقاذ جزءا منه طوال سنين ، هذا الجيش الذي خبر الحرب الفلسطينية ، مدة تسعة اشهر بدون انقطاع .

واني اود بعد هذا العرض الموجز ان اتطرق الى ناحية شخصية من القضية ، اراني مرغما على مصارحتكم بها خدمة للقضية الكبرى ، التي لاجلها تهون كـل تضحية .

لقد صرح فخامة الهاشمي انني «طمعت اكثر من اللزوم ولم اعمل ما يستحق الذكر » .

انني ادعي رغم هذا التصريح ، اني وجيش الانقاذ قد قمنا بتمام الواجب الملقى على عاتقنا ، وبشكل لا يستطيع اي جيش نظامي ان يأتي بمثله ، وســط الصعوبات التي بينتها لكم مرارا . صعوبات في التسليح والتمويـــن وفي انتقاء الضباط . ان ٧٥ بالمائة من هؤلاء في جيش الانقاذ ، لا يصلحون اما لسوء فـي الاخلاق واما للجهل ، وقل ذلك عن قسم كبير من الجنود، مع العلم انني رغم صفتي قائد هذا الجيش ، لم يكن لي اي راي في اختيارهم هذا ، عدا عن الصعوبات في المعاملات العامة .

لا اقول هذا دفاعا ، اذ انني على يقين انكم تقدرون هذه الاعمال ، وخصوصا الان بعد ان خاضت الجيوش العربية معركة فلسطين ، والتقى الجيشان العراقي والاردني مع العدو في نفس البقعة التي كان يشغلها جيش الانقاذ ، ويحافظ عليها، ويكيل للعدو الهزائم بالصورة التي تعلمون ولكنني اقول هذا ، لاني بت أشعر ان قسما من الصعوبات التي يواجهها جيش الانقاذ ، يبقى مستمرا ما دمت علــى رأسه . ان هذا الشعور يجعلني اطلب اليكم اعفائي من قيادة هذا الجيش ، لعل نواقصه تجد عندئذ دافعا لاتمامها ، او حافزا أشد لتلافيها ، فينظر الى تقويته

وامداده ، على اساس الواجب الحربي المطلوب منه . واني بانتظار قراركم بهـذا الشأن اتخلى عن القيادة وينوب عني المقدم شقير .

الامضاء ــ القائد فوزي القاوقجي

وقد ارسلت من هذا الكتاب نسخة الى كل من رئيس الوزارة السورية ورئيس الوزارة اللبنانية والى المفتش العام ، والجنرال شهاب ووزير الدفاع اللبناني . ثم سلمت القيادة الى المقدم شقير رئيس أركان جيش الانقاذ ، وهو من افضل ضباط الجيش اللبناني ثقافة عسكرية وخبرة وشجاعة ، بعد ان اطلعته على العوامــل التي حملتني على الاستقالة .

وبعد ان اتممت معاملات تسليم القيادة ابرقت الى الوحدات هذه البرقية :

٥-٨-١٩٤٨ الساعة ١٠ رقم ٢٠٣ مع نسخة الى الهاشمي .

أتغيب عن القيادة . مخابراتكم اعتبارا من غد الجمعة مع المقدم شقير الذي ينوب عني .

الامضاء ــ فوزي

وتركت الجبهة مستقرة . واذا كنت لم اذكر كلمة استقالة في مخاطبتي آمري الوحدات ، فذلك لكي لا اجعل للقلق والاضطراب سبيلا الى الصفوف .

وودعت ضباط المقر واتجهت الى بيروت ، فاجتمعت برئيس الحكومة اللبنانية الذي كان تسلم نسخة من كتاب استقالتي ، فأبدى لي تأثره وقلقه الشديد على الجبهة التي ترتبط مقدراتها بمقدرات لبنان . فشرحت له العوامل التي دفعتني الى التخلي عن القيادة . قال : لا يجوز ان تترك القيادة ، وانت لم تتلق الموافقة على قبول استقالتك .. فقلت له : انني تارك القيادة بموافقة وبدون موافقة ، وما لم تحل قضية العتاد وتزول المشاكل التي توجدها المفتشية العامة فلن أرجع عن استقالتي . فطلب مني بإلحاح ان أتريث قليلا ، وانه سيبذل اكثر ما يمكن مـن جهد لتأمين احتياجات جيش الانقاذ . فذكرت له انه لن يوفق اليه ، واذا افترضنا التوفيق فانني سأعود . وسافرت الى دمشق فقابلت رئيس الجمهورية السورية واطلعته على العوامل التي الجأتني الى الاستقالة ، فوعدني انه سيعمل على ازالة المشاكل والعقبات التي تعترض اتمام حاجيات الجيش . وقلت له : جربوا غيري، فقد يستطيع غيري القتال بدون عتاد . وفي هذا كثير من التوفير .

وجاءني الى منزلي في صباح ١٠ آب ١٩٤٨ الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية عبد العزيز بن زيد ، واطلعني على تأثر جلالة الملك ابن سعود لاستقالتي، قائلا انه لا يجوز مطلقا في مثل هذه الظروف ان اتخلى عن القيادة ، فأوضحت له الاسباب والعوامل التي اضطرتني الى ذلك ، وصارحته انه لا يمكن ان اعود الى القيادة ، ما بقيت الحال كما هي الان . فأخرج من جيبه برقية من جلالة الملك اليه وملخصها ان جلالته يطلب مني ان اعود الى القيادة ، وهو يتعهد بتأمين «احتياجاتي الخاصة والعامة». فشكرت لجلالته هذه الثقة ووعدت الوزير انه حينما تتأمن احتياجات الجيش اعود الى القيادة .

***

«عجبك آغاتي ايش لون ضباط هؤلاء»

بدا يطرأ على الداخلية في جيش الانقاذ ، لاول مرة ، شيء من التشويش والفوضى . وتفاقم الامر ، فبدا في الوحدات ما يشبه الانحلال .

وكما علمت من برقية شقير ١١–٨–١٩٤٨ فقد اشتبك جنودنا ، وبالمدفعية، بعضهم مع البعض الآخر ، وهم في خط القتال ... انه الانحلال وليس التشويش والفوضى . وعقب هذا الحادث فورا ان افرادا من الجنود ، اخذوا يغادرون مواقعهم وينسحبون بتجهيزاتهم وسلاحهم . واخذ عدد هؤلاء يتزايد بشكل مخيف . فشعر اولو الامر انفسهم ... بالخطر المهدد وراحوا يلحون عليّ بالعودة الى القيادة ، مهما يكن من امر ، فأصررت على ان لا اعود ما لم يؤمنوا مطاليبي للجيش . وبينما كنت يوما في مكتب السيد جميل مردم في وزارة الخارجية ، دخل علينا المفتش العام لهذا الجيش ، طه الهاشمي ، وفي يده برقية ناولها الى رئيس الحكومة السورية وزير الخارجية السيد مردم ، ليقرأها ، فاذا هي بنصها :

١٨–٨–١٩٤٨ الساعة ١٦ رقم ٢٤٤ .

من صفا الى مفتش المتطوعين العام . نسخة الى قائد قوات الانقاذ . فخامة رئيس الجمهورية السورية، فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية .. هاجم اليهود امس قرية كفرمندة . فانسحب مسلحوها لعدم وجود الذخيرة يهدد الضباط والجنود بالتراجع وبالاستقالة اذا لم يسلموا ذخيرة بمعدل ٢٠٠ طلقة للبندقية . يرفض قواد الوحدات اية مسئولية تنتج عن وجودهم في الخطوط الامامية عزلا تحت رحمة العدو ..

نستغرب قبولكم بوضع كهذا . وتعريضكم ارواح الناس وانتم وراء مكاتبكم قابعون . يمكنكم الحصول على الذخيرة من الجيش اللبناني او من الجيش العراقي

المظفر فان ابيتم تدارك الموقف فتفضلوا وانزلوا بأنفسكم لنرى عبقريتكم ونتعلم منكم . أطلب رفع برقيتي هذه الى صاحبي الفخامة رئيس الجمهورية السورية ورئيس الجمهورية اللبنانية . اني اتكلم باسم جنودي وباسم ما لا يقل عن ٥٠ الف من الفلسطينيين الموجودين في منطقتي . الم تتعظوا بمأساة الناصرة . ان لم تصل هذه البرقية الى صاحبي الفخامة رئيس الجمهورية السورية ورئيس الجمهورية اللبنانية فانشر مضمونها على صفحات الجرائد .

الامضاء — صفا

وما كدت انتهي من قراءة البرقية حتى التفت اليّ الهاشمي سائلا ، ولكن بألم شديد «عجبك اغاتي ايش لون ضباط هؤلاء» ... فقلت : حقيقة ان البرقية شديدة اللهجة جدا . ولكن ما تريد ان يفعل هؤلاء والجنود البواسل . وهم لا عتاد لديهم ، والعدو المزود بقوات هائلة من عدد ومعدات يهددهم في بلادهم وفي شرفهم ، وهم يحبون القتال ، وليس بين ايديهم وسائل القتال ... وانت المسئول عن هذا . وفي مستودعاتك اسلحة وعتاد ... وهل ان الناصرة كان يمكن ان تسقط لو كان لدى هؤلاء الضباط والجنود سلاح وعتاد ؟....

ان صاحب هذه البرقية المثيرة المؤلمة المقدم محمد صفا ، هو احد ضباط الجيش السوري النظامي ، ويتمتع بأفضل صفات الجندي ومزايا القائد ، ولعله احسن ضابط في الجيش السوري كفاءة وخبرة وثقافة ، ومن مفاخر جيش الانقاذ . بعد هذه البرقية بدا على المسئولين اهتمام جدي لتأمين حاجيات قواتي، واقناعي بالعودة الى القيادة ، فقد لوحظ ان آمري الوحدات ، راحوا يتساءلون عن سبب تغيبي عن الجبهة وانهم قد ساورهم لذلك قلق شديد ، وهم لم يتعودوا مني مثل هذا التغيب ، واخذوا يرفعون اصواتهم مطالبين بعودتي ، لقد اعلمني المقدم شقير بهذا ، والح عليّ في العودة الى القيادة للسيطرة على الموقف الذي بدأ يفلت من بين يديه . فأبرقت اليه انني سأعود حينما تؤمن حاجيات جيش الانقاذ ، او حينما اتيقن على الاقل انها ستؤمن . وبعث المقدم شقير الى آمري الوحدات برقية في ٢٧–٨–١٩٤٨ رقم ٢٩٦ يطمئنهم .

وفي الواقع ان خطورة الموقف حركت بعض المسئولين للاهتمام ، بصورة جدية هذه المرة ، بتأمين حاجيات قواتنا وقد تأمن ، فعلا ، شيء من هذه الحاجيات ، ووعدوا وعودا قطعية ان الجامعة من جهتها ، ستؤمن ما تستطيع منها. فقررت العودة الى الجبهة وانا بين الشك واليقين ، من تحقيق الوعود ، وصلت الى الجبهة مساء ٢٥ — ٨ واجتمعت الى آمري الوحدات كلهم واخذت

ادرس معهم الحالة بدقة . ثم اخبرتهم انني جئت بشيء من العتاد . واننا سنحصل على كامل حاجتنا منه في القريب . بيد انني كنت اشعر – ان لم اقل كنت اعلم – انا ضعفاء بالنسبة الى القوات اليهودية ، التي كانت الاسلحة والذخائر تتدفق عليها من يوم الى يوم بطريق البحر . ففكرت في مسألة التحصينات ، وايقنت انها اصبحت ضرورة ملحة لا غنى لنا عن اقامتها ، في مراكزنا المهمة ، فتساعد على توفير جزء من قواتنا ، وتوحي شيئا من الاطمئنان نقابل به ما نتوقعه ، من مهاجمات يهودية شديدة ، بالسلاح الثقيل ، كالدبابات والطائرات ، فنستطيع الصمود امامها ، وذكرت ما رافق الهجوم اليهودي العنيف في ١٤ آب على الجيش المصري خاصة ، من اسلحة ثقيلة متنوعة كالدبابات والطائرات ، وكيف ان الجيش المصري لم يقدر على صده ، وهو من العدد والمعدات بحيث لا يمكن ان يخطر لعاقل المقابلة بيننا وبينه. فضلا عن ان الجبهة التي كان يشغلها لا تعادل بمساحتها نصف الجبهة التي يشغلها جيش الانقاذ . وانه كان لديه تحصينات من الباتون المسلح، عدا الاسلاك الشائكة والالغام التي زرعها في مساحة واسعة ، فكان من الطبيعي ان افكر في اقامة تحصينات في المراكز المهمة على جبهتنا ، التي اصبح لا غنى لنا عنها لحماية الجبهة . وقد كانت الجيوش العربية كلها اقامتمثل هذه التحصينات، واحتمت بها محيطة اياها بخطوط كثيرة من الاسلاك الشائكة ، ومن حقول الالغام. فكتبت بذلك الى المفتشية العامة اطلب المواد اللازمة ، فراجعت المفتشية بهذا الشأن جامعة الدول العربية ، واذا بنا ندخل من جديد في «دور» يشبه دور العتاد والبنزين وبقية التموينات . حتى انتهى الهجوم اليهودي وانتهت الحركات ولم «يعطونا» كيس اسمنت واحد ....

بعد ان سكنت حركة الجبهة ، مدة من الزمن كما ذكرت سابقا . عاد اليهود الى التحرش بقواتنا بحركات موضعية . في ترشيحا ومجد الكروم وشعب وكفرمندة . وكانت هذه الحركات تتطور احيانا الى معارك شديدة كما حدث في كفرمندة وشعب خاصة . ثم تحولت هذه الحركات بصورة فجائية الى اقصى المواقع الشمالية من جبهتنا . وابتدات اعتداءات على القرى اللبنانية نفسها ، مثل عديسة ومركبة وحولا . فأخذ سكان هذه القرى يضجون ، مهددين انهم لن يدفعوا ضرائب الى الحكومة اذا هي لم تحمهم . فأرسلنا مفارز صغيرة لحمايتهم ، واشتبكت هذه المفارز بقوات يهودية غير مرة ، واخيرا طردت قواتنا القوات اليهودية وطهرت منها هذه القرى .

وفي ٣١ – ٨ شرع اليهود من مستعمرة المنارة ، يقومون بهجمات على قواتنا المتمركزة في جوار المستعمرة . ومن هذا التاريخ استمر القتال بدون انقطاع خفيفا ، على طول جبهتنا الشمالية والشرقية حتى الهجوم الكبير. كانت الاعتداءات المنظمة على القرى اللبنانية المجاورة لمستعمرة المنارة بداية الهجوم اليهودي الكبير، وكانت المفارز الصغيرة التي ارسلناها لحماية هذه القرى ، ترد هذه الاعتداءات في

بادىء الامر بقوة ، على انه حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ٣١ آب بدات المدفعية اليهودية في المنارة فجاة تصب قنابلها على مواقع جنودنا في الخطوط الامامية . وبعد قصف استمر ساعتين ، قاماليهود بهجوم على قواتنا في قريتي الحولة وميس الجبل ، واستمر الاشتباك بعنف حتى الساعة العاشرة ليلا ، اذ تمكنت قواتنا من صد الهجوم منزلة باليهود خسائر كبيرة . وكانت اشارات طلب النجدة تنطلق من المنارة طيلة ذلك الليل . وفي صباح اول ايلول ، جدد اليهود هجومهم على القريتين المذكورتين ، بقوات كبيرة وبأسلحة ثقيلة حتى تمكنوا من الوصول الى مسافة قريبة جدا ، من خطوطنا الامامية ، وثبت جنودنا في مواقعهم مدافعين ببسالة وصبر ، الى ان وصلت اليهم نجدات تمكنا من ارسالها بجهد ، وعبثا حاول اليهود زحزحة قواتنا ، ونزلت باليهود اصابات كثيرة من قتلى وجرحى ، حتى ان تراجعهم بعد ان فشلوا في اختراق هذه الخطوط ، اصبح امرا عسيرا ، يكلفهم ضحايا كثيرة . فلم يبق امامهم الا المثابرة على القتال ، حتى يجيء الظلام الذي يمكن ان يحمي تراجعهم . وكان جنودنا يشعرون بالمازق الحرج الذي ادخل اليهود نفوسهم فيه ، بمحاولتهم التفلت منه . وذلك من جراء نيران اليهود الطائشة من مختلف اسلحتهم . وهبط الليل فأخذ اليهود يتسللون متراجعين الى الاودية ، افرادا وجماعات . واحست قواتنا هذا الانهزام فطاردتهم في ظلام الليل متتبعة آثارهم في الاودية والشعاب ، واستمرت المطاردة بهذا الشكل حتى ابواب مستعمرة المنارة . وفي صباح ٢–٩–١٩٤٨ تسلمت من المقدم شقير البرقية التالية :

٢–٩–١٩٤٨ رقم ٣٥٨ من شقير الى فوزي

انتهت معركة المنارة هذا الصباح بأكثر من اثنين وسبعين قتيلا معدودين من اليهود واضعافهم من الجرحى . ذهبت قافلة لنقل الجرحى مؤلفة من سبع عشرة سيارة مما يدل على عظيم خسارتهم .

كان ذعرهم باديا . اذ انهم ايقظوا مراقب الهدنة في صفد ورجوه ان يوقف المعركة . ولولا نفاد العتاد الانكليزي للرشاشات وعدم صلاح القسم الاكبر من عتاد البنادق لكان الانتصار اكبر . ذهبت هذا الصباح مع المراقبين الى مكان المعركة . شاهدوا بأعينهم قتال اليهود داخل الاراضي اللبنانية . حضر ايضا مراقب من صفد حسب طلب اليهود وطلب منا ايقاف المعركة عند هذا الحد فقبلنا ، بعد ان اكدنا له اننا سنقوم بفتح طريق بنت جبيل مرجعيون صباح الاثنين القادم . واذا تعرض لنا يهود المنارة سندخل المستعمرة .

الامضاء – شقير

وبالرغم من انتهاء معركة المنارة على هذا الشكل ، وبالرغم من تعهد مراقبي

الهدنة ان يحولوا دون اشتباكات جديدة ، بدأت تحشدات يهودية قوية من مستعمرات الحولة ، الى المنارة وما حولها . وشاهدنا تحصينات يقوم بها اليهود على التلال الواقعة شمال غربي النبي يوشع ، تحمي معسكرا جديدا انشأوه وحشدوا فيه قوات كبيرة وكان الغرض من هذا كله ظاهرا ، وهو القيام بهجوم جديد على قواتنا في منطقة المنارة . وفي الوقت نفسه اخذوا يهاجمون مواقعنا في منتهى الجنوب الغربي من جبهتنا ، خاصة في شعب وكفرمندة وسخنين وقد استبسل اهل قرية شعب استبسالا منقطع النظير ، في الدفاع عن القرية . وفي ٤–٩–١٩٤٨ تلقيت من المقدم شقير البرقية التالية :

٤–٩–١٩٤٨ رقم ٣٧٢ مستعجل جدا . من شقير الى فوزي .

يحاول اليهود منذ الصباح التسرب الى داخل الاراضي اللبنانية شمالي المنارة بقصد السيطرة التامة على الطريق . وربما لتطويق قواتنا . قاموا بنسف منازل عديدة في قرية هونين . احتدمت المعركة من جديد . اسرعوا بارسال عتاد انكليزي وقنابل هاون وسلبند .

الامضاء – شقير

فلم أندهش لانني كنت أتوقع مثل هذه الحركات من اليهود ، رغم الهدنة ورغم وعود المراقبين لذلك كنت اتخذت ما أمكن من الترتيبات، ضد هذه الحركات. وانتهت هذه المعركة عند المساء بعد ان أجبرنا اليهود على التراجع الى خطوطهم التي زحفوا منها وتركوا اكثر من ثلاثين قتيلا امام خطوطنا (برقية ٩–٩–١٩٤٨ رقم ٣٧٦ من شقير) .

وحوالي الساعة الثامنة من صباح ٥–٩ اعاد اليهود هجومهم على شعب ، وبقي القتال مستمرا حتى المساء . وأجبروا كذلك على العودة الى خطوطهم ، تاركين عددا من القتلى ، وبرزت من جديد المشكلة الدائمة ، مشكلة العتاد . والمؤسف ان كمية العتاد الانكليزي ، التي كانت أرسلت من دمشق ضمن أكياس بدلا من صناديق ، ووزعت فور وصولها على الجنود المشتبكين في القتال ، تبين لدى استعمالها انها غير صالحة . فأطلعت المفتشية العامة ورئيس الجمهورية السورية على هذا الامر ، فأرسلوا الينا فورا «وهذا غريب» عشرين صندوقا من العتاد الانكليزي الصالح . فبعث هذا العتاد على قلته في نفوس الجنود قوة معنوية كبيرة ، ثم اصدرت امرا بنقل مدفعين الى جبهة المنارة ، وأربع مصفحات وسرية جديدة . واتخذت التدابير اللازمة لفتح طريق بنت جبيل مرجعيون صباح ٦–٩ ، وقواتنا على أتم استعداد للانقضاض على اليهود ، اذا هم حاولوا عرقلة عملنا . ويمر هذا الطريق على مسافة تتراوح بين مائة ، ومائة وخمسين مترا عن مستعمرة المنارة . وعملية فتحها عملية خطرة ودقيقة جدا .

حضر المراقبون كما كان متفقا عليه ، في ذلك الصباح ، فأنبأتهم بعزمنا على فتح الطريق ، مؤكدا لهم اننا غير متعرضين لليهود ، ولكننا لن نتردد في الهجوم على المنارة ، وتحطيمها اذا هم حاولوا عرقلة عملية فتح الطريق . وذهب المراقبون الى المنارة يحذرون اليهود . وبدأت بارسال المفارز للمباشرة في العمل ، وإزالة الالغام المبثوثة . وبدأت المفارز عملها والقوات اليهودية تشاهد من مواقعها هذه العملية التي استمرت بدون اي حادث حتى النهاية . فتم فتح الطريق واتصلنا بالقوات اللبنانية في مرجعيون . وأرسلت الى وزير الدفاع اللبناني والى المفتشية العامة لجيش الانقاذ البرقية التالية :

٦–٩–١٩٤٨ رقم ٤٠٠

فتحنا طريق بليدة – عديسة عمليا . تم الاتصال بيننا وبين عديسة . أرجو ان تأمروا الفوج اللبناني الموجود في مرجعيون بتنظيف الطريق نحو العديسة . كما تقوم من العديسة جماعات لتنظيف الطريق نحو مرجعيون . يهاجم اليهود بقوة قرية شعب منذ البارحة صباحا . صدتهم قواتنا وأهالي شعب البواسل . أصيب العدو بخسائر كبيرة . لا تزال هناك مناوشات . سيصل اعضاء لجنة المراقبة الى ميدان المعركة .

الامضاء – فوزي

كانت معركة المنارة ذات ميدانين ، يساند احدهما الآخر . وفي الميدانين أنزلنا باليهود خسائر جسيمة ، على انهم راحوا يجهزون حملة قوية من مستعمراتهم في الحولة ، للقضاء على قواتنا في منطقة المنارة ، والوصول الى عيترون ، مركز قيادة جيش الانقاذ ، وهي لا تبعد اكثر من ستة كيلومترات عن المنارة . وهم اذا تيسر لهم ذلك تمكنوا من تطويق جيش الانقاذ بكامله ، وحالوا بينه وبين الاتصال بلبنان . وتجاه هذه الفكرة الخطرة ، كان لا بد لنا من احد امرين .. اما جمع قوات من أطراف الجبهة فنعرضها لخطر الضياع من أيدينا ، او بقاء هذه القوات حيث هي فنعرض الجيش بكامله للتطويق . فاتصلت بوزير الدفاع اللبناني ورئيس الحكومة اللبنانية ، وعقدنا اجتماعا عند الجنرال شهاب ، شرحت لهم فيه حقيقة الموقف ، والخطر الذي تتعرض له قواتي من جهة ، والحدود اللبنانية من جهة اخرى ، وطلبت منهم مساعدتنا بالعتاد ، وبفوج من الجيش اللبناني اذا أمكن ، وقرروا مساعدتنا بالعتاد ، وتشكيل فوج لبناني من المتطوعين ، يكون تحت تصرفنا ، على ان نسلم هذا الفوج سبعة رشاشات فرنسية ، كنا اخذناها من دمشق . وقبلت بذلك وسررت به ، وصدرت الاوامر بتسليمنا عتادا المانيا من الجيش اللبناني ، وبتشكيل فوج من المتطوعين بأسرع ما يمكن . ورفضت المفتشية العامة في دمشق ان نسلم الرشاشات السبعة الى فوج المتطوعة اللبناني . وأطلعني

المقدم شقير على برقيته التي ارسلها الى العقيد محمود الهندي وهذا نصها :

٨–٩–١٩٤٨ رقم ٤٠٨ من شقير الى الهندي .

استلمت للآن من الجيش اللبناني ثلاثة مدافع عيار ٣٧ طلبت اليوم مدفعين ٣٧ مع الذخيرة سنجهز فصيلا «بعيار» ١٠٥ ونمونه بقنابل من الجيش اللبناني ونستعمله في الجبهة. قدم الجيش اللبناني لنا حتى الانالكثير من العتاد المختلف، لماذا تصرون على رفض طلب القيادة اللبنانية استعمال السبع رشاشات الفرنسية لتسليح الفوج الذي سيوضع تحت تصرفنا . ارجو ان تراجعوا فكركم وتجيبونا بما ترمي اليه المصلحة .

الامضاء – شقير

وتبقى هذه البرقية بدون جواب .

***

القائد العام للجيش السوري في جبهتنا

في صباح ٧–٩–١٩٤٨ قام اليهود بهجوم شديد على جبهة الفوج العلوي ، في منطقة صفد . وتلقيت من آمر الفوج الرئيس غسان جديد البرقية التالية :

٧–٩–١٩٤٨ رقم ٢٥ من غسان الى فوزي .

المعركة تدور في مرتفعات العموقة . حاول اليهود الوصول الى جبل نطاح فرددناهم . لا تزال المعركة دائرة .

الامضاء – غسان

تقع عموقة هذه ، على مسافة كيلومتر الى الشمال الشرقي من صفد ، وتشرف مرتفعاتها على سهل الحولة ، وعلى الطريق الممتدة من طبريا الى صفد الى المنارة في الشمال . وكان الغرض من هذا الهجوم زحزحة جنودنا عن هذه المرتفعات ، ليؤمن لليهود تنقلاتهم على هذه الطريق من جهة ، ولستر حركات الوحدات اليهودية داخل هذه المنطقة من جهة اخرى . وبعد ساعة تقريبا من تسلمي برقية الرئيس غسان ، تلقيت برقية اخرى هذا نصها :

٧–٩–١٩٤٨ رقم ٢٦ من غسان الى فوزي

اشتبكنا بمعركة في منطقة ماروس ربما تتسع .

الامضاء – غسان

وماروس هذه ، تقع على مسافة كيلومتر الى شمالي العموقة ، ومدى الرؤية منها واسع جدا ، وهي تقابل خطوط الجيش السوري في منطقة مشمار هايردن، ولا يفصلها عن هذه الخطوط سوى اربع كيلومترات تقريبا ، فاذا ما تيسر لنا القيام بحركة مشتركة مع الجيش السوري من هذه النقطة ، نفصل منطقة الحولة بكاملها عن منطقة طبريا .

وبينما المعركة دائرة في منطقة ماروس ، تلقيت من آمر لواء اليرموك ، المقدم عامر ، البرقية التالية :

٨–٩–١٩٤٨ رقم ٣٧ من عامر الى القيادة

هاجم العدو خطوطنا الامامية في سخنين بالمصفحات ، فرددناه على اعقابه بخسارة مصفحتين وعدد كبير من القتلى .

الامضاء – عامر

وفي اليوم نفسه وصل الى المقر من المقدم مهدي برقية هذا نصها :

٨–٩–١٩٤٨ رقم ١٢٥ الساعة ٢٢ من مهدي الى شقير .

تبلغنا من مصدر موثوق ان قوة من اليهود تقدر بأربعين مصفحة ، البعض منها ذات جنزير ، ومدفعية ثقيلة تجرها سيارات ، في اتجاه ترشيحا ، من الضروري وجود قوة احتياطية تكون مهيأة عند الطلب للنجدة . أرجو ارسال مصفحتين احداهما ذات مدفع بالسرعة الممكنة .

الامضاء – مهدي

وفي صباح ٩ – ٩ تلقيت من المقدم شوكت شقير البرقية التالية :

٩–٩–١٩٤٨ رقم ٤١٦ من شقير الى فوزي

المعلومات عن العدو تدعو للقلق . تحشدات امام ترشيحا من مصفحات

ودبابات ومدفعية . يخشى ايضا مهاجمة تربيخا . اشتبكت هذا الصباح قوات من فوج غسان مع اليهود في الوادي قرب عين التينة .

الامضاء ــ شقير

وعين التينة هذه ، تقع في ضواحي صفد ، وبعد ساعات تلقيت برقية أخرى من قائد منطقة ترشيحا المقدم مهدي نفسه هذا نصها :

ارسلوا عتاد انكليزي وعتاد فرنسي والماني وما يمكن من عتاد ف.م.

الامضاء ــ مهدي

تجاه هذه البرقيات وجدت نفسي امام سلسلة من المعارك سنخوضها مرغمين، وخامر نفسي قلق شديد ، بالنسبة لما استهلكناه من عتاد في هذه المعارك التي ذكرتها ، ولما اتوقعه من معارك أخرى ستكون خطيرة جدا . وخطر لي التعاون مع الجيش السوري لمصلحتنا جميعا ، فطلبت من قائده الزعيم حسني الزعيم ان يزور جبهتنا ويلمس بيده ما للتلال التي نحتلها في منطقة ماروس من الاهمية ، بالنسبة لوضع الجيش السوري . وليتأكد من ان اليهود لن يقدموا على مهاجمة الجيش السوري ، ما احتفظنا بهذه التلال ، التي تضمن لنا التسلط عليهم ، والسيطرة على خطوطهم الخلفية . وجاء الزعيم حسني الزعيم الى مقر القيادة ، وذهبنا معا الى ماروس ، فشاهد بأم عينه حقيقة ما وصفته له ، وآمن بخطورة هذه التلال ، وانها بين ايدينا تشكل ضمانة للجيش السوري قوية جدا . فقال انه سيبذل كل ما في وسعه لاقناع رئيس الحكومة السيد جميل مردم بارسال اكبر كمية ممكنة من العتاد الى جيش الانقاذ . ولما كان من الصعب جدا ايصال المدافع الى هذه التلال التي نحتلها ، قال لي الزعيم حسني الزعيم : ان الجيش السوري تلقى كمية من مدافع الهاون «٦٠» مدفعا عيار ٨١ مع ثلاثين الف قنبلة ، وانه سيحملهم على ارسال قسم من هذه المدافع والقنابل الى جيش الانقاذ . فقلت له ربما يصعب عليهم ارسال المدافع ، فانا أكتفي بأن يرسلوا لي اكثر ما يمكن من القنابل عيار ٨١ لان عندي مدافع الهاون ، مما ربحناه من اليهود ، كمية لا بأس بها . وذهبنا معا الى دمشق ، واجتمعنا بفخامة الرئيس في القصر ، وكان ذلك في ١٣ ايلول ١٩٤٨ ، وحضر هذا الاجتماع السيد جميل مردم والزعيم حسني الزعيم ورئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ، فشرحت للمجتمعين الموقف شرحا وافيا ، وبينت لهم اهمية ماروس مستشهدا بقائد الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم ، ان يسلموني قنابل هاون . ولعب الطمع براسي فطلبت مدافع هاون ايضا . فالتفت اليّ السيد جميل مردم مبتسما وقال ، ولكن بشيء من السخرية : مدافع هاون ؟.. هذا للجيش السوري فقط ... قلت لا بأس

اكتفي بالقنابل .. فرفضوا ، فاكتفيت بعشرين قنبلة فقط ، فاعتذروا . ثم التفت اليّ الرئيس وخاطبني بحدة «يا اخي ليش تتحرش باليهود ، مانك شايفهم ماسكينا بخوانيقنا روح انسحب من ماروس .. وكانت صدمة عنيفة جدا ، لم الق مثلها في حياتي ولم اكن اتوقعها ابدا . ليس من ناحية العتاد ــ لكن من ناحية العقلية .... هذه العقلية الغريبة العجيبة بروؤس «الرؤوس» . وقلت لفخامة الرئيس بهدوء :

ان معركة ماروس يا فخامة الرئيس ، لم نتقبل ان نخوضها ، الا على اساس مصلحة الجيش السوري ، كما بيَّن لكم الزعيم حسني الزعيم قائد الجيش . فاذا كنتم ترون ان لا فائدة من ذلك . ولا اهمية له ، فانا انسحب من ماروس . واني في حاجة الى كل نقطة دم ، وكل طلقة نبذلها في ماروس ، ولكي ابذلها في نواحي اخرى ، تتصل بجيش الانقاذ مباشرة .

وتلقيت من الرئيس غسان البرقية التالية :

١٨ــ٩ــ١٩٤٨ رقم ٤٥ من غسان الى فوزي

تمكن اليهود الساعة السادسة من احتلال جبل المخبي وماروس والمرتفعات . قمنا بهجوم معاكس فاسترجعنا التلال المجاورة وماروس . وانحصر اليهود في جبل المخبي . ثم هاجمناهم في الجبل ثلاث مرات ولم نتمكن من استرجاعه . هل ترسلون سرية لدعم حامية ماروس لنسحب الاحتياطي الى ميرون وصفصاف . فالتحشدات في صفد قائمة . العتاد الالماني اوشك ينفد .

الامضاء ــ غسان

ارسال السرية التي يطلبها الرئيس غسان فكان ، طبيعيا ، انه غير ممكن . وقد كان قتلى اليهود في المعركة لا يقل عن مايتي قتيل ، ولكن قتلانا وجرحانا كانوا كثيرين ايضا . وارسلنا هؤلاء الجرحى الى المستشفى فأرسل مدير الصحة في جيش الانقاذ الى المقر البرقية التالية :

١٨ــ٩ــ١٩٤٨

المستشفى مكتظ بالجرحى لا يوجد عندي سوى سيارة «بيك اب» للاخلاء .
اسعفوا بسيارة «امبولانس» بأسرع ما يمكن

الامضاء ــ الدكتور امين

وأرسلت على الاثر الى رئيس الحكومة السورية وزير الدفاع السيد جميل مردم البرقية التالية :

١٩–٩–١٩٤٨ رقم ٤٨١ من فوزي الى وزير الدفاع السوري .

وجودنا في منطقة ماروس لمجرد فكرة معاونة الجيش السوري والقيام بعمليات مشتركة اذا استؤنف القتال . ليس لهذه المنطقة اية فائدة بالنسبة لوضعنا . سيطرتنا على طريق الحولة الرئيسي مؤمنة في كل وقت اردنا . لا يمكن استرداد جبل المخبي الا اذا اشتركت القيادة السورية معنا ورأت في استرداده فائدة لها ..

الامضاء – فوزي

ولكن ... كان من الطبيعي ، ان لا اتلقى اي جواب . ورحنا نتخذ ترتيبات دفاعية صارفين النظر عن الهجوم . على كل حال قد قررت تأكيد استقالتي ، فأرسلت الى امين الجامعة كتابا بعثت بصورة عنه الى رئيس الجمهورية السورية ووزير الدفاع الوطني السوري . والى المفتش العام للمتطوعين والى وزير الدفاع اللبناني .

جيش الانقاذ
القيادة ٢٢–٩–١٩٤٨

سعادة الامين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا المحترم .

كنت ارسلت اليكم كتابا في ٥–٨–١٩٤٨ جوابا على كتابكم المؤرخ ٢٩–٧–١٩٤٨ ، شرحت فيه لكم حالة جيش الانقاذ وما ينقصه من حاجيات طلبت اليكم تأمينها . كما أعلمتكم اني تخليت عن القيادة للمقدم شوكت شقير ، الى ان تتمكنوا من تلبية احتياجات هذا الجيش . وقد مرت مدة تقرب من شهرين دون ان أحصل منكم على جواب . ولما ان هذا الجيش مرتبط بالجامعة مباشرة وأنتم مسؤولون عنه بالدرجة الاولى ، ولما اني ما زلت أمارس الاشراف عليه ، لذلك رأيت من واجبي القومي ان اعيد الكرة وأطلعكم مرة اخرى على حالته لارفع بذلك عن كاهلي آخر جزء من المسؤولية . ان جيش الانقاذ يشغل ويحمي جبهة تكاد تعادل ما تشغله الجيوش المصرية والعراقية والاردنية من جبهات ، وهو منذ بداية الهدنة حتى يومنا هذا ، منهمك بمعارك على طول جبهته . وقد كبد العدو خلال الهدنة الحالية ، ما يزيد على ستماية قتيل ، وأضعاف ذلك من الجرحى ، كما غنم عددا وفيرا من الاسلحة والعتاد ، كنا نستعمله في خلال معاركنا ضد العدو . يضاف الى ذلك ما أعاده من طمأنينة الى قلوب اهل الجليل الذين عاد اكثر من ثلثي

نازحيهم الى قراهم وتمكنوا بفضل حماية جيش الانقاذ من استغلال كافة محصولاتهم .

ان القتال الذي بدأ في جبهتنا مع بدء الهدنة اخذ يتطور تدريجيا على شكل واسع النطاق ، حتى كادت تكون المعركة الاخيرة معركة ماروس ١٨–٩–١٩٤٨ احدى معارك الميدان الكبرى . وقد تمكن هذا الجيش من جذب وتجميد قوات يهودية كبيرة في خطوط مقابلة لخطوطنا ، فأخرج بذلك من صف القتال كل هذه القوات ، من جبهات بقية الجيوش العربية ، وقد تأكدنا من الغنائم والوثائق التي وقعت بأيدينا ، ان اليهود قد اتوا بقوات جديدة وأسلحة كثيرة متنوعة ، من المسدس حتى المدفع والدبابات والطائرات . الى جانب ذلك ارى ان الحكومات العربية تبنت كل واحدة منها . جيشها المشبع بالسلاح والعتاد ، وأخذت تبتاع كل ما امكنها من اسلحة وأعتدة لتقوية هذه الجيوش ، التي يربو عددها على اربعين الف مقاتل ، يضاف الى هذا كله ، ما قامت به هذه الجيوش من تحصين جبهاتها بالاسمنت المسلح والاسلاك الشائكة وحقول الالغام ، حتى اصبحت جبهات منيعة توحي الى الجندي والقائد فكرة الدفاع فقط . وان جيش الانقاذ الذي يحمي جبهته الواسعة الفان وخمسماية مقاتل – حسب قرار اتخذتموه – فقد بقي يتخبط بمشكلة «العتاد» الخطيرة التي أطلعتكم عليها سابقا . والتي لم اترك مرجعا رسميا، الا وأثقلت عليه بالحاحي المتواصل بشأنها ، منذ اكثر من اربعة اشهر ، ولم اتوصل حتى يومنا لنتائج ايجابية ، اذ لم يصل لي اي عتاد ، ولم يخصص اي مبلغ لتحصين بعض النقاط الهامة ، فأتمكن من الاقتصاد بالقوات ، وأكوّن احتياطيا ، فان هذا الجيش ما يزال يقاتل دون احتياطي . اني ارى ان الجيش بحالته الحاضرة ، لن يستطيع الصمود امام هجمات يهودية كبيرة ، واني ألاحظ من اعمال التحصينات اليهودية على بعض الجبهات ، ومن كثرة الاشتباكات على جبهتنا، بأنه سيكون لليهود هدفان رئيسيان ، عندما نستأنف القتال ، او عندما يبدأون هم انهاء الهدنة . وهذان الهدفان هما الجبهة الجنوبية بما فيها القدس وجيش الانقاذ. (أما القصد من مهاجمة جيش الانقاذ ، فهو الاستيلاء على منطقة الجليل للنفوذ الى الاراضي اللبنانية ، فيخرجوا لبنان من مجموعة الجامعة) .

ان جيش الانقاذ الذي وجه منذ البداية نحو القتال الهجومي فقط ، اصبحت خصائصه وهو جيش غير مدرب ، لا تسمح له ان يخوض معركة يتقهقر بنتيجتها، فان التقهقر والانسحاب لدى هذا الجيش ، الذي لم يعتد ذلك ، ينقلب فجأة الى كارثة فوضى وهزيمة ، لا يمكن الحد منها ، خلافا لخصائص الجيوش النظامية المدربة ، (مما يؤدي الى ضياع اراض ومعدات كثيرة ، كما جرى في الناصرة) . لذلك وبعد ان شرحت لكم مختصرا حالة جيش الانقاذ ، الذي تنتظره معارك كبيرة، وليس لديه عتاد وتحصينات ، اطلب من سعادتكم الاهتمام الشخصي لتأمين

حاجيات هذا الجيش قبل فوات الاوان ، وقبل ان يعرض الى حوادث تقضي على جهاده ، وتؤدي بأمجاده ، التي اكتسبها في معارك فلسطين .

وأعود فأؤكد لسعادتكم انني لن اقود هذا الجيش ولن اكون مسؤولا عنه ما دام في مثل هذه الحالة . ولسعادتكم الخيار في اكمال النواقص ، او اسناد قيادة هذا الجيش الى غيري ودمتم .

الامضاء ـ القائد فوزي القاوقجي

***

رسالة امين جامعة الدول العربية

كان لكتابي الى امين جامعة الدول العربية تأثير كبير في المقامات السياسية والعسكرية في لبنان وسورية ، وقد حاول رئيس الجمهورية السورية ، ورئيس الحكومة السيد جميل مردم ، من جديد اقناعي بالرجوع عن الاستقالة ، على اساس الوعود ، كما في الماضي تماما ، وهم في الواقع كانوا يبحثون عمن يتحمل مسؤولية قيادة جيش الانقاذ ليحل محلي . ولكنهم وجدوا صعوبات جمة في انتقاء من يتحمل هذه المسؤولية ، وجيش الانقاذ في هذا الوضع المادي الذي وصفت . وبينما كان يخيم شيء من الهدوء على جبهات بقية الجيوش العربية النظامية ـ عدا حوادث طفيفة موضعية تقع من وقت الى وقت كاعتداءات يهودية على بعض الدوريات ، او على بعض اهالي القرى الفلسطينية ـ كانت هذه الجيوش في مواقعها كانما هي في حالة سلم . وبالجملة فقد كانت مجموعة هذه الجيوش في حالة من الرفاه ، لم تعرفها حتى في ثكناتها ايام السلم ، والامة بأسرها وراء خطوط النار تلهو وتطرب وتنعم ، كأن ليس هناك اي اثر لحرب او لخطر مهدد . وكانت معرفة جنود جيش الانقاذ بهذه الحال تحز في نفوسهم ، لانهم كانوا يقارنونها بما يعانونه هم ، من انواع المشاق والحرمان .

وفي ٢٨ ايلول ١٩٤٨ تلقيت من السيد عبد الرحمن عزام كتابا بواسطة رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ، يدعوني فيه الى القاهرة للبحث في حالة جيش الانقاذ . مبينا اسفه الشديد في كتابه ، لاصراري على الاستقالة راجيا مني الرجوع عنها . فقبلت الدعوة . وفي اليوم الاول من شهر تشرين الاول طلبني رئيس الجمهورية السورية فاجتمعت بحضور رئيس الحكومة السيد جميل مردم ، وقال لي فخامته (دبّرنالك اسلحة وعتادا) ستة مدافع هاون عيار ٨١ ، مع الف ومايتي طلقة . افلا تزال مصرا على الاستقالة ؟ فشكرت له اهتمامه ، وقلت له ان حاجتنا يا فخامة الرئيس الى السلاح والعتاد ، اكبر من هذا بكثير . وقد طلب مني

السيد عزام المجيء الى مصر لهذا الغرض ، وانني مسافر اليها غدا ، لارى ما عنده . وفي ٢ تشرين اول ذهبت لمقابلة امين الجامعة ، السيد عزام ، فبسطت له حالة جيش الانقاذ واضطراره لخوض معارك مستمرة ، الامر الذي لا يمكن تحمل المسؤولية فيه . بينما يزداد اليهود قوة بالتسلح الحديث ، وبالعدد . وشرحت له مبلغ الخطر المحدق بجيش الانقاذ ، والجليل بالنسبة لوضعه هذا ، والاهمال الذي أشعر به عند المراجع المسؤولة ، لمطالب هذا الجيش ، واخبرته خبر سيارات النقل والمصفحات ، التي غنمناها من اليهود ، وكيف انها مبعثرة في كاراجات بيروت وفي غير مكان ، لما اصابها من عطل لم يتفق حتى الان على اصلاحه . وان هذه المسألة وحدها ، اذا استمرت ستتسبب لنا بحالة هجوم يهودي كبير ، كارثة كبيرة . فأجابني بشكوى مرة من حالة الجامعة نفسها . من التبعثر ، ومن تفرق الكلمة والتهرب من المسؤوليات ، وتحميل كل فريق الفريق الآخر المسؤولية . وقال ان دول الجامعة تتخلف عن دفع ما تعهدت به من اقساط مالية اصابتها ، مستثنيا الحكومة المصرية . وان الجامعة في حالة فقر مالي وسياسي وعسكري . وان الشعوب العربية ، وخاصة في مصر ، تهاجم الجامعة وتهاجمه هو بنوع خاص . وان اختلافا شديدا وقع بينه وبين رئيس الوزارة العراقية السيد مزاحم الباچه جي ، وان الباچه جي قال له «انت يا عزام دبيتنا بها الوحلة انت لازم تنشلنا منها» وانه يبحث عن طريقة للخروج من هذا المأزق فلا يفلح . قال وكأن هذا كله لم يكفِ حتى جاءت مشكلة تأليف حكومة عموم فلسطين . وفرار المفتي من القاهرة الى غزة ، ليفرض نفسه على هذه الحكومة ، فيعلن الملك عبد الله انسحابه من القتال ، ومن الجامعة ليقاتل هذه الحكومة وغير ذلك من امور بسط السيد عزام لسانه فيها بفصاحة ، مما اثر في نفسي تأثيرا كبيرا ...

واضاف : واننا نبحث الان عن مخرج من هذا المأزق يرضي الشعوب العربية في ظاهره فلا نجده فجعلني اتصور جيش الانقاذ المفتقر الى كل شيء ، كانما هو في الف خير بالنسبة الى الحالة التي وصفها السيد عزام . فاستجمعت قواي وتجرات وقلت له : دبّر لنا شيئا من حاجيات الجيش فالحالة عندنا لا تطاق . قال انه سيتصل بمحمد علي تمازي بك المسؤول عن قضية المبيعات من سلاح وتجهيزات وما الى ذلك ، بهذا الشأن ، وطلب مني ان اراجعه .

وصلت الى مكتب تمازي بك ، وكلمته في موضوع السلاح والعتاد ، فوعدني انه سيدبّر ما امكن ، اذ ان كميات من السلاح منتظرة قريبا . وفي ٤ تشرين الاول تلقيت من الديوان الملكي كتابا يدعوني فيه لمقابلة الملك فاروق عند الساعة ١١ من صباح ٥ تشرين الاول . واخذ الملك يثني عليّ وعلى جيش الانقاذ قائلا انه يتتبع حركاتنا . ثم سألني عن حالة الجيش فحمدت له حالته المعنوية ، وبسطت لجلالته حالته المادية السيئة فقال انا سأساعده . اتصل بوزير الدفاع حيدر باشا . ولكن ... انا احب ان تكون مرتبطا بي . قلت ثق يا صاحب الجلالة ان هذه

المساعدة التي تأمر بها جلالتك ستصرف في معاونة الجيش المصري حتى ولـــو تقاعست بقية الجيوش العربية عن هذه المعاونة . وان المسافة التي تفصل بين قوات الجيش المصري وبين جيش الانقاذ ، رغم انها مسافة طويلة ، فلن تحول دون هذه المعاونة . وذلك بأن اجلب اكبر عدد من القوات اليهودية الى مواجهة جيش الانقاذ ، واجمدها . فأخفف الضغط عن القوات المصرية بشكل يمكنها من ضرب العدو ضربة قوية . ثم خاطبني بكثير من الجد قائلا «شفت المفتي عمل ازاي» وكنت في الواقع مصمما على الابتعاد ابتعادا تاما عن كل ما يتعلق بسماحة المفتي من حديث او غيره . وتابع الملك كلامه قائلا : رغم ممانعة حكومتي في سفره الى غزة ، فقد سافر اليها خلسة ، وخلق لنا هناك مشاكل كثيرة ، وأنا قد آويتـــه واكرمته وتحملت لاجله كثيرا من الانتقاد . ولكن «معليش هو عمل كده» اني امرت جنودي ان يحضروه الى مصر . ثم انصرفت قاصدا الى مكتب وزير الدفاع حيدر باشا . وبدأ حديثه معي عن الوضع في فلسطين ، ثم عن جيش الانقاذ فقال : ان جلالة الملك امر بأن نقدم لكم شيئا من العتاد كهدية ، واني مقـدم الان خمسين صندوقا من العتاد الانكليزي ، والفين قنبلة يدوية ، وآسف ان الوضع لا يساعد الان على تقديم كمية اكبر ، واتفقت مع حيدر باشا على ان يجمع العتاد في المطار، وننقله نحن بوسائلنا الخاصة . واوكلت الى مرافقي السيد حميد الصافي ان ينقل هذا العتاد في طائرة سورية الى دمشق ، ونقله فعلا في طائرة «يونكرز» علـــى دفعات . ثم تكلم وزير الحربية في قضية فلسطين ، وانتقد الجامعة والحكومات العربية انتقادا مرا . وقال ما ملخصه : ان تدخل السياسيين هو الذي اوصلنا الى هذا الوضع . وانهم سيكونون سبب الكارثة . واتى على ذكر المفتي وانتقد تصرفاته انتقادا شديدا ، قائلا انه سبب غضب الملك عليه ، وانه زرع فوضى قوية فـــي فلسطين ، واعطى بتصرفاته حجة للملك عبد الله ، اذا هو انسحب من ميـــدان القتال ، ليقاتل حكومة عموم فلسطين . وذكرته بما كان السيد مصطفى السعداني قد قدمه له من تقارير استنادا الى معلوماته بشأن وضع الجيش المصري ، وجناحه الايمن ، وقلت له الا ترى ان من الافضل من قبيل الحيطة والحذر ان يكـــون احتياطيكم اقرب مما هو الان الى جناحكم الايمن ، حتى اذا حدث اي هجوم على الوسط او على الجناح الايسر فلا تكون المسافة بعيدة بين القوة الاحتياطية وهذه المواقع ، للنجدة . قال نعم . معك حق . وسننتبه الى جناحنا الايمن . وعـدت فحذرت حيدر باشا من جناحهم الايمن ، على اساس تهديد الملك عبد اللـــه بالانسحاب من القدس اذا «اعترفوا» بحكومة عمـــوم فلسطين ، وان اليهود اذا شعروا بعزم الملك عبد الله حتى ولو لم ينسحب ، فقد يفاجئون الجيش المصري مفاجأة يجب عليه ان ينتظرها منذ الان . ثم ودعت وزير الحربية وانصرفت .
ولما عدت وقابلت عبد الرحمن عزام ، الذي هنأني بعطف الملك ومساعدته لي بهذه الكمية من العتاد قائلا : ان هذه المساعدة خففت شيئا من الثقل الذي كان يضغط علي كاهله فقلت له ان سلاحنا ، كما تعلم ، غير موحد ، وان العتاد الذي امر به جلالة الملك عتاد انكليزي ، وان عندنا كميات من البنادق الالمانية والفرنسية ،

وكلها بدون عتاد تقريبا الان ، وهناك المدفعية ومدافع الهاون ، بدون قنابل، وهناك سيارات نقل ومصفحات معطلة منذ زمن . وهناك نقص كبير في التجهيزات جعل الجنود في شكل مزري جدا ، وهم يتحملون كما تعلم ، مشاق القتال وشظف العيش . وانتقل فجأة الى الحديث عن استقالتي قائلا : ان هذا لا يجوز ، وانه يجب ان استمر في القيادة مهما يكن من امر ، لان جيش الانقاذ هو وحده الذي (بيض وجوهنا) . فأكدت له انني لست عازما على العودة الى قيادة الجيش ، ما لم يؤمنوا له حاجاته . فاما هذا او ان يختاروا لقيادته قائدا غيري . وقد سبق كما علمت يا باشا وسلمت قيادته الى المقدم شقير ، وسأبقى مشرفا عليه الى ان تؤمنوا له ما يحتاج اليه للقتال .. او تعينوا رسميا من يتسلم القيادة . او تثبتوا فيها المقدم شقير نفسه ، وهو ضابط قدير وشجاع ، يمكن الاعتماد عليه . وحاول السيد عزام اقناعي بالرجوع عن عزمي غير انني لم اقتنع . وفي اليوم التالي ، تلقيت من ابراهيم دسوقي باشا ، وزير الخارجية بالوكالة ، لمقابلته في منزله ، وكان طبيعيا ان يدور الحديث على قضية فلسطين ، فاذا تفكيره لا يختلف كثيرا عن تفكير وزير الحربية حيدر باشا ، بشأن السياسة والسياسيين . وعلى رايه ان الكل مجمع على ان التقسيم واقع .. وان الجامعة اساءت التصرف وهـــي التي فشلت وسببت الفشل . ثم اتصلت بتمازي بك مرات اثناء وجودي في مصر، فلم احصل منه الا على كمية من العتاد الانكليزي ، واراني نماذج لقنابل مدافـــع الهاون قال انه يستطيع ان يساعدني بشيء منها .

وغادرت مصر في ١٠ تشرين الاول عائدا الى دمشق ، وفي اليوم الثانـــي لوصولي اليها ، اي في ١١ طلبني رئيس الجمهورية ، فسردت له كل ما حدث معي في مصر ، مع اصراري على الاستقالة حتى يصل الى الجيش ما يحتاجه واخبرته عن ذهابي الى الجبهة لمناسبة عيد الاضحى للقاء الضباط والجنود وتوزيع بعـض الهدايا ، مما قدمه المحسن العراقي ياسين البلاسم الى الجيوش العربية غير ناس جيش الانقاذ .



عار الابد او مجد الابد

وصلت الى مقر القيادة ، فاطلعت على الموقف ، وعلى ما جرى من حوادث خلال تغيبي عن الجبهة . كانت الحالة هادئة . ووضع الجيش من حيث العتاد والتجهيزات كما تركته .

اما ملخص الحوادث خلال تغيبي عن الجبهة فقد وصف شيئا منه المقدم شقير في برقية كان قد ارسلها الي" قبل مغادرتي دمشق هذا نصها :

١١–١٠–١٩٤٨ رقم ٦١٢ من شقير الى فوزي

هاجم اليهود صباح ٢ تشرين الاول الساعة الثانية قرية كفرمندة بثلاثين مصفحة . وارتدوا الساعة السابعة والنصف امام قواتنا في القرية . ثم اجبروا على الانسحاب في الساعة ١١ . قسم من قتلانا وجد مدعوسا بعجلات المصفحات ذات السلاسل . وقام اليهود بمهاجمة عيلبون الساعة الثامنة صباحا وقصفوا مواقع جنودنا بمدافع الهاون بشدة فصدتهم قواتنا وانسحبوا باتجاه قرية صفورية .. واطلعت على الباقي في المقر فاذا هو : هاجم اليهود عيلبون الساعة ١٢ و١٥ دقيقة، صد هجومهم نهائيا الساعة ٢ وقد اذاع راديو اليهود ان خسائرهم في كفرمندة خمسة عشر قتيلا وواحد واربعين جريحا وفي عيلبون ثمانية عشر قتيلا . شوهد اليهود نهار ٧–١٠–١٩٤٨ يقيمون تحصينات داخل منطقة الحرام في قطاع ترشيحا . شوهد اليهود صباح ٩ – ١٠ يحتلون مرتفعا آخر في منطقة الحرام يسيطرون على قسم كبير من مراكز دفاعنا . وتبادل جنودنا واياهم النار مما اضطرنا الى القيام بهجوم اسفر عن احتلالنا المرتفع المذكور وغنمنا اربعة رشاشات ثقيلة وعددا من البنادق ورشيشات وجهاز لاسلكي .

وفي ليلة ١٠–١١ اعاد اليهود هجومهم على المرتفع الذي طردوا منه ، وبعد معركة عنيفة استعملوا فيها مدافع الميدان والهاون بكثرة تمكنوا من احتلال المرتفع المذكور . لا تزال المعركة مستمرة بعنف شديد . قمنا بهجوم معاكس لاسترداد المرتفع الساعة السابعة من صباح ١١ – ١٠ عدم وجوده بين أيدينا ، يعرّض جنودنا لخسائر ، ويضطرنا الى صرف عتاد وقنابل مدفعية كان يمكن توفيرها . هل يقدر أولو الامر موقفنا فيبعثون الينا بمدافع الهاون التي وعدونا بها ، تمكنا من طرد اليهود من تل «بلوتون» طاردتهم قواتنا حتى تل «الزويديتا» بينما قمنا بهجوم آخر على تل «شعبة» حيث اقام اليهود تحصينات حجرية . وتقدم جنودنا الى هذه التحصينات فلم يستطيعوا تدميرها لعدم وجود متفجرات لدينا . اما في تل الزويديتا فقد استماتت اليهود في القتال لزحزحة جنودنا فلم يتمكنوا . دمرت لهم مدفعيتنا مصفحتين وسحقت أوكارا عديدة للرشاشات ، واسكتت مدفعيتهم المتمركزة شرقي كابري ، فبطل رميها تماما عند الساعة العاشرة صباحا . وانتهت المعركة بانتصار قواتنا بعد تكبيد العدو عددا من القتلى لا يقل عن مائة وخمسين قتيلا .

بينما كانت هذه الحركات تحدث على جبهتنا ، كانت حركات اخرى خطيرة تحدث على جبهة الجيش المصري ، اذ قام اليهود بهجوم عنيف في منطقة اسدود،

فلم يوفق هذا الهجوم في مرحلته الاولى الى التقدم ، رغم عنفه وسرعته . ولكنه كان عاملا في تجميد قوات مصرية كبيرة على الخطوط الامامية . ولم يحاول اليهود في هذه المرحلة ، اختراق الجناح المصري الايمن ، كما كان منتظرا ، ثم بدا شيء من الهدوء في هذه الجبهة ، لعل السبب فيه كان انهماك اليهود في القتال على جبهتين في آن واحد . الجبهة المصرية . وجبهة جيش الانقاذ . او لعلهم ارادوا ان يوهموا المصريين ان اتجاههم هو نحو الجناح الايسر فقط للجيش المصري . وقد فهم اليهود خلال هذه الحركات ان جيشا واحدا من الجيوش العربية القريبة من الجبهتين ، الجبهة المصرية وجبهة جيش الانقاذ ، لم يبد اية حركة للنجدة . وقد خلق هذا عاملا قويا في نفوس اليهود ، للاقدام على خطة جريئة ومخيفة جدا . ولعل هذا هو الذي حملهم على تجربة للتخلص من الجيشين كل على حدة . وما لبثت فترة الهدوء على الجبهة المصرية ، حتى انتهت بهجوم يهودي قوي جدا باتجاه الجناح الايمن للجيش المصري ، فتمكنوا من اختراق هذا الجناح وتدفقوا ما بين الفالوجة ، وبيت جبريل نحو الجنوب ، حتى مؤخرة الجيش المصري ، وقطعوا بحركتهم هذه طريق غزة – بئر السبع – ثم احتلوا بئر السبع . وارتد الجيش المصري في اسدود الى المجدل «مجدل غزة» حيث وقعت معارك شديدة وقع مثلها في منطقة الفالوجة . فتخلى الجيش المصري عن المجدل وتعذر عليه الانسحاب من الفالوجة ، فحوصر فيها . واخذت المعارك تقع في الجنوب على خط يوازي طريق غزة – خان يونس – العريش . وعلى اثر هذا الوضع استدارت الجبهة فأصبحت من الشرق الى الغرب ، بعد ان كانت من الشمال الى الجنوب ، كان هذا كله يجري والجيوش العربية لا تحرك ساكنا ، ولعل هذا الموقف – ويصعب ادراك الاسباب الحقيقية فيه – هو ابشع موقف وقفه العرب وحمل اليهود على التمادي في الجراة الى حد لم يعودوا يراعون هدنة او يحسبون لاي امر حسابا .

وعلى اثر هذه النكبة ، اخذت المؤتمرات السياسية والعسكرية ، كالعادة ، تعقد في القاهرة وعمان ودمشق ، يسودها نشاط وحماسة ، بشكل يفوق نشاط اليهود وحماستهم في القتال . والغريب ان هذه المؤتمرات كان الغرض منها في الظاهر ، نجدة الجيش المصري ، وقد كانت فرصة نادرة الوقوع للجيوش العربية، للقضاء على اليهود وهم يتدفقون على الجيش المصري ، في الاراضي المصرية ، قلما يسنح مثلها في الحروب. فاندفاع اليهود ضد الجيش المصري كشف للعرب صفحة يسجلون فيها ما يشاؤون . عار الابد بتضييع فلسطين ، او مجد الابد بانقاذ فلسطين ، فاختار العرب الأولى .....

***

المسألة مسألة رفع عتب ....

في ٢٠ تشرين الاول من سنة الف وتسعماية وثماني واربعين ، دعيت الى اجتماع عسكري يُعقد في شتورة «لبنان» للمداولة في طريقة لنجدة الجيش المصري . وكان يترأس هذا الاجتماع رئيس الوزارة جميل مردم . وحضره وزير الدفاع اللبناني ، والجنرال شهاب قائد الجيش اللبناني ، والزعيم حسني الزعيم، والمقدم ناصر رئيس ركن في الجيش السوري والعقيد محمود الهندي من اللجنة العسكرية . افتتح السيد جميل مردم الاجتماع بقوله : ان حالة اخواننا المصريين سيئة جدا ، الجيش في حالة تقهقر ، والمعارك بينه وبين اليهود ، تدور في الاراضي المصرية ، فلا بد لنا من نصرتهم . والتفت اليّ كأنما هو يطلب رأيي ، فقلت له : يمكن ان نقدم للجيش المصري مساعدة مباشرة ومساعدة غير مباشرة . فالاولى لا يمكن ان يقوم بها الا الجيشان الاردني والعراقي المرابطان في منطقة تتصل بمنطقة الجيش المصري . والمساعدة غير المباشرة ، يستطيع القيام بها الجيشان السوري واللبناني ، وجيش الانقاذ ، وذلك بحركة واسعة في منطقة الجليل ، مما يضطر اليهود لسحب قوات كبيرة لتوقيف هذه الحركة فنخفف بذلك ضغطا شديدا عن الجيش المصري . وهذه الحركة يجب ان تقوم بأسرع ما يمكن ، وقبل ان تتم عملية القوات اليهودية على الجبهة المصرية ، وتصبح قادرة على التفرغ لمجابهة حركاتنا. ونستطيع ان نتفق على وقت هذه المساعدة وتفصيلاتها كافة الان . اما المساعدة التي يمكن ان يقوم بها الجيشان العراقي والاردني ، فيجب ان يتم التفاهم على وقتها وتفصيلاتها مع قيادة الجيش المصري . وما عليهم الا ان يعلمونا بالوقت الذي يختارونه ، لنكون على استعداد لمشاركتهم وتنسيق هذه الحركات كلها تنسيقا نافعا . ولم تختلف آراء بقية القادة والضباط الحاضرين عن رأيي هذا ، مع اضافة بعض الملاحظات . واقترح جميل مردم ان يذهب حسني الزعيم والجنرال شهاب الى مصر ، ليطلعا المسؤولين على مقرراتنا ، ويأخذوا رأيهم في الامر ، وكان اقتراح جميل مردم هذا ، مخرجا بارعا لاثبات رغبته في نجدة الجيش المصري والتخلص من تنفيذها ... فوافق الزعيم حسني الزعيم على هذا الاقتراح ، واعترض الجنرال شهاب قائلا : ماذا عسانا نعمل في مصر ؟ فاذا كلفتنا المراجع المسؤولة على شيء لا يستطيع الجيش اللبناني القيام به فماذا يكون موقفنا ؟ اقول هذا بالنسبة الى الجيش اللبناني . فالتفت اليه السيد جميل مردم وقال ناهضا «يا جماعة ما هي مسألة رفع عتب» ...

وكانت المؤتمرات كلها من قبل ومن بعد – كما بدا لي – رفع عتب ...

وعدت الى الجبهة والهدوء يومئذ يشملها كلها .. هدوء غريب يحمل على الشعور اننا في حالة مهادنة او سلم . ولم تعتد جبهتنا هذا النوع من الهدوء . وكان اليهود قد بدأوا ينشئون معسكرا على كيلومترين تقريبا ، الى شمال غربي

قدس . وعلى طريق المنارة – النبي يوشع . فاعترضت لدى مراقبي الهدنة على انشاء هذا المعسكر ، فأكدوا لي انهم على علم بانشائه ، وانه ينشأ لايواء النساء اليهوديات اللواتي لا مأوى لهن . على ان حركة غريبة في النقليات باتجاه هذا المعسكر ليلا نهارا ، وفي حفريات حواليه ، أقلقت بالي ، وجعلتني أنذر المراقبين بأنني سأزيل هذا المعسكر بقوة السلاح ، اذا هم لم يتدخلوا في الامر ، ويمنعوا اليهود من الاستمرار في اعمالهم التي شعرنا بها . ولكن المراقبين أكدوا لي ان ليس هناك اي خطر من هذا المعسكر . فلم أطمئن الى هذه التأكيدات ، واتخذت التدابير لازالة المعسكر . وعند الساعة الثانية من بعد ظهر ٢١ تشرين الاول ، اخذت طائرات يهودية تقوم بحركة استطلاع فوق مواقعنا في منطقة المنارة وقدس ، وفوق مقر القيادة . ثم اتجهت من وراء الجبهة نحو مدينة صور . وشوهد عدد كبير من المصفحات ، يتجمع في المعسكر اليهودي الذي ذكرته ، قرب قدس . وفي الساعة الثانية من صباح ٢٢–١٠ قام اليهود من المنارة ، بهجوم كبير، تدعمه مدفعية ميدان ، مع مدفعية هاون عيار ٨١ على مواقعنا في قرية الحولة ضمن الاراضي اللبنانية ، وبدأت معركة عنيفة تمكنت قواتنا في نهايتها من صد هذا الهجوم ، وطردت اليهود حتى مرتفع الشيخ عبّاد ، الذي يبعد حوالي خمسماية مترا عن مستعمرة المنارة . ووصلت في تلك اللحظة نجدات يهودية كبيرة من مستعمرات الحولة ، فتجددت المعركة على هذا المرتفع الذي يُعتبر باب مستعمرة المنارة . وقد ارسلت من قواتنا فصيلا من المدفعية الى المرتفع المذكور، فتغلبنا على قوات العدو واستولينا عليه بكامله . وهكذا أصبح جنودنا على ابواب مستعمرة المنارة . فقام اليهود ساعتئذ من معسكرهم الذي «لا خطر منه» بهجوم آخر على مواقع جنودنا ، جنوب شرقي المنارة ، وكانت المدفعية والمصفحات اليهودية ، اكثر منها في الهجوم الاول . وحصل اشتباك عنيف جدا بين قواتنا وبين القوات اليهودية التي تمكنت من التقدم قليلا ، فأرسلت فصيلا آخر من المدفعية اشترك في القتال وصد الهجوم اليهودي وأخذت قواتنا تتقدم نحو المعسكر ، فتمكنت مفرزة منها من قطع الطريق على رتل من المصفحات اليهودية، كان قد ابتعد عن المعسكر بتقدمه ، ففصلته عنه ، مع من كان يرافقه من المشاة . ونسفت هذه المفرزة الجسر الوحيد الواقع على طريق عودة الرتل اليهودي ، فانقطع بذلك عليه خط الرجعة . وطاردت هذه المفرزة اليهود حتى اضطروا الى التخلي عن مرتفع تلو الآخر ، متجهين نحو الغرب ، فقذفت عندئذ بسرية المقر الى المعركة فتمكنت قواتنا من طرد القوات اليهودية عن جميع المرتفعات القريبة من مركز المصفحات ، وهكذا بعد ان عزلت هذه عزلا تاما ، ركز جنودنا هجومهم عليها ، بمدافع الهاون ، فدمرنا اربعة منها . وخرج الجنود اليهود من هذه المصفحات مستمرين في الدفاع عن نفوسهم ، فقتلوا جميعا ، ولم يسلم غير واحد كان وجد لنفسه مخبأ وراء الصخور ، فأتى به جنودنا اسيرا . وغنمنا ثماني مصفحات في حالة صالحة ، وبقي القتال مستمرا الى ما بعد الغروب فمهد جنودنا طريقا ساقوا عليه هذه المصفحات الى مقر القيادة . وقد أحصينا من قتلى العدو ٢٢٥ جثة

وغنمنا ثلاث سيارات جيب مصفحة ، ومدفعا مضادا للدبابات ومدفعين هاون عيار ٨١ ، و١٥ رشاشا واربعة اجهزة لاسلكي ، وعددا من البنادق مع عتادها . وخسرنا ٣٦ شهيدا و٧١ جريحا .

وجاءت ليلة ٢٢ – ٢٣ فاعتبرناها ليلة هدوء تام لم يعكر صفوه، سوى قرقعة سيارات النقل اليهودية التي تنقل نجدات يهودية من صفد ، ومن مستعمرة نجمة الصبح في الحولة ، وبقية المستعمرات اليهودية في تلك المنطقة ، حتى خيل الينا، ان اليهود ينقلون اكبر عدد من قواتهم من امام الجبهة السورية الى جبهتنا . وفي الليلة نفسها كانت نقليات مشابهة تأتي من مستعمرة نهاريا الى مستعمرة عيلبون، الواقعة مقابل منتهى خط جبهتنا الشمالية الغربية . فخطر لي انه يجب ان انتظر في صباح ٢٣ هجوما مزدوجا على جبهتنا من الغرب والشرق . وقد كنا اصبحنا في حالة لا تمكنا من الاستمرار في قتال طويل الامد . بالنظر لاستنفادنا اكثر عتادنا من جهة ، واعياء الجنود الذين لا احتياطي لهم من جهة اخرى . على اننا رغم هذا كله لم يكن لنا مناص من مواجهة الموقف ، بما بين ايدينا من وسائل ، مهما يكن من امر ، ولعرقلة نقليات اليهود هذه ، والحد من نشاطها ، ما امكن ، ارسلت في هذه الليلة دوريات قوية هبطت سهول الحولة ، واخذت تطلق نيرانها على القافلة في عدة نقاط من الطريق الرئيسية . فتعطلت بذلك حركة القافلة ، وسادت الفوضى صفوفها ، كما احدثت شيئا من الذعر في نفوس اليهود ، الذين لم يكونوا يحسبون لهذه المفاجأة . وفي صباح ٢٣ بدأ اليهود بهجوم من عيلبون على تربيخا في الغرب . وحددوا هجومهم في منطقة المنارة ، ومنطقة النبي يوشع، وصمدت قواتنا في مواقعها حتى الظهر ، فبدأت حدة الهجوم تنزل تدريجيا ، فقمنا بدورنا بهجمات معاكسة من نقاط متعددة ادت الى تراجع القوات اليهودية وانسحابها ، وهي تدافع دفاع الانسحاب . وصد الهجوم على تربيخا ، فتراجع العدو حتى مستعمرة عيلبون ، والسفوح المتصلة بسهل الحولة من الشرق . ولم يتوقف القتال الا بعد الغروب حينما أسرع المراقبون الى الميدان واوقفوا اطلاق النار . وقد ارسل مقر القيادة الى قائد الجيش السوري البرقية التالية :

٢٣–١٠–١٩٤٨ رقم ٦٩٨

انتهت المعركة هذا المساء بوقف اطلاق النار حسب طلب المراقبين . دحر العدو بخسائر فادحة جدا في معركة عراء جنوبي وشمالي المنارة . وغربي تربيخا. دمرنا سبع عشرة مصفحة . الغنائم كثيرة .

وفي نهار ٢٤ شمل الجبهة هدوء استمر حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، اذ حاول اليهود للمرة الاخيرة شن هجوم جديد ، فاشتعلت الجبهة بنيران حامية جدا من المدفعية على انها لم تلبث ان انطفأت . وقد طلبت من قيادة الجيش السوري ،

ان تقوم بحركة ما ، على جبهاتها الخالية من اليهود ، لعل ذلك يخفف من ضغطهم على قواتنا التي كاد ينفذ عتادها ، فلم أتلق اي جواب . وفي صباح ٢٥ سمعنا بعض طلقات بنادق ورشاشات من ناحية الجبهة السورية ، وكانت جبهتنا في ذلك اليوم هادئة ، وقد علمت فيما بعد ان المسألة كانت مسألة تصادم بين دوريتين سورية ويهودية ، تبادلا اطلاق النار حينا وانتهى الامر . وعادت هيئة المراقبين الينا تطلب منا اخلاء المراكز التي استولينا عليها في معارك المنارة . ولكني لم الب هذا الطلب غير المعقول ، فانصرف المراقبون غاضبين ، وهم يقولون ان في هذا الرفض اهانة للهيئة التي يمثلونها . وانتهت معارك المنارة بتحطيم لواء يهودي كان اليهود قد حشدوه من قواتهم في الحولة وصفد وطبريا ونهاريا . وفي خلال هذه المعارك التي كانت تدور في جبهتنا ، كانت تدور معارك اخرى على جبهة الجيش المصري ، الذي كان في خطر شديد ، فخففت جبهتنا الضغط عن الجبهة المصرية بارغامها القيادة اليهودية على سحب قوات كان في وسعها ان تستخدمها ضد الجيش المصري ، لاسيما وقد كانت هذه القيادة مطمئنة الى ان الجيوش العربية لا تحرك ساكنا ، وهنا ايضا ، اضاع الجيش السوري فرصة ثمينة لانه لم يشترك معنا في القتال . ولو فعل ، لاستطعنا فصل منطقة الحولة اليهودية ، عن منطقة طبريا .

***

«محاولتهم» تضييع جيش الانقاذ

كانت الاذاعات اليهودية وغيرها من المصادر اليهودية ، تنم اخبارها عن غيظ وحقد شديدين على جيش الانقاذ ، لان هذا الجيش كما كانت تصفه لم يكن يعبأ بتقاليد الهدنة . وكنا لذلك نتوقع ان يقوم اليهود بهجوم ما ، للانتقام منا على الاقل . وكنت اتوقع هذا الهجوم خلال المعارك مع الجيش المصري ، او بعدها ، لترتد القوات اليهودية كلها علينا . على انني كنت ارجح الشق الاول فقد كان معقولا جدا ، ان يوقف اليهود حركاتهم على الجبهة المصرية ، وقفا مؤقتا ، ليندفعوا ضدنا ويتخلصوا منا . اذ ان جيش الانقاذ وحده هو الذي تحرك في خلال معاركهم مع الجيش المصري ، وكنت متأكدا ان هجومهم المتوقع سيكون هجوما اقوى من كل ما سبقه من حيث العدد والمعدات ، وكنت اوازن بين امرين : هل أصمد بالجيش مهما كلف الامر ؟ فأعرضه للاحاطة والتحطيم او الاسر ؟ ام اقرر خطتي على اساس تقديم سلامة الجيش وخسارة الاراضي ، عندما ينتهي الامر باستحالة الصمود ؟ وكان طبيعيا جدا ان اقدم فكرة سلامة الجيش ، حينما يكون الموقف يهدد بضياع الجيش والاراضي معا . وكنت قد دعيت الى دمشق مرة اخرى ، لحضور اجتماع عسكري للبحث في الحالة الراهنة ، في ٢٤ تشرين اول.

افتتح الاجتماع رئيس الوزارة باستفهامه عن المعارك الاخيـرة ، معارك المنارة ، واسبابها ونتائجها . فبسطت له بالتفصيل كل ما يتعلق بهذه المعارك ، واكدت له ان هجوما يهوديا كبيرا على جبهتنا اصبح متوقعا في القريب . وانه من الصعب جدا ان يستطيع جيش الانقاذ في حالته الحاضرة ، صد مثل هذا الهجوم . وان هناك فرصة يجب ان لا نتركها تفلت من ايدينا ، نستطيع ان نستغلها ، واتفقنا منذ الان ، على خطة مشتركة ، نقوم بتنفيذها مع الجيشين السوري والعراقي . فقال السيد جميل مردم وزير الدفاع : فكرة حسنة ، لاسيما واخواننا المصريون يعانون شدائد قاسية اليوم . فقال اللواء نور الدين محمود ان الجيش العراقي لا يستطيع في حالته الحاضرة ، القيام بحركات تنقلب الى معارك كبيرة . ودارت مناقشات في الموضوع لاقناعه بقبول الفكرة ، فقد يعود اليهود الى مهاجمة الجيش العراقي منفردا ، ولكن اللواء نور الدين لم يقتنع . وسأل السيد جميل مردم ، الزعيـم حسني الزعيم ، رأيه في الامر ، قال : لدينا فوجان ـ احدهما وهو الفـوج التاسع في الخيام ـ نستطيع ان نضعهما تحت امرة فوزي ، على ان يتحمل مسؤولية العمل ، ولا يطلب منا اية نجدة غيرهما . ومع ما في هذه الفكرة من النقص ، فرحت بها ، على انني فهمت في ما بعد ان هذين الفوجين من المتطوعين الجدد ، وانهم لم يتموا تدريبهم العسكري ، وكانوا قد تمردوا غير مرة ، وفيهم كثير من الليبيين الذين ارسلهم السيد عبد الرحمن عزام . وفي ٢٥ تشرين الاول عدت الى الجبهة وانا مطمئن الى انني حصلت على قوة محسوسة بين يدي ، فوجدت ان الجيش اللبناني ، امر الفوج المرابط في المالكية بالانسحاب ، على ان يحل محله فوج من المتطوعين ، الذين جمعوا من هنا وهناك ، ويتدربون في صور. ولم يتم تسليحهم بعد . وان عدد هذا الفوج هو اقل من نصف عدد الفوج النظامي الذي كان في المالكية . وعبثا حاولت اقناع القيادة اللبنانية بضرورة ابقاء فوج المالكية فيها . وكان ابرق اليّ المقدم شقير بهذا الشأن ، بواسطة العقيد الهندي في دمشق برقية هذا نصها :

٢٥ـ١٠ـ١٩٤٨ الساعة ٧ و٣٠ دقيقة صباحا رقم ٧١٦

خابروا الزعيم شهاب ان يرسل لنا فوج صور دون ان يسحب فوج المالكية فيصبح بامكاننا القيام بهجمات على طول جبهتنا . ونؤدي اكبر خدمـة للجيش السوري . حصار المنارة وتموينها بالطائرات فقط من قبل اليهود يرغم هؤلاء على مهاجمتنا بأكبر قوة لديهم . لهذا يجب تطبيق خطة هجوم مع الجيش السوري تنفذ بأسرع ما يمكن .

الامضاء ـ شقير

وقد غادرت دمشق قبل ان اتلقى هذه البرقية ، فوجدت صورتها في مقر

القيادة ، وقد نفذ قرار القيادة اللبنانية ، وانسحب فوج المالكية ليحل محله فوج صور . ورحت اتحقق من كمية العتاد لدينا بصورة دقيقة ، بواسطة آمـري الوحدات ، فتبين لي انها كمية ضئيلة جدا . وكان مدير الادارة في اللجنـة العسكرية العقيد محمود الهندي قد جاء الى جبهتنا ليتفقد الحالة ، وسألت المقدم عامر آمر لواء اليرموك بحضور العقيد الهندي ، عن كمية العتاد لديه اجابني ان ما لديه من عتاد لا يتجاوز سبع عشرة طلقة للبندقية الفرنسية . واتى مدير الادارة يومئذ في جيش الانقاذ الملازم مشهور حيمور شاكيا قلة الارزاق ، فالتفت الى العقيد الهندي قائلا : ابذل جهدك في دمشق لارسال شيء من العتاد والارزاق ، فان المعارك على جبهتنا ـ كما لحظت ـ تكاد لا تنقطع . أليس من الجريمة ان يكبل هذا الجيش ويحطم ، لغير ما سبب، الا هذا النقص في سلاحه وذخيرته . ثم هذه السيارات المبعثرة في الكاراجات تنتظر التصليح متى تحل مشكلتها ؟ فأجابني : سأبذل كل جهدي لارسل اليكم ما يمكن من الارزاق ، اما العتاد فليس لدينا عتاد. وقد نحصل على شيء منه من الجامعة . واما السيارات فلا استطيع حل مشكلتها قبل الاتفاق مع الكاراجات على الحساب ... وودعني وذهب الى الشام على ان يبرق اليّ في النهار نفسه . ولما لم نتلق شيئا ، حتى في اليوم الثاني لسفره ، ارسل اليه الملازم مشهور برقية هذا نصها :

٢٦ـ١٠ـ١٩٤٨ الساعة ١٧ رقم ٧٢٦

الاغذية نفذت لم يبق منها شيء . الوحدات في تذمر خطر .

الامضاء ـ مشهور

***

الكولونيل لورث يهدد جيش الانقاذ

بعد المعارك الاخيرة ، عاد الهدوء فخيم على جبهتنا . وعاد مراقبو الهدنـة يلازموننا ولكن بشكل جديد . وكان همهم الوحيد ان يؤكدوا لنا ان حادثة ما لن تقع ، اذا نحن حافظنا على هذا الهدوء ولم نتحرش باليهود ، لان هؤلاء قد اعطوهم الضمانات الكافية انهم لن يخرقوا الهدنة . كان المراقبون ثلاثة ، فرنسي وبلجيكي واميركي ، وهذا الاخير كان رئيسهم . على اننا كنا نطمئن الى العضو الفرنسي اكثر من غيره . ذلك انه كان يفهمنا انه لا يجوز أن نطمئن الى الوضع اطمئنانا كاملا ، بعكس غيره الذين يحاولون انزال الاطمئنان على قلوبنا بأية وسيلة . كما كانـوا يصفون لنا عجز الجيش المصري عن المقاومة . وقد حملني هذا على ان لا أركن

الى ملازمتهم لنا هذه الملازمة المستمرة ، وعندما طلبوا اليّ ان يكون لهم مركز خاص في مقر القيادة ، شأن زملائهم ، لدى الجيوش العربية ولدى القوات اليهودية ، منعت تجولهم في مناطقنا ، الا اذا وقع حادث يقتضي ان يحققوا فيه.

وكانت استعلاماتي تؤكد لي ، ان هناك تحشدات قوية ، في منطقة المنارة ، وصفد ونهاريا . مما حملني على توقع نشوب معارك كبيرة ، من جديد ، على طول جبهتنا في كل ساعة . وفي صباح ٢٧ـ١٠ هاجم اليهود مواقعنا في منطقة المنارة، ونشبت معركة استمرت حتى الساعة ٢ بعد الظهر كان الفشل حليفهم فيها . على انهم جددوا هجومهم بشكل اوسع ، حوالي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم نفسه ، وقد اشترك في الهجوم دبابات كثيرة ، وبالرغم من ذلك صدت قواتنا هذا الهجوم ، ولكنني منعتها من مطاردة العدو ، آخذا بعين الاعتبار ما قد نفاجأ به من ناحية اخرى . ولعل هذا هو الذي شجع اليهود على القيام بهجوم ثالث ، حوالي الساعة ٣ من صباح ٢٨ بقي حتى الساعة السابعة والنصف وباء بالفشل . وفي ذلك النهار جاء الى جبهتنا الكولونيل لورث ، من اعضاء لجنة مراقبة الهدنة ، بحجة التحقيق في ما حدث ، وقال لنا يجب ان تكفوا عن هذه الاعتداءات التي تهدد سلامة الهدنة المفروضة من قبل هيئة الامم المتحدة ، وإلا فسيحل بكم ما حل بالجيش المصري بل اكثر من ذلك ، كأن يباد جيش الانقاذ . فأجبته بشيء من الحدة : ومن الذي سيقوم بعملية الابادة ؟.. اقوات هيئة الامم المتحدة ، ام القوات اليهودية ... أرجو منك ان تترك حالا مقر القيادة وتذهب الى مركز عملك . فنهض غاضبا وهو يتمتم : سنرى . سنرى ... فقلت له اذا كان غضبك ناتجا عما انزلناه من خسائر باليهود امس والذي قبله ، فأؤكد لك ان غضبك في المستقبل سيكون أشد ... وارفقته بضابط من ضباط المقر ، الى ان خرج من منطقتنا . وقد أخبرني الضابط الذي ارفقته به ، انه توعدني بتقديم تقرير ضدي الى الجنرال ريلي .

عدت من مقرنا الجديد في عين ابل ، وانا أفكر في عبارات الكولونيل لورث التهديدية ، فلاحت لي صلة وثيقة جدا بين هذه العبارات وبين ما كنت عرفته من امر التحشدات اليهودية الجديدة . وبت اتوقع بدء هجوم كبير بين ساعة وساعة. فطلبت آمري الوحدات ، وعقدت معهم بعد ظهر ٢٨ـ١٠ اجتماعا ، بحثنا فيه ما يجب علينا عمله في حالة وقوع هجوم عام على طول جبهتنا ، بعد ان فشل الهجوم اليهودي على منطقة المنارة ، وقد كان حاضرا هذا الاجتماع العقيد محمود الهندي الذي كان جاء الى الجبهة ليطلع على حالة الاعاشة في جيش الانقاذ ، وبعد اتفاقنا على الترتيبات اللازمة ، أبرقت الى الزعيم حسني الزعيم ، اطلب منه الاسراع في ارسال الفوجين اللذين كان وعدنا بهما ، فأجابني ان الفوج الثامن في طريقه الينا، وسيصل عند المساء الى صور ، ثم تعود السيارات التي تنقله لتأتي بالفوج التاسع. فاطمأننت الى هذا التدبير ، وقررت ان اجعل من الفوج الثامن ، قوة احتياطية

لجبهة المنارة ، ومن الفوج التاسع ، قوة احتياطية لجبهة ترشيحا وجبهة الجش في منطقة صفد .

وقبيل عودة آمري الوحدات الى مراكزهم وفي تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، سمعنا دويا هائلا ، وتبينا انه منبعث من قصف قلاع طائرة يهودية في منطقة ترشيحا والمغار وميرون والصفصاف والجش ودير القاسي . اي على مواقع جنودنا في ثلاث جبهات . فطلبت من آمري الوحدات الاسراع الى مواقعهم، وان ينبئوني فور وصولهم بحقيقة الموقف . وفي الساعة السادسة والنصف مساء، اخذت ترد عليّ برقيات المراكز ، وكان القصف قد توقف ، فاذا مجموع ما القت الطائرات من القنابل يقدر بأكثر من مائتين ، وكانت الخسائر في الاهلين اكثر منها في الجنود . كانت في الاهلين حتى تلك الساعة ٤٢ قتيلا و٩٧ جريحا ، وفي الجنود ١٨ قتيلا و٢٩ جريحا . وبعد توقف القصف الجوي ، بدا قصف المدفعية شديدا على طول الجبهة ، وعقب ذلك هجوم عنيف على جبهة جيش الانقاذ كلها . وكان يتقدم الهجوم دبابات ثقيلة . وقد تلقيت من قائد جبهة ترشيحا المقدم المهدي صالح في ذلك المساء برقية هذا نصها :

٢٨ـ١٠ـ١٩٤٨ الساعة الثامنة مساء رقم ٣٠٨

خبروا مدفعية الجيش اللبناني ان ترمي الكابري وشرقيها بأسرع ما يمكن . القوات اليهودية تتدفق من حيفا ونهاريا . صددنا الهجمات حتى الان . نسيطر على الموقف .

الامضاء ـ مهدي

وتلقيت من بقية المراكز في الجبهة برقيات متشابهة . وفي الساعة ١١ من تلك الليلة تلقيت من المقدم مهدي برقية اخرى رقم ٣١٣ هذا نصها : الضغط يزداد . اخبروا المدفعية اللبنانية ان ترمي الكابري وشرقيها. هناك قوات كثيرة . مشاة العدو تتقدم نحو مواقعنا من جميع الاطراف .

الامضاء ـ مهدي

بهذه الصورة كانت المعركة مستمرة على جبهات جيشنا كلها . فطلبت الى الجيشين السوري واللبناني بعد ان اطلعتهما على حقيقة الموقف ان يساعدونا على الاقل بقصف المدفعية مؤخرة العدو المهاجم ، ولكن طلقة واحدة لم تنطلق من هنا ولا من هناك .

وأخذت المعركة تتكشف عن الاهداف الرئيسية للهجوم اليهودي ، ويتمركز ثقلها على جبهة ترشيحا ، بقصد قطع الطريق بينها وبين الرامة ، على قواتنا في القوس الجنوبي . وكان هدف الرتل الآتي من صفد قرية الجش وقرية سعسع . وسعسع هذه ملتقى طرق رئيسية ، يتم لليهود ، اذا هم احتلوها ، فصل جبهة ترشيحا والجبهة الجنوبية كلها – وفيها اكثر من ثلثي قواتنا – عن بقية قوات جيش الانقاذ . وكان الهجوم من ناحية مستعمرة المنارة ، هدفه بليدة وعيترون . وفي حالة تمكن القوات اليهودية من بلوغ هذه الاهداف ، يتعرض جيش الانقاذ الى خطر الابادة ، او يتبعثر الى فلول تتسلل الى الحدود اللبنانية ، لذلك اخذ اهتمامي يتركز في الاحتفاظ بترشيحا وسعسع وبليدة باي ثمن ، لاجنب الجيش الخطر الذي يتهدده . وكانت المعارك في بليدة وجنوبي سعسع ، وشرقي ترشيحا اشد ما عرفته فلسطين من معارك ، منذ بدء الحرب الفلسطينية . ودافع جنودنا دفاعا يصح ان يتخذ مثالا لاشد حروب الدفاع بسالة وعنادا وتضحية. وكان الفوج الثامن بقيادة عدنان المالكي ، قد وصل الى الجبهة قبيل المعركة ، فاستعرضت ضباطه وجنوده وعينت لقائده مهمة ، في جبهة بليدة ، وهو ضابط شاب من ضباط الجيش السوري الشجعان . ثم سألته عن مقدار عتاد الفوج فاجابني ان مجموع عتاد الفوج اقل من وحدة نارية ... فبدا امامي شبح خطر نفاذ العتاد... وعدت اعلل نفسي بالفوج التاسع ، وما قد يكون لديه من عتاد . وخاض الفوج الثامن الى جانب قواتنا المعارك في جبهة المنارة . وكانت له يد في صد الهجوم اليهودي الذي كان اخذ يحرز بعض التقدم . وكان هجوم العدو على جبهة الجش اقوى منه على اية جبهة اخرى ، فان طبيعة الارض هناك كانت تسمح لآلياته بالحركة كما يريد . وقد تقدم في هذه الجبهة ، حيث دارت معارك بعد منتصف الليل في ميرون والجش ، اكثر منه في غيرها ، ولم يبق بينه وبين سعسع ، الموقع الذي يكمن الخطر في ذهابه ، الا مسافة قصيرة جدا . فرايتني مضطرا الى سحب سرية من الفوج البدوي ، من جهة بليدة ، قذفت بها الى سعسع للاحتفاظ بها ما امكن ولم يكن لدينا وسائل للقتال ضد المصفحات والدبابات ، عدا مدافع الصحراء الثمانية ، اما ضد الطائرات فلم يكن لدينا اي سلاح . وقبيل الصبح ، كان فصيل المدفعية عيار ١٠٥ قد اطلق آخر قنبلة لديه . فاتصل بي آمر الفصيل يسألني عما يمكن ان يفعل ، فامرته بالانسحاب الى ما وراء الجبهة . وكانت المعركة في جبهة ترشيحا بلغت الذروة ، ونظرا لعدم وجود احتياطي لديّ ، وعدم وصول الفوج التاسع الذي كان منتظرا ، طلبت من المقدم عامر في جبهة الرامة ، الاقل خطرا ، ان ينجد ترشيحا ، وان يساند جبهة الجش بسرية . وكان الفوج العلوي بقيادة الرئيس غسان جديد ، هو الذي يدافع عن الجش ، والرئيس غسان من ضباط الجيش السوري الذين انضموا الى جيش الانقاذ . وكان هذا الفوج ، يقاتل في وجه قوات آلية هائلة ، تفوقه ست مرات عددا ولا اتكلم على المعدات . ووصل

الفوج التاسع الى بنت جبيل ، بعد منتصف ليل ٢٨–٢٩ تشرين الاول ، فجاءني آمره المقدم علم الدين القواص الى مقر القيادة ، فسألته عن مبلغ ما لدى فوجه من عتاد ، فأجابني جواب آمر الفوج الثامن ، اي ان مجموع ما لدى الفوج من عتاد لا يتجاوز وحدة نارية ... فأمرته ان يذهب الى سعسع ، ويتصل بالرئيس غسان آمر الفوج العلوي ، الذي كان لا يزال يدافع عن الجش مستميتا ، ويضع تحت تصرفه سرية او سريتين ، تبعا لما يتطلبه الموقف ، وان يبقى مع بقية فوجه في سعسع . وكان امكان سحب القوات المتمركزة في القوس الجنوبي سالمة ، متوقفا على مقدار صمود الجش وترشيحا ، وارفقته من المقر بالرئيس مشهور حيمور ، على ان يصحبه الى سعسع ثم الى الجش ، ولكن المقدم القواص لم يرافق فوجه، واوكل امره الى الرئيس مشهور . علمت بهذا في صباح اليوم الثاني ، اي في ٢٩ عندما بدات الطائرات اليهودية تقصف مقر القيادة ، اذ شاهدته هناك وسألته مستغربا ، عن سبب وجوده في المقر ، فأجابني انه ارسل الرئيس مشهور على راس الفوج ، ونام هو في احدى خيم المقر ليأخذ قسطا من الراحة ... بينما لم تغمض عين لاحد ممن ينتسبون للمقر في تلك الليلة ، فآلمني ذلك كثيرا ، وامرته ان ينضم الى فوجه في الحال ، وكنت اراقب تطور الموقف مراقبة مستمرة ، وانا اشعر بتهاوي الجبهة ، حتى اذا ما جاءت الساعة الرابعة صباحا ، كانت القوات اليهودية تمكنت من احتلال الجش بكاملها . اما المقدم علم الدين القواص ، فبدلا من ان ينفذ الاوامر الصادرة اليه ، ذهب فسحب فوجه من سعسع والجش ، وجاء به الى قرية كفر برغم ، بينما المعركة تزداد عنفا في الجش وترشيحا . والطائرات تقصف قواتنا قصفا هائلا ، وهي ماضية في الدفاع بضراوة ثم توقف الهجوم على ترشيحا بغتة .

اطلقت قواتنا ، الا اقلها ، آخر طلقة من بنادقها ومدافعها ، ولم يبق لديها ما تقاتل به ... وبقي فصيل واحد في سعسع يساند الجبهة ، لديه بعض طلقات كان يستعملها مستميتا .

امام هذا الموقف الرهيب ، وبعد سقوط الجش ، اصدرت امرا الى المقدم عامر بالانسحاب من منطقة الرامة نحو ترشيحا . فأجابني ببرقية هذا نصها :

٢٩–١٠–١٩٤٨ الساعة ٨و٣٥ دقيقة رقم ٩٨

تدور الان معركة في كل من مجد الكروم ، شعب ، سخنين ، عيلبون . اليهود يستخدمون مدفعية الميدان .

وبرقية اخرى الساعة ٨و٥٥ دقيقة رقم ١٠١

ارسلوا سيارات تكفي لتنقلاتنا .

الامضاء ـ عامر

وكنت ارسلت برقية في الساعة ٧و١٥ دقيقة رقم ٧٤٨ الى آمر حامية تربيخا ليسحب سريته الى سعسع ويتخذ منها مركزا للدفاع . فأجابني ببرقية هـذا نصها :

٢٩ـ١٠ـ١٩٤٨ رقم ٥

نظرا لعدم وجود سيارات لنقل السرية الى سعسع أرجو ارسال سيارات نقل.

الامضاء ـ حقي

وبدأت محاولة العدو التقدم نحو سعسع . ولكن الفوج العلوي المنسحب من الجش ، نحو الشمال الشرقي ، اخذ يهدد جانبه بهجمات عنيفة ، وأخذ فصيل مدفعيتنا الوحيد الذي كان لا يزال لديه طلقات معدودة والمتمركز في سعسع يصب نيرانه عليه ببراعة ، فأخّر هذا تقدمه قليلا . وتلقيت في هذه اللحظة ، من آمر فصيل المدفعية البرقية التالية :

٢٩ـ١٠ـ١٩٤٨ رقم ٣١٦

استطعنا بالمدفعية تعطيل مدفعية العدو في الصفصاف التي كانت ترمـي سعسع . وقصفنا تجمعاته في الجش فتفرق . يمكننا الاحتفاظ بمواقعنا الحالية اذا ارسلتم ذخيرة للمدفعية .

وهكذا كان هذا الفصيل الاخير من مدفعيتنا يلفظ ... آخر طلقاته .

وراحت الطائرات اليهودية ترمي المناشير وراء الجبهة ، وفي بيروت ، تعلن ان القوات اليهودية أبادت جيش الانقاذ . والواقع ان في الخطة اليهودية المرسومة، والقوات الهائلة بالعدد والمعدات ، من مدفعية ميدان ، الى دبابات ثقيلة ، الـى طائرات ، المعدة لتنفيذ هذه الخطة ، ما يحمل على الاعتقاد ان الابادة ، كانت امرا واقعا لا بد منه . حتى إنه في اليوم نفسه ، اي في ٢٩ـ١٠ جاءني اعضاء لجنة مراقبة الهدنة ، وعلى ملامحهم ما يدل انهم يشاركون اليهود باعتقادهـم هذا .

وقالوا لي ان جيش الانقاذ قد دافع في الحقيقة دفاع الابطال ، ولكنه لم يكن من الممكن ان يقع غير هذا الذي وقع ، بالنظر الى القوات اليهودية الآلية الهائلة من جهة ، والى قلة العدد والمعدات ، خصوصا الآلية ، في جيش الانقاذ ، من جهة اخرى ... والذي وصف المعركة من بين اعضاء لجنة المراقبة ، وصفا حقيقيا ، دون أن يبدو عليه ما بدا على رفاقه ، هو الضابط الفرنسي الذي اكتفى بالقول : ان المعركة في الواقع كانت أعنف معركة وقعت في فلسطين . وقلت لهم : ان ما يتوهمونه لم يقع . وأرجو ان تتمكنوا من العودة غدا او بعد غد ، فنتحدث طويلا في الموضوع اذا شئتم .

وقد اتضح لي بجلاء ان عنف الهجوم اليهودي ، انما كان على ترشيحا ، وعلى الجش ، وان المعارك التي كانت تثار في غير مواقع من الجبهة ، كان الغرض منها تثبيت قواتنا في هذه المواقع ، فلا يتسنى لها معاونة الجش وترشيحا . ورغـم العنف الشديد . في الضغط على ترشيحا ، كانت لا تزال صامدة ، والتقدم نحو سعسع قد توقف . وأخذت قوات من لواء اليرموك تصل من جبهة الرامة ، فأقذف بها الى ترشيحا ، وكان لا يزال للمدفعين الوحيدين في سعسع بعض طلقات . اما الهجوم الذي قام به اليهود من المنارة نحو بليدة ، فقد توقف نهائيا . وقد اردت ان استعمل القوات المنسحبة من الرامة لتصليح الوضع العام في منطقتي ترشيحا والجش . فطلبت من المقدم مهدي ان يقوم بهجوم مضاد لدفع اليهود ، ما أمكن ، الى الوراء ، ومحاولة استرداد الجش ، او دفع العدو عما حولهـا على الاقل . وقامت قواتنا بهجومين معاكسين في آن واحد . على هاتين الجبهتين . ترشيحا والجش ، وأرغمنا اليهود على الارتداد ، وغنمنا منهم بعض الغنائم . حتى اننـا تمكنا من استرداد الجش في ٢٩ـ١٠ بمساعدة المدفعية التي اطلقت آخر ما لديها من قنابل ، والمعركة لم تنته بعد . وتحسن الوضع قليلا ، وأخذ انسحاب لـواء اليرموك ، يتم بنظام ولكن ببطء ، لانه كان ينسحب مشيا على الاقدام . ويظهر ان مقدرة قواتنا على الصمود لم تكن لتخطر في بال القوات اليهودية ، التي كانت على عجلة من امرها ، في الرغبة بالقضاء على جيش الانقاذ ، والفراغ من هـذه المنطقة ، لترتد الى جبهة الجيش المصري ، ففي هذه الفترة اي بعد ظهر ٢٩ـ١٠ تلقيت من ضابط الرصد اللبناني في الناقورة ، الخبر التالي :

شوهد اليوم حوالي الساعة العاشرة رتل آلي يهودي ، مؤلف من دبابـات ومدرعات وسيارات نقل يخرج من نهاريا متجها نحو ترشيحا ، وطوله لا يقل عن تسع كيلومترات ، اذ بينما كان أوله وصل الى جوار ترشيحا ، كانت مؤخرتـه تخرج من نهاريا . وقد أيد هذا الخبر عندي ، احد ضباط لجنة مراقبة الهدنة ، الذي جاءني الى المقر حوالي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم . وعندها اندفع اليهود في هجوم معاكس على الجش ، فاحتلوها مرة اخرى ، وتقدموا نحو سعسع من جديد ، وأصبحت أخشى ان يتم تجمع الرتل الآتي من نهاريا امام ترشيحا ،

فيتمكن من الاستيلاء عليها ، ويقطع بذلك الطريق على لواء اليرموك المنسحب ، وكانت قواتنا في منطقة ترشيحا ، تقاتل ببسالة نادرة قتالا استمر بعد ظهر ٢٩ .

وليل ٢٩ــ٣٠ بطوله . وفي صباح ٣٠ــ١٠ اخذت هذه القوات في التراجع، تحت ضغط الهجوم اليهودي الذي زاد في عنفه رتل نهاريا ، وقنابل المدفعية والطائرات . وكانت وهي تتراجع تقاتل خطوة فخطوة مستنفذة ما لديها من قليل عتاد . وعند الساعة الواحدة بعد الظهر ، دخلت القوات اليهودية ترشيحا ، وأجزاء من لواء اليرموك ، لم يتم انسحابها بعد ، من منطقة الرامة . فأصبحت الطرق الرئيسية تحت نيران مدفعية اليهود مباشرة . ومشاتهم يتقدمون بحماية المدفعية نحو هذه الطريق . وقوات ترشيحا مستمرة في الانسحاب وهي تقاتل ، وقد اضطرت أجزاء من لواء اليرموك المنسحب ، الى مقاتلة القوة اليهودية ، المتقدمة نحو الطريق الرئيسية ببطء ، لتشق طريقها عنوة ، بينما مؤخرتها تقاتل في انسحابها قوات أخرى يهودية . وقد تم وصول ما يقارب اللواء من القوات اليهودية ، الى التلال المشرفة على الطريق الرئيسية امام قرية سحماتا . وفي هذا الموقع دارت رحى معارك عنيفة هائلة بين قوات اليرموك وقوات ترشيحا المنسحبة من جهة ، وبين القوات اليهودية المتقدمة الى هذه التلال من جهة اخرى . وأصبح اللواء اليهودي في حالة تطويق كامل تقريبا . وأخذت المعركة شكل مجزرة . وما أن هبط الليل ، حتى تمكنت قواتنا من تشتيت هذا اللواء واستولت على علَمه الموجود مع بعض غنائم من الاسلحة في متحف خاص لديه وعلى كثير من اسلحته ، ثم تمكنت من الاتصال برأس طريق ، كانت قواتنا قد شقته من قبل ولم يبلغ اليهود خبره ، وبفضل هذه الطريق تمكن جنودنا من الانسحاب .

***

الضغط على الجيش المصري

قررت ان تتمركز قواتنا على خط جديد ، يمتد من غربي سعسع ، الى شرقي عيترون موازٍ للحدود اللبنانية ، على ان تكون المراكز الامامية لهذا الخط ، في الاراضي الفلسطينية ، فنكون في مواقعنا الجديدة ، اقوى منا من قبل ، لقصر الخط الجديد بالنسبة للخطوط التي كنا نتمركز عليها سابقا . ويكون في وسعنا القيام بأعمال مجدية ، تمكننا من دفع القوات اليهودية ، الى مسافة بعيدة عن الحدود اللبنانية ، واسترداد مراكز ذات شأن في المستقبل ، اذ نكون قد أعدنا تنظيم قواتنا ، تنظيما جديدا . هذا ، على شرط ان نجهز ونمون بالعتاد من جديد ، لان عتادنا قد نفذ تماما هذه المرة ، ولم يبق في وسع الجنود الصبر على الحرمان من التجهيزات .

كانت المعركة لا تزال دائرة امام سعسع ، وكان فوج المقدم علم الدين القواص قد انتقل الى قرية يارون ، شرقي سعسع ، وعلى مسافة ١٠ كيلومترات منها تقريبا . وهو قوة احتياطية ، يشكل بوضعه سدا في وجه اليهود الى المالكية ، التي كانت لا تزال بين ايدينا . وفي بليدة ، كانت تدور معركة لا تقل عنفا عن معركة سعسع ، وقواتنا تعوق تقدم اليهود . وكانت الطائرات اليهودية تقصف بشدة قواتنا في المالكية ، وفي قدس . اما في سعسع فقد اخذت قوة الدفاع ، تنخفض بنسبة انخفاض كمية العتاد ، حتى كادت تضمحل . ففكرت في ان أنجدها بالفوج التاسع السوري . المقدم القواص انسحب بالفوج التاسع دون ان يعطي اي خبر او اشارة ، الى قرية تبنين الواقعة على عشرين كيلومترا تقريبا وراء الجبهة ... وبينما المعركة مستمرة في جبهة سعسع وناحية بليدة ، جاءني المقدم شوكت شقير وأبلغني رغبة القيادة اللبنانية الملحة ، في التخلي عن المالكية وقدس وبليدة ، تجنبا للقتال على الحدود اللبنانية ...

لم يبق اية فائدة من الاصرار على الدفاع عن سعسع . وأصبح التخلي عن المالكية وقدس وبليدة ، نزولا على رغبة القيادة اللبنانية ، امرا لا بد منه ، فتخلينا عنها ، وتمركزت قواتنا التي كانت فيها على خط رميش ــ مارون الراس ــ عيترون . وأطلعت وزير الدفاع السوري على وضعنا الاخير هذا ، بالبرقية التالية:

٣١ــ١٠ــ١٩٤٨ رقم ٧٧٧

من فوزي الى وزير الدفاع

١ ــ سحبنا قواتنا امس من المالكية وقدس بدون قتال بناء على الحاح قيادة الجيش اللبناني التي ترغب تجنب القتال على الحدود ؛ ٢ ــ بالرغم من تخلينا عن المالكية ، ومن صدور التعليمات لايقاف النار من الطرفين ، لا يزال اليهود يهاجمون باتجاه بليدة ــ عيثرون ــ مارون الراس ، مما سبب استمرار القتال ؛ ٣ ــ طلب مني الان قائد الجيش اللبناني التخلي عن بليدة والانسحاب الى غربي عيثرون ، ربما أدى هذا الوضع بعد الانسحاب الى التخلي عن مراكز اخرى ؛ ٤ ــ ان سرية من الفوج السوري التاسع الموجودة مع الرئيس غسان في مارون الراس ، انسحبت من منطقة القتال ، دون امر ولا علم مما سبب ذعر اهالي بنت جبيل الذين اخذوا في النزوح نحو الشمال ؛ ٥ ــ هل هناك أوامر سرية تعطى مباشرة من قيادة الجيش السوري الى الفوج التاسع ، أم هي تصرفات آمر الفوج من نفسه . اني سأعيد هذا الفوج في اول لحظة يسمح بها الموقف عندنا ، ولكن أرجو ان تأمروا الفوج ان يكون تحت تصرفنا خلال هذه المدة، وان لا يتقبل أوامر معاكسة كما جرى سابقا لفوج الداغستاني عندما كان في المالكية .

وفي ٢١-١٠ ارسل قائد الجيش السوري ، الزعيم حسني الزعيم ، العقيد فوزي سلو ، الى الجبهة بمهمة جمع الفوجين السوريين والاشراف على سحبهما الى سورية ، دون ان يعلمني بذلك ، وقد اتصل العقيد سلو بالفوجين واخذ بتجميعهما استعدادا لسحبهما ، وحينما علمت بذلك اعترضت عمله . ومنعته من اتمامه ، فأرسل الى الزعيم حسني الزعيم البرقية التالية :

٣١-١٠-١٩٤٨ رقم ٧٧٤

من العقيد سلو الى شجاع

المهمة التي أوكلت اليّ من قبلكم تعترض قيادة الانقاذ على تنفيذها في الوقت الحاضر . حضوركم او من ينوب عنكم مزودا بالتعليمات ضروري .

الامضاء - سلو

وابرقت بدوري الى قائد الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم برقية هذا نصها :

٣١-١٠-١٩٤٨ رقم ٧٧٥

سحب افواجكم في الوقت الحاضر لا يجوز . تلقينا امرا بوقف القتال عن طريق الوزارة اللبنانية من قبل هيئة الامم المتحدة . واليهود تلقوا امرا مماثلا . اذا توقف القتال في الوقت المعين وهو الساعة ١٠ يصبح في الامكان ارسال افواجكم اعتبارا من مساء غد . اليهود لا يزالون مستمرين على اطلاق النار .

الامضاء - شقير

وبعد ارسال هذه البرقية اخذت حدة القتال تخف ، وبدأ يتخلل اطلاق النار فترات من الهدوء فما ان جاء مساء ٣١ حتى شمل الهدوء الجبهة بكاملها .

هكذا انتهت معركة الجليل الطاحنة ، بعد ان استمرت خمسة ايام بلياليها بدون انقطاع . وكانت فرصة للجيوش العربية لو هي شاءت وارغمتها لتيسر لها ان تربح معركة فلسطين نهائيا . ذلك ان القوات اليهودية كلها ، كانت تحشدت تقاتل على جبهة جيش الانقاذ ، وجبهة الجيش المصري ، وكان الميدان خاليا تقريبا امام الجيوش العربية الاخرى ، فأية حركة تقوم بها هذه الجيوش او جيش منها واحد، كان يمكن ان تقلب الحالة راسا على عقب ، وتضمن النصر للعرب . ولكن جيشا

من هذه الجيوش لم يتحرك ... وكأنما اليهود كانوا يعلمون ان هذه الجيوش لن تتحرك . واعترف انني حتى هذه الساعة أجهل الاسباب المعقولة المقبولة التي جعلتها لا تتحرك ...

انني حينما أعدد عوامل فشل الدول العربية في فلسطين لا يسعني الا ان اضع موقف الجيوش هذا في راس هذه العوامل فمن هو المسؤول عن هذا الموقف ؟. ان معركة الجليل هذه ، كانت كما أعتقد سببا من اسباب انقاذ الجيش المصري ، وعدم سقوط غزة بين أيدي اليهود . لان تحشد القوات اليهودية على جبهة جيش الانقاذ ، في هذه المعركة الهائلة ، اعطى للجيش المصري فرصة ، اتخذ خلالها الترتيبات اللازمة لاصلاح وضعه . ولولا ذلك ، ولو ان اليهود حشدوا قواتهم الكثيفة ضد الجبهة المصرية قبل مهاجمتهم جيش الانقاذ ، لسقطت الفالوجة وغزة ، ولتشتت الجيش المصري وتمزق .

على انه بالرغم من عنف الهجوم اليهودي على جبهتنا ، واستمرار المعركة التي وصفها بعض المراقبين انها اقرب الى المجزرة - وقد كانت كذلك - مدة خمسة ايام كاملة ، استطاع جيش الانقاذ ، ان يفلت من التطويق والابادة ويتم عملية انسحابه بدون اية خسارة في سلاحه - عدا سيارات كانت معطلة - وبخسارة في الارواح اقل بكثير من الخسائر التي تقع في مثل هذه العمليات .

وجاءني اعضاء لجنة مراقبي الهدنة ، بعد تنفيذ الاوامر بايقاف النار ، للاطلاع على وضعنا ، وكان الهدوء شاملا يومئذ . فاتفقت كلمتهم على ان دفاع قواتنا كان رائعا . وان حركات الجيش العسكرية كانت بارعة جدا . وقد صرحوا انه في عمليات الانسحاب ، في مثل هذه الظروف ، تكون الخسائر كبيرة . فقلت ان خسائرنا في القتلى والجرحى في الواقع ليست قليلة ، ولكننا لم نعط اسيرا واحدا ولا خسرنا سلاحا . وقد تستغربون اذا قلت لكم ان الامر بالعكس تماما فقد غنمنا شيئا من الاسلحة رغم اننا كنا نقاتل منسحبين ، وغنمنا علم اللواء اليهودي الذي حطمناه في ترشيحا . وهاكم هذا العلم ، ووضعته بين ايديهم ، ملطخا بالدماء . فسألوني بشيء من الاستغراب والشك هل صحيح انني تمكنت من سحب الجيش بكامله ، قلت لهم نعم ، عدا القتلى - طبعا - وتستطيعون ان تروا قطعات الجيش اذا شئتم والاسلحة التي غنمناها ، وارسلت معهم احد ضباطنا فطاف بهم مواقع الجبهة فتأكدوا مما قلته لهم ، ثم عادوا يبدون اعجابهم ويقولون : لعلها من اكبر عمليات الانسحاب الناجحة في تاريخ الحرب الحديثة . وقد كانوا يعلمون بعد ما بين قواتنا وبين القوات اليهودية ، من فرق في العدد والمعدات .

استمر الهدوء الشامل يسود الجبهة ، فأخذت القوات اليهودية تنسحب نحو الجنوب باتجاه الجبهة المصرية لاتمام عملياتها عليها ، ولم يبق امامنا منها عددا

المخافر والدوريات الا مفارز ليست لها كبير شأن . وقد كانت فرصة مؤاتيـــة لينقض جيش الانقاذ على اليهود ويحطمهم . ولكن من يوفر لقواتنا المعدات اللازمة لضرب اليهود ضربة ترغمهم على التخلي عن مراكز كثيرة هامة ، وعلى تخفيـــف ضغطهم عن الجيش المصري ؟...

***

الارجاف بانقلاب ـ فك الحصار عن الفالوجة

في أوائل تشرين الثاني ١٩٤٨ ، تبدل الجو فجأة ، واخذت الامطار تنهمر بغزارة ، واشتد البرد وكان جنودنا شبه عراة ، ليس لديهم تجهيزات ولا مأوى. وفي السادس من شهر تشرين الثاني ، جاءني السيد محمـــود فهمي درويش السكرتير العام لجمعية انقاذ فلسطين في بغداد ، ومعه بعض اعضاء الجمعيـــة ليوزعوا على المتطوعين العراقيين في جيش الانقاذ ، بعض الهدايا كالسكاكـــر والحلويات . فقلت لهم ان جنودنا في حاجة الى الكساء اكثر منهم الى السكاكر . فاستأذنني بالطواف على الجبهة فأذنت له . فعاد مأخوذا متأثرا يكاد لا يصدق ما رأى . وأبرق على الفور الى رئيس جمعية انقاذ فلسطين في بغداد برقية لا ازال احتفظ بصورة عنها هذا نصها :

٨ـ١١ـ١٩٤٨ شاهدت جنود جيش الانقاذ عراة على رؤوس الجبال . البرد قارس جدا . ارسلوا ثلاثة آلاف بطانية حالا . تحية الجيش وقائده لكم جميعا .

الامضاء ـ محمود فهمي درويش السكرتير العام لجمعية انقاذ فلسطين في بغداد

ويؤلمني القول ، اننا لم نتلق بطانية واحدة ولا جوابا ....

في هذه الفترة توقف القتال ، راح اليهود يبدون نشاطا سياسيا في الاراضي اللبنانية . فقد اخبرني فريق من اهالي قرى جبل عامل ، القريبة من الحدود ، ان وفدا يهوديا يطوف بسيارة على تلك القرى ، ومعه جنديان ، يطلب من السكان ان يوقعوا على اوراق مكتوبة بالعبرية يترجمونها لهم ، وهي عبارة عن اظهار الرغبة في الانسلاخ عن لبنان والانضمام الى «اسرائيل» فأنبأت الوزارة اللبنانية بالامر ، ولكن اليهود استمروا في نشاطهم ... ومن يدري فقد يأتي يوم يدّعي فيه اليهود ـ لمناسبة عقد الصلح مثلا ـ ووقوع حوادث غير منتظرة ان هذه المنطقة من جبل عامل ، داخلة برضاها ضمن نطاق اسرائيل .. وهذا هدف من الاهداف اليهودية في لبنان ، ليدخل نهر الليطاني ضمن نطاق اراضي الدولة التي يحلم بها اليهود ،

منذ مئات السنين . وهم يعملون على ان يدخلوا في نطاق اراضيهم مصب بترول الظهران ايضا ، الذي يقع الى الجنوب من صيدا ، وعلى الضفة الشمالية مـــن الليطاني ... فينعمون بالمصبين . مصب بترول نجد ، ومصب بترول العـــراق.

استقر جيش الانقاذ على خطوطه الجديدة لا يبدي اية حركة . فأصبح مـــن هذه الناحية مثل بقية الجيوش العربية ، القابعة وراء تحصيناتها القوية ، تحميها الاسلاك الشائكة ، والاسلحة الثقيلة وحقول الالغام ، متمتعة بمختلف التجهيزات والوسائل العسكرية ، مع فرق واحد ، يكفي لاعطاء صورة صحيحة عنه ، نشر البرقيات التالية :

٢٣ـ١١ـ١٩٤٨ رقم ٨٦٠ من شقير الى قائد القطاع الشرقي

بلغوا الرئيس غسان (آمر الفوج العلوي الشجاع في جيش الانقاذ) ما يلي : وافق الهاشمي على ابقاء خيمة لنا .

الامضاء ـ شقير

وطلب الهاشمي فصيلين من الجبهة الى قطنا ، فأجابه المقدم شقير بالبرقية التاليـة :

٢٤ـ١١ـ١٩٤٨ رقم ٨٦١

من شقير الى الهاشمي

جواب برقيتكم رقم رقم ٩٠٤٥ ليس لدينا سيارات لنقل الفصيلين اما ان ترخصوا لنا باستئجار سيارات او ترسلوها لنا .

الامضاء ـ فوزي

والفصيل يتألف عادة من ٢٥ الى ٣٠ جنديا ، ومعنى هـــذا ان الفصيلين لا يحتاجان الى اكثر من سيارتي نقل .. ولكن جيش الانقاذ رغم هذا كله ، بقـــي محتفظا بمعنوياته ، وبمزاياه التي تؤهله للقتال في كل حين . كانت المعارف لا تزال تدور في جبهة الجيش المصري ، على خط يمتد من أبواب غزة ، حتى ما وراء العريش داخل الاراضي المصرية . وكانت حالة الجيش المصري غير حسنة فرات مصر من الحكمة في السياسة ان تقبل الهدنة لمصلحة الجيش . أما في الشام ، فقد بدأت اللجنة العسكرية تلح في تسريح جيش الانقاذ ، بحجة عجز جامعة الدول

العربية عن دفع رواتب جنوده وتجهيزهم . وكان من ضمن جنود الانقاذ ، فوج من الفلسطينيين الذين قاتلوا في صفوفنا بشجاعة ، يتقاضون رواتبهم من الهيئة العربية العليا . وقد طلبت اللجنة العسكرية بتسريح هذا الفوج ايضا ، فأرسلت الى المفتش العام العميد طه الهاشمي بهذا الموضوع برقية هذا نصها :

٩-١١-١٩٤٨ رقم ٨٠٩

من فوزي الى الهاشمي

ارى الاحتفاظ بالسرايا الفلسطينية التي شكلنا منها فوجا ، والتي تعتبر من العناصر الطيبة ، ويتقاضى جنودها رواتبهم من الهيئة العربية العليا ، أوفق ، من حيث العنصر والاقتصاد في الموازنة . طلبت من الوحدات البدء بتسريح العناصر غير الصالحة . فنكون بذلك انقصنا القوة الى حد يتناسب مع ميزانية الجامعة . اما قضية عدم امكان تسليح جيش الانقاذ بالسلاح والعتاد اللازم فيجعله لا يستطيع القيام الا بواجبات ثانوية رغم ما يحتفظ به من معنويات ممتازة واستعداد فائق للقتال . حرمانه من احتياجاته يعني حرمان القضية الفلسطينية من قوة ثقيلة الوزن .

الامضاء ـ فوزي

فكان الجواب الاصرار على التسريح .. فمضينا في ذلك حتى نزلت قواتنا الى ما يقارب نصفها . وفي خلال قيامنا بعملية التسريح ، اخذت ترد عليّ طلبات غريبة منها : وضع الفوجين السوريين تحت امرة القيادة اللبنانية . وارسال مدفعيتنا الى دمشق ، لينظر في ما تحتاج اليه .. ولعل اغرب من هذا ، طلب تقدم به الجنرال شهاب قائد الجيش اللبناني ، بواسطة المقدم شقير ، وذلك صباح ١٧ تشرين الثاني ، وهو ان أضع تحت تصرف الجيش اللبناني مصفحاتنا كلها ، او بعضها بحجة ان الحكومة اللبنانية تتوقع حدوث حوادث داخلية في العشرين من هذا الشهر .. وطلبت القيادة اللبنانية ايضا ، ارسال فوج من قواتنا الى النبطية ـ الخيام ، وفوج آخر الى القاسمية . فاندهشت من هذه الطلبات ، ولم يسعني ان لا ارى فيها ، رغبة في بعثرة جيش الانقاذ وتمزيقه . ولكنني حرت في تعليل السبب . ولم تذهب حيرتي من تلك التصرفات الا بعد اطلاعي على صورة تقرير من الرئيس مشهور حيمور احد ضباط جيش الانقاذ . ومن معلومات ادلى بها اليّ العقيد محمود الهندي مدير الادارة في اللجنة العسكرية ملخصها : انني قررت القيام بواسطة جيش الانقاذ بعملية لقلب الحكم في لبنان .. وكان الرئيس مشهور اعطى هذه الاخبار الى فخامة الرئيس القوتلي ـ كما تبين لي فيما بعد ، في ليل ١٦ ـ ١٧ تشرين الثاني ، وكانت هذه المعلومات السخيفة كافية لتهز

أعصاب رئيس الجمهورية السورية ، فسخّر كل الليل أسلاك التلفون ، بين قصره وقصر الرئاسة في لبنان بهذا الصدد . وان الجميع كانوا يبحثون في الترتيبات السريعة التي يجب اتخاذها لاحباط المؤامرة ... وفي صباح ١٨ تشرين الثاني تلقيت من رئيس الحكومة السورية السيد جميل مردم برقية مستعجلة للحضور الى دمشق لامر خطير . فأعلمني ان امين الجامعة السيد عزام يطلب مجيئي الى مصر من اجل جيش الانقاذ . وفي صباح ٢٠-١١ غادرت الشام الى القاهرة، ومعي العقيد الهندي ، الى الجامعة أنبئهم بوصولي واستعدادي لمقابلة الامين العام . وأجابني سكرتير الامين العام انه يعاني آلاما شديدة من مرض قلبي وهو في الفيوم . وان الاطباء حظروا عليه المقابلات .

واستغرب السكرتير من مجيئي ، اذ انه لا يعلم ان الامين العام أبرق الى احد بهذا الشأن . وفي هذه الاثناء اتصلت بالكولونيل حلمي بك ، مرافق جلالة الملك فاروق ، وتكلمنا على القتال في فلسطين . وكان طبيعيا ان نتحدث عن الفالوجة، التي كانت لا تزال محاصَرة . وقد شكا الكولونيل بمرارة عن موقف الجيوش العربية واحجامها عن نجدة الجيش المصري ، وكيف ان الاجتماعات التي عقدها القواد والسياسيين غير مرة ، لهذا الغرض ، لم تفض الى نجدته . فقلت له ان فك الحصار عن الفالوجة ممكن في اي وقت كان . وبسطت له طريقة فك الحصار مستعينا بخريطة كانت أمامنا . وكنت أعلم ان الفالوجة ، كانت تمون يومذاك بواسطة الجمال بطريقة التسلل ، فقلت له اذا كانت الجمال تستطيع التسلل الى الفالوجة ، فمن البديهي ان يكون تسلل قوة خفيفة اليها ، أسهل من تسلل الجمال . على ان تنظم هذه القوة بشكل خاص لهذا الغرض . واني مستعد ان أتطوع لفك الحصار عن الفالوجة ، وانقاذها بفوجين من جيش الانقاذ ، وبطرقي الخاصة ، فطلب مني أن أتصل بوزير الحربية حيدر باشا . وكان الوزير عاتبا بل حانقا من موقف الجيوش العربية . ثم دخلنا في موضوع انقاذ الفالوجة ، وشرحت له كيفية تنفيذها على الخريطة . وقلت له انني أختار فوجين من جيش الانقاذ أجمعهما في منطقة الخليل وأتحرك بهما نحو الفالوجة على غير الطرق العامة ، فنسري ليلا ونكمن نهارا . على ان تقوم قوات من الجيش المصري ببعض حركات تظاهرية لستر عمليتنا هذه ، حتى اذا نجحت يكون آمر الحامية قد تلقى منكم امرا بالانسحاب معي . وفي هذه الحال ، لا بد لنا من التضحية بعدد من الجنود ، لنسف الاثقال التي يتعذر سحبها في مثل هذه الظروف . وفي حالة فشل عملية الدخول الى الفالوجة بالذات ، اضطرارنا الى خوض معركة مع القوات اليهودية ، تجتذب قسما كبيرا من القوات المحاصرة لمقاتلتها. فأستدرجها الى شرقي الفالوجة، داخل اراض يستحيل عليها استخدام قواتها الآلية فيها ، فنتمكن من انزال ضربة قاسية بهذه القوات التي كل ما كثر عددها في وجهنا ، كان ذلك في مصلحة الجيش المصري ، الذي يفتح أمامه مجال واسع للقيام بعملية انقاذ المحصورين . وبدا لي ان وزير الحربية اقتنع بفكرتي ، اذ وعدني انه بعد ان يتصل بجلالة الملك

يتلفن لي . وانتظرت ، ولكن لم اتلق نداء ولا جوابا . ولعل مرد ذلك الى ان مراجع عالية لم تقبل بالفكرة .



المفتش العام يفقد اتزانه

بقيت انتظر اخبارا عن صحة امين الجامعة ، الذي مرضت الجامعة كلهـا لمرضه ... وقرر العقيد الهندي العودة الى دمشق ؛ وفي مساء ٢٤ تشرين الثاني، دعيت لمقابلة الامين العام في الفيوم . وعلمت من السائق انه جاء بالعقيد الهندي قبل يومين فقط ، الى الفيوم لمقابلة عزام باشا فبهت ... اكان هناك امور تدبر من وراء ظهري ؟ ولماذا ؟.

دخلت على السيد عزام في الفندق ، فاذا هو في فراشه وعنده السيد احمد الشقيري ، وكان عائدا من باريس ، حيث عقدت دورة هيئة الامم المتحدة يوم ذاك، وهو يقص على امين الجامعة قصة العرب هناك . وخلاصة ما سمعته ، ان موقف المندوبين العرب كان يغلب عليه الاستعطاف والذل ، يقابله شيء من الاستخفاف من هيئة الامم المتحدة ، وان موقف اليهود كان موقفا يتسم بالعنجهية والشماتة.

فقلت كان في استطاعتنا ان لا ينتهي بنا الحال الى هذا . فنحن اكثر عددا من اليهود واوفر قوة وشجاعة ، ولو قام كل منا بواجبه في جد واخلاص وادى كل فريق قسطه المترتب عليه ضريبة للوطن لكانت الحال غير ما ترى . ومع ذلك فانا اعتقد اننا لا نزال قادرين على تدارك ما فات اذا كنتم تريدون . وسألني عن حالة جيش الانقاذ فوصفت له حالته بإيجاز ، وقلت له انكم اذا وفرتم لهذا الجيش كل احتياجاته من سلاح وعتاد وتجهيزات ، فهو يستطيع ان يعدل الموقف . قال: «هو في حد قاتل غيركم ... انتم والجيش المصري كمان ... دوليك مش عاوزيـن يقاتلوا ....» ثم أبدى رايه بصدد القتال في حديث طويل ، ملخصه انه عازم على تقوية جيش الانقاذ وابلاغ عدده الى عشرة آلاف مقاتل ، وتجنيد شبان فلسطينيين يقاتلون معنا ، وانه سيزودنا بكل ما تحتاج اليه الجيوش من معدات . عزما اكيدا نهائيا . وانه تكلم بهذا الصدد مع تمازي بك ثم طلب مني أن اجتمع بتمازي بـك لهذا الغرض . وعدت الى القاهرة . وفي اثناء عودتي شغلت بهذه المتناقضات ، فبينما تلح اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية في طلب تسريح جيش الانقاذ ، بحجة ضعف الجامعة المادي وعجز ميزانيتها ، يقول عزام امين هـذه الجامعة هذا القول ... واطلعت تمازي بك ما دار من حديث بين السيد عـزام وبيني . اما العدد فلا يمكن ابلاغه الى ١٠ آلاف وقد نستطيع ان نجعله اربعةآلاف او ٤٥٠٠ . فقلت مستغربا ولكن العميد طه الهاشمي يزعم ان الجامعة توقفت عن

تموين هذا الجيش عجزا ، ويلح في طلب تسريحه . وقد بدانا فعلا بالتسريح ، على ان يبقى قسم يرتبط بالجيش السوري ، وتدفع الحكومة السورية نفقاته ممـا يستحق عليها للجامعة ، ولم تدفعه . فقال ان احدا لم يبلغ طه باشا توقف الجامعة عن الدفع ولا ضرورة تسريح جيش الانقاذ او انقاص عدده ، ثم ربطـه بالجيش السوري . وقلت : اتريد ان أبرق بالتوقف عن التسريح ، وان في نية الجامعـة زيادة عدد جيش الانقاذ ؟ وارسلت برقية بواسطة المفوضية السورية وبشيفرتها ، وخالجني شعور بالاطمئنان الى ان الجماعة جادون في الامر . وقدمت الى تمازي بك لائحة باحتياجات الجيش المستعجلة فوعدني بتأمينها بأسرع ما يمكن .

وعدت الى بيروت في ٢٨ تشرين الثاني وذهبت الى وزارة الدفاع اللبنانية حيث قابلت الجنرال شهاب والعقيد سالم واطلعتهما على ما دار بيني وبين السيد عزام وتمازي بك من حديث . وبعد دقائق وصل الهاشمي والهنـدي ، وحضر الاجتماع المقدم شقير ، واعدت عليهم حديث السيد عبد الرحمن عزام وتمازي بك، فبدا على العميد طه الهاشمي شيء من الغيظ وقال : هذا لا يمكن. يجب ان تتم عملية التسريح . وجرت بيني وبينه مناقشة حادة ، وقلت له ان امين الجامعة يقول غير ما تقوله انت ، فأحب ان اعلم من هو مرجع جيش الانقاذ انت ام عـزام والجامعة ... قال لا اعلم ولكن عندي امر بالتسريح وقد بدانا بتنفيذ الامـر وسنمضي فيه ... وانفض الاجتماع وراح كل منا الى شأنه .



المؤامرة الحقيرة ـ والنهاية المحزنة

بعد الاجتماع ذهبت الى دمشق لاطلع رئيس الجمهورية ، ورئيس الحكومة ، على ما جرى معي ، فاذا الشام تضطرب بمظاهرات عنيفة ادت الى سقوط حكومة السيد جميل مردم ، التي كانت امرت باطلاق النار على المتظاهرين ، واكثرهم من الطلاب . وكان الرئيس في شغل ، عن فلسطين بمعالجة الشؤون المحلية ، فلم اتمكن من مقابلته الا بعد اربعة ايام من وصولي الى دمشق . وفي هذه الفتـرة اجتمعت بالعقيد محمود الهندي ، فقال لي ان عزام كان صادقا في كلامه معك .. كما كان طه الهاشمي صادقا ، حينما قال لك ان لديه امرا بالتسريح . واليـك الحكاية ، كلف رئيس الوزارة السيد جميل مردم بالاتفاق مع رئيس الجمهورية ، السيد زهير القباني ، ممثل سورية في جامعة الدول العربية ، حمل اوراق الى امين الجامعة السيد عزام ليوقعها ، وكان بين هذه الاوراق الورقة التي تحمل الامر بتسريح جيش الانقاذ ، والابقاء على لواء منه ، يقوده ضابط من الجيش السوري، ويرتبط بقيادة هذا الجيش ، وقدم القباني الاوراق الى امين الجامعة وهو مريض

وفي الفراش . وكان يقرأ عليه كل ورقة ثم يقدمها اليه للتوقيع فيوقعها . وقرأ له فيما قرأ ، ورقة وقدم اليه غيرها ، فكانت الورقة التي تحمل امر التسريح ، فوقعها وهو يحسب انه وقع الورقة التي قرات عليه ...

وعلى هذا النمط ، دبروا امر البرقية ، التي زعموا فيها ، ان امين الجامعة يستدعيني الى مصر ، ولم يكن الا بسبب التخوف الذي شرحه لي العقيد الهندي، الظاهر انه كان ملازما نفوس هؤلاء الجماعة ، منذ زمن بعيد ، ولعله لا يزال يلازمهم او يلازم بعضهم حتى الان لخوف من عملية انقلاب اقوم بها في الشام كما ترامى لهم . وقد شعرت بهذا الامر بعد ان اصبحت موضع مراقبة شديدة ، مما اضطرني الى التصريح في مجالس خاصة وعامة ، وفي مراجع رسمية ، ان القيام بثورات وانقلابات ، امر يدخل في صميم اختصاصي ، ولكنني لن أفكر فيه ابدا ، وبلادي يهددها خطر خارجي .

بعد مرور حين من الدهر قصير على هذه الحوادث ، اخذت تدور على ألسنة الناس ، في المجالس الخاصة والعامة ، الرسمية والشعبية ، اشاعة تصميم العرب على استئناف القتال ، مما أثار في بعض النفوس عواطف الحماس والاستبشار والامل . وفي هذه الفترة نفسها يفاجأ العرب بطلب مصر الهدنة الدائمة ، وعقدها في رودس ... ورات الحكومات العربية في عمل مصر بابا للفرج ، فأخذت تتهافت — ولعل ذلك خوفا من هجوم اليهود على احدى هذه الحكومات — تهافتا مزريا على عقد الهدنة ، كل واحدة منفردة عن الاخرى ...

وكان التوقيع على هذه الهدنة كانما هو وثيقة ناطقة ، ان «اسرائيل» قامت واقعيا وشرعيا والى ... كلا . ليس الى الابد .

وهكذا انتهت مأساة فلسطين ، التي مثلتها في فلسطين ، الحكومات العربية اذ دخلت اليها ممثلة مستهترة ، وخرجت منها واهمة مذعورة ....

خاتمة وتحذير★ ...

ان في طبيعة الحوادث المتعلقة بفلسطين ، ما يدل المتبصر ، على ان الانكليز والاميركان كانوا مقررين معا ، منذ زمن بعيد ، خلق دولة يهودية في فلسطين . يرمون من وراء ذلك الى امور كثيرة ، منها ، حرمان العرب من هذا الساحل الطويل للبحر المتوسط ، وانشاء حاجز قوي بين الدول العربية في آسيا من جهة، وبين مصر وافريقيا الشمالية من جهة اخرى ، ليحولوا دون انشاء دولة عربية متحدة في آسيا وافريقيا ، اذا ما حاول العرب ذلك في المستقبل القريب او البعيد .

ووراء هذا الحاجز يستطيع الانجليز انشاء مواقع استراتيجية ، من البحر المتوسط الى البحر الاحمر (العقبة) فيضمنون بذلك سلامة قناة السويس من ناحيتين سلامة تامة . وتصبح مواصلاتهم بين فلسطين وشرق الاردن والعراق ، مضمونة ضمانة تامة ، بما يتيسر لهم من مراقبتها وحمايتها مباشرة. وهذه القواعد الاستراتيجية ، تسهل لبريطانيا وللولايات المتحدة ، القيام بكل التدابير ، واتخاذ كل الاحتياطات العسكرية ، لدفع اي خطر قد يهددهم من الشرق . (وستكون الدولة اليهودية) اداة تهديد بين أيدي اميركا وبريطانيا تحلان مشاكلهما بواسطتها على حساب العرب . ولتنفيذ هذه الفكرة ، يجب — طبعا — ان يهيئوا الجو الملائم من مختلف النواحي . فأثيرت الحرب في فلسطين ، وكان من الضروري جدا ان يحولوا بين العرب وبين التسلح ، وأن يزرعوا الشقاق بين الدول العربية، وأن يعاونوا اليهود بمختلف الوسائل ليربحوا الحرب ، — وقد فعلوا بلباقة واتقان — ، حتى اذا ما انتهت الحرب بكارثة تقع في العرب ، أصبح المجال واسعا

★ هذه الخاتمة كانت ملحقة بالفصل الثالث من المذكرات اي انها كتبت ١٩٥٠ .

ليفرض الانجلو اميركان سياستهم المقررة ، دون ان يستطيع العرب ان يوجهوا اليهم اي لوم او ان يتهموهم اية تهمة !!. وهكذا كان الانكليز والاميركان يرغبون في أن يدخل العرب الحرب ليخسروها .... ما اعتقده حقيقة واقعة .

ولو كان الانكليز يكرهون فعلا وقوع حرب في فلسطين ، لاستطاعوا ان يمنعوا وقوعها ، وذلك بأن يقولوا للعرب ان الامم المتحدة ، لا تريد ان تقع في فلسطين حرب ، لان ذلك يهدد السلم العالمي ، الحريصة عليه هذه الامم ، واذا أبيتم ايها العرب الا الحرب ، فنحن ضدكم نمنعكم من ذلك بالقوة ، وكان ذلك كافيا لمنع الحرب ، واقناع هؤلاء الرؤساء ، ان مشكلة فلسطين ستحل في مصلحة العرب بطرق سلمية ، سواء اكان ذلك صدقا ام كذبا . ولكن الانكليز لم يفعلوا ذلك ، ولم يتخذوا موقفا جازما من هذه القضية ، فأخذ العرب يترجحون ، واخذ اليهود يتسلحون ، فما ان اتم اليهود استعدادهم للحرب ، حتى راى العرب نفوسهم منزلقين الى الحرب ، وعندئذ شعروا انهم خدعوا ، فراحوا يبذلون الجهود ليتسلحوا ، ووقف من وقف منهم في وجه العدو ، بشجاعة وعزم ، فلما راى الاميركان والانكليز – رغم كل ما دبّروا – ان كفة العرب في القتال راجحة ، اخذوا يعملون لفرض هدنة على الفريقين ، لشهر واحد ، كان كافيا ليزيد اليهود في تسلحهم ، من مدافع ودبابات وطائرات ، وليستقدموا من مختلف انحاء اوروبا ، عددا كبيرا من المتطوعين بينهم الخبراء والاختصاصيون ، بينما بقي موقف الانكليز والاميركان من تسلح العرب ، كما كان قبل الهدنة : حظر شحن السلاح الى الشرق الاوسط ، «خوفا من تهديد السلم العالمي وحرصا على هذا السلم !!» .

وهكذا خسر العرب الحرب «رسميا» ضد اليهود ، وخرجوا منها وكانهم ضد اميركا وانجلترا . وذهبت فلسطين «هدية» الى اليهود ، من الدول العربية اولا ، ثم من الاميركان والانجليز . ولكن الواقع العالمي والزعم اليهودي ، ان اليهود انتزعوا «حقهم» من العرب انتزاعا ، غير معتمدين الا على علمهم وقوتهم وشجاعتهم . فمن لنا بمن يكذبهم ؟... منا نحن العرب ، الذين لا نزال نتغنى بقدسية فلسطين كلها ، فضلا عن الاماكن المقدسة فيها ....

ارجو ان لا يكون تفاؤلي سرابا ، حينما اجيب عن هذا السؤال ، ان الشباب الابي الحر منا هو الذي سيكذبهم ، يوما ، وهو الذي سيعيد الحق الى نصابه ، ويرجع بالفريقين ، كل فريق الى مكانه . فلن يُخدع العرب مرة اخرى ، سواء اكان الخداع من الخارج أم من الداخل .... فان في الذي وقع عبرا لهم وعظات ...

انا اليوم أمام حقيقة واقعية مرة ، هي قيام «دولة اسرائيل» في الاراضي

المقدسة الفلسطينية . وتعتبر اسرائيل هذا الجزء من فلسطين الذي احتلته ، بقوة السلاح ، حقا شرعيا لها . وفلسطين بالنسبة للعرب هي جزء مقدس من الاراضي العربية التي خلفها لهم الاجداد ، وهو حق شرعي لهم قد اغتصبه الصهيونيون ، ويتحتم عليهم استعادته بأي ثمن كان ، يعتبرون بقاء اسرائيل فيه خطرا مباشرا على بقية اجزاء الوطن العربي كله .

وقيام هاتين الفكرتين ، يعني انه لا بد من حرب تقع بين اليهود والعرب عاجلا كان أم آجلا . ونتيجة هذه الحرب لا تحتاج الى نبوءة ، فهي ستكون في مصلحة الفريق الذي يستعد الاستعداد الاكمل ، ويهيء اكثر من خصمه اسباب النصر . ولا يؤثر على نتيجة الحرب ، التفاوت العددي ، فالذي يؤثر هو الفن والعلم والتنظيم وحسن التصرف بالامكانيات والموارد . ونحن نعيش اليوم ★ في فترة هي دور الاستعداد ، فينشيء اليهود المصانع والمعامل ، ويجيئون بالخبراء والاختصاصيين من كل صوب ، لترتيب الامور وتنظيمها . وادارة كافة الشؤون ادارة دقيقة بعلم وفن . ويستر اليهود استعدادهم هذا ، باعلانهم رغبتهم في الصلح مع العرب ، وتأكيدهم نياتهم السلمية للعيش مع العرب «جيرانهم» بسلام ووئام .... والعرب يبتاعون السلاح من الخارج استعدادا لليوم المنتظر ، ولكن هذا السلاح يبقى قليل الجدوى ، ما دام ليس وراءه مصانع تمده بما يحتاج من عتاد . ثم ان لكل دولة من هذه الدول العربية سلاحا يختلف عن سلاح الاخرى . ولكل جيش ثقافة وتقاليد عسكرية تختلف عن ثقافة وتقاليد الجيش الآخر . هذا عدا النزاع القائم بين كل دولة ودولة . وليس هناك دولة عربية واحدة ، تعني بمرافقها ومواردها ، عناية مذكورة فتستثمرها استثمارا فنيا منظما ، يساعدها على اعداد المعدات اللازمة لتأمين الدفاع عن حدودها ، وحدود البلاد العربية كافة .

اذن لا بد للعرب ان هم ارادوا المحافظة على كيانهم واوطانهم ، من الحرب مع اليهود .

فكيف يستطيع العرب تجنب كارثة جديدة اذا ما وقعت الحرب ؟

ان الذي اراه هو :

١ – اقامة تحصينات متينة جدا من ساحل البحر الابيض المتوسط ، على طول الحدود اللبنانية الفلسطينية ، فالحدود السورية الفلسطينية ، الى الحدود الاردنية الفلسطينية ، حتى العقبة .

★ اي فترة كتابة المذكرات .

الملاحق

٢ ـ اخلاء القرى العربية كافة ، الواقعة على بعد عشر كيلومترات ، وراء هذا الخط الدفاعي وعلى طوله ، وجعلها منطقة حرام ، تطلق النار من دون انذار على كل من يقترب منها ، وهذا الخط الدفاعي مع خلو جواره من السكان ، يشكل في الوقت نفسه اقوى وانفع حصار يمكن فرضه على اسرائيل .

٣ ـ تأليف جيش عربي موحد من جيوش الحكومات العربية ، يكون بعدده ومعداته كافيا لضمان النصر فيما اذا وقعت الحرب ، وهي ستقع ، له هيأة اركان منتخبة من ضباط اركان الجيوش العربية ، وقيادة واحدة ، لا تتأثر بأي تأثير سياسي ، تحدثه التيارات المتباينة التي يمكن ان تنشأ بين مختلف الحكومات العربية ، اي انه يجب ان تكون القيادة العامة وهيأة اركانها منفصلة انفصالا تاما عن سياسة هذه الحكومات ، الا ما اتصل منها بالسياسة الجماعية المقررة لاسترداد فلسطين .

٤ ـ توحيد السلاح والتدريب والتنظيم .

٥ ـ انشاء مصانع للاسلحة والذخائر ، تضمن تموين الجيش بكل ما يحتاج اليه في الحرب ، ولا تنفع كل التدابير مهما تكن سليمة ، اذا هي لم تتخذ في وقت السلم ، وقبل الحرب بزمن طويل.

ان هذه التدابير تتطلب جهودا هائلة واموالا طائلة ، تستلزم حشد كافة موارد الدول العربية ، في سلمها ، للقيام بها . ووضع الدول العربية بالنسبة الى فلسطين ، على شكل خطين : الخط الاول مكون من لبنان وسورية وشرق الاردن ، وهو في تماس مباشر مع اليهود . ويؤلف الجبهة . والخط الثاني مؤلف من مصر واليمن والمملكة السعودية والعراق . فدول الخط الاول اقل نفوسا ، واضعف مالية من دول الخط الثاني .

لذلك يتحتم على الدول العربية ، تخصيص الاموال اللازمة حسب مالية كل منها ، لتأمين ميزانية القيادة العامة ، الخاصة بجيش الدفاع . وهذا لن يتم ، الا اذا ادركت كل دولة واجبها ، وقامت به في ظل من الثقة والصراحة والاخلاص .

ولا يمكن للشعوب العربية ان تطمئن الى مستقبلها الا اذا قامت بوثبة جديدة، ترتكز على عقلية جديدة وتعمل بأساليب جديدة ، لتأمين وحدة قوية ، قادرة على مجابهة الاخطار الكثيرة التي تهدد كيانها وبقائها .

من معارك ١٩٣٦



بلاغ رقم ٧ من القيادة العامة للثورة العربية في سورية الجنوبية (فلسطين) لوقف معركة جبع .

القيادة العامة
للثورة العربية في سورية الجنوبية
(فلسطين)

بلاغ رقم ٧ / ٣٦

كانت القيادة قررت ترتيب معركة تجبر العدو ادخال كافة قواه الجديدة وانزال ضربة قاسية تزعزع مراكزه القاعدية وذلك بعد اتمام تنظيم الثوار الفلسطينيين في مناطقهم وتوجهت قواتنا ليلة ٢/٣ ايلول ٣٦ الى منطقة جبع حيث تقرر ميدان القتال وسوء الحظ اخبر العدو احد سكان اهالي المنطقة فحشد بقوات فائقة كاملة العدد الى المنطقة قبل ان تتم ترتيباتنا وابتدأت المعركة حالا الساعة ١٠.١٠ بعد الظهر على نطاق ضيق ثم احاط فامتد قوى العدو على بعد سبعة كيلومترات عن بعضها بقوة تقدر بخمسة افواج (٤٠٠٠) جندي وطيارات تسعة من نوع آلية وبعد ما شوهد من سيارات ودبابات (اربعين) وبالرغم من الاحاطة السريعة التي قام بها العدو تمكنت قواتنا من بداية المعركة لتوقيف ارتال الاحاطة وتشتيتها ليعد تقدم جزئي وما لبثت ان تداخلت قواتنا الاحتياطية التي وجهت الى اجنحة الارتال ووراءها وشددت الضغط عليها حتى اضطر ارتال العدو للتركيز الى التراجع وبالرغم من فعاليات مدفعية العدو وطياراته الشديدة التي اظهرت الحماية لهذه الارتال لم تتمكن قواته من الثبات واخذت تتراجع الى نقاط الشروع : ودامت المعركة حتى الساعة ٧ والضغط

(٢)

مستمر من جهة العدو حتى تم انسحابه :
وبعد انسحابه من مواقعه هوجم من قبل مغاوير فلسطينية مرابطة على خطوط رجعته حتى الساعة ٨ وكبدته خسائر فادحة :
وقد احترقت اول طيارة في العشرة الدقائق الاولى من المعركة وبعد عشرين دقيقة سقطت طيارتان اخرتان ايضا بميدان القتال وبعد نصف ساعة من تغييرها اشتعلت ثلاث طائرات جديدة و
وقد غنمنا عدة خزائن من رشاشات العدو ومسدسات وخوذ فولاذية :
وقد امتاز في هذه المعركة مجاهدو البعنة والتوام في صد تقدم الرتل الشرقي كما ان المغاوير الفلسطينية التي وجهت الى الرتل الغربي اشتغلت اشتغالاً مجيداً وكان لها الفضل في استرجاع مواقع العدو التي احتلها في بداية المعركة
اما خسائرنا فهي اربعة شهداء من البعنة والتوام واثنين عراقيين وستة مجاريح : ولا نعلم بالضبط عن فقدان خسائر العدو . انما الاخبار الواردة من نابلس تفيد بان عدة سيارات اسعاف كانت تنقل قتلى العدو وجرحاه قبل الغروب : ولا نعلم بالتي بعد غياب الشمس
اننا نفخر بين بذل هذه الدماء الزكية في هذه الاراضي المقدسة لتحريرها من مخالب الصهيونية التي نخرت بلادنا الغاشمة : ونأسف لعدم اشتراك اطباء العرب بجهود النصح للعناية بمجاريحنا التي نقوم بتضميدها الضعيف الشهم ونتوطن المجاهد خالد ...
(القيادة العامة للثورة العربية في سورية الجنوبية فلسطين)

الأيام في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٦

بعد وقف القتال في فلسطين

١٨

بيان القاوقجي بعد وقف القتال

جيش الثورة طلائع الجيوش العربية في المستقبل

تلقينا من القيادة العامة للثورة العربية في سورية الجنوبية البلاغ الرسمي التالي الصادر بتاريخ ٢٢ الجاري تحت رقم ١٨ هذا نصه :

بلاغ رقم «١٨»

ان قضيـة فلسطين المقدسة ـــ بعد نداء ملوكها وامرائها العرب ـــ وتعهدى وشمانهم في انالة البلاد حقوقها اصبحت قضية عربية وقضية كرامة وشرف للملوك والامراء وللامة العربية كافة . واصبح كل فرد عربي مشترك في هذه القضيـة ومجبر على الدفاع عن هذه الكرامة وهذا الشرف .

وما كان الخصم ليصغي الى النداآت او ليقبل المهادنة لولا الضحايا التي قدمت في انتصارات المعارك الاخيرة ، ولولا هذه الانتصارات لكان مصير التوسط الاخير كمصير التوسط الاول الذي رده الخصم باستهتار ، معتمداً في ذلك على نجداته الكبيرة التي قرر ادخالها الميدان ، وامل بوجودها القضاء على الثورة .

ان جيش الثورة لفخور جداً بان يكون قام بواجبه ، كما عاهد ، وانهى بالفوز واوصل البلاد الى حدود امانيها وحقوقها التي اصبحت في عديدة الملوك والامراء والامة العربية جمعاء

لهذا ترى قيادة جيش الثورة اعتماداً على ضمانة الملوك والامراء وحفظاً لسلامة المفاوضات . ولعدم جعل اية ذريعة للخصم يتذرع بها للعبث في الحقوق المضمونة، أن يترك الميدان مرابطاً بجميع قوى الجيش بعد ان لم يبق له اى عمل وانها لتعاهد ان يكون جيش الثورة طلائع الجيوش العربية التي سوف تسرع لانقاذ فلسطين ، وانها ستعود الى العمل على نفس النظام الذي انهى به حركاته المجيدة ، فيما اذا تصلب الانتداب ولم يعط البلاد حقها

واننا اذا عاهدنا وفينا (وان عدتم عدنا) .

فوز الدين القاوقجي
القائد العام للثورة العربية
في فلسطين

القيادة العامة
للثورة العربية في سورية الجنوبية
فلسطين

ملحق البلاغ رقم (١٧) ٢٧/٩/٣٦

نظراً للتقارير الواردة من مفارزنا الفلسطينية التي طلبت اشتراكها في نفس الساعة من كافة انحاء فلسطين في وقعة جبع : ونظراً للأخبار الواردة من مراكزنا الأخرى من المتعددة تبين ان خسائر العدو في معارك يوم ٢٤/٩/٣٦ التي دارت في كافة الجبهات كانت :
ضابط ذو رتبة عالية : وعدة ضباط : وثلاثمائة وما يقارب من مائتي قتيل وجريح :

القائد العام
للثورة العربية في سورية الجنوبية
(فلسطين)

[signature]

احد المناشير التي رمى بها جيش الهاغاناه بين سكان الجليل ، اثر دخول قوات جيش الانقاذ .

الى سكان شمالى فلسطين

ان ساعة التحرير قد ازفت ! فها هو جيش الهاغانا الاسرائيلي يقطع دابر العصابات الآثمة التي تسمي نفسها زوراً وبهتاناً جيش التحرير .

فقد انهزمت فلول هذه العصابات في كل الميادين وولت الادبار في كل المعارك وتفرقت ايدي سبا ولاذ جنودها بأذيال الفرار تاركين وراءهم الاسلحة والعتاد .

إن عهد الاستبداد والاضطهاد قد انتهى ولن تعود هذه العصابات تتحكم في رقاب اهالي شمالي فلسطين وتسومها الذل والهوان ،

ويا سكان القرى في الجليل ! ارموا سلاحكم وارفعوا الالوية البيضاء ومدوا يد المعونة الى جيش الهاغانه الاسرائيلي الظافر . فان جيش الهاغانه الاسرائيلي قد هب لتحريركم من نير العصابات ولاعادة أسباب الأمن فى هذه المناطق ولتأمين الرزق والمعيشة ولارجاع الطمأنينة الى قلوب سكان هذه البقعة .

وسيعترف جيش الهاغانه بكافة حقوقكم وسيحفظ على اموالكم وعقاركم وعرضكم وحرمتكم .

إن جيش الهاغانه الاسرائيلي يحقق ما جاء في قرار جمعية الامم المتحدة وتنفذ ما أجمعت عليه كلمة هذه الامم ، وكل من يعادي جيش الهاغانه الاسرائيلي ويعاضد عصابة الغرباء فانه يعصى قرار الامم المتحدة وسيعاقبه جيش الهاغانه الاسرائيلي عقاباً صارماً .

— ولن يكون مصير البلدة أو القرية التى تعاون العصابات وتماليها على اعمالها الاثمة الا الخراب والتدمير ، ولن يكون مصير سكانها الا كمصير سائر اللاجئين والمنكوبين من عرب فلسطين .

اما البلدة والقرية التي تؤثر السلام وتعمل حسب تواصي الامم المتحدة فانها تتمكن عن العودة الى الحياة الهادئة الآمنة والازدهار والرقي وهـذا بعون دولة اسرائيل ومساعدتها .

يا سكان الجليل ! إن ساعة التحرير قد دقت ! ففكوا قيود العصابات وتحرروا من نيرها وساعدوا جيش الهاغانه الاسرائيلي على توطيد دعائم السلام فى هذه البقعة من فلسطين .

جيش الهاغانه الاسرائيلي

بلاغ عسكري وزعته القيادة العامة لجيش الانقاذ في المنطقة الشمالية لخط النزوح

القيادة العامة لقوى الانقاذ

للجبهة الشمالية

منطقة طولكرم

بـــلاغ عسكرى

تنفيذا لتعليمات قيادة قوات الانقاذ المعممة سابقا

١ — يمنع منعا باتا النزوح عن القرى والاراضى العربية إلا باذن خاص تتطلبه المقتضيات العسكرية . ان المساكن والقرى المخلاة من قبل اهليها مخالفة لهذه الاوامر مهددة بالنسف والتدمير .

٢ — يحظر على جميع الاهلين الخروج من المناطق والاراضي العربية الى المناطق او القرى اليهودية وبالعكس . ويقطع اي اتصال وتعامل مع العدو مهما كان نوعه اعتبارا من تاريخ نشر هذا البلاغ .

وان كل مخالفة لهذه التعليمات توقع مرتكبيها تحت طائلة العقوبات الصارمة حسب الانظمة العسكرية .

٣ — تقوم قيادة المنطقة بتبليغ تعليمات مباشرة الى عموم الاهلين بواسطة مخاتير القرى تختص بتنظيم وسائل الدفاع وتأمين سلامة الاراضى العربية لذلك يتوجب على جميع الاهلين مراعاة تنفيذ هذه التعليمات .

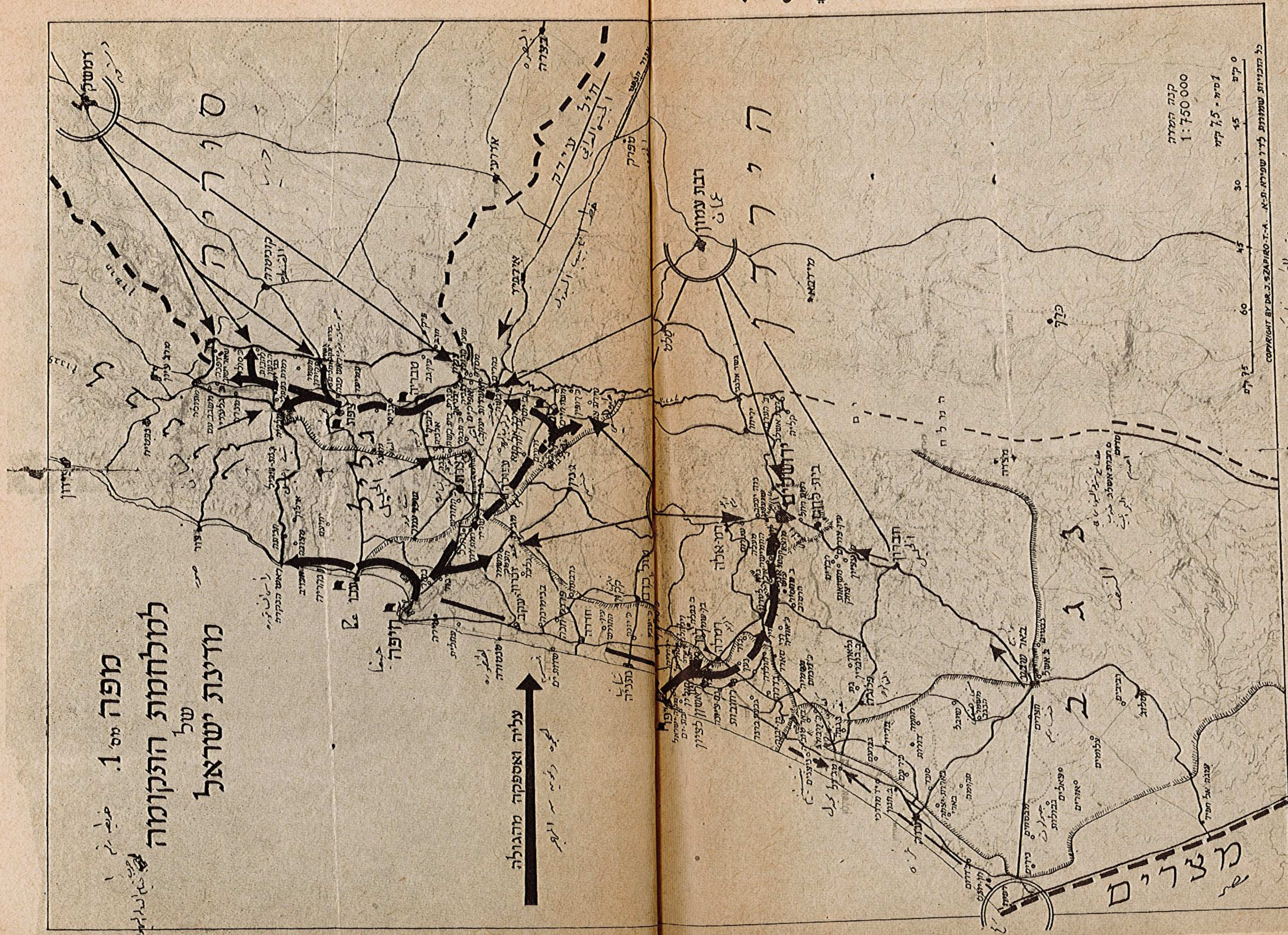
قائد منطقة طولكرم

الرئيس

مدلول عباس

مطبعة النصر التجارية نابلس

خريطة باللغة العبرية وجدتابط صهيوني قتل في معركـة
ترشيحا ـ وهي مخطط شامل لهجيوش العربية في ارض فلسطين،
وقد طلب رياض الصلح من القاوق على طلب رئيس بعثة المراقبين
للتحقيق في خرق الهدنة .



بعض البطاقات الشخصية والهويات العسكرية التي أخذت من القتلى الصهيونيين في المعارك التي خاضها جيش الانقاذ شمال فلسطين ١٩٤٨ .

חוֹבָה
עַל כָּל חֲבֵר הַהִסְתַּדְּרוּת
א. לִהְיוֹת חָבֵר לְ„חֶבְרַת הָעוֹבְדִים"
ב. לְשַׁלֵּם אֶת הַמַּס הָאָחִיד

זְכוּת
לְכָל חֲבֵר הַהִסְתַּדְּרוּת
א. לִבְחוֹר וּלְהִבָּחֵר לְכָל מוֹסְדוֹתֶיהָ שֶׁל הַהִסְתַּדְּרוּת וְלֵהָנוֹת מִשֵּׁרוּתָם לְפִי תַּקָּנוֹתֵיהֶם.
ב. לְהֵעָזֵר כְּחָבֵר, בְּגֶדֶר הַסְּיָגִים הַקְּבוּעִים בַּתַּקָּנוֹת, מִצַּד הַקְּרָנוֹת וְהַקֻּפּוֹת הַמִּשְׁתַּתְּפוֹת בַּמַּס הָאָחִיד - וְהֵן:
קֶרֶן שְׁבִיתָה / קֻפַּת חוֹלִים / קֶרֶן נַכּוּת / קֶרֶן חֹסֶר עֲבוֹדָה / מַצִּיב

אין חברות בהסתדרות בלי תשלום מס-חבר כפי דרגתו המיוחדת. - אין חבר יכול להענות בשום מוסד הסתדרותי (בכלל זה גם קופת חולים וקופת מלוה) אם לא סלק את מסיו לפחות עד 2 החדשים האחרונים ואם אין פנקסו מעיד על כך.
(ההלכות מועצת ההסתדרות העשרים ושבע)

חתימת החבר(ה)

אשור „חברת העובדים"

בזה אנו מקיימים, כי הח׳ ______
הוא/היא חבר/ה ל„חברת העובדים", בע״מ
רשום/ה בספר 220407 ______ 19
יום חודש

הנהלת „חברת העובדים" בע״מ
המוסמך החתימה

The Jewish Agency for Palestine
Palestine Central Office - Rome

IDENTITY CARD

Surname BLOSZTEIN
Name MEER
Fathers Name WOLF
Mothers Name SARA
Place of birth LAPE Poland
Date of birth 21 / 6 / 1927
Nationality by birth JEWISH
Date of issue 6 / 5 / 1946 N°

Signature of Holder

הסוכנות היהודית לארץ-ישראל — הועד הלאומי לכנסת ישראל

מרכז המפקד לשרות העם

ה׳ ....
שם המשפחה שם פרטי
בן ...... תאריך לידה 1926
מקום המגורים ......
רח׳ ...... מס׳ ......

התיצב למפקד לשרות העם

חתימת יו״ר הועדה

זוהי תעודת התיצבותך. ישמור על התעודה.

P. 61/A

THE PALESTINE POLICE FORCE.

CERTIFICATE OF APPOINTMENT.

1287 B/Const. MARTIN F.J. having been duly attested in accordance with the Police Ordinance, is hereby appointed a member of The Palestine Police Force, and is hereby vested with the powers, immunities and privileges of a police officer from 16.3.45.

INSPECTOR-GENERAL.

1287 B/Const. MARTIN F.J. is serving as a PRIVATE in the military force constituted under Section 51 of the Police Ordinance.

INSPECTOR-GENERAL.

Date 27/11/1945.

GPP. 17991—20.000—14.6.45

معركة مشمار

القاوقجي يراقب تقدم الهجوم في مشمار



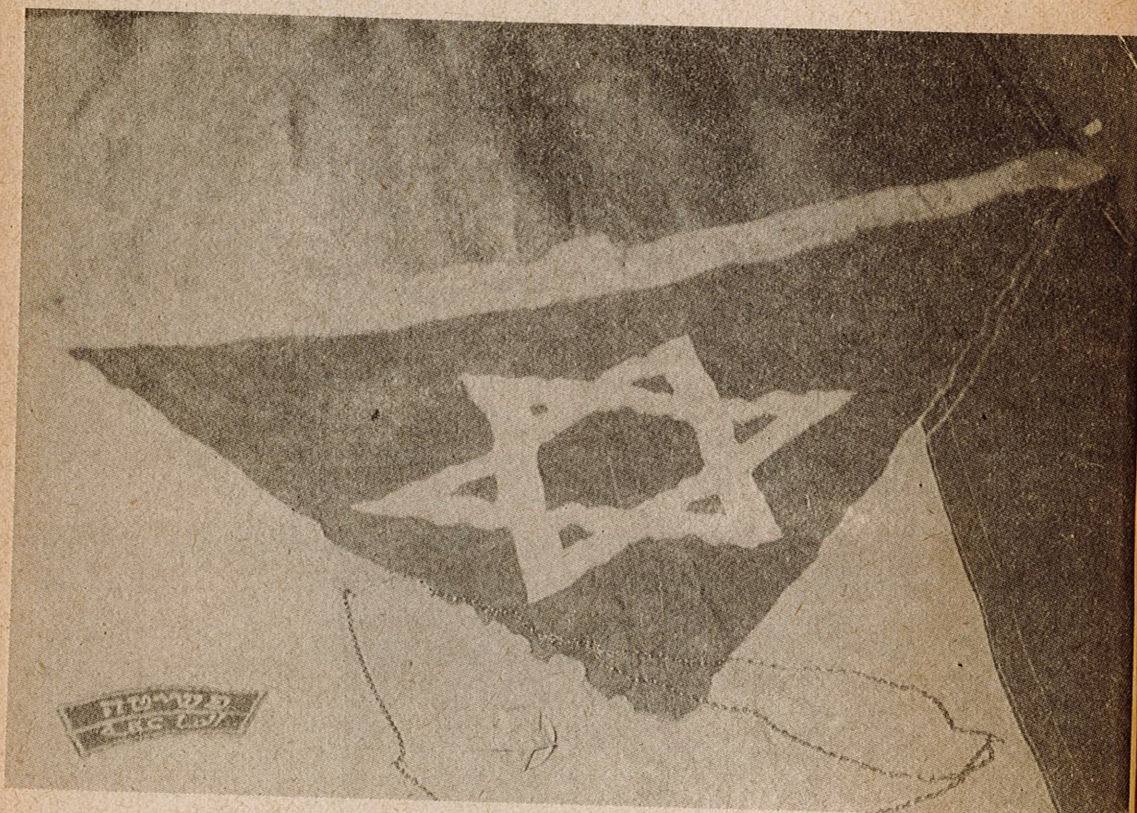
معركة المالكية

القاوقجي يراقب سير المعركة في المالكية ، وترى انفجارات المدفعية في تحصينات العدو .





علم احدى الفرق الصهيونية التي يطلق عليها فرقة (الصاعقة) وقد تمكن جيش الانقاذ من ابادتها عندما هاجمه الصهيونيون واعتدوا على مراكزه ناقضين الهدنة ، وقد دامت المعارك تسعة أيام في الجليل الغربي (حول ترشيحا) في شمال فلسطين وانتهت بخسائر فادحة للصهيونيين وقتل قائد الفرقة المذكورة (تشرين ثاني ١٩٤٨) .



صدر عن دار القدس

ديوان ابراهيم — ٢٠ ل.ل.
أعمال شاعر فلسطين ابراهيم طوقان
مقدمة فدوى طوقان ، دراسة في شعره : الدكتور إحسان عباس

لأول مرة تصدر الاعمال الكاملة لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان ، باستثناء بعض القصائد والأشعار التي لم يحن الوقت لنشرها بعد ، لاسباب معروفة . فقد أتيحت كل اعمال الشاعر وأوراقه الخاصة للناقد والمحقق والاستاذ الكبير احسان عباس ، الذي أمضى عدة أشهر في التنقيب والتدقيق حتى جاء هذا الديوان جامعاً لما يمكن وصفه بانه الاعمال الكاملة . ويضم الديوان حوالي ستين قصيدة تنشر لاول مرة ، ومقدمة عن الشاعر كتبتها شقيقته الشاعرة فدوى طوقان ، ودراسة عن شعره وضعها الدكتور احسان عباس . « ديوان ابراهيم » الذي تنشره دار القدس هو وثيقة خطيرة وحدث فذ في تاريخ الادب العربي الحديث ، بشكل عام ، والادب الفلسطيني والنضال الفلسطيني بشكل خاص .

كتب د. احسان عباس في دراسته :

« وتفيد الدراسة التطورية أن شعر ابراهيم بلغ ثلاث ذرى متعاقبة : ذروة الحب وذروة الشهوة وذروة المشكلة الوطنية . لقد كانت هذه التيارات متجاورة في نفسه ، ولكن الحب كان هو القوة العاتية منذ أن فجرته في صدره فتاة كفركنة [١٩٢٤ - ١٩٣٢] ، وقد كانت الموضوعات الأخرى تقتبس من لهبه إذا شاءت أن تعيش الى جواره ... غير أن هذا الحب تحول إلى قوة مدمرة حين اقترن بالموت فانحاز ابراهيم إلى إيمانه بقوة الدعابة ، وانطلق في شعر المجون ... ثم يحل عام ١٩٣٥ فيتجه شعر ابراهيم في ذروة جديدة ، هي ذروة القضية السياسية ، وفي ديوانه قطع كثيرة نظمت في ذلك العام ، إذا قرئت معاً كونت قصيدة وطنية سياسية تهكمية لاذعة تتحدث عن مشكلة الزعامة والسياسة والأحزاب في فلسطين ... »

ميزان التسلح العربي الاسرائيلي منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ — ٢ ل. ل.
تقرير للمعهد الامريكي للابحاث السياسية
تقديم : احمد سامح الخالدي ، ترجمة : نقولا صيقلي

المعهد الامريكي للابحاث السياسية يوازي معهد الدراسات الاستراتيجية في بريطانيا . ولكن المعهد الامريكي يتميز بنفوذه الكبير في دوائر وزارة الخارجية ، ووكالة المخابرات الامريكية ، ووزارة الدفاع ولجان الكونغرس المختصة ، في امريكا ، وهو بذلك أقدر من غيره على معرفة مدى ونوع وكمية المساعدات الامريكية العسكرية والمالية لاسرائيل . وكما يبين هذا التقرير ، فان المساعدات الامريكية لاسرائيل ، سواء في نوعيتها أو كميتها ، تفوق كل التصورات السابقة . وهذا من اول التقارير الامريكية التي تتعرض لحرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ويكشف جزءاً مهماً من الأسرار التي رافقت تلك الحرب ، ويلقي اضواء جديدة على المساعدات الامريكية لاسرائيل ونوع العلاقة التي تربط ما بين الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل . ويناقش التقرير احتمالات المستقبل ، بما في ذلك احتمال استعمال الأسلحة النووية في صراع عربي اسرائيلي جديد .

وقد تولى مراجعة هذا التقرير ومناقشته والاشارة الى مواطن الخطأ والتحيز فيه الاستاذ احمد سامح الخالدي ، من ألمع المعلقين العسكريين العرب واكثرهم ثقافة والذي تولى تغطية الجبهة السورية في حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وهو يعد حالياً دراسة وافية لحرب الاستنزاف في الجبهة المصرية سنة ١٩٧٠ .

المجموعة ٧٧٨ — ٥ ل.ل.
توفيق فياض

« قد تظنون ، سادتي ، أنني أروي لكم الآن قصة من عالم الخيال او الكتب ، ولكن لأسفي الشديد بل واسفنا جميعاً أن أحداث هذه القصة قد وقعت بالفعل وهؤلاء هم ابطالها :

فوزي نمر احمد ، محمد حسين غريفات، يوسف أبو الخير ، عبد حزبوز ، فتح الله السقا ، رامز توفيق خليفة . »

هكذا افتتح المدعي العام للجيش الاسرائيلي الكولونيل دافيد يسرائيلي مرافعته أمام المحكمة العسكرية في اللد . ويسرد المؤلف قصة هذه المجموعة كما سمعها من أبطالها حين التقى بهم في السجون الاسرائيلية . كتاب نادر يلقي الضوء على المقاومة الفلسطينية داخل الارض المحتلة وعلاقاتها بقيادة التنظيمات في الخارج وحقيقة الظروف التي يعيشها شعبنا في ظل الاحتلال الاسرائيلي .

تاريخ فلسطين — للأسرة والشباب — ١٩١٤ - ١٩٤٨ — ٥ ل.ل.
الدكتور : محمود زايد

عرض مبسط وموجز لتاريخ فلسطين في الفترة ما بين الحرب العالمية الاولى وعام ١٩٤٨ . ويتتبع الكتاب تاريخ العدوان الصهيوني وتحالفه مع الدول الاستعمارية الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وامريكا للقضاء على عروبة فلسطين ، وإقامة موطىء قدم للاستعمار في وسط البلاد العربية لتكون مصدر تهديد دائم لهم ومعوقاً لوحدتهم وسبيلا لاستنزاف ثرواتهم وطاقاتهم ، ويبين الكتاب المقاومة البطولية الضارية التي واجه بها شعب فلسطين الغزو الصهيوني والقوى الاستعمارية . دليل ضروري لكل بيت عربي .

رجل في القاهرة — ٤,٥ ل.ل.

ابن خلدون

رشدي صالح

صفحات مثيرة وممتعة في سيرة العبقري العربي ابن خلدون الذي ارسى أسس كتابة التاريخ على قواعد علمية سليمة ، وقصة الفترة التي قضاها في المشرق والقاهرة ، يوم ولي فيها قضاء المالكية ، ولقاءه المثير مع تيمورلنك ، وحيلته للنجاة بجلده من سيف السفاح التتري ، وكافة الاحداث التي مرت بمؤرخنا العظيم حتى وفاته في القاهرة .

أسد البحار : ابن ماجد — ٦ ل.ل.

رشدي صالح

« الفاتحة لابن ماجد » ... هي الدعاء الذي يرتفع حتى اليوم في عدن وموانئ الجنوب العربي ، مع انه مضت مئات السنين على موت ابن ماجد أسد البحار . وفي اسلوب روائي ممتع يصور الكاتب عالم الاساطير والمغامرات التي عاشها سادة البحار في العصور الماضية ، ويروي اللقاء التاريخي بين ابن ماجد والرحالة البرتغالي فاسكودي جاما ويعرض سيرة البحار العربي العظيم الذي وضع اساس علم البحار منذ مئات السنين .

المعتمد بن عباد — ٧,٥ ل.ل.

علي أدهم

كان سقوط طليطلة في أيدي الاسبان حدثاً جللا هز العالم الاسلامي هزاً عنيفاً ، وكاد ان يقضي على الآمال كلها ، وفي قلب هذه الاحداث لبس التاج المعتمد بن عباد واصبح قطب الرحى في ذلك العصر . ويروي الكاتب سيرة هذه الشخصية العربية الفذة التي وجدت نفسها تلاطم التحديات القاسية التي كانت تواجه العرب في اسبانيا ، ويعطي صورة حية نابضة لاحداث تلك الفترة الحرجة في تاريخ الاندلس .

عبد الرحمن الناصر — ٥ ل.ل.

علي أدهم

المؤرخ الاندلسي الكبير ابن حيان يقول : « ان ملك الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنه الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الامم إلا وفدت عليه راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فانه هادنه ورغب في موادعته . » ويقدم الكاتب الكبير علي أدهم سيرة أحد أعظم خلفاء العرب في الأندلس باسلوبه المشوق والعلمي المعروف .

الخالدون العرب — ٦ ل.ل.

قدري حافظ طوقان

يعتقد كثيرون ان العقل العربي لم يستطع في جميع الادوار التي مرت به ان يقدم للمدنية خدمات علمية جليلة كالتي قدمها العقل الغربي ، وهذا خطأ ، مصدره الجهل واهمال التراث العربي وتحامل الغرب على التراث وانتقاصه لكل ما هو عربي اسلامي . وفي هذا الكتاب يصحح العالم العربي الكبير قدري طوقان مثل هذه المفاهيم الخاطئة ويعرض سير واعمال مجموعة من اعلام الحضارة العربية الذين ساهموا في اغناء صنع الحضارة الانسانية ، في اسلوب ممتع يجمع البساطة والشمول والعمق .

مع ان قضية فلسطين قد وقعت ، منذ البداية ، على كاهل الشعب الفلسطيني ، الا ان الامة العربية بأجمعها كانت على استعداد للمشاركة بنصيبها في المعركة تأكيدا للتلاحم العضوي في المصير المشترك . وكان القاوقجي احد ابناء هذه الامة ، قاتل في كل ارض عربية طغى عليها الاستعمار . وقد قاد عام ١٩٣٦ حملة من المتطوعين عبرت بادية الشام لنجدة ثورة فلسطين الكبرى ، وألجأ القوات البريطانية لطلب الهدنة ، وكانت برأيه بداية كارثة ١٩٤٨ . واضطرته ظروف الحرب العالمية الثانية الى اللجوء الى المانيا . ثم عاد الى الشرق العربي حين كانت القضية الفلسطينية قد بلغت مرحلة خطيرة ، حيث عهدت له جامعة الدول العربية ١٩٤٧ قيادة قوات الانقاذ فشاركت في معارك ١٩٤٨ رغم الصعوبات والمشاكل . وبعد نهاية المرحلة الاخيرة والمؤلمة من الحرب قرر الانسحاب من على المسرح والعيش في شبه عزلة .

والمذكرات التي دونها ، ليست سوى مجموعة وقائع وخواطر اقتطعها من اختبارات طويلة وتجارب نضالية عميقة ، تستند على وثائق رسمية ، كانت كل ما غنمه من الميدان الحربي ، وقدمها بتواضع الى مركز الابحاث لتكون في متناول الجهات العلمية . وفيها يظهر ايمانه بالشعب العربي وبطولاته ، ويكشف بأمانة اليد الخفية التي تسير السياسة والاخطاء التي يمكن ان يستوحى منها العبر والدروس . ومع انه يصعب عرض الصورة الحقيقية لرجل تضاربت حوله الروايات والآراء ، الا ان كل ما يمكن قوله ان القاوقجي كان يتحلى بالشجاعة والثقة ، وفوق كل شيء عنصر المغامرة التي لم تكن نتاج انتهازية ، بل نتاج ايمانه بجدوى فعالية العمل . وحين نتقدم لنشر المذكرات انما نقدمها ضمن الجهود المبذولة في التحري عن الحقيقة من منابعها الموثوقة بصبغة مجردة عن كل تحريف ، دون تبن كامل ، بالضرورة ، للمضمون ، على امل ان تلقي بعض الضوء على خفايا القضية الفلسطينية .

١٢ ل.ل.	١٥٠٠ فلس
١٥ ل.س.	١٦٠٠ درهم ليبي

منظمة التحرير الفلسطينية

دار القدس

فلسطين في مذكرات القاوقجي ١٩٣٦ ١٩٤٨



اعداد:
الدكتورة خيرية قاسمية

٢